أحمد صلى الله عليه وسلم

رؤية سياسية معاصرة من مكة المكرمة

الدكتور أمين ساعاتي

الناشر:
المركز السعودى
للدراسات الإستراتيجية
The Saudi Center for
Strategic Studies
ص ب ١٧
هليوبوليس كود ١١٣٤١
م. الجديدة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٦٦٨٨٤٤
فاكس: ٢٩٠٣٦٤٦

الطبعة الأولى

أمين ساعاتي.
أحمد (ﷺ) رؤية سياسية معاصرة.
أمين ساعاتي .- القاهرة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٤.
٢٤٤ ص : إيض؛ ٢٤ سم.
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية وحواش.
تدمك: ٢ - ٠٥٦٤ - ١٠ - ٩٧٧.
١- أحمد ﷺ رؤية سياسية معاصرة أ- العنوان.

١ شوال ١٤١٤ هـ - ١٣ مارس ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشرا **برسول يأتى من بعدى اسمه** أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ (الصف ٦)

﴿ **محمد رسول الله** والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ (الفتح ٢٩)

قرآن كريم

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال رضيت بالله تعالى ربًا وبالإسلام دينا **وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً** وجبت له الجنة» أخرجه أبو داود.

حديث شريف

الإهداء

إلى كل الأنام فى جميع أصقاع الدنيا..

أهدى كتابى عن سيد الأنام والخَلْقِ..

خُطْبَـــةُ الكتـــاب

بقلم

معالى الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع

مستشار الديوان الملكى السعودى حاليا

ووزير الحج والأوقاف السعودى سابقا



اطلعت على الأسس والعناصر التى قام عليها مُؤلَّف الزميل الأخ الدكتور أمين ساعاتى والذى جعل عنوانه (أحمد صلى الله عليه وسلم) الصادق الأمين (رؤية سياسية معاصرة).

وهذا المُؤلَّف حدد هدفه الدكتور أمين فى مناقشة الخطاب الغربى وأثره فى الفكر السياسى المعاصر.

وأن أمة الإسلام قاطبة - وخاصة علماءها ومفكريها- مخاطبون لأن يشرحوا عالمية الإسلام ويوضحوا مناهجه وخططه بأسلوب يلتقى مع جميع الأفكار والمحاور؛ حتى تتعرف على أعماق الإسلام بدون خلط في المفاهيم التى تلبسوها إما نتيجة لعدم التعمق أو بسبب تأثير العديد من المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام من وجهة نظر غير محايدة. وهناك الكثير من الغربيين الذين لايزالون تتأجج فى نفوسهم الروح الصليبية فتعميهم عن رؤية الحق ونوره.

ولهذا عندما يقتحم هذا المجال كاتب مسلم ومفكر مؤمن فإنه ينطلق من خلفيته الدينية ومن رغبته الصادقة فى أن ينير دروب السالكين نحو مكونات هذا الدين العظيم الذى حمله سيدنا محمد رسول هذه الأمة الصادق الوعد الأمين، الذى جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين. ومادام هذا الرسول هو الرسول الخاتم فإن ما نزل عليه من القرآن العظيم وما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من أحاديث وأفعال إنما جاءت لعموم الناس ولكافتهم فهو ليس نبيا للعرب بل لكل الأمم.

ومن هذا المنطلق فإن واجب علماء المسلمين ومفكريهم أن يغوصوا فى أعماق هذا الدين الحنيف ليشرحوا للعالم هذه الكنوز لأن مابها يخدم الناس عموما فى دنياهم وفى أخراهم. لأن قواعده ونظرياته وأسلوبه ومقاصده إنما جاءت لتخدم البشرية جمعاء، وليس أدرى من خالق الكون والبشر فى معرفة مكنونات النفوس ومعرفة ما هو الأصلح لها، والذى يهديها إلى طريق الحق المستقيم ويرشدها إلى الصواب السليم.

وقد جاءت الأدلة الواضحة لذوى العقول السديدة والنظر الثاقب وبما لا يقبل الشك لتوضح أن هذا الدين، دين الإسلام، صالح لكل زمان ومكان، فهو يتمشى مع المتغيرات البشرية ويفرض الاجتهاد حتى لا يكون هناك جمود وتحجر، وقواعده تتمشى والفطرة البشرية والعقل الإنسانى.

ومن هنا يتضح لنا أن الرؤية السياسية المعاصرة هى جزء من مسئولية العالم المسلم والمفكر المؤمن فى الإدلاء بما يوضح دور الإسلام ونبى الإسلام ورسول السلام. وأنه لمن معاد القول أن يستخدم العلماء والمفكرون أساليب عصرية تتفق مع المنطق وتوضح ما خفى من مقاصد.

ولست من القائلين أن نخضع أى مقصد أو تحليل لرغبة أى بشر، ولكن بما يوضح الدرب ويحقق الغاية. وقد كان هذا الأسلوب النبوى فى المخاطبة والخطاب حتى استطاع به عليه الصلاة والسلام إدخال الناس فى دين الله أفواجا سواء أكانوا من الجاهليين أم من المنتمين للقوى العظمى آنذاك دولة فارس والروم.

وقد رأى الأخ المؤلف لكى يحقق هذه الغاية أن يرتكز فى وسيلته على دراسة المحيط الذى ولد فيه الرسول الأكرم، وقد ولد (ﷺ) فى قبيلة من كرام قبائل العرب لها مكانتها المرموقة ولها نظامها العشائرى، وقد حوله صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع حضارى راشد، استطاع بما أوحى به الله فى كتابه العزيز وبما وجه الله من قدرات عظيمة جعلته محل اختياره لهذه الرسالة

الخاتمة أن يحول هذا المجتمع العشائرى القبلى إلى مجتمع يتفانى من أجل أن ينشر دين الله وتعليمات رسوله الأكرم إلى المجتمع العالمى. فقد قام هذا الدين على الحجة وحسن القدوة، وتلاحمت العروبة والإسلام فأصبح الإسلام هو الأساس، ولو أن العرب هم لحمة الإسلام.

وهذا أمر طبيعى لأن النبى عربى والقرآن نزل بلغة العرب وهم المكلفون فى الدرجة الأولى إلى نقله للعالم.

وهنا يأتى دور القدوة فى أسلوب الحياة ودور القدوة فى الحوار والإقناع، ثم دور الواجب فى نشر هذه الرسالة لتكون عالمية كما أرادها الله. ورغم ما يقوله بعض المغرضين فقد كان المبدأ الإلهى واضحا (لا إكراه فى الدين).

وهنا يأتى دور الخطاب وأهميته فى نشر هذه المبادئ وترسيخها. ولا يمكن أن ننسى أنه رغم صلابة هذه الدعوة ومنطقيتها؛ فكان لابد للبيان من دور وأثر فى الإقناع والتأثير، فكانت حكومته التى أقامها بعد هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة هى أول حكومة إسلامية، وأخذ عليه الصلاة والسلام بمبدأ التدرج فى العمل حتى يستوعبه الصحابة والمسلمون، وبالتالى ينشرونه بقناعة وبروح الجماعة. وقد سار عليه الصلاة والسلام فى كل اتجاه حيث جعل مسجده الشريف ليس لأداء الصلاة وشعائر الدين، بل من هناك تقام الدولة وترسم السياسة وتوضع خطط الحرب والدفاع وتقاد الجيوش. ولست في مجال سرد الأساليب والطرق التى

اتبعها (ﷺ). وكان من نتيجة حسن القيادة وعمق التخطيط وقوة الإيمان أن خرجت الدعوة من المدينة المنورة إلى الجزيرة وما حولها ثم إلى فارس والروم وأثمرت جذوة الدعوة بعد وفاته (ﷺ) حيث نهض بها الخلفاء الأربعة، ثم من خلفهم من بنى أمية وبنى العباس. وانتشرت رسالة العدل والصدق، وعم ضياء العلم ونور المعرفة حتى وصلت الدعوة للمغرب ثم للأندلس فى أسبانيا بل فى أوروبا، ولولا قدرة القيادة وحسن الريادة والقدوة وقوة حاملى المسئولية لما تحقق ذلك. وكان ذلك فعلا نتاجا جديدا بشر بنظام عالمى ودولى جديد، واستطاعت هذه الرسالة أن تجعل دولة الإسلام دولة حضارية استوعبت كل العلوم التى سبقتها، وأسهمت فى تطويرها ورفعتها، ومازالت تسهم فى هذا المعمار لا السياسى فحسب بل فى كافة أطر الحياة.

وعندما سلك المسلمون طريق الحرب إنما كان هو الطريق للسلام. ووضعوا أسسا للعلاقات الإنسانية لاتزال هى القدوة والأساس فى محور كل ما صدر ويصدر من تشريعات محلية ودولية فى ضوء هذه الطروحات التى أفعمت بها هذه الدراسة بعمق وحيطة، فإننى أعتقد مخلصا أن الأخ الدكتور أمين ساعاتى خاض بمؤلفه هذا طريقا وعرا وشائكا، ولكنه استطاع أن يقتحم به أمورا جوهرية ومهمة فى مجتمعنا الحاضر لكى ينير لراغبى الحقيقة وطالبى الحق طريقهم نحو ما حققته رسالة الإسلام والمعلم الأول.

ولعل الأدلة فى تاريخ الإسلام الحضارى قائمة، ولذلك حينما واجه الإسلام صدام الحضارات، وهو صدام ظل يطل على تاريخنا الإسلامى فى كل حقبة من حقبه مازال يطالعنا به الغرب إلى هذه الأيام، فإنه يتعين أن نواجهه بروح الحوار والعلم والإيمان والقدوة والمثل الحسن.

إننى ألتقى تماما مع الأخ الدكتور أمين فى أنه فى السيرة المحمدية والقدوة النبوية ما يجب أن ينفض علماء ومفكرو المسلمين الغبار عنه وإعادة صياغته لتقديمه للحضارة الحديثة بأسلوب عصرى يؤكد أن رسالة الإسلام تسهم وتساهم بكفاءة واقتدار فى أى نظام دولى يكون عادلا وشاملا بل ودائما مادام هذا الكون وهذه الحياة تسير وتتواكب، وإن الإسلام لو سلكه البشر من الأمم التى تسمى فى هذه الأيام بـ الدول المتقدمة أو غيرها لعالجوا به الكثير من أمراض هذا العصر. كما أن على المسلمين جميعا أن يدركوا أنهم مسئولون أمام الله أولا ثم أمام مسئوليتهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس.

وإنى إذ أزجى الشكر للأخ الدكتور أمين على إسهاماته المتعددة بمؤلفاته الكثيرة فى مختلف ألوان المعرفة لأرجو له استمرار النماء والعطاء ، هذا والله الموفق.

المقدمات

لايستطيع أى سياسى محايد أن ينكر أن هناك على الساحة السياسية الراهنة وميضا إسلاميا حقيقيا ينبئ بوجود فرصة تاريخية أمام العالم الإسلامى كى يؤكد وجوده على طريق العودة إلى ساحة القوى المؤثرة فى النظام الدولى.

وإذا أردنا أن نضع هذا الوميض على محك البحث عن الحقيقة، لراعنا أن الغرب يحشد كل قواه لإطفاء جذوة هذه الصحوة تماما، كما انبرى - عبر التاريخ القديم والحديث - للصحوات الإسلامية السابقة حتى أطفأها وأجهز على رموزها وأرجأ - إلى حين - قيام الإسلام بريادة النظام الدولى.

وما الهوجة التى يتبناها المفكر السياسى الأمريكى صامويل هنتنغتون تحت مصطلح صدام الحضارات The Clash of Civilizations إلا واحدة من أهم المعارك التى يغير بها الغرب فى هذه الأيام على الصحوة الإسلامية المتصاعدة.

الحضارة الإسلامية تجسّدت فى الدولة الإسلامية المحمدية والإسلام هو البديل الحضارى الأنسب للنظام الدولى

والغرب ذاته لا ينكر أن نظامه يتداعى، وأنه رغم اهتمامه الكبير بممارسة ما يوحى بأنه ممسك بزمام القوة التى تحرك النظام الدولى.. إلا أن هذه المكابرة لم تستطع أن تخفى التصدع الذى بدأ يضرب جسور الحضارة الغربية بدءاً بانهيار الاتحاد السوفييتى.. حتى بروز علائم تداعى القوة الأمريكية، وقرب تحللها. وتشير - فى هذا الصدد - أحدث الكتب التى صدرت فى

الولايات المتحدة فى عام ١٩٩٣ للدكتورين هارى فيجى وجيرالد سوانسون بأن معدلات العجز فى الولايات المتحدة ستصل إلى نحو ٦٤٠ مليار دولار فى عام ١٩٩٣، وستضطر الحكومة الأمريكية إلى اقتطاع ٨٤٪ من الواردات لسداد الديون، وستزيد هذه النسبة لتصل إلى ٩٢٪ عام ١٩٩٤ و ١٠٣٪ عام ١٩٩٥، وهو العام الذى قد تشهد فيه أمريكا بعض ملامح ما حدث فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٨٩.

ورغم أن مراكز البحوث الغربية تعترف بوجود هذه التصدعات العميقة فى جسد الحضارة الغربية، إلا أننا نستغرب بشدة قيام بعض مراكز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى العالم العربى بذر الرماد فى العيون والترويج للمشاريع الغربية التى تستهدف حماية الحضارة الغربية من التصدع على حساب المد العربى الإسلامى المتعاظم.

ولكن السؤال الهام الذى يسعى هذا الكتاب للإجابة عليه هو: هل يستطيع الإسلام -كنظام حضارى شامل - أن يقدم للعالم المعاصر بديلا حضاريا يحل المشكلات التى عجزت الحضارة الغربية عن تصميم الحلول المناسبة لها؟!

إن هذا الكتاب يسعى للإجابة على هذا السؤال ويضع نماذج من النظام الإسلامى السياسى- من خلال السيرة المحمدية العطرة - موضوعا للبحث والدراسة والتحليل.

وذلك انطلاقا من أن هذا النظام هو الذى استطاع - قبل أربعة عشر قرنا - أن يظهر فى ظروف سياسية واقتصادية وثقافية مماثلة، وأن يضع الحلول المناسبة لما كان يعانيه الجنس البشرى من تخلف وإحباط، وأن يقيم نظاما دوليا جديدا يوازن بين الإيمانية الرحيمة والحتمية المادية، ويحقق - بالتالى - للمجتمعات قاطبة حياة رخية تتوازن فيها الكثير من متطلبات الحياة الروحية والمادية، ويستظل بظل أمن وسلم عادلين.

وما أود أن ألفت النظر إليه هو أن كتاب «أحمد رسول الله (ﷺ)» ليس كتابا من كتب السيرة، وإنما هو تنظير علمى عصرى واسع لأعمال سيد الكون الذى واجه أحداثا على نحو مشابه لما نواجهه اليوم، فقد شخص لها الحلول الإيمانية والموضوعية التى تناسبت مع أشطاط تلك الأحداث حتى أدخلها فى الدائرة الإسلامية الكبرى.. دائرة العدل والأمن والسلم الدوليين.

بمعنى أن هذا الكتاب ليس كتابا فى السيرة كما ظهرت فى كتب التراث عند موسى ابن عقبة ومعمر بن راشد ومحمد بن إسحاق ثم الطبرى وابن الأثير، وبعد ذلك عند البكائى والواقدى وابن هشام الذى اشتهرت سيرته (سيرة ابن هشام) فى آفاق العالم والمعرفة على كر العصور، وإنما هو كتاب بلغة معاصرة من خلال رؤية سياسية حاضرة ترى أن سيرة الرسول (ﷺ) ليست «سيرة» فحسب، وإنما هى أيضا «مسيرة» كاملة وصالحة لكل زمان ومكان.

الانفراط الراهن فى النظام الدولى يتيح فرصة مناسبة للنموذج الإسلامى المحمدى

وما نلفت النظر إليه هو أن التاريخ لا يجرى وفقا للرغبات والأمانى، كما أن الله سبحانه وتعالى حين يُفعِّل التاريخ لا يُفعِّلُه خارج دائرة الأسباب والقوانين التى يخضع لها عالم الإنسان والطبيعة، وإنما يسيِّر الأمور وفقا لمبدأ الأخذ بالأسباب، وصرف المزيد من الجهد والعمل والأمل. ومن الثابت أن الإسلام يتمتع بإمكانات زاخرة الامتداد، فهو - باختصار - النظام الوحيد فى العالم الذى استمر لأكثر من ألف وأربعمائة سنة دون أن يشيخ أو يهرم، بل أضاف إليه تقادم الزمن صفة الأنسب فى التصدى لمشكلات الإنسان على كوكب الأرض.

إزاء هذا نستطيع أن نقول أن العالم الإسلامى يشهد فى هذه الأيام حراكا سياسيا واسع الأنحاء يحمل وعودا جديدة لمرحلة إسلامية قادمة ليست هى تلك التى يعبر عنها المتشددون الإسلاميون، ولكن تلك الصحوة الإسلامية الواعية التى تريد أن تعيد الإسلام السياسى إلى واجهة الأحداث، ولاسيما بعد أن فشلت السياسات الغربية على مدى أكثر من ثلاثة قرون فى وصف العلاج المناسب لمشاكل الإنسان فى عالمه.

ويجب أن نسلم بأن العلاقة - فى الماضى والراهن- بين العرب المسلمين والغرب المسيحى/ اليهودى.. هى علاقة صراع دينى ممتد، يسعى طرفاه إلى نشر معتقد كل منهما فى أوسع مساحة ممكنة من المعمورة.

إن محاولات الغرب المستمرة منذ بدء الحملات الصليبية فى عام ١٠٩٩ للسيطرة على المنطقة العربية.. ليست إلا سعيا نحو القضاء على دينها الإسلامى وفرض العقيدة المسيحية عليها.

وإذا سلمنا بهذا، فإن طرح النموذج الإسلامى المحمدى بكل طاقاته الإيمانية والمادية كنموذج إسلامى حضارى.. يصبح مهماً جدا كى يستطيع العرب المسلمون أن يغتنموا الفرصة التاريخية المتاحة للإسلام فى الزمن الذى نعيشه. وذلك تحقيقا لوعد الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[1]. وتجاوبا مع قول الرسول (ﷺ): «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يبقى بيت من مدر أو حجر إلا ويدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز به الإسلام وذلاً يذل به الكفر»[2].

دور العالم الإسلامى.. لا يتأتى خارج دائرة السياسى

وإذا كان لكل مجال من مجالات العمل الإسلامى المشترك دور فى الأداء الإسلامى فى هذه المرحلة فإن دور العالم الإسلامى لن يتأتى خارج دائرة «السياسى»، بل إن المشكل الرئيسى يقع داخل هذه الدائرة. ولذلك نخطئ كثيرا إن نحن توهمنا أن المجتمع يمكن أن يصلح خارج نطاق الدولة أو أن من الميسور إرساء قواعد تشكيل حضارى جديد لا تكون الدولة هى محوره الأساسى ومركزه الحيوى ومحركه الفاعل. وكذلك نحن نخطئ إن اعتقدنا أن الدولة التى تقوم على أمة أو جماعة يمثل الإسلام عندها مرجعية أولى، يمكن أن تؤدى وظيفتها فى حدود «الطبيعة» وحدها، أى فى حدود اجتهادات البشر الدنيوية الخالصة. إنها إن فعلت ذلك ستولد القطيعة بينها وبين رعيتها من ناحية وبينها وبين الله خالقها ومسيرها من ناحية ثانية. ولعل مبدأ الأخذ بدين ميسور فى دولة حديثة والتزام الدولة بحفظ الشريعة ورعاية قواعد الحلال والحرام وإحلال الدين فى مكانة الأساس والشاهد والمبشر والنذير تكون مبادئ صالحة لتوجيه العلاقة بين الدين والدولة توجيها أعدل وأجدى مما جرت عليه الأمور حتى الآن.

ويخشى الإسلاميون المخلصون – إن لم تنهض القيادات فى العالم الإسلامى– فإن هذه الفرصة ستضيع كما ضاعت فرص سبق أن سنحت للعالم الإسلامى فى العديد من فترات التحولات التاريخية السابقة.

١– سورة الصف.

٢– صحيح مسلم.

لماذا، أحمد صلى الله عليه وسلم؟

وإذا كان هذا الكتاب هو طرح سياسى فى «غابة» نظام غربى يفرد نفوذه بالكامل على النظام الدولى، فإنه من الملائم أن نخاطب الغرب باللغة التى يفهمها. ولقد علمتنى تجربة عشر سنوات قضيتها دارسا فى الولايات المتحدة الأمريكية الكثير من مفردات ومصطلحات هذه اللغة.

ولا أجدنى فى حاجة إلى التأكيد على ذلك، ولكن سوف يلمس القارئ بنفسه الكثير من المواضيع التى نجادل فيها منظرى الحضارة الغربية بنفس خطابهم بدءا من عنوان هذا الكتاب «أحمد» وهو الاسم الذى ظهرت أولى بشائره فى التوراة ثم الإنجيل.

يقول الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه: وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين[(١)] .

كما يقول العلى القدير: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار[(٢)] .

ثم يقول سبحانه وتعالى: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم[(٣)] .

وفى إنجيل يوحنا يقول المسيح عليه السلام: إن كنتم تحبوننى فاحفظوا أوامرى وسأدعو لكم عند الله دعاء خير وهو سيرسل إليكم «باركالت» لأننى لن أدعكم يتامى. وقال أيضا أنه سيأتى بعدى شخص يقويكم ويحميكم.

ويرى فقهاء الإسلام أن النصارى حرفوا مقولة المسيح، لأنه قال أنه سيأتى بعدى «بريكلى توس». ومعناها باليونانية «أحمد» وهو بمعنى «الممدوح» و «محمد» معناها الأكثر مدحا. ويروى أن اليهود ذكروا هذه الكلمة «بريكلى توس» ويعلمون أن «أحمد» سيخلف السيد المسيح.

ويقول فى هذا الصدد المستشرق الإيطالى المسيحى كارلو نلينو إن كلمة «بريكلِى توس» معناها فى اليونانية «الذى له حمد كثير» وهى على وزن أفعل التفضيل من حَمْد، أى «أحمد».

١- سورة الصف (٦).   ٢- سورة الفتح (٢٩).   ٣- سورة البقرة (١٤٦).

ولامـراء أن ذكـر أحمد (ﷺ) على لسان المسيح كنبى يأتى بعده، كافٍ لإقناع المنظرين الغربيين بمصداقية الرسول والرسالة الإسلامية المحمدية الغراء.

وإذا سلمنا بذلك، فإن الطرح الذى يطرحه هذا الكتاب والذى يشير إلى أن النظام الإسلامى المحمدى.. جدير بأن يعود إلى الظهور ليكون على رأس الخيارات المطروحة لعلاج الأوضار التى تلتف حول خاصرة إنسان القرن الواحد والعشرين، يعتبر طرحاً يستحق البحث والدراسة.

لقد ناقشنا فى هذا الكتاب الكثير من المصطلحات، ولكن فى إطار مصطلح «الصحوة الإسلامية» فإنه يتعين على كل القيادات الإسلامية أن تحرص على طرح النموذج المحمدى الإسلامى فى النسق الحضارى المعاصر، وتحرص على استغلال كل المعطيات التى تتيحها الفرصة التاريخية الحالية كى يعود الإسلام مرة أخرى ويتعامل مع النظام الدولى القائم بكفاءة واقتدار.

المحتـــــــوى

ولقد تم تفريغ موضوعات الكتاب فى ثلاثة أبواب يتخلل كل باب مجموعة من الفصول، ويتناول الباب الأول دراسة المحيط الذى ولد ونشأ فيه الرسول (ﷺ) كما يتناول القبيلة العربية ونظامها العشائرى، وتأثير هذا المحيط على الخطاب النبوى الشريف الذى استطاع فيما بعد أن يحول النظام العشائرى إلى نظام سياسى رائد يقوم على مبادئ وأسس صالحة لكل زمان ومكان. وفى مواجهة هذه المصطلحات التى أخذت تطرح نفسها فى الدراسة ناقشنا مسألة القاسم المشترك بين العروبة والإسلام وتأثيرها على قضية العلمانية ومسألة فصل الدين عن الدولة.

ولقد أشرت فى هذا الفصل إلى بعض الأنشطة السياسية التى ساهم فيها الرسول (ﷺ) قبل البعثة والتى كانت بمثابة المدرسة الأولى التى مارس (ﷺ) من خلالها العمل السياسى لأول مرة.

وبعد أن انتهينا من دراسة المحيط الدينى والسياسى الذى نشأ فيه الرسول (ﷺ) اهتم الكتاب بدراسة النظام الدولى الذى كان سائدا قبل بزوغ فجر الإسلام، وهى الدراسة التى أفرزت ما يسمى فى الفقه السياسى المعاصر بـ الدول العظمى Super Power التى كانت

تهيمن على النظام الدولى فى ذلك التاريخ، ونتيجة لذلك أعطى الكتاب اهتماما كبيرا بالأنظمة السياسية التى كانت سائدة فى بلاد العرب قبل أن يدعوها الرسول (ﷺ) إلى اعتناق الإسلام. ثم ناقشنا مدى تأثير هذه الأنظمة علىٰ الدعوة المحمدية سلبا وإيجابا. وفى الباب الثانى تناولنا بالدراسة فى فصلين كاملين ما أسميناه بـ المعمار الدينى للدولة الإسلامية، والمعمار السياسى للدولة الإسلامية.

وفى هذا الفصل وضعنا تعريفا لمفهوم الإسلام السياسى، ثم تطرقنا إلى القرآن الكريم ككتاب ربانى نزل للهداية، واعترضنا على مقارنة القرآن بالدساتير الوضعية، ثم أكدنا بأن الإسلام ليس فيه ميتافيزيقيا واهمة، وإنما هو دين نزل من السماء على محمد بن عبد الله (ﷺ) وللبشر كافة.

وفى الفصل الثانى من الباب الثانى درسنا مسألة المعمار السياسى للدولة الإسلامية، وأكدنا فى هذا الفصل أن الرسول (ﷺ) بشّر بنظام دولى جديد، وأدخل على الأنظمة السياسية التى كانت تسود فى ذلك الوقت الكثير من المبادئ التى مهدت الطريق أمام نجاح المبادآت التى قامت عليها الدولة الإسلامية الفتية لتسود فى معظم بلاد العالم، وتتحول من دعوة قام بها رسول الإسلام، إلى دولة عظمى تقود النظام الدولى..

وسوف يتناول هذا الفصل بالبحث التشكيل الفدائى الذى نظمه الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار، والذى يمكن أن نسميه بـ «منظمة التحرير الإسلامية»، كما يناقش الكتاب النظام الأساسى للحكم الذى سنه الرسول فى المدينة، مما يؤكد أن المدينة كانت عاصمة الدولة الإسلامية الأولى وأن مكة هى عاصمة الإسلام.

كما يناقش الكتاب فى هذا الفصل مسألة المقاطعة الاقتصادية التى فرضها كفار قريش على المسلمين والتى كانت بمثابة الشرارة الأولى لاندلاع العديد من الحروب بين المسلمين والمشركين والتى بسببها اعتبر المسلمون معركة بدر هى إستراتيجية سلام وليست إستراتيجية حرب.

كما أن هذا الفصل تناول بالمناقشة فصولاً من الصراع العربى الإسلامى مع يهود المدينة وخيبر، وهو ما يفيد كثيرا في علاقاتنا المستقبلية مع يهود إسرائيل فى هذه المرحلة الدقيقة من مفاوضات السلام.

ويبحث الكتاب فى الفصل الأخير من هذا الباب النظرية التى وضعها الرسول ﷺ عن «حوار الحضارات» والتى مازالت تعد ردا علميا وموضوعيا قويا لمصطلح «صدام الحضارات» الذى يروج له– فى هذه الأيام– ثلة من المفكرين الغربيين واليهود.

وفى الباب الثالث من هذا الكتاب سوف تناقش الكثير من أدبيات الفكر الغربى المعاصر الذى يجسد الأسباب الحقيقية التى تحمل الغرب فى هذه الأيام، على الاهتمام بنشر قضية ما يسمى بـ «صدام الحضارات» وتسريع مفاوضات السلام العربى الإسرائيلى والترويج للنظام الشرق أوسطى لتوفير التغطية اللازمة لضمان انسياب موارد البترول والمال على الحضارة الغربية التى سوف تلقى مصيرها بدون تدفق هذه الموارد، بمعنى أن العمل على ضمان استمرار هذه الموارد سوف يطيل من عمر هذه الحضارة المتداعية.

كما تناولنا فى الباب الثالث أهمية العودة إلى المبادئ الغراء التى وضعها الرسول (ﷺ) لإنشاء دولة الإسلام الأولى، ففى السيرة والمسيرة المحمدية.. الكثير مما يجب الأخذ به فى هذا العصر لكى تستعيد الأمة العربية الإسلامية عافيتها وتساهم بكفاءة فى نظام دولى عادل وشامل ودائم.

وأشرنا إلى أن النظام العالمى الحالى الذى يتسم بالانفراط فى حاجة ماسة إلى استخلاص العبر والدروس التى أهداها للبشرية سيد الخلق؛ لكى تكون نبراسا نصحح فى ضوئها التداعيات المؤلمة التى يتعرض لها الجنس البشرى فى هذه الأيام. وأكدنا على أن الإسلام يتمتع بإمكانيات زاخرة لاستمرارية الكون ومعالجة الكثير من أمراضه التى عجزت عن معالجتها الحضارة الغربية المتداعية.

إنـــــه بأمــــــره ﷺ

فى يوم من أيام الجمع المباركة كان الصباح الباكر لايزال يغالب الشروق، وإذا بحلم لطيف يأتينى فى هيئة مضمم يحمل معه تصميما لغلاف كتاب بعنوان «أحمد ﷺ» بقلم دكتور أمين ساعاتى. وبعد أن سألنى عن رأيى فى التصميم قلت له إنه غلاف جميل وفكرته رائعة. ثم رفعت رأسى بسرعة من الوسادة التى كنت أنام عليها، وجلست على السرير وطفقت أفكر هنيهة وأتأمل هذا الحلم، حتى اعترتنى فرحة عارمة تغمر كل أطرافى وأخذت أردد إنه بأمره.. إنه بأمره، وأمره مستجاب على الفور، وهو تشريف ما بعده تشريف. وفى اليوم التالى نزلت أجوب المكتبات وأبتاع الكثير من كتب السيرة والمراجع التى تناولت النظام السياسى فى عهد النبوة.

وهكذا كان هذا الكتاب عن سيدنا وحبيبنا ونبينا محمد ﷺ، والله سبحانه وتعالى فوق كل ذى علم عليم.

الباب الأول

أحمد

النبى والرسول ﷺ

الفصل الأول

المحيط الدينى والسياسى

الفصل الثانى

النظام الدولى قبل بزوغ فجر الإسلام

الفصل الأول

المحيط الديني والسياسي

الحياة السياسية العامة فى بلاد العرب

قبل أن تنزل الرسالة السماوية المقدسة على محمد ﷺ لم تكن فى الجزيرة العربية دولة مركزية عربية، فكانت فى الحجاز مدن ذات حياة سياسية خاصة، كذلك كان بأطراف جزيرة العرب فى الجنوب ممالك اليمن، وفى الشمال الشرقى مملكة الحيرة، وفى الشمال الغربى دولة الغساسنة.

وكانت القبائل العربية فى نجد وأطراف الحجاز، تحرص على الدخول فى رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة لها لتحمى نفسها، فدخلت – على سبيل المثال– بعض قبائل البادية فى رعاية دولة حمير ببلاد اليمن، فى مقابل أن يؤدوا لها الإتاوة كل عام. أما الدول العربية الأخرى فكانت علاقات هذه القبائل معها فى كثير من الأحيان تنحصر فى عقد أحلاف بينها وبينهم، وفى ذلك الوقت شهدت نجد وأطراف الحجاز الكثير من حروب القبائل، ومن بين هذه القبائل ربيعة ومضر؛ وتعدّان من أقوى القبائل العدنانية وأكثرها رجالا. وكانت تتنقل بين نجد واليمامة والحجاز سعياً وراء الماء والمرعى والغنائم. وكانت كل منهما تغزو أرض الأخرى طمعاً فى مالها من إبل أو ماشية أو ماء أو مرعى أو للأخذ بالثأر. وكثيراً ما كانت المعارك الحربية تقوم بين قبائل من ربيعة وقبائل مضر أو بين قبائل ربيعة نفسها أو بين قبائل مضر فى ذاتها[١].

وتعد مكة ويثرب (المدينة) والطائف أهم مدن منطقة الحجاز التى أصبحت اليوم تابعة للمملكة العربية السعودية. أما مدينة «جدة» فلم توجد بعد فى ذلك التاريخ. ويقول عبد القدوس الأنصارى فى كتابه «جدة» أن عثمان بن عفان هو الذى أنشأ مدينة جدة ويوجد له فى محلة المظلوم حاليا مسجد باسمه[٢].

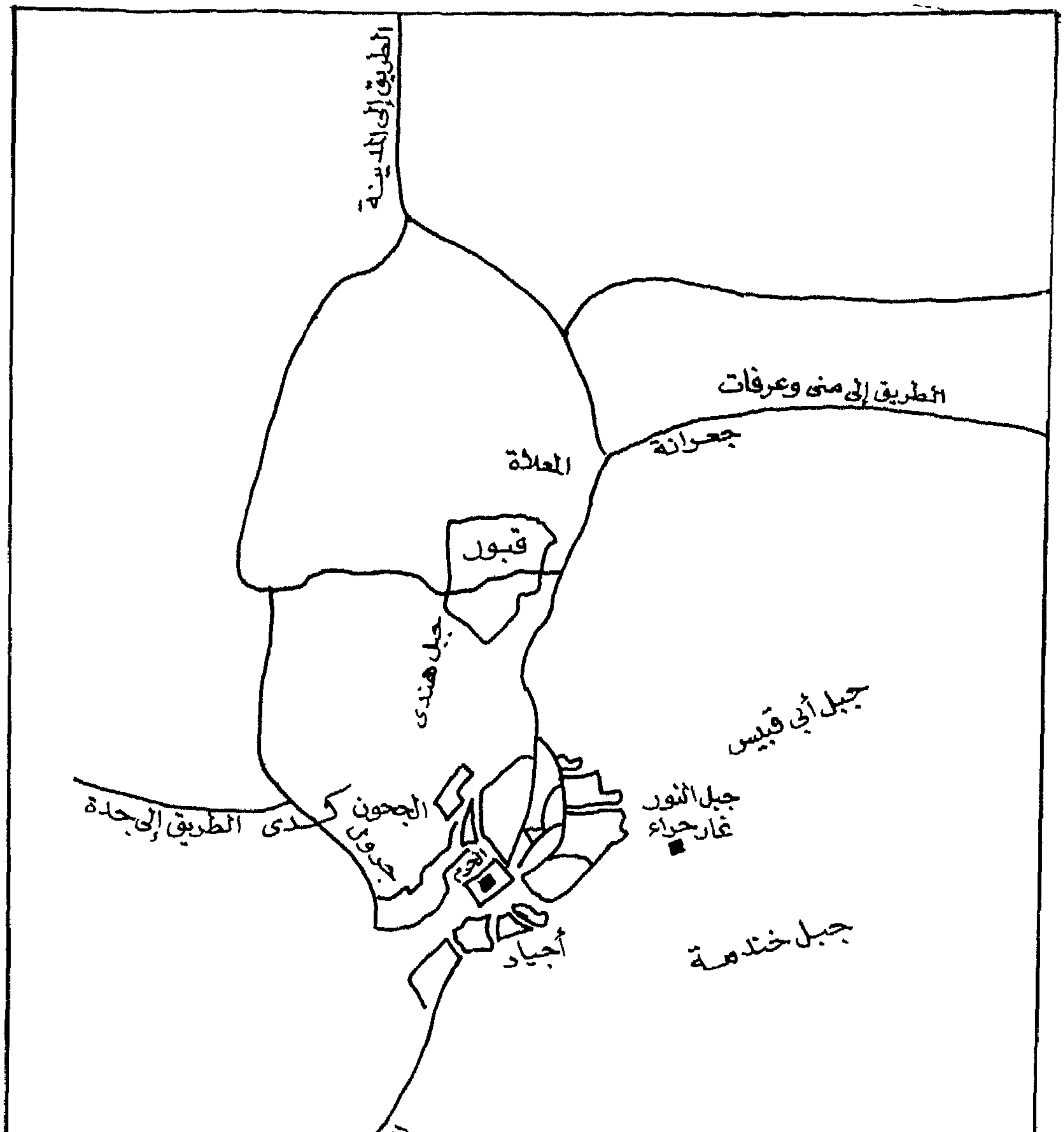
المثلث الجغرافى: مكة، يثرب، الطائف

وهذا المثلث الجغرافى الذى يتكون من المدن الثلاث، الذى شهد ولادة الرسول ﷺ وشهد أيضاً ولادة الدولة الإسلامية الأولى، وسوف تحتل هذه المدن الثلاث الكثير من الحوارات فى هذا الكتاب. ولذلك كان لابد لنا من الحديث عن هذه المدن الثلاث فى مقدمة هذا الكتاب.

---

(١) أحمد السباعى، تاريخ مكة المكرمة (مكة: دار الندوة، ١٣٧٨هـ)، ص ١٥ – ١٨.

(٢) عبد القدوس الأنصارى، جدة (جدة: دار المنهل، ١٣٨٠هـ)، ص ٨ – ١٢.



خريطة مكة المكرمة أيام قيام الرسول ﷺ بالدعوة إلى دين الإسلام

تصميم الدكتور المهندس محمد سعيد فارسى أمين مدينة جدة سابقاً

تعد مكة من أهم حواضر الحجاز، وهى عبارة عن قرية فى واد ضيق غير ذى زرع تحيط به الجبال من جميع الجهات، ويروى أنها سميت بذلك لقلة مائها، وقيل لأنها تمك الذنوب، بمعنى أنها تذهب بها. ويقال لها أيضاً «بكة» بإبدال الميم باء موحدة، وقد ورد ذكرها بهذه الصورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى، ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا﴾، وقيل مكة بالميم معناه الحرم كله، وبكة المسجد خاصة[1].

وكان العمالقة أول من سكن مكة، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية، وفى عهدها قدم إلى مكة سيدنا إبراهيم مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل.

وبينما كانت جرهم مقيمة بمكة تفرق عرب اليمن بسبب سيل العرم، فهاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر إلى مكة هو وقومه، فرفضت جرهم أن تسمح له بالإقامة فى هذه المدينة، وانقض ثعلبة بن عمرو على قبيلة جرهم وانتزع منها السيادة.

وظل ثعلبة بن عمرو مقيما بمكة حتى أصابته الحمى، فرحل إلى الشام وولى أمر مكة وحجابة الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثة بن عمرو الذى عرفه قومه بخزاعة. وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل بن إبراهيم، وكانوا قد اعتزلوا الحرب التى دارت بين جرهم وثعلبة[2]. ثم آلت ولاية مكة وحجابة الكعبة إلى عمرو بن لحى بعد وفاة أبيه، وعلت مكانته بين العرب. وكان عمرو ابن لحى أول من أطعم الحجاج بمكة لحوم الإبل على الثريد، كما قام بنصب الأصنام حول الكعبة وأحل عبادة الأوثان محل الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام[3].

ظلت خزاعة تقوم على خدمة البيت الحرام بمكة نحواً من ثلاثمائة سنة، وكانت قريش إذ ذاك متفرقة فى بنى كنانة حتى تزعمها قصى بن كلاب ووحد بين بطونها.

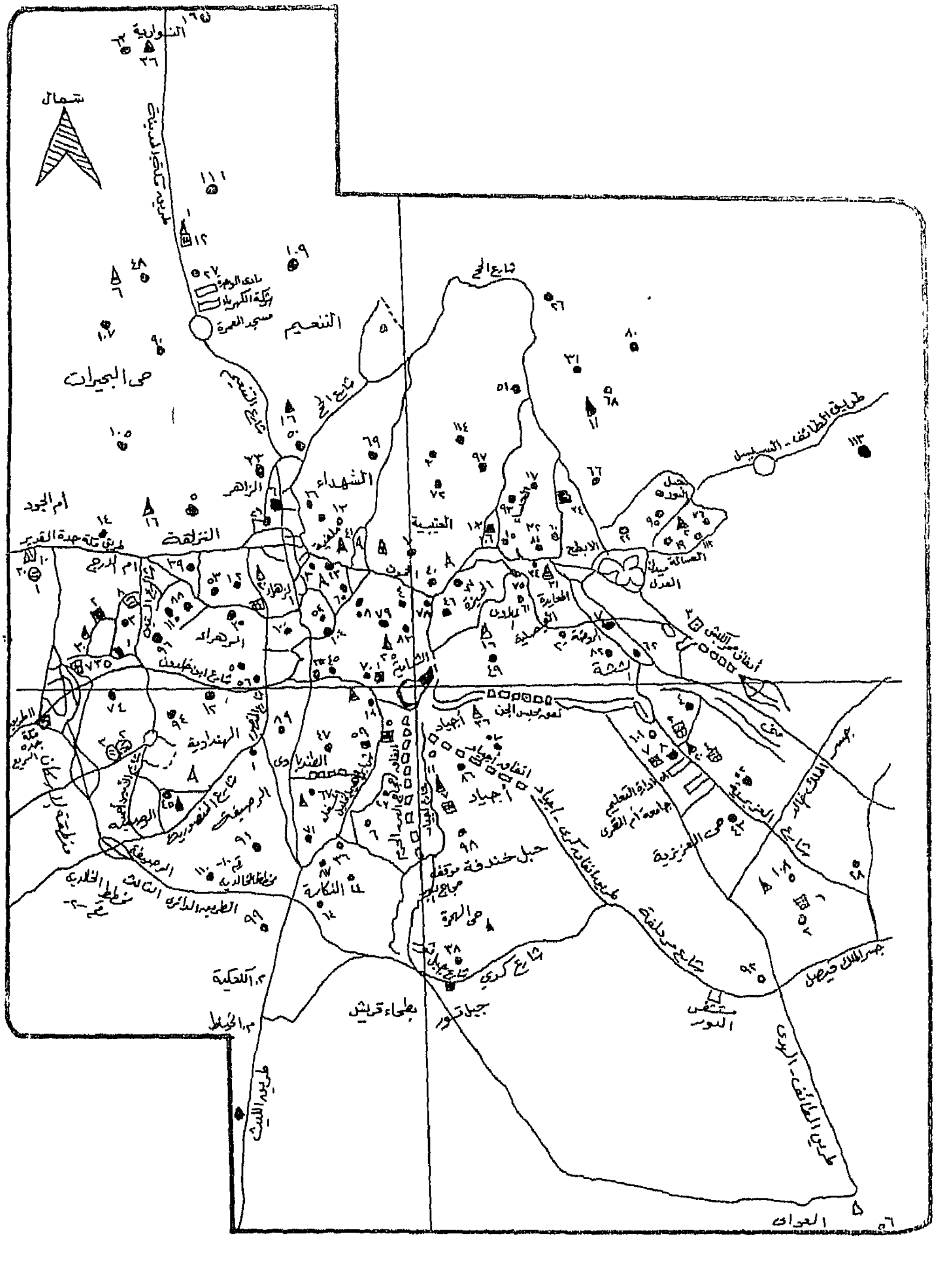
قام قصى بتقسيم مكة إلى رباع، وزعها بين قومه، وأبقى لكل فريق منهم منازلهم التى استقروا بها. كما أنشأ دار الندوة التى كانت بمثابة برلمان قريش، وفيها كان يجتمع كبار القرشيين تحت رئاسته للتداول فى شئونهم، ولم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين

---

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٨، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٢) د. محمد جمال الدين سرور، قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد ﷺ (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م)، ص ٤١.

(٣) الأزرقى، أخبار مكة، جـ١ ص ٥٤.



خريطة حديثة لمكة المكرمة صدرت عن وزارة المعارف السعودية فى عام ١٤١٣هـ = ١٩٩٢ وتوضح هذه الخريطة التطورات الهائلة التى طرأت على مكة المكرمة طوال ما يقرب من ألف وأربعمائة عام.

من عمره[1]، ثم تصدى لإطعام الحجاج وسقايتهم على اعتبار أنهم ضيوف الله وزوار بيته، وفرض على قريش خراجا سنوياً يؤدونه إليه لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج.

وكان من أشهر أبناء قصى، عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى. وقد ارتفع شأن عبد مناف فى حياة أبيه؛ وبلغ من الشرف درجة عظيمة، فرأى قصى قبيل وفاته أن يخلفه ابنه الأكبر عبد الدار فى رئاسة الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة حتى يصبح موضع تقدير قومه. فلما توفى قصى قام ابنه عبد الدار بهذه الأمور، وتولاها من بعده أبناؤه، فنازعهم فيها أبناء عبد مناف بن قصى وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل الذين رأوا فى أنفسهم من النباهة والفضل ماجعلهم يشعرون بأنهم أحق من بنى عبدالدار بولاية الأمور فى مكة، وأجمعوا على أخذ ما بأيديهم من الوظائف حتى تمكنوا من ذلك.

ولما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب فى إقامة الرفادة والسقاية، وكان ذا شرف وفضل فى قومه، وكانت قريش تسميه «الفيض» لسماحته وفيضه. وكان المطلب متآلفاًمع أخيه هاشم. وقد حافظ أبناؤهما على ذلك التآلف حتى قال النبى ﷺ: «لم يفترق هاشم والمطلب فى جاهلية ولا إسلام».

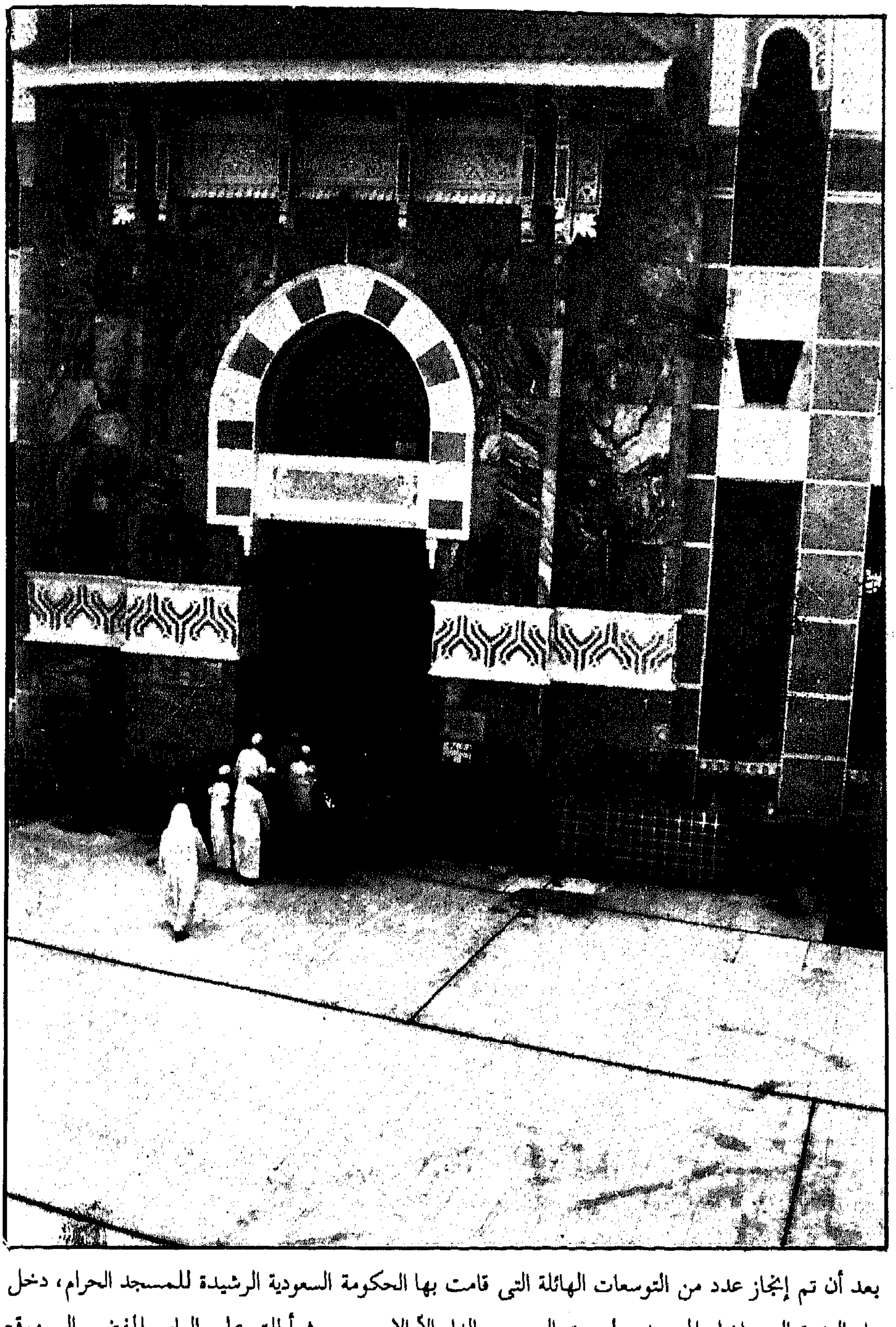
خلف المطلب فى السقاية والرفادة ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم، فعنى عناية فائقة فى إقامتها مما كان سبباً فى ازدياد محبة العرب له وعلو شأنه بينهم. فظل يسقى الحجاج ويطعمهم حتى توفى، فقام بأمر السقاية والرفادة من بعده العباس بن عبدالمطلب. ولم يزل يتولاها حتى دخل رسول الله عليه وسلم مكة سنة ٨ هـ فأبقاهما فى يده[2].

---

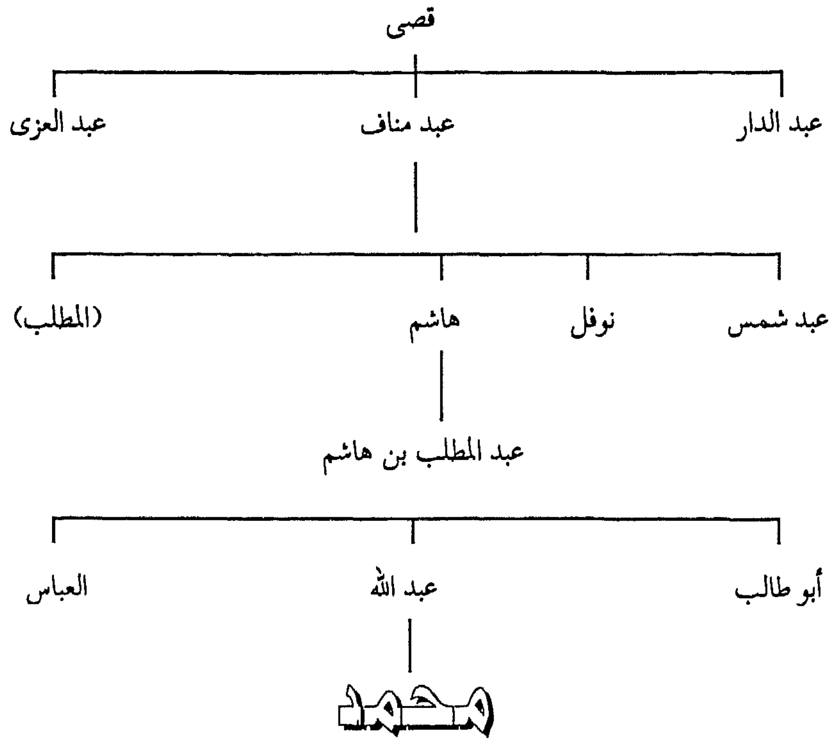
(١) تقع دار الندوة الآن أمام «مزراب» الكعبة، وقد أصبحت داخل المسجد الحرام بعد التوسعات الهائلة التى قامت بتنفيذها حكومة المملكة العربية السعودية بدء بمؤسس المملكة الملك عبد العزيز آل سعود ومرورا بأبنائه البررة على الترتيب: سعود وفيصل وخالد وفهد «خادم الحرمين الشريفين».

والحكومة السعودية تمنع زيارة هذا المكان وغيره من الأماكن التاريخية لأن الرسول ﷺ لم يأمر بزيارتها.

(٢) د. جمالد الدين سرور، المرجع السابق، ص ٤٢ – ٤٥.



بعد أن تم إنجاز عدد من التوسعات الهائلة التى قامت بها الحكومة السعودية الرشيدة للمسجد الحرام، دخل مقر دار الندوة إلى داخل المسجد، ولم يبق اليوم من الدار إلا الاسم، حيث أطلق على الباب المفضى إلى موقع دار الندوة اسم «باب الندوة» وهو يقع على بعد أمتار قلائل بعد الدخول إلى رواق المسجد الحرام.



كذلك وزّع بين بنى عبدالدار ماخصهم من المناصب؛ فقام عثمان بن عبد الدار بالحجابة، وتولى أخوه عبد مناف رئاسة دار الندوة، أما اللواء فكان فى بنى عبد الدار كلهم.

وهكذا ظل بنو عثمان بن عبدالدار يولون الحجابة حتى كان فتح مكة، فتولاها رسول الله من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها، وبعد أن خرج منها قال له العباس بن عبدالمطلب: بأبى أنت وأمى يارسول الله أعطنا الحجابة مع السقاية، فأنزل الله على نبيه: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[1]﴾، فاستدعى الرسول عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار ورد مفتاح الكعبة إليه، وقال: «خذوها يابنى أبى طلحة بأمانة الله سبحانه، واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لاينزعها من أيديكم إلا ظالم»، فظلت حجابة الكعبة فى بيته إلى اليوم[2].

وبالنسبة ليثرب المدينة التى ورد ذكرها بهذه التسمية فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا﴾[3]، فإنها تقع إلى الشمال من مكة

---

(١) سورة النساء (٥٧).

(٢) الأزرقى، أخبار مكة، جـ١، ص١ – ٦.

(٣) سورة الأحزاب (١٣).

فى مستوى من الأرض، ويحدها من الشمال جبل أحد، وتمتاز معظم أراضيها بخصوبة التربة وانتشار الزراعة بها. وكان العمالقة أول من سكن يثرب، ثم تغلبت عليهم بعض القبائل اليهودية واستوطنوا بها جنبا إلى جنب مع سكانها العرب. ويقول الأصفهانى عن هجرة اليهود إلى يثرب «كان ساكنو المدينة فى أول الدهر قبل بنى إسرائيل قوما من الأمم الماضية يقال لهم العماليق، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد، وكانوا أهل غزو وبغى شديد، وكان ملك الحجاز يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء وفدك. فبعث موسى بن عمران إلى العماليق جيشاً من بنى إسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعاً إذا ظهروا عليهم ولايستبقوا منهم أحداً، فقدم هذا الجيش الحجاز وأظهرهم الله على العماليق». وكان هذا هو بداية استيطان اليهود بيثرب(١).

على أن هجرة اليهود إلى يثرب لم تظهر بشكل واضح إلا فى القرنين الأول والثانى الميلاديين على أثر الحروب التى شنها الرومان ضد اليهود بسوريا، والتى انتهت بطردهم منها وتشتتهم فى أنحاء متفرقة، فهاجر منهم بنو النضير وبنو قريظة إلى شمال جزيرة العرب، وأقاموا بيثرب. وقد اختلط اليهود بالعرب المقيمين بيثرب وتأثروا بنظمهم الاجتماعية، فعاشوا معيشة قبلية. وبلغ من تأثرهم بالعرب أن استحالت أسماؤهم إلى أسماء عربية ونبغ من بينهم بعض الشعراء كالسموءل بن عادية. وكان لليهود أثر بعيد المدى فى الحياة الاقتصادية بيثرب، فقبضوا بأيديهم على الناحية التجارية فيها وازدادت ثروتهم من وراء اشتغالهم بالتجارة وعنايتهم بمرافقها، كما ركزوا اهتمامهم فى فلاحة الأرض فى ضيعاتهم الخاصة وبرعوا- إلى جانب ذلك- فى صناعة الذهب وصناعة الأسلحة والآلات الزراعية. وقد اشتهرت قبيلة بنى قينقاع اليهودية بالصياغة حتى أن أحد أسواق يثرب عرف باسمهم. وظل بنو النضير وبنو قريظة مقيمين بيثرب حتى نزح إليهم من بلاد اليمن - كما ذكرنا - قبائل الأوس والخزرج الوثنية بسبب سيل العرم الذى خرب بلادهم، ولم يزل هؤلاء العرب بها حتى هاجر إليها النبى ﷺ فآمنوا به ونصروه وسموا بـ «الأنصار»(٢).

أما الطائف وهى المدينة التى نزح إليها الرسول ﷺ هرباً من ظلم كفار قريش، فقد كانت تسمى «وجّا» نسبة إلى وجّ بن عبد الحى أحد العمالقة الذين سكنوها، وتقع على بعد اثنى عشر فرسخا شرقى مكة على مرتفع من الأرض، لذلك أصبحت مصيفاً لأهل مكة وجدة،

(١) د. محمد جمال الدين سرور، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٩.

ومازالت إلى الآن هى مصيف من مصايف المملكة العربية السعودية المشهورة التى ينزل فيها ملوك المملكة العربية السعودية فى فصل الصيف من كل عام. وتمتاز بخصوبة تربتها. واشتهرت الطائف ببساتينها وحدائقها الجميلة، وتنتج من الفواكه المميزة ما ليس له نظير فى العالم كله كالعنب والرمان والخوخ والسفرجل....

وقبل أن تنزل رسالة الإسلام على نبيه محمد (ﷺ) كانت الديانة الشائعة فى مكة وما حولها هى عبادة الأوثان، وقد قامت هذه الوثنية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء والنجوم والكواكب. ولما كان العرب يعتقدون بتأثيرها على حياتهم، حرصوا على إرضائها، فاتخذوا لها أشكالا مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار وأصنام مصورة تمثل إنساناً أو حيواناً، وأخرى غير مصورة. وصاروا ينظرون إليها على أنها رمز القوة الطبيعية، ومن ثم أصبحت معبودات لهم.

وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر لأهم الأصنام التى كان يعبدها العرب قبل الإسلام ﴿أفرأيتم اللات والعزى* ومناة الثالثة الأخرى* ألكم الذكر وله الأنثى* تلك إذاً قسمة ضيزى﴾[1]. وكانت اللات صخرة مربعة بالطائف عليها بناء ولها حى وحرم يقصده العرب ويقدمون لها الذبائح. وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف. أما العزى، فكانت عبارة عن شجرة بوادى نخلة إلى الشرق من مكة، وكانت من أعظم الأصنام عند القرشيين، فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح، كما خصصوا لها موضعاً على مثال حرم الكعبة. وكانت مناة عبارة عن حجر أسود، أقيم له معبد فى قديد على الطريق بين مكة ويثرب. وقد عظمها العرب وشاعت عبادتها بصفة خاصة عند الأوس والخزرج وغسان وخزاعة، ولم تزل على ذلك حتى خرج الرسول ﷺ من المدينة لفتح مكة سنة ٨هـ، فعهد إلى على بن أبى طالب بهدمها[2].

أبرهة يقود أول عدوان أجنبى على الكعبة

يقول علماء السياسة إن للحكم شهوة من شهوات النفس البشرية، وأن شهوة الحكم إن أينعت فى رءوس المجازفين، فإنها تفقدهم صوابهم وتحملهم على ممارسة أى شئ على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة.

١- سورة النجم، (١٩).

٢- د. محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص ٥٥ - ٥٦.

ولقد كان أبرهة الحبشي واحدا من المجازفين الذين أينعت في ذهنهم فكرة الانقضاض على مَلِك الحبشة بعد أن أرسله هذا الملك لغزو اليمن. وحينما تحقق له النصر واستولى على اليمن، لَعِبت في رأسه نشوة الفوز، ولم يعد إلى الحبشة قائدا للجيش كما كان قبل غزو اليمن، بل عاد إلى العرش وانتزع الحكم من الملك.

ولكن مادام الحكم شهوة من الشهوات، فإن الشهوة دائما لها امتدادات ولها أطماع، فهي – من قوة التوثب والقفز– تفقد عقلها وتتحول من نشوة إلى سكرة تميت أصحابها.

وهكذا حينما تجاوز أبرهة مرحلة النشوة إلى درجة السكرة، قرر بناء أكبر كنيسة على وجه الأرض– كما سنوضح في الفصل الثاني– في صنعاء المحتلة، وذلك من أجل أن يحول الحجاج من الذهاب إلى الكعبة في مكة.. إلى الذهاب إلى كنيسة صنعاء الكبرى.

ولكن أبرهة بعد أن بنى كعبته في صنعاء على شكل كنيسة، لاحظ أن مركز التجارة لم يتحول من مكة إلى صنعاء. لذا عزم على المسير إلى مكة ليهدم كعبتها، وبهذا تضطر القوافل إلى تحويل تجارتها إلى صنعاء. ولهذا كانت فكرة هدم الكعبة ناجمة عن أهداف اقتصادية، أو على الأقل انطلقت فكرتها من مبدأ تجاري هدفه الكسب المادي البحت.

ووصل جيش أبرهة إلى أطراف مكة عام ٥٧٠م، – وسمي هذا العام «عام الفيل»، وفيه ولد رسول الله (ﷺ) – وقد أعد العدة لغزوها في اليوم التالي، ولكن قبل غزوها أنزل الله سبحانه وتعالى عليه وعلى جيشه طير الأبابيل ورمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول.. حتى قضت على هذا الجيش قضاء مبرما، ورجع أبرهة إلى أهله مذموما مدحورا، وبعد هذا الغزو الفاشل لم تقم قائمة لأبرهه ولا للمملكة الحبشية.

وهكذا استقبلت الدنيا ميلاد سيد الكون محمد بن عبد الله الذي كان لقدومه إلى الدنيا فرحة عمت كل أرجائها من أقصاها إلى أقصاها ومن أدناها إلى أدناها. ثم بعد ذلك بدأت رحلة رسول الله برسالة الإسلام والسلام[(1)].

بيت النبوة

الرضاعة والنشأة والتربية الأولى

كان نساء قريش لايرضعن أطفالهن، بل يسلمنهم إلى المرضعات، ومن عادة هؤلاء النساء أن يفدن إلى مكة في بعض فصول السنة لكي يحصلن على الأطفال الرضع من أمهاتهم

١– د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الجزء الأول (القاهرة: مكتبة النهضة الإسلامية، ١٩٨٨)، ص ١١٩ – ١٢١ و ص ١٨٩.

وكانت مرضعة محمد ﷺ الأولى هى «أمة» أبى لهب، وقد بدأت برضاعة محمد ﷺ ولكنها أحجمت فيما بعد عن رضاعته. وحين أحجمت استرجعوه منها، ونقلوه إلى مكة بانتظار قدوم النساء المرضعات، إلى أن وفدت نساء «بنى سعد بن بكر».

ولما كان محمد (ﷺ) فقيراً ويتيماً لم تقبل به أى منهن، إلا امرأة تدعى «حليمة»، فقد قبلته وقالت:

لم تهطل الأمطار فى فصل الربيع من هذا العام، وقلت لزوجى إننا لا نملك شيئا يقيم أودنا، فلننزل مكة، ونحضر طفلاً إلى مضاربنا، عسى أن نرزق من أبيه شيئاً. ووافق زوجى، فحملت طفلى على صدرى وركبت حماراً وأمسك زوجى بزمام ناقته وسرنا نحو مكة. كان طفلى يبكى لأن ثديىّ جف منهما اللبن، وبقينا أنا وزوجى جائعين لأن ناقتنا لم تقدم لبناً، للجدب الذى حل بنا هذا العام، ولفقدان الكلأ فى الصحراء. وحين بلغنا مكة حصلت نساؤنا على أبناء الأغنياء، وعدن حاملات هدايا منحها آباؤهم. ولم يحالفنا الحظ بطفل غنى، ولكن عرض علينا طفل يتيم يدعى «محمداً» (ﷺ)، ولم يكن مع جده هدية يمنحها معه. وقلت لزوجى: أن نقبل بهذا الطفل خير من أن نعود خاويى الوفاض، ثم إنه من قريش. وإذا ما كبر غدا من رجالات هذه القبيلة وسنستفيد منه حتماً فى المستقبل. ووافق زوجى على اقتراحى وعدنا مع نساء قبيلتنا. ولم نبتعد عن مكة مسيرة نصف منزلة حتى لاحظت- متعجبة- أن ثديىّ حفلا باللبن، فشرب منهما ولدى ومحمد (ﷺ). وحينما وصلنا إلى حيّنا نادانى زوجى قائلاً: انظرى ياحليمة، لقد حفل ضرع ناقتنا باللبن. وسددنا جوعنا بلبن الناقة واستطعنا أن ننام ليلتنا بهناء وحبور. وقال زوجى عند الصباح: لاشك أن لهذا الطفل بركة تنفعنا فى أيامنا القادمة[(١)].

فتح محمد (ﷺ) عينيه فى هذه الدنيا، فلم يجد أباه إلى جانبه يرعاه. ومع أن قبيلته «قريش» ذات مكانة مرموقة ومهابة فى مكة، فإن أمه اضطرت إلى أخذه معها إلى «يثرب» بلدة أهلها، على أمل أن تلقى منهم المساعدة على تنشئة طفلها، لأن «عبد الله» توفى تاركاً طفله وزوجه خاويى الوفاض ولم يورثهما شيئاً ذا بال. وكانت زوجه الشابة البائسة «آمنة» تسلى نفسها فى يثرب بقرض الشعر المفعم بالوجد والأسى والوحدة.

ولقد حاول أقرباء آمنة إغاثة قريبتهم وابنها الصغير، ولكن للأسف سرعان ما داهمها مرض عضال أودى بحياتها إلى الرفيق الأعلى، وفى لحظات الوفاة حاول محمد أن يخاطب أمه ولكنها لم تجبه، فارتمى على صدرها ينتحب ويبكى:

---

(١) أحمد السباعى، تاريخ مكة المكرمة، مرجع سابق، ص ٤٨ - ٥٠.

- أمي.. أمي.. لم لا تجيبين؟

ولكن روح هذه الأم العظيمة قد فارقت جسدها منذ حين، وسبحت في أفق رب العالمين. ثم حمل جسدها إلى القبر، وبعد أن مهد القبر عاد الرجال من حيث أتوا، ولكنهم لم يجدوا الطفل في المنزل، فعادوا إلى المقبرة ليشاهدوا منظراً مؤلماً.. منظر طفل جاث على قبر أمه، يكلمها: لم لا تعودين إلى المنزل يأماه؟ ألا تعلمين أنك كل ما أملك في هذه الدنيا؟

لقد ملّ الحياة، ولفّته الكآبة، فعافت نفسه الطعام. ولاحظ أهل آمنة أن الطفل يهزل شيئا فشيئا. فما كان منهم إلا أن حملوا الطفل إلى جده «عبد المطلب» في مكة، وكان آنئذ هرماً، يدنو من المائة وثماني سنوات. وحينما رأى الجد حفيده خفق له قلبه ومال إليه فؤاده.

ولكن الأسى لاحق الطفل اليتيم مرة أخرى، إذ سلب منه جده العجوز، بعد أن نعم بالراحة في كنفه سنتين. وعاد محمد (ﷺ) إلى الوحدة التي كاد يعتاد عليها. فتعهده عمه أبو طالب، وعمره آنئذ ثماني سنوات .

كان أبو طالب رجلا شريفا، ولكنه كان فقيراً معدماً، يعيل أسرة كبيرة العدد. لذا كان يثقل عليه إعالة ابن أخيه الصغير، مما اضطر الطفل- وهو في الثامنة من عمره- إلى العمل لتأمين معاشه. ومع أن محمداً كان له عم يرعاه في الظاهر، فإن انشغال العم بتأمين معاش أسرته الكبيرة منعه من تهيئة سبل العيش المريح لمحمد (ﷺ).

لهذا فإن محمداً (ﷺ) كان- في مرحلة الطفولة الغضة التي كان يقضيها أنداده بالمتعة والمرح - منشغلاً بتأمين معاشه ورعاية القطيع في حر الصيف في صحراء الجزيرة. كان يذهب بالقطيع كل صباح إلى ظاهر مكة، ليبقى وحيداً في الصحراء حتى الغروب.. يمتع أنظاره بالأفق البعيد والسماء اللامتناهية.. حتى إذا أقفلت السماء نحو المغيب يقفل راجعاً وخلفه قطيعه، فلا يبلغ منزل عمه أبي طالب إلا مساء، ولا يجد أمامه سوى النوم والخلود للراحة.

هذه المعاناة والوحدة وتحمل المسؤولية حولت محمداً (ﷺ) إلى إنسان قوي ومفكر، مما دفع عمه أبا طالب إلى أن يصطحبه معه في بعض أسفاره التجارية إلى بلاد الشام وهو لـمّا يزل في الثانية عشرة من عمره المديد[1] .

١- كونستانس جيورجيو، نظرة جديدة في سيرة رسول الله، تعريب دكتور محمد التونجي (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٣)، ٢ ١٤ - ١٥٠.

ولقد أصبح «بيت النبوة»– مع التطورات السياسية الساخنة التى اجتاحت العالم الإسلامى– مصطلحاً سياسياً واسعاً يحتل مكانة بارزة فى الفكر السياسى الإسلامى منذ وفاة الرسول ثم اغتيال سيدنا على بن طالب الذى كان رمز بيت النبوة.. حتى ظهور المذهب الشيعى فى بلاد فارس «إيران حاليا» ثم العراق وفى أماكن أخرى من العالم الإسلامى. ومازال هذا المصطلح حتى الآن يكتسب أهمية بالغة فى الفكر السياسى الإسلامى.

القبيلة العربية

من النظام العشائرى .. إلى النظام السياسى

ينحدر محمد بن عبد الله من إحدى القبائل العربية العريقة، والقرآن الكريم شرف اللغة العربية حينما أنزل فيها قوله تعالى ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾[٢].

والقبيلة العربية كانت تلعب دورا كبيرا فى تنشئة وتشكيل قياداتها. إزاء ذلك كان جديرا بنا أن نناقش أثر القبيلة التى ينحدر منها الرسول ﷺ على نشأته، ولكن قبل أن نتحدث عن القبيلة العربية نسأل : من هم العرب ؟

العرب قوم من البشر سكنوا شبه الجزيرة العربية منذ أن عرف الإنسان نفسه، والعرب أمة سامية على اختلاف شعوبها وتباين قبائلها، وهم ولد سام باتفاق العلماء والنسابين، فبعضهم نسب العرب إلى لاوذ بن سام وبعضهم إلى إرم بن سام وآخرون أرجعوهم إلي قحطان بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام، وبذلك تكون العرب أمة سامية. وكلمة عرب تعنى: أناس ينحدرون من أصل سامى وينطقون العربية لغة لهم. قال الجوهرى فى صحاحه: «العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار، والأعراب هم سكان البادية والنسبة إليهم أعرابى» وقال «إن كلمة عرب مشتقة من الإعراب» كما يقال أعرب الرجل عن حاجته. وأعرب لك عن شكرى وتقديرى، ومعناها وضح وبان، وقد سموا بذلك لأن الغالب عليهم الفصاحة والبلاغة فى البيان والمنطق. والعرب نوعان عاربة ومستعربة[٣]..

---

(١) سورة الزخرف (٣). (٢) سورة فصلت (٣).

(٣) عبد القدوس الأنصارى، موسوعة جدة (جدة، دار المنهل، ١٣٨٦)، ص ٢١ – ٢٣.

العرب العاربة : هم العرب الأوائل الذين علمهم الله العربية فهم أهلها وأول من تكلم بها فقيل لهم عاربة أى الراسخون فى العروبة أى الفاعلة والمبتدعة للعروبية، أى أول المتكلمين بها، وقيل عنهم العرباء ونحن نرى أن العاربة هم العرب الخلص قبل اختلاطهم بالأجنبى.

العرب المستعربة : هم الداخلون فى العربية، مأخوذة من استفعل أى بمعنى الصيرورة على غرار استوجب واستفحل واستنوق الجمل، أى صار الجمل فى معنى الناقة، وقال الجوهرى « ربما قيل لهم المستعربة لاختلاطهم مع الأمم غير العربية فاقتبسوا شيئاً من حضارتهم نافعة أم غير نافعة ».

وقد اختلف المهتمون بالأنساب فى العاربة والمستعربة فذهب ابن إسحق والطبرى إلى رأى القائلين بأن العاربة هم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم والعمالقة وجرهم وحضرموت ومن فى مصافهم. والمستعربة بنو قحطان بن عابر وبنو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وكان بنو إسماعيل قد تعلموا العربية من جرهم حين نزلوا إلى مكة. وقد ذهب آخرون إلى أن بنى قحطان هم العاربة وبنو إسماعيل هم المستعربة.

وينحدر محمد ﷺ من قبيلة قريش، وقريش كانت تقسم إلي عشر قبائل، ولكل قبيلة من هذه القبائل استقلال ذاتى يضمن الاستقرار لأوضاعها الداخلية، ولاتتدخل إحدى القبائل فى شؤون قبيلة أخرى. وكانت قبيلة هاشم إحدى هذه القبائل القرشية، ورئيسها « عبد المطلب» جد رسول الله (ﷺ)، يعيش في مكة، ولم يكن لعبد المطلب ولد فتمنى على الله أن يمنحه ولدا، ونذر إن رزقه الله عشرة أولاد قدم الولد العاشر قربانا للإله، واستجاب الإاهه لدعائه، إذ وهبه عشرة أولاد. وكان « عبد الله » الولد العاشر أجمل أولاده جميعاً. وصبر عبد المطلب على ابنه العاشر حتى بلغ سن الرشد، لأن الفداء لايقدم قرباناً مالم يبلغ مرحلة الرجولة. وعندئذ أعد عبد المطلب سكينه ليذبح بها ولده قرباناً للإله فى يوم من الأيام، وكلما كبر عبد الله ازداد جمالاً وتمنع الوالد عن الإقدام على ذبح ابنه، ولكن عبد المطلب لايزال يشعر بضرورة أن يفى بالنذر. ومع كر الأيام شعر الأب بدنو أجله، وكلما تذكر عبد المطلب هذا النذر الصارخ ارتعد وتراجع وحاول أن يبحث عن فتوى تعفيه من ذبح ابنه الغض عبد الله(١).

١- د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق، ص١٨٣-١٨٧.

ولكن لم يشف غليله جواب شاف ولكى يطمئن إلى جوابه قرر أن يأخذ رأى عراف قادر على تشخيص الغوامض والمبهمات. وفى يثرب عراف يدعى كشف ماتخبئه أحكام السماء. فما كان منه إلا أن امتطى جملاً واتجه نحو يثرب . وطوى عبد المطلب الطريق حتى وصل يثرب فاتجه فوراً نحو العراف. وبعد أن راقب العراف نجوم السماء قال له : يعفيك الله من أداء دينك فى ابنك، شريطة أن تدفع عنه الدية اللازمة. والدية هى الفدية، وكانت فدية الرجل فى الجزيرة عشرة جمال.

وسأل عبد المطلب العراف : أيقبل الله منى عشرة جمال ؟

نظر العراف إلى النجوم، ثم قال : لا، لا يقبل.

فقال عبد المطلب : وهل يقنع بخمسة عشر جملاً ؟

فأعاد العراف بصره إلي السماء، ثم أجاب بالنفى. واستمر عبد المطلب يرفع عدد القرابين من الجمال حتى بلغ المائة. عندئذ قال العراف لعبد المطلب : وافق الله على ديتك.

فعاد عبد المطلب إلى مكة، وعوضاً عن أن يقدم ابنه قرباناً إلى الله، افتداه بمائة جمل.

وبعد أن وهُب عبد الله من قبل الإله، وذبح مائة جمل شكراً لهبته، تزوج من آمنة. ونتج عن هذا الزواج محمد (ﷺ). ولكن قبل أن يرى هذا الطفل الدنيا اختارت السماء هذا الأب.

وهكذا قضى القدر أن يظل عبد الله على قيد الحياة حتى يتزوج بآمنة وينجبا سيد الخلق محمد (ﷺ)[(١)].

وكان محمد (ﷺ) على معرفة بقبائل الجزيرة العربية كلها، وكان يعرف أين مضارب خيام كل قبيلة وماهى أخبارها. فقد أمضى محمد (ﷺ) مرحلة طفولته كلها وقسماً كبيراً من مرحلة الشباب فى الصحراء، مثله مثل سائر الأعراب، يشرب من لبن الناقة أو النعجة، ولايجتمع له خبز وتمر معاً. وكان طيلة حياته يتناول وجبة واحدة، وحين يأكل يجلس على

---

١ – كونستنس جيورجيو ، المرجع السابق ص ٤٦ – ٤٧

الأرض، وسماطه عبارة عن حصير منسوج من ألياف النخيل. وذكرت عائشة رضى الله عنها:لم يكن فى بيتنا غربال طيلة حياة محمد (ﷺ) لكى ننخل به الطحين. ولم يكن يرى فى منزله غير الخبز والتمر، بالإضافة إلى طعام آخر هو مطبوخ القمح والعدس، إذ كان من فى منزل محمد (ﷺ) يغلى القمح والعدس، ويصنعه بشكل غذاء، ولايجتمع الطعامان فى يوم واحد. وكان اللحم فى غذاء محمد أمراً استثنائياً، ويروى أنه كان يأكله مرة واحدة فى السنة. فمن عادة العرب أن يذبحوا القرابين أيام الحج ويأكلوا لحومها، ويظلوا بلا لحوم حتى موسم الحج القادم. وكان محمد (ﷺ) يحيا حياتهم، ويصرف النظر عن اللحم لغلائه. لم يكن فى منزله منضدة ولا كرسى، وكان يجلس على حصير منسوج من ألياف النخل. يأكل عليه وينام[(١)].

بناء الأسرة المحمدية

لم يستطع أبو طالب بحكم الضائقة المالية التى كان يعيشها - أن يستثمر مواهب ابن أخيه محمد ﷺ . ولقد ترامت إلى أسماع تجار مكة أمانة محمد (ﷺ)، فرغبوا فى الاستفادة من خدمته. ومن هؤلاء التجار امرأة تدعى « خديجة ». كانت فى سن الأربعين ومحمد (ﷺ) فى الخامسة والعشرين. ولما سمعت به دعته ليعمل فى تجارتها ويرافق قافلتها. فأبلغ محمد (ﷺ) عمه دعوة خديجة، وشاوره فى أمر العمل معها. فقال له أبو طالب : خديجة امرأة ثرية، وبإمكانها أن تدفع لك أجراً حسناً، وأرى أن توافق على عرضها.

كانت خديجة، حتى ذلك التاريخ، قد تزوجت اثنين، وخلفت من أحدهما صبياً صغيراً يدعى هنداً، وابنة صبية تدعى هندة. وحازت خديجة شهرة تجارية كبيرة فى مكة، وكانت تسكن فى منزل يعتبر من أجمل منازل مكة. وذهب محمد (ﷺ) إلى خديجة يعرض عليها موافقته واستعداده للسفر، فقالت خديجة : عليك أن تذهب بقافلتى إلى سورية وسوف يرافقك اثنان من المقربين لدىّ، الأول هو ابن أخى خزيمة، والآخر غلامى ميسرة.

حينما عاد محمد ﷺ من سفرته أهدته خديجة جملاً، ولقد ارتاح محمد ﷺ بالأجر الذى تقاضاه من خديجة، كما فرحت هى بالخدمة الرخية التى قام بها مما دعاها إلى إرساله على رأس قافلة ثانية لمزيد من الكسب والربح.

(١) عبد القدوس الانصارى، المرجع السابق، ص ٢٤ - ٢٥.

عندما عاد محمد (ﷺ) من سفرته الثانية، وأرادت السيدة خديجة أن تدفع له أمعنت النظر فيه، فرأته فتى وسيماً مهيباً ذا عينين سوداوين وشعر أسود. كانت عيناه واسعتين نجلاوين صافيتين، وشعر رأسه طويلاً يمتد حتى كتفيه، يفرقه وسط رأسه كعادة العرب. وكان كثير التبسم فى أثناء حديثه، فتبرز أسنانه النضيضية ويشع منها نور وإيمان. كانت هذه التقاطيع تجذب المرء وتريحه وتشجعه على الاستمرار فى محادثته، وبالإضافة إلى وسامته كان ينبعث منه عبير جذاب، يزيد من محبة الناس لمعاشرته فى أيام شبابه. كان العرب فى تلك الأيام يتطيبون، ويضمخون أجسامهم بالعطور، وينشرون الطيب فى مساكنهم بمكة ويثرب. كان (ﷺ) رزينا فى حديثه، متأنيا فى أداء كلماته، مما يجعل حديثه فصيحاً واضحاً. كل هذه الأمور ساعدت على تأثير كلام محمد (ﷺ) فى الناس.

وبعد أن دفع محمد (ﷺ) ثمن البضاعة إلى خديجة حاولت أن تستفسر منه، بطريق غير مباشر، عن رغبته فى الزواج بصورة عامة. غير أن الأجوبة التى سمعتها منه بينت لها أنه خالى الذهن من هذا الموضوع. ولكن خديجة أعجبت به، وهامت بخُلقه وخلّقه ولم تستطع أن تحدثه عن موضوع الزواج بشكل مباشر. يعوقها ثلاثة أمور : أولها أنها فى سن الأربعين وذات طفل وصبية، فى حين أن عمر محمد (ﷺ) لم يبلغ الخامسة والعشرين. والأمر الثانى أنها كانت ثرية وهو فقير معدم. والأمر الثالث خاص بعادات العرب، ذلك أن قبيلة خديجة وقبيلة محمد (ﷺ) يجب أن تتفقا على هذا الزواج. ولما كانت خديجة لاتستطيع مخاطبة محمد (ﷺ) بشأن زواجها مباشرة فقد أمرت غلامها ميسرة أن يتذاكر مع محمد (ﷺ) فى هذا الأمر. واتجه ميسرة إلى محمد ﷺ وأخبره أن خديجة أرسلته لترى إذا كان يوافق على الزواج بها أم لا كما أرسلت خديجة امرأة تدعى نفيسة إلى محمد (ﷺ) لتحدثه عن الأمر بوضوح تام.

فسألته نفيسة : أنت فتى وسيم وفى ريعان الشباب فلم لاتتزوج ؟

فأجابها : لأننى فقير ولايمكننى تأمين عيش زوجتى وأطفالى فى المستقبل.

فقالت له : ولكنك تعمل وعملك يساعدك على تأمين إعالة أسرتك.

قال لها محمد (ﷺ) : إن عمى أبا طالب رجل عجوز وفقير ولقد رعانى لما كنت طفلاً. والآن وقد شببت علىّ أن أقوم بواجبى تجاهه وتجاه أسرته .

قالت نفيسة : بإمكانك الزواج من امرأة من غير أن تضطر إلي تأمين عيشها. فسألها محمد (ﷺ) : أيمكن أن يتزوج رجل امرأة ولايؤمن لها عيشها ؟

قالت نفيسة : لكن خديجة ترغب في الزواج بك، فإن كنت موافقا فهي موافقة.

عندما فهم محمد (ﷺ) أن خديجة تقبل به كما هو، قال : دعيني أفكر في الأمر[1].

وصادفته خديجة في اليوم التالي، وحدثته بأمر الزواج مُصادقة على ماقالته نفيسة، عارضة عليه موافقتها حين يرغب هو في ذلك. ومع أن خديجة لم تكن بكراً، وكان عمرها أربعين سنة وذات صبي وصبية، فإن تقاليدهم تقضي بأن توافق قبيلتها (قبيلة أسد) على زواجها من محمد (ﷺ). كان رئيس قبيلة أسد رجلاً يدعى عمرو بن أسد، قال : أنا موافق على أن محمداً (ﷺ) أمين وصبور، ولكنه فقير. وعندما تعلم قبائل العرب أن خديجة تزوجت برجل مثله ستلوك قصتها الألسن. ولكن حينما لمس رغبة خديجة ورغبة محمد في الزواج من بعضهما البعض دعا عمرو بن أسد بعضاً من سادة قبيلته وقبيلة قريش إلى وليمة. وبعد أن رفع الطعام قال أبو طالب : إن لم يكن محمد (ﷺ) غنياً فإنه حسن السمعة ومن آل هاشم . وحسبه ونسبه إن لم يكونا أرفع من قبيلة أسد، فهما ليسا بأقل منها، ثم إنه فتى ينضح بالشباب والجمال، والشباب والجمال غنى وثروة. وإن أنت مانعت ياعمرو بن أسد في إتمام هذا الزواج تكون آذيت ليس محمداً وحسب، بل خديجة أيضا، هي تستطيع أن تتزوج رجلاً غنياً ولكنها لن يتيسر لها الزواج بشاب مثله ذي صفات حميدة ومن قبيلة آل هاشم. أثرت كلمات أبي طالب في عمرو ابن أسد، فوافق على زواجهما. ومن عادة العرب التي لاتزال قائمة حتي اليوم أن يدفع الزوج مهراً لزوجته، وكان مهرها خمسمائة درهم، وكان أول عمل قام به بعد زواجه تعهده بتربية ابن عمه علي بن أبي طالب.

أنجبت خديجة لمحمد ثلاثة صبيان فكنى بالأكبر ودعى أبا القاسم ولكن قاسم توفي في سنواته الأولى وتبعه أخواه فيما بعد[2].

---

(١) كونستنس جيورجيو، المرجع السابق، ص ٤٤ – ٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦ ، ٤٧.

المعنى السياسى فى أسواق العرب

كان العرب يمتنعون عن الحروب مدة أربعة أشهر، ويسمون هذه الأشهر بالأشهر الحرم، وفى أشهر الحرم يتوقف قطاع الطرق عن ملاحقة الحجاج القاصدين زيارة الكعبة، وعن التجار الذين ينقلون بضائعهم إلى الأسواق، ويقام قرب مكة فى أيام الحج سوق عام كبير تشبه الأسواق التى لاتزال تقام حتى اليوم فى بعض المدن السعودية باسم سوق الجمعة أو سوق الثلاثاء، وكان من أشهر هذه الأسواق سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز، وفى هذه الأسواق تعرض البضائع، ويقصد العرب من كل أنحاء الجزيرة العربية، وكان محمد (ﷺ) يزور سوق عكاظ بحكم قربه من مكة. ولاحظ هذا الفتى أن فى هذا السوق شيئاً أغلى من الذهب ومن الفضة، ألا وهو الأدب، ولقد جذب هذا الموضوع انتباه محمد (ﷺ) وفتح عينيه على قيمته[1].

حتى ذلك اليوم، كان الطفل الذى سيغدو نبياً يتصور أن أغلى شئ فى الجزيرة هو الذهب وتتلوه الفضة فى القيمة. لكنه بعد أن طاف فى سوق عكاظ أيقن أن الكلام يفوق قيمة هذين المعدنين.

عندما أصغى محمد (ﷺ) إلى إنشاد الشعراء فى سوق عكاظ لأول مرة تأثر كثيرا بأقوالهم، وقدر بلاغتهم. لذا صار دأبه أن يستمع إلى شعر هؤلاء الشعراء الفصحاء. وقد أعجب بشعر كعب بن زهير فى أحد الأيام، فما كان منه إلا أن خلع عباءته، وقدمها هدية إليه.

ولقد أحب رسول الله (ﷺ) شعر امرئ القيس – كما تذكر السيدة عائشة – لدرجة أنه كان يردد شعره على لسانه دائماً ويحفظه غيباً.

وبعد أن بُعث محمد (ﷺ) استخدم الشعر فى معركته على المشركين وخاطب حسان ابن ثابت فى ساحة إحدى الحروب قائلاً :

اهُجهم لأن هجاءك ينسل نحوهم كما تنسل الرماح نحو الخصم «وإن روح القدس لايزال يؤيدك »[2].

---

(١) سعيد الأفغانى، أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام (دمشق: دار الفكر، ١٩٦٠)، ص ٢٨٠ – ٢٩٢.

(٢) سعيد الأفغانى، المرجع السابق، ص ٣٤٤ – ٣٤٥.

حلف الفضول .. حلفاً سياسياً

كان حلف الفضول يتشكل من مجموعة من الفتيان « المغاوير » المسلمين الذين يتمتعون بشمائل الإنسان العربى، الذى يسعى إلى نشر الأمن والعدل بين أفراد مجتمعه. ولذلك فإن حلف الفضول – بلغة الفقه السياسى المعاصر – منظمة سياسية تعد نفسها لتحمل مسئولية الحكم فى مجتمع يغيب فيه الحكم الرشيد.

والأسباب التى كانت وراء فكرة تنظيم مثل هذه الأحلاف هى أن الحماية للإنسان العربى فى العصر الجاهلى كانت تعتمد على التبعية ولاتعتمد على الحق أو العدل، بمعنى أنه لم تكن يومذاك حكومة تفصل بين الناس وتتحمل مسئولية تثبيت الأمن والاستقرار، وإنما كانت هناك قبائل تقوم على نظام الثارات وحماية أفرادها ظلماً وعدلاً، فإذا قتل أحد أفراد قبيلة ما .. عُدّت قبيلة القاتل هى المسئولة، وحق على قبيلة المقتول أن تدافع عن شرفها وكرامتها فى مواجهة قبيلة القاتل. وهكذا كانت تثار الحروب بين القبائل العربية المتخالفة. يقول السهيلى المؤرخ العربى: إن بدوياً قدم إلى مكة أثناء الحج ومعه ابنته الصبية من الجنوب، فتسلط عليه أحد التجار الأثرياء وصادر ابنته. ولم يجد الأب إلا أن يعود إلى قبيلته يستحث رجالها على حمل السلاح ليسترد شرفه المهدور فى مكة، ولكنه تذكر أن قبيلته قليلة العدد ولاتقوى على محاربة قريش. وقد اطلع محمد (ﷺ) فى تلك الأثناء على ظلامة الرجل، فطالب رجال قريش بألا يقبلوا مافعله التاجر القرشى. فاجتمع عدد من شباب قريش قرب الكعبة وأقسموا قسماً قالوا فيه: « نُقسم أن نحمى المظلوم حتى يستعيد حقه من الظالم ونقسم ألا يكون لنا هدف معين وراء هذا العمل. ولايهمنا أن يكون المظلوم فقيرا أو غنياً ». وبعد أن أقسم الرجال قسمهم – ومعهم محمد (ﷺ) – غسلوا الحجر الأسود بماء زمزم وشربوا من هذا الماء حتى يثبت قسمهم. وبعد ذلك ذهب محمد (ﷺ) وصحبه الشباب إلى منزل التاجر الثرى الظالم وحاصروا منزله وطالبوه بإعادة الفتاة التى صادرها غدرا فقال لهم التاجر : أنظرونى ليلة، وغدا صباحاً أعيدها إلى أبيها. ورفض الشباب كلامه، وفرضوا عليه تسليمها إلى أبيها فوراً. فما كان منه إلا أن أطلق سراحها.

وحادثة أخرى قام بها شباب حلف الفضول لنشر الأمن والاستقرار فى ربوع مكة، اشترى أبو جهل بضاعة من تاجر غريب، ولكنه امتنع عن تسليم ثمنها. ولم يكن التاجر الغريب يعلم بوجود كتيبة من الشباب اسمها « حلف الفضول »، فعاد إلى قبيلته واستنهضها فلبت وقدمت إلى مكة. ولما كانت القبيلة قليلة عدد الرجال لم تستطع أن تتصدى لقبائل قريش العشرة. وحين علم محمد (ﷺ) بهذا، ذهب إلى منزل أبى جهل وطالبه بدفع قيمة البضاعة فورا. وحاول أبو جهل أن يتململ ولكنه أذعن أخيرا إلى دفع ثمن البضاعة بعد أن أصر الرسول على دفعها فورا.

واشتهر أمر حلف الفضول وغدا المرجع العدل لحل قضايا المظلومين. وقال رسول الله (ﷺ) فيما بعد : لقد كنت سعيدا فى حلف الفضول كثيرا، بحيث لو أنهم عرضوا على مائة جمل أحمر الوبر على أن أترك عضويتى فى هذا الحلف لما قبلت. وكانت فكرة إيجاد « حلف الفضول » من قبل رسول الله (ﷺ) قبل البعثة ذات أهمية كبيرة، لأنه استطاع بهذا الابتكار أن يُحدث انقلابا فى استرداد الحقوق وإقرار الاستقرار[١] .

ولكن حينما جاء الإسلام وشكل نظاماً سياسياً للحكم من أجل دعم الاستقرار والأمن فى ربوع المجتمع، أمر القرآن الكريم بإلغاء أحلاف الفضول وجعل الحكومة الإسلامية بمثابة الحلف الوحيد الذى يقوم على إدارة شئون المسلمين.

رسالة السماء.. فى غار حراء

يقع غار حراء الذى تبلغ فيه محمد بن عبد الله ﷺ رسالة الإسلام فى جبل النور بمكة المكرمة، وجبل النور يقع فى قلب مكة ويبعد بنحو ألف وخمسمائة مترا عن بيت محمد ﷺ.

ويقول الجغرافيون والمؤرخون العرب أن الغار نشأ بسبب عوامل التعرية وسقوط بعض الأحجار من مكانها وتجمعها فوق بعضها بعضا، والغار مرتفع بحيث يمكن للمرء أن يقف داخله من غير أن يصطدم رأسه بسقفه. كما يبلغ عمقه مسافة تسمح للمرء بأن يستلقي فيه وينام . وتطل فتحة الغار صوب الكعبة ، ولقد زرت شخصيا الغار حينما كنت صغيرا ثم زرته وأنا أكتب هذا الكتاب واعترتنى مهابة الموضع والموقع.

---

(١) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جزء أول، ص١٩٢-٢٠٥ .



صورة حديثة للمؤلف وهو يقف عند سفح جبل النور بمكة المكرمة ويطالع قمة الجبل مع أحد سكان المنطقة الذى كان يشرح كيف كان سيد البشرية محمد ﷺ يصعد إلى الجبل ليتلقى وحى السماء فى غار حراء مبشرا الدنيا كلها بمقدم الدين الإسلامى الحنيف.

ويمكن لكائن من كان أن يصعد إلى الغار اليوم ولكن لايبلغه إلابصعوبة كبيرة ولاسيما فى فصل الصيف الذى تشتد فيه الحرارة إلى درجة يصعب معها التجول فى شوارع مكة.

ولقد بدأ القرآن الكريم ينزل على محمد ﷺ بدين الإسلام الحق فى إحدى الليالى، بينما كان محمد ﷺ فى غار حراء ملتفا بعباءته ،متمددا فيه، فإذا بهاجس يوقظه، ويعرض عليه نمطا من ديباج، كما ذكر ابن هشام فى كتابه. ويتابع ابن هشام فيقول بأن ذلك النمط قماش حريرى كتب عليه بعض الكلمات المكتوبة بماء الذهب. وقد كان يسطع من ذلك الرجل الذى أيقظه نور مشرق. وبعد أن أيقظه ذلك الشخص أراه ذلك النمط الحريرى وقال :« اقرأ ». فأجاب محمد: « ما أنا بقارئ » . فوضع ذلك الشخص يده على كتف محمد، وأعاد عليه قوله: « اقرأ ». وكان جواب محمد ﷺ: « ما أنا بقارئ». ويقول ابن هشام إن ذلك الشخص وضع يديه الاثنتين على كتفى محمد ﷺ، وضغط بهما وقال: «اقرأ »، فتألم محمد ﷺ من هذا الضغط الذى لقيه من ذاك الشخص وكادت قوته تنهار. فسأله: وماذا أقرأ ؟ قال الذى أيقظه من نومه: « اقرأ باسم ربك الذى خلق »[1].

ولقد اتفق العلماء المسلمون على أن المقصود من: ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ أن يذكر اسم الله كلما أراد تلاوة شئ من القرآن الكريم، ولهذا السبب بدأت كل سورة بالبسملة.

ويقول محمد ﷺ عن زوجه خديجة: وبعد أن غاب ذلك الشخص توقفت، ولكن ركبتى ناءتا بحملى حتى أننى لم أصبر على الثبات واقفا فتريثت فى مكانى إلى أن عادت إلى بعض روحى ، فاستطعت النهوض ، فخرجت من الغار أعدو وكانت كتفاى ترتجفان حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: «يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل » قال : فرفعت رأسى الى السماء ، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء ، يقول (ثانية) : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى، ولا أرجع ورائى ، وحين أحسست بالإرهاق حملت نفسى على العودة إلى المنزل ». وتحكى خديجة أن محمدا ﷺ: عندما وصل إلى المنزل كان لونه متبدلا وتبدو عليه علائم الاضطراب[1].

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩)، ص ١١٨ - ١٢٠.

وعندما رأته خديجة على هذه الحالة ، أمسكت بذراعه ، وسألته عن الذى جرى له حتى جاءها بهذا الإرهاق والتعب . فحكى لها محمد ﷺ كل ما جرى معه وقال لها: إننى خائف . فسألته : ولم أنت خائف ؟ فقال: لها دثرينى. فغطته بدثار حتى يستريح ويهدأ روعه.

ولم يستطع محمد ﷺ المدثر أن يهدأ وينام، وبعد ثلاثة أيام عاوده جبريل مرة ثانية وقال له: ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾

كانت كل آية تنزل على محمد ﷺ من قبل جبريل تنقش فى ذاكرته. وبعد أن أدى جبريل رسالته . وهدأ روع محمد ﷺ انطلقت به خديجة الى ابن عمها « ورقة بن نوفل » وعندما دخلت خديجة ومعها محمد ﷺ إلى منزل ورقة كانت أخته منشغلة بقراءة الإنجيل. وقص محمد ﷺ على ورقة ما جرى معه فى غار حراء، ثم كيف نزلت عليه ﴿ ياأيها المدثر﴾. فقال له: لا شك أن هذا الكلام كلام الله ، « لقد جاءك الناموس الذى كان يأتى موسى وعيسى »[(١)].

وتشير بعض الروايات أن آمنة بنت وهب أم رسول ﷺ قالت:

أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد، من شر كلِ حاسد ، ثم سميه محمدا. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصْرَى من أرض الشام ثم لم يلبث عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ أن هلك وأم رسول الله ﷺ حامل به.

وقال حسان بن ثابت:

والله إنى لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود ! حتى اذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك! مالك! مالك؟ قال: طلع الليلة نجم « **أحمد** » الذى ولد به[(٢)].

---

(١) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق، ص٢١٠-٢١٢.

(٢) عبد السلام محمد هارون ، تهذيب سيرة ابن هشام (القاهرة : مكتبة السنة ، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م)، ص ٣٦.

وتابع محمد ﷺ ذهابه إلى جبل النور ، وانزواءه فى غار حراء كل ليلة. ولكن ذلك الرجل الذى أيقظه من نومه فى الليلة الأولى لم يأته . وكرر ذهابه إلى الغار، من غير أن ينعم بذلك الصوت. وكان محمد ﷺ بعد أن يحل الظلام ، يترك خديجة فى منزلها، ويصعد إلى جبل النور ثم يتجه نحو غار حراء ، منتظرا ظهور جبريل. وكثيرا ما يظل فى الغار حتى الصباح . ثم غدا يمضى ليله ونهاره فى رأس جبل النور .. ولكن جبريل لم يظهر له.

وفى إحدى الليالى وبينما كان محمد ﷺ مستلقيا على أرض الغار، حزينا، سمع صوت جبريل الحبيب إلى قلبه، يقول له: يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

فنهض محمد ﷺ جالسا ، منتظرا عودة جبريل إليه بعد هذه الجملة ، ولكنه لم يعد، ولم يقل له شيئا. وعاد فى صبيحة اليوم التالى ، فلاحظت خديجة أن زوجها مسرور، وقال لها : لقد سمعت ليلة أمس صوت جبريل، ولهذا فأنا سعيد اليوم، وهذا يثبت أن الله لم ينسنى .

ومنذ ذلك الوقت - ولمدة ثلاث سنوات - كان محمد ﷺ يذهب إلى غار حراء كل ليلة حتى الصباح يفكر بالله، وأحيانا يسمع صوت جبريل، يقول له: « يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل ». ولم يكن يسمع غير هذه الجملة. فكان يمضى الليل كله يفكر فى الله، وبمغزى هذا الكلام المنزل عليه. ورغم أن القرآن لم ينزل على محمد لمدة ثلاث سنوات على رأى الكثير من علماء الحديث إلا أن محمد ﷺ ظل يذهب إلى غار حراء كل ليلة.

وفى إحدى الليالى ، بعد مرور ثلاث سنوات . ظهر جبريل لمحمد ﷺ، وأبلغه سورة «الضحى » من عند الله ، وهى السورة الثالثة والتسعون[1] .

النبى عليه السلام، ثم الرسول ﷺ

بعد أن نزلت سورة « والضحى » بدأت مرحلة الدعوة فعلا. كان محمد ﷺ فى مرحلة النبوة « نبيا »، وغدا بعد نزول « والضحى » رسولا لله. فالنبى هو الذى يبشر الناس أويطلعهم على أمر الله ، والرسول هو الذى يبلغ قوانين الله إلى خلق الله، يتابعها ويشرف على

(١) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢١٠ - ٢١٥.

تنفيذها.ولذلك فإن الكثير من العلماء يقدرون أن مرحلة النبوة سابقة لمرحلة « الرسالة ». ويقولون إن « النبى » يبشر الناس، والرسول يبلغهم أوامر الله وقوانينه. ويقود مواكب الإسلام والمسلمين كقدوة وقائد يحتذى.

تتميز « والضحى » بأنها جاءت لتؤكد الدعوة وتثبت الرسالة السماوية على محمد ﷺ، لأنها جاءت خاتمة لمرحلة الفتور، فقد قدر الله تعالى أن مرحلة الفتور جعلت رسوله حزينا مكلوما. لذلك جاءت هذه السورة داحضة هذا الحزن، موضحة محبة الله والرسول ﷺ وقد بدأت الآية الأولى بقسم الله لنبيه: ﴿ والضحى * والليل إذا سجى ﴾. ولقد أقسم الله لرسوله (فى مطلع السورة) بقسمين : الأول هو القسم بشروق الشمس ، والآخر بحلول الليل. فعندما يقرأ الإنسان آية كهذه، يتجلى له فيها شروق الشمس وطلوع صبح يوم ربيعى تتفتح أكمامه وأنواره المشرقة على ربيع الأرض. ﴿ والليل إذا سجى ﴾ هو القسم الثانى، وهو،كالقسم الأول، ذو معنى مجازى أوسع من المعنى الظاهرى .

وفى الآية التاسعة من هذه السورة يحض الناس على لسان نبيه فيقول :﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾، ويخاطب الله تعالى محمدا ﷺ فى الآية : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ وفى هذة الآية يجبيب الله على قلق محمد ﷺ ، فيقول له : كنت مضطربا ، وتظن أن إلهك بعد أن اختارك حبيبا له عافك وتركك، ومثل هذا غير وارد أصلا، فلن يتركك الله لأنك حبيبه ورسوله[(١)].

التبشير بـ محمد ﷺ
فى الكتب السماوية السابقة

لا شك أن المرء حينما يفكر فى تكليف يجئ من عند الله وليس من عند البشر.. ينبهر بضخامة المسئولية، ويرتعد من عظمة هذه المسئولية، لأنه يتحمل تكليفا ربانيا بتغيير نظام الحياة والكون وقيادة البشرية جميعا على أسس جديدة من النظام والترتيب ﴿وما كان

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ١١٨ – ١٣٠.

لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء﴾[١] ﴿قال رب أرنى أنظر إليك، قال لن ترانى ﴾[٢].

وبذلك تقتضى حكمة الله أن يصطفى رسلا من البشر يحملون الرسالة السماوية ويوجهون البشر نحو الخير والعمار وينأون بهم عن الشر والدمار.

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشرى؛ لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله ويقومون بأضخم مهمة فى الوجود، وهى مهمة إرشاد الإنسان طريقه الصحيح ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾[٣] ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[٤] ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾[٥].

والرسول محمد ﷺ نزل فى القرآن الكريم بأسماء كثيرة فيها محمد وأحمد والمصطفى وياسين ... ولكنى – مع ذلك – اخترت لهذا الكتاب اسم أحمد ﷺ، لأننى فى هذا الكتاب أتصدى لحولية جديدة من حوليات الفكر الغربى التى أخذت فى الماضى والحاضر والمستقبل.. توجهات مختلفة لمحاربة رسول الإسلام ونظام الحكم، كما أتصدى للمستشرقين المكابرين الذين يجادلون فى كل ما أدخله محمد ﷺ على النظام الدولى بالتشكيك تارة وبالتكذيب تارات أخرى .

يضاف إلى ذلك أن أحمد ﷺ هو الاسم الذى بشرت به الكتب السماوية التى يدين بأديانها الغرب الحديث (التوراة والإنجيل)، فكان من المستحسن أن نستخدم هذا الاسم حتى يكون للدراسة وقع أقوى على طروحات الفكر الغربى المعاصر، ويكون فيها الكثير من الموضوعية العلمية والمصداقية الإنسانية[٦] .

---

١ – سورة الشورى (٥١).

٢ – سورة الأعراف (١٤٣) .

٣ – سورة آل عمران (٧٩).

٤ – سورة البقرة (١٥١).

٥ – سورة النساء (١٧٢).

٦– د. ممدوح جاد، المسيح فى الانجيل بشر (القاهرة: بدون ناشر، ١٩٩٣)، ص ١٩٥ – ٢٠٥.

إن القرآن الكريم ذكر بوضوح وفى أكثر من سوره أن الكتب السماوية السابقة قد بشرت بمحمد ﷺ : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾[1].

﴿ ورحمتى وسعت كل شئ ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاةوالذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعواالنور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[2].

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ﴾ [3].

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[4].

والدارس للنصوص التاريخية التى تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثناءها يلاحظ أن الناس الذين كان لهم صلة بكتاب سماوى كان واضحا فى أذهانهم أنه سيبعث نبى، وكانوا يرتقبون ظهوره، وأن بعضا من علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد اجتماعه بهذا النبى ﷺ .

ومن ذلك القصة التى يرويها البخارى عن أبى سفيان عندما استدعاه هرقل فى بلاد الشام إذ يقول هرقل فى آخرها: « وقد كنت أعلم أنه خارج نبى ولم أكن أظن أنه منكم».

ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حيى أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء ، غدا عليه أبى حيى بن أخطب وعمى أبو ياسر مغلسين ، فلم يرجعا حتى كاد غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما فما التفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم، فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ - أى المبشر به فى التوراة - قال: نعم والله ، قال: أتثبته وتعرفه. قال : نعم، قال : فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت أبدا » .

---

١ - سورة الصف (٦). ٢ - سورة الأعراف (١٥٦، ١٥٧).

٣ - سورة البقرة (٨٩) . ٤ - سورة البقرة (١٤٦).

ومن ذلك قصة إسلام عبد الله بن سلام وكان حبرا عالما من أحبار اليهود قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له فكنت مسرا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ،وعمتى خالدة ابنة الحارث تحتى جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله.. والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت . قال فقلت لها : أى عمة . هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به، قال فقالت: فذاك إذن . قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا ..

ومن ذلك قصة النجاشى وموقفه من أصحاب السيد الرسول ﷺ فى هجرتهم إليه وقوله بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد لإخراجهم:

« .. أشهد أنه رسول الله وأنه المبشر به عيسى فى الإنجيل ».

وقد اشتهر حديث اليهود للأوس والخزرج عن خروج نبى، وكان ذلك من جملة العوامل التى جعلت هذا الاستعداد الكبير عند الأوس والخزرج للدخول فى دين الله أفواجا(١) .

وكما جاءت البشارة بـ أحمد ﷺ فى التوراة، جاءت واضحة أيضا فى الأناجيل.

يقول المسيح لحوارييه (يوحنا ١٦ : ٧) فى معرض تبشيره بـ أحمد رسول الله ﷺ:

Neverthless I tell you the truth, it is expendient for you that I go away, for if I go not away, the "comforter" will not come ento you, but if I depart, I will send him unto you.

وترجمتها بالعربية:

لكنى أقول لكم الحق، أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم «المعزي»، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم(٢) .

ويستخدم انجيل يوحنا فى الآيات ١٤ : ١٦، ١٥ : ٢٦، ١٦ : ٧ كلمة المعزى Comforter كترجمة للكلمة اليونانية باراكليتوس ومعناها الشفيع أو المدافع أو المحامى أو المؤيد.

---

١ - سعيد حوى، الرسول ﷺ (القاهرة : مكتبة وهبة ، بدون تاريخ) ،ص ٤٣٩ .

٢- أحمد ديدات، محمد ﷺ الخليفة الطبيعى للمسيح، ترجمة رمضان الصفناوى (القاهرة: المختار الإسلامى، ١٩٩١)، ص ٢٨ - ٢٩ ، ص ٣٨ - ٣٩.

ويقول المتخصصون فى اللاهوت إن باراكليتوس Paracletos هي تحريف فى القراءة للكلمة الأصلية بيريكليتوس Periclytos ومعناها فى اليونانية أحمد أو محمد أو محمود أو الحمد أو الممدوح The Praised One[1].

ومن الأقوال التى وردت على لسان المسيح فى التبشير بنبـوة محمد ﷺ قوله (يوحنا ١٤ : ٢٦):

But the comforter which is the holy spirit whom the father will send in my name, he shall teach you all things and bring all things to your re-memberance what so ever I have said unto you.

ومعناها بالعربية:

وأما المعزى الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شئ ويذكركم بكل ما قلته لكم[2].

ويضيف المسيح قائلا:

وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخـر ليمكـث معكـم إلـى الأبـد (يوحنا ١٤ : ١٦)[3].

ويؤكد العلامة أحمد ديدات فى معرض بحثه عن نبوة محمد فى الانجيل إن هناك نبوءة خاصة بنبينا الكريم «أحمد» بالإسم، وحتى لو قرأناها «باراكليت» (بارقليط أو فارقليط Paraclete)، فإنها تشير إلى النبى الكريم محمد ﷺ (المبعوث) رحمة للعالمين[4].

والخلاصة . إنه يصعب على الفكر الغربى المعاصر أن يشكك فى رسالة محمد ﷺ بعد أن استغرق البحث فيها قرونا طويلة ، ومع الوقت الذى استغرقه انتهى إلى أن نبوة محمد صحيحة، وأنها جاءت ثابتة فى الكتب السماوية التى يدين بأديانها هذا الغرب المعاصر، وأنه لذلك لا مجال للتشكيك المريب.

وفى متابعتنا لموضوعات هذا الكتاب فى الأبواب والفصول القادمة ما يؤكد موضوعية الطرح السياسى الذى جاء به محمد ﷺ للناس أجمعين، حتى استطاع أن يغير نظاما دوليا كان جاثما بأثقال الظلم على النظام الدولى العام، حتى بات لايستطيع أن يخلف إلا التخلف والحروب والدمار .

---

١ - أحمد ديدات، محمد ﷺ المثال الأسمى، ترجمة محمد مختار (القاهرة: المختار الإسلامى، بدون تاريخ)، ص ٣٠ - ٣١.

٢- أحمد ديدات، محمد ﷺ الخليفة الطبيعى للمسيح، المرجع السابق، ص ٤٦.

٣- أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص ٥١.

٤- أحمد ديدات، محمد ﷺ المثال الأسمى، مرجع سابق، ص ٣٢ - ٣٣. إقرأ أيضاً لأحمد ديدات بحثه عن ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ. وهو من منشورات المختار الإسلامى بالقاهرة.

الفصل الثانى

النظام الدولى

قبل بزوغ فجر الإسلام

الدول العظمى السائدة فى العالم
قبل بزوغ فجر الإسلام

قبل أن يشع نور الإسلام من بطاح مكة، كانت الدولتان الرومانية والفارسية تمثلان قطبى النظام الدولى فى ذلك الوقت. وكان التنافس بين هاتين الدولتين على التوسع واحتلال المزيد من مناطق النفوذ على أشده حتى بلغ أطراف البلاد العربية بدءا بما كان يعرف باسم دولة الغساسنة التى كانت تسيطر عليها الدولة الرومانية والتى تعرف اليوم ببلاد الأردن والعقبة، وكذلك كانت دولة الفرس تضع تحت نفوذها دولة عربية هى دولة المناذرة، كما كان نفوذ الدولتين العظميين الرومانية والفارسية يمتد إلى أطراف الجزيرة العربية بدءا بالحبشة حتى اليمن فى جنوبى غرب الجزيرة العربية(1).

أوربا قبيل البعثة المحمدية

فى أواخر القرن السادس وبداية السابع الميلادى بينما كانت كبريات جماعات الجرمان المهاجرة من شمال وشرق أوروبا قد استقرت فى مواطنها الجديدة على أراضى الدولة الرومانية فى الغرب، كانت قبائل الأنجلو سكسون قد استقرت فى إنجلترا وهم الإنجليز، وكانت قبائل الفرنجة قد غلبت الكلت واستقرت فى بلاد غالة، فى حين انتقلت قبائل القوط الغربيين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية واختلطت بمن سبقهم إليها من السويف والآلان والوندال، وقامت هناك دولة القوط الغربيين، وعاصمتهم «طليطلة» واستقرت قبائل البرغنديين فى حوض الرون، وأقامت لنفسها مملكة هناك، واستقرت قبائل القوط الشرقيين «الأوستروجوث» فى شبه الجزيرة الإيطالية واللومبارد فى شمالها، وأقامت كل من هذه القبائل مملكة لها جرمانية الشكل لاتينية الحضارة.

ومعظم هذه الممالك- فيما عدا الفرنجة والكلت الإيرلنديين- كانت مسيحية على المذهب الأريوسى المخالف تماماً للمذهب الكاثوليكى، الذى كانت تبشر به البابوية فى روما، وفى سنة ٥٩٠م أى بعد مولد محمد رسول الله ﷺ بعشرين سنة، تولى البابوية القس هلدبراند،

١- لواء أركان حرب عبد الحميد على شرف، الصراع الكبير بين الشرق والغرب ومراحل تطوره عبر ١٣ قرناً (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢)، ص ٩ - ١٥.

الذى أخذ الاسم الكنسى جريجورى السابع، وبدأ صراع البابوية الدينى الطويل مع كل المذاهب غير الكاثوليكية فى أوروبا، وكذلك بدأ صراع الكنيسة الكاثوليكية مع الدول الجرمانية، وقد نجحت البابوية بفضل نشاط جماعات الرهبان العاملين فى خدمتها فى إدخال معظم الممالك الجرمانية فى المذهب الكاثوليكى، وبخاصة مملكة القوط الغربيين «الفيزيجوت» فى شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث كان الصراع بعد ذلك مع العرب.

وجدير بالملاحظة هنا أن القوط الغربيين دخلوا إسبانيا واجتاحوا من كان قد دخلها قبلهم من الجرمان، وسادوا أهلها من الأيبيريين الرومان ابتداء من سنة ٤١٠م أى أنهم سبقوا المسلمين إلى الدخول فيها بثلاثة قرون، ولم يتحول ملوك القوط إلى الكاثوليكية إلا سنة ٥٨٧ ميلادية أى قبل دخول المسلمين شبه الجزيرة بقرن وربع (١٢٤ سنة علي وجه التحديد) وقبل ذلك كانوا فى نظر الكنيسة هراطقة أو كفاراً خارجين على الدين، فالكاثوليكية ليست سابقة علي الإسلام فى شبه الجزيرة بزمن طويل، وطليطلة نفسها لم تصبح عاصمة شبه الجزيرة إلا سنة ٥٦٠ ميلادية، فهى لم تسبق قرطبة عاصمة لشبه الجزيرة إلا بقرنين ونصف من الزمن، وأول المجامع الدينية الكاثوليكية الكبيرة فى شبه الجزيرة كان مجمع طليطلة الثالث سنة ٥٨٩م وإشبيلية لم تصبح مقر أسقفية كاثوليكية فى إسبانيا إلا سنة ٥٩٩م، وهذه كلها تواريخ تجعلنا نعيد النظر فى علاقة شبه الجزيرة بالمسيحية والإسلام، فإن الانطباع السائد هو أن المسلمين اقتحموا شبه الجزيرة على بلد مسيحى كاثوليكى من زمن طويل، بل الحقيقة أن القوط أنفسهم لم يختلطوا بأهل البلاد ولا انصهروا فى سكان الجزيرة انصهاراً تاماً حتى دخول المسلمين، ومن هذه الناحية كان العرب المسلمون أنجح من القوط، فبعد قرن ونصف من الزمان كان البلد عربى الطابع شرقى الحضارة، فى حين أنه لم يكن قط قوطياً، وهذه كلها حقائق تدعونا إلى إعادة النظر فى وضع الإسلام، وعلاقة الحضارة العربية بتلك البلاد.

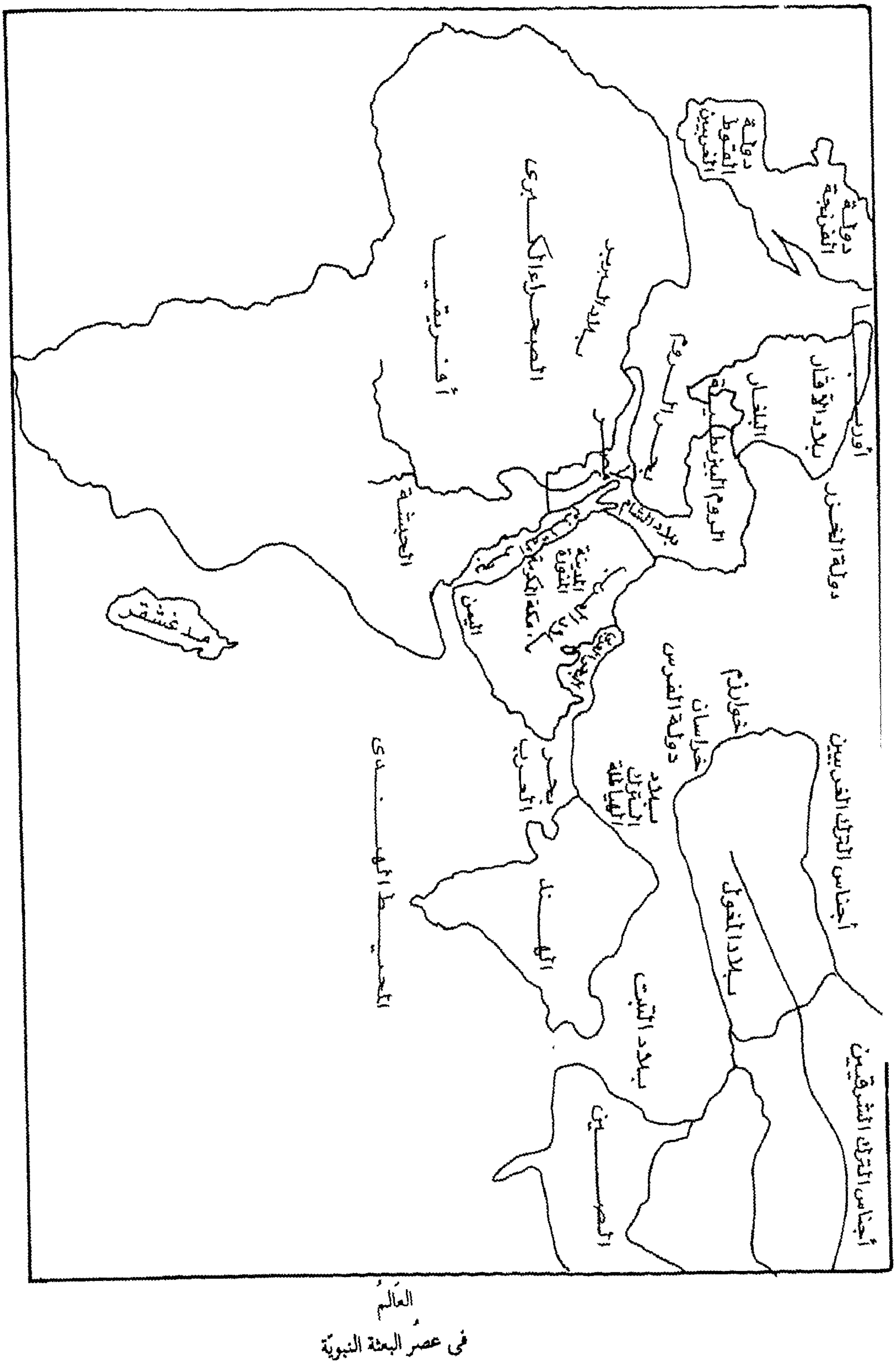
أما وسط شبه الجزيرة وما يليه شرقاً من بلاد الجرمان فلم يكن محدد الملامح من الناحية السياسية أو الدينية، وبعد قرنين من بدايات القرن السابع شن شرلمان أكبر ملوك أوروبا الكاثوليكية حرب إبادة على الجرمان، فيما يلى نهر الراين شرقاً، لكى يرغم الجرمان على دخول الكاثوليكية، وبعد قرن واحد من وفاة شرلمان قام أباطرة الهوهنشتاوفن الجرمان بنفس الحرب العنيفة على الصقالبة أهل شرق أوروبا، لينتزعوا منهم الأراضى حتى نهر الدنيبر[1].

١- د. حسين مؤنس، الأطلس الإسلامى (القاهرة: دار الزهراء، ١٩٩٠)، ص ٤٨.

أما فى شرق أوروبا سنة ٦١٠ ميلادية، وهى سنة البعثة المحمدية، فإننا نشهد ميلاد الدولة الهرقلية من دول الدولة البيزنطية، فقد تولى هراكليوس بن هراكليوس الذى كان والياً على إفريقية البيزنطية عرش بيزنطة، وتولى بعث الدولة سياسياً وعسكرياً، وأعلن الحرب على الفرس الساسانيين، واستخلص منهم بلاد الشام ومصر، وجزءاً كبيراً من أرض الجزيرة، وهذه حوادث هامة تنبأ بها القرآن الكريم كما نرى فى أول سورة الروم وهى رقم (٣٠) من سور القرآن ﴿الم* غلبت الروم* فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون* بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ وقد كان جستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧ – ٥٦٥م) قد حاول إعادة الدولة الرومانية الغربية اللاتينية، واجتهد فى ذلك، واستعاد ولاية إفريقية من الوندال، وكذلك استعاد صقلية وجزءاً كبيراً من إيطاليا، ولكنه فشل فى النهاية، وعندما قامت دولة هرقل انتهى هذا النزوع إلى إحياء الدولة الرومانية اللاتينية القديمة، واتجه اهتمام أباطرة القسطنطينية إلى تأكيد حقيقة أن الدولة البيزنطية دولة شرقية هيلينية أو إغريقية الطابع أرثوذكسية المذهب، وهذا هو المذهب الذى نسميه نحن بمذهب الروم الأرثوذكس، الذى ترأسه كنيسة القسطنطينية. ومنذ أيام هرقل أى من نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادى تبدأ عملية صبغ الدولة البيزنطية وكل ما تسيطر عليه من بلاد وشعوب بالطابع الإغريقى أو مايسمى عادة باسم Hellenisation of the East ولم تعد تلك الدولة تسمى بالإمبراطورية الرومانية الشرقية.

ومعنى ذلك أن النصف الأول من القرن السابع الميلادى الذى شهد مولد الإسلام، شهد أيضاً بداية تطورات سياسية ودينية واثنوجرافية واسعة المدى فى شرق أوروبا وغربها على السواء، وسيكون على المسلمين– الذين ستتسع دولتهم خلال القرن السابع الميلادى كله، ويدخلون غرب أوروبا فاتحين للأندلس فى أوائل القرن الثامن سنة ٧١١م– أن يواجهوا الإمبراطورية البيزنطية الهيلينية فى الشرق، ودولة الفرنجة تؤيدها البابوية فى الغرب، ويكون ذلك الصراع على مصير الغرب الأوروبى الذى ينحسم لصالح المسيحية الكاثوليكية فى معركة بواتييه سنة ٧٣٢م، وتقتصر سيادة الإسلام فى الغرب على شبه الجزيرة الأيبيرية(١).

١– د. حسين مؤنس، الأطلس الإسلامى، المرجع السابق، ص ٤٨.



العالَمُ
فى عصرُ البعثة النبويّة
أوائل القرن السابع الميلادى

بلاد فارس قبل البعثة المحمدية

أما فى الشرق الأسيوى فإن الفرس الساسانيين كانوا عند ميلاد الإسلام سادة هضبة إيران حتى نهر المرغاب شرقاً، وكان قلب إمبراطوريتهم فى بلاد العراق وعاصمتهم المدائن التى تسمى طيثفون Ctesiphon على نهر دجلة، وكان الفرس وثنيين مجوساً يعبدون النار، وكانت الحرب بينهم وبين الدولة الرومانية الشرقية، ثم دولة الروم البيزنطيين طويلة.

وكما أن الروم الذين كانوا يسودون غربى بلاد الشام بما فى ذلك فلسطين ويضعون تحت حمايتهم دولة عربية موالية لهم هى دولة الغساسنة التى كانت تسيطر على ما يعرف الآن ببلاد الأردن وبعض الأراضى شماله، كذلك كانت دولة الفرس تتخذ لها فى شرقى جنوب العراق دولة عربية، هى دولة المناذرة اللخميين وعاصمتها الحيرة، وكان الحد الفاصل بين جزيرة العرب وبلاد الشام – وهو خط يمتد تقريباً من أبلة إلى الحيرة– مسكوناً بقبائل عربية تسمى فى الغرب بعرب الروم أو العرب المتنصرة، أما فى الوسط فكانوا يسمون بعرب الضاحية أو ضاحية قضاعة.

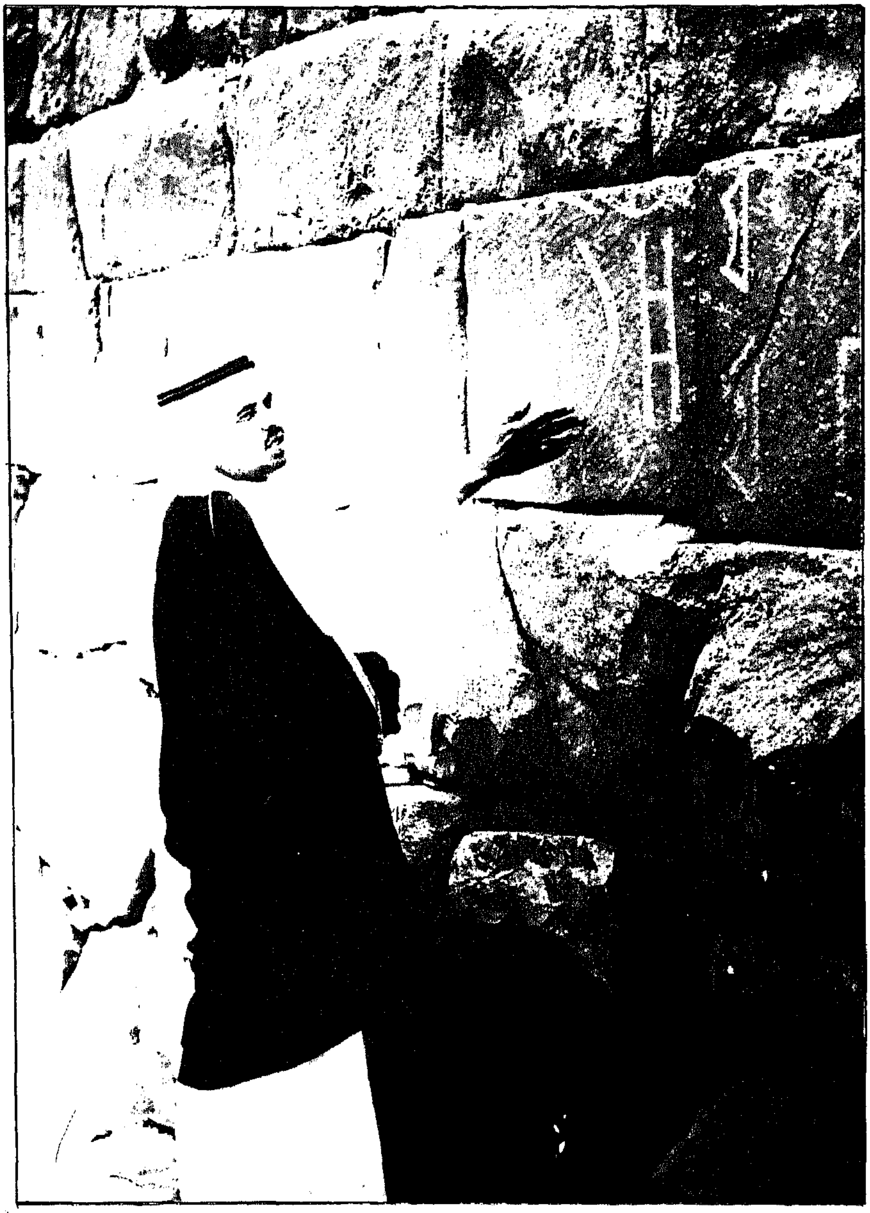
وكانت دولة الفرس الساسانيين التى كانت تحكم الهضبة الإيرانية فى عصر البعثة المحمدية، قد شاخت وتفككت عرى وحدتها، ودخلت فى دور التدهور، وليس أدل على ذلك من أنه تعاقب على عرشها، من أواخر القرن السادس الميلادى إلى تمام قضاء المسلمين عليها سنة ٣٢هـ = ٦٥١م– وهى سنة قتل يزدجرد آخر ملوكها عدد من الأكاسرة(١).

الأنظمة السياسية فى بلاد العرب قبل البعثة المحمدية

لقد امتد التنافس بين الدولة الرومانية والدولة الفارسية إلى محاولة تصدير الدين المسيحى والدين المجوسى إلى بلاد العرب. بالنسبة للدولة الرومانية كانت الديانة المسيحية إحدى التداعيات الهامة التى تهتم بنشرها فى بلاد الحبشة وبلاد اليمن حتى أصبح فى نجران جالية نصرانية قوية، وجالية يهودية مازالت تسكن نجران حتى اليوم. ولقد زرت نجران مؤخرا – وهى أحدى مدن المملكة العربية السعودية حاليا – ورأيت الآثار التى ذكرها القرآن الكريم عن أصحاب

---

(١) د. حسين مؤنس، الأطلس الإسلامى، المرجع السابق، ص ٥٠.



المؤلف فى زيارة ميدانية للآثار التى خلفها أصحاب الأخدود فى مدينة نجران السعودية

الأخدود والتى مازالت موجودة حتى اليوم. وكان الروم يرومون من وراء نشر المسيحية فى هذه البلاد أن يكون لهم نفوذ سياسى واقتصادى فيها، فصارت تجارتهم تسير بين الخليج العربى والبحر الأحمر مارة ببلاد اليمن، الأمر الذى استاء منه العرب وحملهم على مضايقة الروم والوقوف فى وجه تجارتهم. ولقد تنبه الفرس فيما بعد إلى ما يرمى إليه الروم من وراء نشر المسيحية فى بلاد اليمن، فعمدوا إلى عرقلة مجهوداتهم فى سبيل تنمية متاجرهم الشرقية، وبعثوا بفريق من جندهم إلى شواطئ الخليج العربى من ناحية حدود جزيرة العرب. ولما علم بذلك قيصر الروم أرسل إلى بنى حمير يحرضهم ضد الفرس فلم يستجيبوا لطلبه، وظلوا يعترضون على تجارة الروم أثناء اجتيازهم اليمن بتجارتهم الهندية مما كان سبباً فى وقوف حركتها.

كذلك انتشرت اليهودية باليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية، واشتد ساعدها فى أوائل القرن السادس الميلادى، ومازالت بقايا جاليات يهودية تعيش فى اليمن حتى اليوم، وتحاول إسرائيل فى هذه الأيام أن تنقل البقية الباقية منهم للعيش فى إسرائيل. وحينما تدين آخر ملوك حمير وهو ذو نواس باليهودية. وكان ذو نواس يمثل الروح القومية فى البلاد، فرأى فى النصارى من مواطنيه مايذكره بسيادة الأحباش المسيحيين. فقام بهجوم عنيف على نجران حوالى سنة ٥٢٢م. ولما بلغ الإمبراطور البيزنطى ماحل بأهل نجران من التنكيل كتب إلى نجاشى الحبشة يحرضه بالإغارة على جزيرة العرب. ولقد استجاب النجاشى لطلب الإمبراطور وجهز حملة تحت قيادة أرياط لفتح بلاد اليمن حتى تغلب أرياط على ذى نواس وقبض على زمام الأمور فى بلاد حمير . وظل يحكم هذه البلاد إلى أن أخذ عليه قواده انحيازه إلى فريق منهم عند توزيع العطاء والغنائم فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه. وبذلك أصبح أبرهة هو نجاشى الحبشة.

لم يلبث الأحباش بعد أن دخلوا بلاد اليمن أن عملوا على نشر النصرانية بين أهلها ، فبنى أبرهة فى صنعاء كنيسة كبيرة - كما سبق أن أوضحنا -تعد من أفخر الكنائس التى بنيت فى ذلك العصر ، وكان أبرهة يطمع فى تحويل حجاج العرب إليها بدلا من الكعبة. فأرسل جيشا لهدم الكعبة بمكة ولكن الله سبحانه وتعالى أرسل طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

ولم يمض وقت طويل على تلك الهزيمة التى منيت بها حملة أبرهة حتى قامت حركة وطنية فى دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش ، وكان على رأس هذه الحركة سيف بن ذى يزن الحميرى الذى استنجد بكسرى الفرس. فقام كسرى بالاستجابة فورا وجهزجيشا فى عام ٥٧٥م تحت قيادة وهرز، وقد تغلب هذا القائد على الأحباش فى اليمن وأنقذ هذه البلاد من حكمهم البغيض، وبذلك دخلت اليمن تحت سيطرة بلاد فارس.

ومن ناحية ثانية فقد ساعدت فارس فلول عرب الحيرة على إنشاء دولة الحيرة فى عام ٢٤٠م لتكون بمثابة خط الدفاع الأول للدفاع عن بلاد فارس وعينت النعمان ملكا على الحيرة، وبعد وفاته عينت على الحيرة إياس بن قبيصة.

بيد أن سيطرة الفرس على اليمن لم تدم طويلا، فقد انسلخت اليمن عنها حين اعتنق « باذان » آخر ولاة الفرس الإسلام ودخل فى طاعة الرسول ﷺ.

وكما أنشأ الفرس ملك الحيرة ، أنشأت بيزنطة ملك الغساسنة – كما ذكرنا– على التخوم البيزنطية لتكون الدرع الواقية من غارات القبائل العربية على الدولة البيزنطية.

غير أن الغساسنة لم يتبعوا المذهب الملكانى مذهب الدولة الرومانية الشرقية، بل اعتنقوا المسيحية على المذهب المنوفستى السائد فى البلاد السورية ببادية الشام(١) .

ونتيجة لهذا الاختلاف المذهبى ، فإن الاتفاق بين الغساسنة والبيزنطيين ظل مع الزمن يفقد مصداقيته، حتى اتسمت العلاقات بين الدولة البيزنطية وحليفتها الصغرى بالتوتر المستمر.

وعموما فإن المسيحية فى القرن السادس الميلادى بدأت هى الأخرى تفقد الأنصار وتتميز بكثرة النحل والملل ، فضعف الالتفاف حولها من كل المجتمعات الأوربية.

وهكذا نرى المسيحية الجديدة التى خلفت المسيحية الحقيقية التى جاء بها المسيح عليه السلام جاءت إلى النفوس قلقة غير مستقرة، بل إنها مضطربة غير ثابتة .

وهكذا كان النظام الدولى فى نهاية القرن السادس الميلادى مضطربا ومهيئاً لدين جديد يحمل معه مقومات قيام نظام دولى جديد يقوم على دين الحق والعدل والسلام(٢) .

١– د. محمد جمال الدين سرور، قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد (ﷺ)، مرجع سابق ص ٣٤.
٢– الإمام محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، المجلد الأول، مرجع سابق ص ٢٨.

الباب الثانى

شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الفصل الأول
المعمار الدينى للدولة الإسلامية المحمدية

الفصل الثانى
المعمار السياسى للدولة الإسلامية المحمدية

الفصل الأول

المعمار الدينى

للدولة الإسلامية المحمدية

مقدمة

يتصف النظام الدولى بالتغير المستمر، ويبلغ التغير أقصى مداه فى فترات التحولات التاريخية المشهودة، حيث يواجه النظام الدولى- بشكل جذرى- تجدد تداعياته ومحاوره فى مجالات كثيرة. ولكن ما يميز النظام الدولى الإسلامى الذى بشر به رسول الإسلام محمد ﷺ.. هو أن النظام الدولى الإسلامى جاء بثوابت ومسلمات لاتقبل التغير، وتتميز بأنها صالحة لكل زمان ومكان ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾. أى أن النظام الدولى الإسلامى وضع قواعد عامة للنظام الدولى، هذه القواعد العامة تتصف - دون سائر الأنظمة الدولية الأخرى- بالصلاحية للتطبيق فى كل فترات التحولات التاريخية.

ولذلك إذا كنا نعيش فى هذه الأيام فى فترة من فترات التحولات التاريخية فيما نسميه اصطلاحاً بـ «النظام الدولى الجديد»، فإننا فى هذا الفصل سوف نناقش بعض أهم المصطلحات والتداعيات التى يتمحور حولها النظام الدولى الإسلامى، لكى تكون مقدمة هامة لدراسة هذا النظام من خلال السيرة النبوية العطرة التى ترتكز تعاليمها على مبادئ الإسلام الذى يتصف بالديمومة والثبات.

لذلك فى هذا الفصل سوف نناقش الإسلام السياسى، القرآن والفرق بينه وبين الدستور، الشورى، البيعة، الدين والدولة، العلمانية، الأصولية، السمات السياسية فى الإسراء والمعراج...

النظام الاسلامى الدولى

تعتبر قضية إقران الإسلام بالإقليمية- لا العالمية- من القضايا التى تتلذذ بإثارتها مراكز البحوث الغربية ومراكز المستشرقين على وجه الخصوص.

ونلاحظ أن هم هذه القضايا هو نفى العالمية أو الدولية عن الإسلام، والزعم بأنه دين نزل على سكان الجزيرة العربية فحسب.

والواقع أن الإسلام لم ينزل على أمة العرب بعينها، ولم ينزل على أمة الإسلام فى ذاتها، وإنما نزل على الناس أجمعين ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[١].

١- سورة سبأ (٢٨).

بمعنى أن الإسلام حينما نزل على رسول ﷺ فى مكة قلب جزيرة العرب، نزل بنظام عالمى جديد تتفاعل فى محيطه جميع الأنشطة التى يمارسها الإنسان فوق الكرة الأرضية.

وهذا ينفى تماما ما يذهب إليه بعض المؤرخين والمستشرقين الذين يتحمسون للقول بأن محمدا ﷺ لم يرسل إلا للعرب وحدهم، وأن فتوح الإسلام خارج الجزيرة العربية وقعت لأسباب اقتصادية وأثنوغرافية خارجة عن صلب الدعوة الإسلامية.

وبالإضافة إلى هذه الآية الكريمة تنتشر عالمية الإسلام فى كثير من سور القرآن والأحاديث النبوية الشريفة بحيث يصعب على المرء أن يشك بأى درجة من درجات الشك أن الإسلام الذى نزل على محمد ﷺ غير عالمى . يقول الله سبحانة وتعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (١) ويقول عز وجل ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ (٢) وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» وقد دعا النبى ﷺ الناس إلى دعوته ، ثم ترك لنا – من بعده– أن ندعو كل الناس إلى هذه الدعوة..

فالنبى ﷺ دعا المشركين إلى الإسلام ، كما دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى الأمة إلى الإيمان، وتجاوز أمته فدعا بدعاية الإسلام عظيم الروم –كما سبق أن أوضحنا– وعزيز مصر وملك الحبشة، وهم مسيحيون، وكسرى الفرس. وكان فى دعواه يتبع أمر الله فى المجادلة بالحسنى والموعظة الحسنة. وقال لأهل الكتاب ما جاء فى القرآن ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون﴾ (٣) .

يقول الرسول ﷺ فى غزوة الخندق: إن أمتى ستظهر على الحيرة وقصور كسرى وأرض الشام والروم وقصور صنعاء ، وبشرالمسلمين بذلك.

وفى ضوء ذلك فإننا نستطيع أن نقول أن دعوة محمد ﷺ كانت تجديدا للدين الذى أراده الله للبشر منذ الأزل حتى الأبد ، كما كانت شريعته رحمة لهم، والقرآن الكريم صحح

١– سورة الأنبياء (٢١ ، ١٠٧).

٢– سورة الاعراف (٧ ، ١٥٨).

٣– سورة آل عمران (٣ ، ٦٤).

ما كان قد فسد فى الأديان (الشرائع) الأخرى ثم ترك الخيار للناس يعتقدون بما يشاؤون أن يحاسبهم الله فيما يختارون ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[2] .

والواقع أن من نظر إلى أحكام الشريعة ذاتها ووقف عندها رأى تغير الأحكام من حكم إلى حكم . أما من يتجاوز الأحكام إلى الدافع عليها والباعث لها فإنه يتجاوز الكون إلى الحركة وينتقل من القواعد إلى المنهاج ، فيرى الشريعة حركة إلى الأمام ومنهاجا إلى الأفضل وحياة إلى الأرقى . وبذلك يرى أن التغيير من حكم إلى حكم هو تطبيق سليم للشريعة فى حركتها المستمرة، وأنه ليس مجرد نقل الناس من قاعدة إلى قاعدة.

إن الشريعة منهاج الدين والطريق الذى يتبعه المؤمنون لتحقيق أهدافهم والسبيل الذى ينتهجه المجتمع للسير على صراط الهدى صوب القدسية والجلالة.

وأحكام الشريعة هى تطبيقات المنهاج على وقائع محددة وأحداث ثابتة، قد تتكرر بعد ذلك فيصح عليها التطبيق مرة ومرة ومرات. لكن إذا ما حدث وتغيرت الوقائع أو استحدثت أحداث فإن التطبيق السليم للشريعة يقتضى التجديد لمواجهة الواقع الجديد ومعاصرة الأحداث المستجدة، على أن يكون من الواضح للجميع أن لا اجتهاد مقدس ولا تفسير معصوم، ولاحكم نهائى ، إنما يستمر الاجتهاد ويتوالى التفسير وتتتابع الأحكام ما دامت الحياة مستمرة وما دامت عجلتها فى تواصل وتقدم حتى تكون الشريعة– على ما أراد الله لها أن تكون – سببا لتقدم الإنسان وازدهار الإنسانية[3] .

ولهذا فإن النظام الإسلامى الدولى يحمل فى طياته إمكانيات زاخرة لمواجهة المتغيرات الدولية التى تتسم بالتغيير فى كل العصور والأزمان ، وهو ما يؤدى إلى القول بأن الإسلام هو دين هذا الزمان وكل الأزمان والعصور.

١– سورة الكهف (١٨ – ٢٩).

٢– سورة البقرة (٢ – ٢٥٦).

٣– المستشار محمد سعيد عشماوى، جوهر الإسلام (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٢)، ص ٣٧.

أسس بناء
العلاقات الدولية الإسلامية

بدأ الإسلام يضع أسس علاقاته الدولية فى عهد الرسول ﷺ من خلال ما يمكن تسميته بـ « دبلوماسية الرسائل »حيث أوفد مجموعة كبيرة من ممثليه إلى عدد من زعماء العالم فى ذلك التاريخ .وما قام به الرسول شخصيا شاهد على عالمية الإسلام.

لقد أوفد الرسول دحية بن خليفة الكلبى وحمله رسالة إلى هرقل ملك الروم يطلب فيها من هرقل اعتناق الدين الإسلامى ..

كما أوفد الرسول ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام فآمن النجاشى وأرسل خطابا إلى الرسول يخبره فيه بأنه أسلم على يد ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب، كما تشير بعض كتب السيرة أن النجاشى أوفد ابنه ومعه ستون من أهل الحبشة إلى شبه الجزيرة العربية ليتعلموا الإسلام ولكن غرقت بهم مركبهم وصلى الرسول صلاة الغائب على ابن النجاشى ومن معه .

وكانت العلاقة بين الرسول والنجاشى حسنة لدرجة أن الرسول أرسل له يطلب منه تزويجه أم المؤمنين حبيبة بنت أبى سفيان حين تنصر زوجها عبيد الله بن جحش ومات نصرانيا بالحبشة، فقام النجاشى بذلك . كما كتب إليه الرسول يطلب عودة جعفر بن أبى طالب ومن هاجر معه فاستجاب لذلك أيضا . وحين مات النجاشى فى العام التاسع للهجرة صلى الرسول عليه صلاة الغائب[1] .

كما أرسل الرسول الكريم عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك الفرس ومعه كتاب يدعوه فيه للإسلام فمزق كسرى الكتاب . وحين علم صلى الله عليه وسلم بذلك قال «مزق الله ملكه » . ولم يقتصر رد فعل كسرى على ذلك بل كتب إلى واليه على اليمن واسمه بازان طالبا منه أن يرسل من عنده رجلين إلى الرسول ليقبضا عليه ويحملاه إلى كسرى. وقد فعل بازان ما أمر به، وحين وصل الرجلان إلى المدينة وقابلا رسول الله وعرف مهمتهما كان الوحى قد نبأ الرسول أن شيرويه بن كسرى انقلب على أبيه وقتله واستولى على ملكه وأن الله استجاب لدعوة الرسول فأخبرهما الرسول بذلك وطلب منهما أن يخبرا به بازان وأن يذكرا له

١ – عثمان عبد عثمان، السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والإستراتيجية العليا فى إدارة الصراع الدولى كما حدد مبادئهما الرسول ﷺ (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٤)، ص ٩٢ – ٩٦.

أن الإسلام سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وأنه إذا أسلم فسيعطيه الرسول ما تحت يده ويجعله ملكا على قومه. وحين رجع الرجلان إلى بازان كان قد وصل كتاب من شيرويه إلى بازان يذكر فيه أنه قتل أباه ويطلب منه ألا يزعج الرجل الذى كتب له أبوه بشأنه - يقصد الرسول - حتى تأتيه تعليمات أخرى. فلما علم بازان بذلك أيقن صدق رسول الله وأسلم هو ومن باليمن من أهل فارس الذين يطلق عليهم اسم الأبناء[1].

وكذلك أوفد الرسول إلى المقوقس عظيم القبط بمصر حاطب بن أبى بلتعة ومعه رسالة يدعوه فيها للإسلام ، ولكنه لم يسلم بل أرسل إلى الرسول بهدية وبمارية المصرية التى تزوجها الرسول بعد ذلك وكان له منها ابنه إبراهيم .

أرسل الرسول كذلك العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين يدعوه للإسلام فأسلم وحسن إسلامه[2].

وهكذا وضع الرسول ﷺ أسسا جديدة للعلاقات الدولية الإسلامية عبر ما يمكن تسميته بـ « دبلوماسية الرسائل ».

الإسلام السياسى

وبهذا المفهوم الذى تحدثنا فيه عن أسس بناء العلاقات الدولية الإسلامية، فإن مفهوم الإسلام السياسى الذى يتداول كثيرا فى هذه الأيام ليس هو مجرد صناعة لانقلابات سياسية وعسكرية بغرض الاستحواذ على السلطة، وليس احتيالاً للوصول إلى الحكم، إنما الإسلام السياسى دعوة وتوعية هدفها الوصول للرأى العام، ومرادها توصيل المنهج الإسلامى فى صفائه وبساطته وشموله إلى عامة المسلمين الذين يظنون أن الإسلام هو مجرد عبادات، وهو فى الواقع ليس كذلك، هو عبادات فى تقوى الله، وكذلك هو أيضاً معالجة شاملة للحياة وشئونها وشجونها، وهو معاملة وعلم وعمل ومكارم أخلاق ورحمة وعدالة ورفق بالضعفاء ومعونة للفقراء وشورى للحكام وديمقراطية ومشاركة شعبية فى القرار[3].

---

١ - قتينة القرناوى ، سيرة الرسول والخلفاء الراشدين الأربعة (القاهرة : مكتبة الآداب ١٤١٤هـ= ١٩٩٣) ، ص١٠٥-١٠٦ .

٢ - المرجع نفسه .

٣- أبو الأعلى المودودى، الحكومة الإسلامية (جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤)، ص٧٣- ٨٦.

بل وأزيد على ذلك أن أكثر الأشكال السياسية مقارنة بالنظام السياسى الإسلامى هو الديمقراطية البرلمانية والرياسة المنتخبة والتعددية الحزبية والمعارضة الواعية المستنيرة واستلهام الشريعة فى وضع النظم والقوانين.

وهو نفس الخط الذى نجتهد فى تبيانة فى هذا الكتاب من خلال وسطية الإسلام. وفى إطار هذه الوسطية سوف يسير نهر السياسة الحر يحكمه شاطئان من القيم الدينية الراسخة.. وفى حماية هذين الشاطئين لن تطغى تلك الحرية فتفيض وتتحول إلى ليبرالية إباحية منحلة كما حدث فى أمريكا وأوروبا . كما أنها لن تتجمد فى داخل حزب واحد وفى يد ديكتاتورية متألهة أو قيادة دينية متحجرةتتعامى عن المتغيرات وتجور على مصالح الناس.. كما حدث فى الاشتراكية والشيوعية البائدة.

إن غليان العالم حولنا لايطمئن. إن الزفة التى يقودها الغرب فى الراهن وقبل أن يُطوى القرن العشرون إنما هى زفة تراهن على نظام دولى جديد يتطاول على مبادئ الإسلام، تارة باسم تصادم الحضارات، وأخرى باسم النظام الشرق أوسطى....ولكن علينا أن نجتهدصادقين واثقين بالله مستلهمين من السيرة النبوية العطرة مايهدينا إلى سواء السبيل.

إن خروج الإسلام من الحياة سوف يعقبه خروج الإسلام من المسجد ثم هزيمته الكاملة.. فالإسلام منهج حياة لايمكن أن يكون له نصف حياة أو أن يسجن فى صومعة، ويجب فى هذا الصدد أن نتنبه إلى مايحوكه الغرب ضد الإسلام، فهم مثلا يزعمون أن الإسلام السياسى خصم للديمقراطية. وللأسف وقع السذج من المسلمين فى الفخ فقالوا معهم إن الديمقراطية كفر .. وهذا منتهى أمانيهم.. والحق الذى لامراء فيه أن الإسلام لايمكن أن يكون خصما للديمقراطية.. فالانتخاب والبيعة والشورى والاستماع إلى رأى الخصم هو صميم الإسلام، والتعددية فى الرأى أساس فى الإسلام، بينما الانفراد بالرأى والدكتاتورية والقهر مرفوض من الإسلام جملة وتفصيلا. وسوف يخسر المسلم كثيرا إذا وقف ضد الديمقراطية بل سوف يخسر دينه وسوف يخسر نفسه[١].

والحقيقة أننا سبقناهم إلى الديمقراطية منذ أيام نوح عليه السلام الذى ظل يدعو قومه بالحسنى على مدى تسعمائة سنة من عمره المديد لاقوة ولاسلاح إلا الرأى والحجة يدعوهم

---

(١) د. مصطفى محمود، الإسلام السياسى والمعركة القادمة (القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٢) ص ٩٥ - ٩٦.

بالكلمة فى برلمان مفتوح يقول فيه ويسمع، بينما هم يسخرون منه ويهددونه بالرجم، وقوم نوح هم أجداد هذا الغرب الذى لايزال يقف من الإسلام والمسلمين موقف العداوة والبغضاء[١] .

ماهو القرآن
والفرق بينه .. وبين الدستور

والقرآن الكريم يسمى بالفرقان أى الفاصل بين شيئين. وسبب تسمية القرآن بهذا الاسم، أنه لم ينزل دفعة واحدة، بل نزل جزءاً جزءاً.و «القرآن» من القراءة، أو تعلم الكلام المقدس. لهذا فلا يجوز لنا أن نطلق هذه الكلمة على قراءة الكلام العادى. وقد كان محمد (ﷺ) يردد دائماً سور القرآن، ولهذا نزلت الآية ﴿ لاتُحرِّكْ به لسانَكَ لتعجلَ به﴾، والآية : ﴿إنَّ علينا جَمعهُ وقرآنهُ ﴾، والآية : ﴿ فإذا قرأناهُ فاتَّبعْ قرآنهُ ﴾، والآية : ﴿ ثم إنَّ علينا بيانهُ ﴾[٢] . وبعد نزول هذه الآيات لم يعد محمد(ﷺ) يقرأ القرآن بعجلة وتكرار، وإنما يقرؤه قراءة طبيعية. ولقد نزل القرآن على مدى خمسة وعشرين عاماً. ولو نزلت الـ ٦٢١٩ آية التى يتكون منها القرآن دفعة واحدة، والعرب على جاهليتهم وسذاجتهم، لما فهموه ولاتقبلوه.

إن القرآن كله مترابط فيما بينه، يشكل وحدة منتظمة مترابطة، أول سورة من سور القرآن هى الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معانى القرآن كله. والسورة بدأت بالعقيدة : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » وثنت بالعبادات: « إياك نعبد وإياك نستعين » وثلثت بمناهج الحياة : «اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » وبينت أخيرا أن منهاج المسلمين متميز : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين» ويلاحظ أن آخر مقطع فيها مبدوء بكلمة « اهدنا » ويأتى فى أول سورة البقرة «الم. ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » فالرابطة إذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة. وهذا الربط يؤكد أن الإسلام دين شامل للحياة فى نشاطها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى....

١- د. مصطفى محمود، الإسلام السياسى والمعركة القادمة ، المرجع السابق، ص ٩٧.

٢- سورة القيامة (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠).

ولكن هذا الشمول لايمكن مقارنته بالشمول الذى عليه أحسن الدساتير الوضعية.

فالقرآن شئ ، والدساتير شئ جد مختلف.

الدساتير قوانين يضعها البشر وهى قابلة للتغيير والتبديل، فالدستور مثلا هو مجموعة القواعد والأسس التى تنظم العلاقات بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية وتحافظ على التوازن والفصل بين هذه السلطات[1] .

أما القرآن الكريم فهو من عند الله ولاينطبق عليه هذا التعريف الذى ينطبق على أى دستور وفى أى زمان ومكان. فالقرآن لايقبل أى تغيير أو تبديل، ولكنه صالح لكل زمان ومكان بما أعطاه الله من المعجزات الأبدية.

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾[2] وإذا كان القرآن باقيا بحفظ الله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[3]، فالمعجزة إذن باقية محسوسة يستطيع كل إنسان إن صدق أن يعرفها ويتيقنها بعلم يقين. ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم، ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾[4].

وهذا القرآن من أين أخذته، فإنه يدلك على ذاته، بشرط أن تأخذه بعلم، وتطلب الحق فيه بصدق، فالعالم بأى علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى فى القرآن الحق الذى يترفع عن أن يكون مصدره بشراً. ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾[5].

فالعالم باللغة، الدارك لأسرارها، البصير فيها، يرى أن لغة القرآن ليست بيان بشر. والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفتات البلاغة، يرى أن ما فى القرآن من أسلوب وبيان وبلاغة جل عن طوق بشر.

١- د. أمين ساعاتى، الشورى فى المملكة العربية السعودية (م الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢)، ص ٢٣.

٢- سورة العنكبوت (٥٠ ، ٥١)　　٣- سورة الحجر (٩)

٤- سورة العنكبوت (٤٩).　　٥- سورة سبأ (٦)

والعالم المحيط بالتاريخ يرى أن مافيه من خبر ليس مصدره البشر.

والعالم بقوانين الكون والطبيعة والأحياء والذرة يرى أن القرآن ليس من عند بشر إذ مافيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفا.

والعالم بالنفس وغرائزها ومايصلحها وما يفسدها وما يرتفع بها ويهبط، يستطيع إدراك ربانية القرآن.

والعالم بالسياسة والعلاقات الدولية ونظرياتها وقوانينها، يدرك أن القرآن قد سبق كل ذلك.

والعالم بالتشريع الاجتماعى والجنائى والاقتصادى، وكل الجوانب الأخرى، يمكنه معرفة ذلك والعالم بالأخلاق والتربية والسلوك، يستطيع أن يرى الله فى قرآنه.

والعالم بالأمم حضاراتها وعمرانها، والعوامل التى تبنيها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن فى مصدره الربانى.

والعالم بالكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور، يدرك أن كتابا يحكم فى أدق قضايا الخلاف بين أتباع هذه الديانات، ليس مصدره محمدا الذى لم يسمع كتابا ولم يقرأ[1].

واذا كان الإنسان هو ابن بيئته، فإن دراسة حياة الرسول ﷺ والمجتمع والحى الذى تربى فيه، والبيئة التى نشأ فيها والحرب المعلنة وغير المعلنة التى تعرض لها، كل هذا يكفى كى يؤكد بأن القرآن هو وحى من عند الله إلى رسول الله، وليس استرسالاً شخصياً من بيئة محمد ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر،لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾[2].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى لم يستطع أحد منا أن يرفع طرفه إليه، حتى ينقضى الوحى. وفى لفظ : كان إذا نزل عليه الوحى استقبلته الرعدة. وفى رواية: كرب لذلك، وتربد وجهه، وغمض عينيه، وربما غط كغطيط البكر[3].

وعن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه قال :

كان إذا نزلت على رسول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الكرب والشدة على قدر شدة السورة، وإذا نزلت عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها[4].

١- سعيد حوى، مرجع سابق ، صـ ٢٣٧ - ٢٣٩.
٢- سورة النحل (١٠٣).
٣- رواه مسلم
٤- رواه البخارى ومسلم.

وفى رواية البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها :

فيفصم عنه وإن جبينه ليتصبب من العرق فى اليوم الشديد البرد[١].

السلطات الثلاث

فى الفكر السياسى الإسلامى

بالرغم من التطورات الإيديولوجية التى طرأت على الفكر السياسى المعاصر من حيث وظائف الدولة، فإن التمييز بين وظائف الدولة الثلاث، تشريعية وتنفيذية وقضائية، مايزال محتفظاً بقيمته. ففى جميع الدول، أيّاً كانت الوظائف المنوطة بالحكومة، تتجسد ممارسة السيادة فى ثلاثة مظاهر متميزة هى :

١- إصدار قواعد عامة للجماعة، ويطلق على ذلك عبارة التشريع، وتلك مهمة السلطة التشريعية.

٢- المحافظة على النظام العام فى الدولة وتقديم الخدمات للمواطنين فى ظل تلك القواعد العامة، وهذه مهمة السلطة التنفيذية.

٣- حل المنازعات سلميا بين المواطنين عن طريق قضاء مستقل وهذه مهمة السلطة القضائية.

وإذا كانت البرلمانات أو مجالس الأمة- أيّاً كانت تسميتها - تقوم بالدور الأساسى فى إعداد التشريعات، فإن رئيس الدولة يشارك فى إعداد ووضع التشريعات، بدرجة تتفاوت طبقاً للأسس التى يقوم عليها نظام الدولة، بل وقد ينفرد بالتشريع لسبب أو لآخر.

وإذا كنا نود أن نبحث عن السلطات الثلاث فى النظام السياسى الإسلامى فإنه فى حياة الرسول ﷺ ، لايمكن التحدث عن سلطات ثلاث متميزة، فالرسول كان المشرع والمنفذ، والقاضى. على أنه إذا أمكن اعتبار التنفيذ والقضاء عملا للرسول، فإن ذلك ليس الشأن بالنسبة إلى التشريع[٢].

١- رواه البخارى.

٢- د. سليمان الطماوى، السلطات الثلاث فى الدساتير العربية المعاصرة وفى الفكر السياسى الإسلامى « دراسة مقارنة » (القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٧٩م)، صـ ٣٢٣ - ٣٢٤.

والذى لاشك فيه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد استمد حقه فى التشريع من الله سبحانه وتعالى. وآيات القرآن فى ذلك قاطعة الدلالة وكثيرة، منها، ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾[1] ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[2] ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[3] ﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[4] ﴿ فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾[5] .... إلخ.

وهكذا انحصر التشريع – فى هذه الحقبة الأولى من حياة الدولة الإسلامية – فى الرسول عليه الصلاة والسلام، إما تبليغاً مباشراً عن ربه (القرآن) أو بطريق غير مباشر (السنة).

ولكن ما أن انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى ظهرت مشكلة التشريع لاختفاء مصدر التشريع الذى كان يلجأ إليه المسلمون. ولكن حداثة التشريع الإسلامى من ناحية، وقرب عهد الصحابة برسول الله من ناحية أخرى، قللت من أهمية المشكلة فى عهد الخلفاء الراشدين، فكانوا يحلونها بالاجتماع إلى العلماء واستشارتهم، فإذا اجتمع رأيهم على شئ قضى به.[6]

على أن اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وتفرق العلماء فى أقطار الدولة الإسلامية الفسيحة، وظهور مسائل جديدة لم تكن مألوفة فى عهد الخلفاء الراشدين، بسبب تقدم العمران واتصال العرب بغيرهم من الشعوب التى سبقتهم فى الحضارة... كل ذلك تطلب أن يقوم التشريع الإسلامى على أسس ثابتة، فنشأ علم أصول الفقه فى القرن الثانى الهجرى، بحيث أصبحت مصادر التشريع الإسلامي تنحصر فى :

أولا : المصادر المجمع عليها وهى أربعة :

١– القرآن الكريم : وهو كتاب الله الغنى عن التعريف.

١– سورة الحشر (٧)
٢– سورة النساء (٥٩)
٣– سورة النساء (٨٠)
٤– سورة النساء (٦٥)
٥– سورة النساء (٦٩)
٦– Haroon Sherwani, Studies in Muslim Political Thought and Administration (Philadelphia, Porcupine Press,1977), pp. 29-30.

٢- السنة : وهى ماصدر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير.

٣- الإجماع : وهو اتفاق جملة المجتهدين من الفقهاء المسلمين فى عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع أو مسألة من المسائل.

٤- القياس : وهو إلحاق أمر لم ينص على حكمه فى الكتاب أو السنة أو الإجماع بأمر نص عليه فى أحدها لاشتراكهما فى علة الحكم.

وهذه المصادر مرتبة فى قوتها وفقاً للترتيب السابق، أى : الكتاب، فالسنة، فالإجماع، فالقياس[1].

ثانيا : المصادر المختلف عليها، وهى :

١- الاستحسان : وهو العدول فى مسألة من المسائل عن حكم نظيرها إلى حكم آخر، استناداً إلى دليل أقوى.

٢- المصالح المرسلة : ويراد بها كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها أو عدم اعتبارها، وفى اعتبارها مع هذا جلب نفع أو دفع ضرر، بشرط ألا تعارض مقصداً من مقاصد الشريعة، ولا دليلا من أدلتها المعروفة، وأن تكون مصلحة حقيقية للمجتمع، أو على الأقل يكون فيها تحصيل نفع أو درء ضرر حقيقى.

٣- العرف : وهو ما اعتاده الناس وألفوه من فعل شاع بينهم أو لفظ تعارفوا إطلاقه على معنى خاص بحيث لايتبادر عند سماعه غيره. ولايحتج بالعرف، إذا كان مخالفاً لأصل شرعى، ولكنه يؤخذ فى الاعتبار إذا لم يكن مخالفاً للأصول الشرعية المعروفة، وأكثر ما تكون تطبيقات العرف فى المجال التجارى.

٤- شرع من قبلنا : ويقصد به الأحكام التى شرعها الله تعالى للأمم السابقة بواسطة أنبيائه الذين أرسلهم إلى تلك الأمم، والتى لم تنسخها شريعة الإسلام.

٥- قول الصحابى : وهو من لازم النبى عليه الصلاة والسلام زمناً طويلاً، كالخلفاء الراشدين. وزوجات الرسول، وكبار أصحابه مثل أبى هريرة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس.. إلخ، فقد كانت لهم آراء وفتاوى كثيرة فى أمور المسلمين.

١- د. سليمان الطماوى المرجع السابق، صـ ٣٢٧ - ٣٢٨

٦- الاستصحاب: ويقصد به الحكم بثبوت أمر فى الزمن الحاضر، بناء على ثبوته فى الزمن الماضى، حتى يقوم الدليل على تغييره، وخير مثال لذلك قاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة حتى يقوم الدليل العكسى. وبراءة الذمة حتى يثبت العكس[1]..

ولو أننا تركنا ما يثار حول هذه المصادر من خلاف، ونظرنا إليها فى مجموعها، لوجدنا أن مصادر الشريعة يمكن ردها إلى ثلاثة وهى: القرآن، والسنة، والرأى[2].

وجريا وراء الغاية التى نستهدفها من هذا البحث فإننا نرى أن هذه المصادر درجتان: القرآن والسنة، ثم الرأى. وقياساً على تعريفات العصر، فإننا يمكن أن نعتبر القرآن والسنة بمثابة التشريعات الدستورية وهما فى الحقيقة أقوى، أما المبادئ التى تستقى من غيرهما من المصادر (والتى تجمع تحت تسمية الرأى) فإنها بمثابة التشريعات العادية[3].

* * *

وفى ضوء ماسبق، فإن السلطة التشريعية « التنظيمية » بما فسرناه فى الصفحات السابقة يمكن أن نرى الكثير من وظائفها فى مفهوم الشورى الإسلامية التى يضطلع بممارستها، فى هذا العصر، الأعضاء العاملون فى مجالس الشورى.

الشـــــورى

يعود تاريخ الشورى لغوياً إلى أنها اسم من المشاورة. وتشاور الجمع.. أى استخرجوا ماعندهم من رأى[4].

أما تعريفها الاصطلاحى فقد جاء فى عدة صور، حيث عرف الأصفهانى الشورى بأنها: استخراج الرأى لمراجعة البعض للبعض[5]. وعرفها ابن العربى بأنها : الاجتماع على الأمر ليستشير كل واحد صاحبه ويستخرج ماعنده[6].

١- د. سليمان الطماوى، المرجع السابق، صـ ٣٢٩

٢- نفس المرجع

٣- د. عبد الحميد متولى، مبادئ نظام الحكم فى الإسلام (الإسكندرية : منشأة المعارف، ١٩٧٥)، ص ٩٧-١١٨.

٤- معجم ألفاظ القرآن الكريم، جـ ٢ (القاهرة : مجمع اللغة العربية، ١٩٧٠)، صـ ٧٠

٥- أبو الثناء الألوسى، روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى (القاهرة : المطبعة المنيرية ١٣٤٥هـ)، جـ ٢٥ ص ٤٢.

٦- أبو بكر بن العربى، أحكام القرآن، جـ١ (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧) ص ٢٩٧.

ولقد كان الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده يستشيرون عامة الناس فى الأمور المتعلقة بهم، كما كانوا يستشيرون أهل الرأى والخبرة فى بعض المسائل الخاصة. كما كانوا يستشيرون كبار القوم الذين يمثلون جماعاتهم فى أمور أخرى. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « مارأيت أحدا أكثر مشورة من رسول الله ﷺ» ومن أحاديث الرسول ﷺ القولية «ماخاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد ». « ماتشاور قوم قط إلا هداهم الله لأفضل مايحضرهم »، وعن الحسن قال : كان النبى ﷺ يستشير حتى المرأة فتشير عليه بالشئ فيأخذ به.

وهذا يعنى أن الشريعة هى حكم الله، والشورى هى رأى الأمة، ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾(1).

والخلاصة، أن تعريفنا للشورى هو أنها رأى الأمة أو من ينوب عنها من أهل الحل والعقد فى كل مايتعلق بشئون الأمة وهمومها بغية تحديد المصلحة العامة والتوجيه شرعاً بإقرارها.

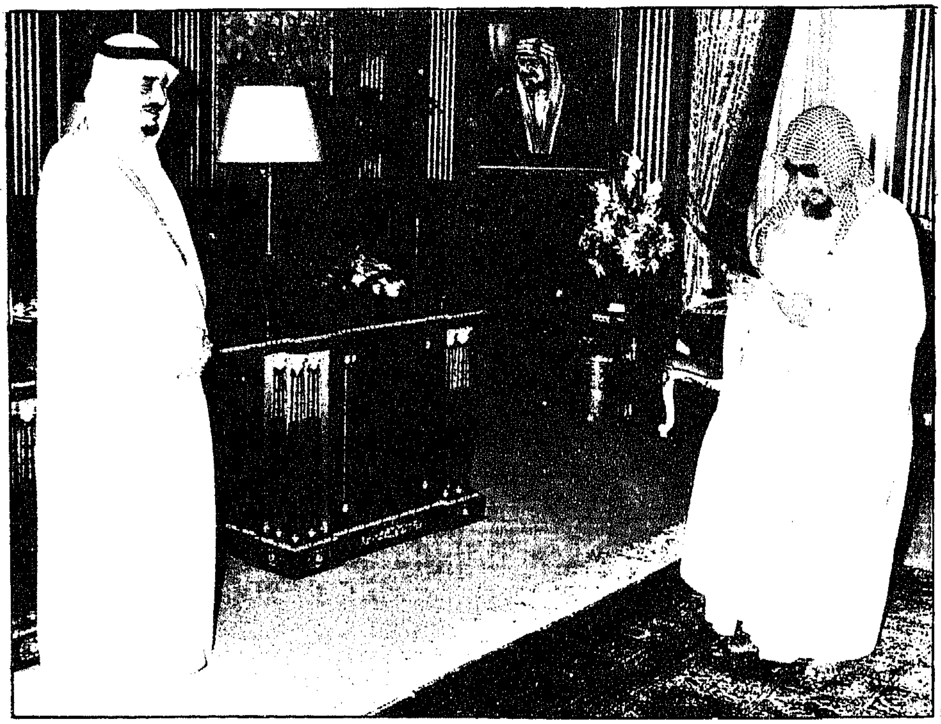
أعضاء مجلس الشورى
أو
أهل الحل والعقد

ولعل من أهم مايميز أهل الحل والعقد الذين يتكون منهم مجلس الشورى، عن أولئك الذين يمثلون الشعب فى النظم الديمقراطية الغربية المعاصرة، هو أن أهل الحل والعقد هم الهيئة التى تنوب عن الأمة فى مباشرة سلطات السيادة من اختيار وتشريع ورقابة، وهذا يعنى أن أهل الحل والعقد هم الذين سماهم القرآن الكريم أولى الأمر فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾(2).

ويرى ابن تيمية أن أولى الأمر هم أصحاب الأمر أو ذووه، وهم الذين يأمرون الناس، ويشترك فيه أهل البيد والأمراء، وأهل العلم والكلام، ولهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء.

١- سورة النساء (٥٩).

٢- د. زكريا الخطيب، نظام الشورى فى الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة (القاهرة : مطبعة السعادة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م) صـ ٥٤.



معالى الشيخ محمد بن جبير يلقى القسم كأول رئيس لمجلس الشورى فى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز فى قصر اليمامة بالرياض فى عام ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

كما يعرفون أهل الحل والعقد بتعريفات تتفق فى المدلول وتختلف فى التفصيل. فالإمام محمد عبده يعرفهم بأنهم « علماء الأمة المجتهدون والأمراء والحكام ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة»[1]. « ويجب أن يكون فى الأمة رجال أهل بصيرة ورأى فى سياستها ومصالحها الاجتماعية، وقدرة على الاستنباط يرد إليهم أمر الأمن والخوف وسائر الأمور الاجتماعية والسياسية، وهؤلاء هم الذين يسمون فى الإسلام أهل الشورى وأهل الحل والعقد وهم الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة[2].

ويعرفهم الشيخ شلتوت بأنهم: « أهل النظر الذين عرفوا فى الأمة بكمال الاختصاص فى بحث الشئون وإدراك المصالح والغيرة عليها كأصحاب القضاء، وقواد الجيش ورجال المال والاقتصاد والسياسة وغيرهم من الذين عرفوا فى تخصصهم بنضج الآراء وعظيم الآثار وطول الخبرة والمران، فهؤلاء هم أولو الأمر فى الأمة، وهم الذين يجب على الأمة، أن تعرفهم بآثارهم وتمنحهم ثقتها وتنيبهم عنها فى نظمها وتشريعها والهيمنة على حياتها، وهم الوسيلة الدائمة فى نظرالإسلام لمعرفة ماتسوس به الأمة أمورها فيما لم يرد من المصادر السماوية الحاسمة، وهم أهل الإجماع الذين يكون اتفاقهم حجة يجب النزول عليها[3].

ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى: « هم الحائزون لثقة العامة الذين يطمئن إليهم الناس لإخلاصهم ونصحهم وأمانتهم وأهليتهم، والذين تضمن مشاركتهم فى أقضية الحكومة أن الأمة ستمد إلى الحكومة يد التعاون فى تنفيذ هذه الأقضية[4]».

وتعريف أهل الحل والعقد فى المنظور السعودى لايختلف عن التعريفات السابقة، ولقد أوجزها الملك فيصل رحمه الله حينما بويع ملكاً شرعياً على المملكة العربية السعودية فقال:

جاء قرار آل سعود إجماعياً يلزمنا البيعة، ثم تبعته فتوى أصحاب السماحة والفضيلة العلماء ورؤساء المحاكم والقضاة، ثم قرار أعضاء مجلس الوزراء[5]. -

---

١- د. زكريا الخطيب، مرجع سابق، ص ٥٤ - ٥٥.

٢- د. زكريا الخطيب ، المرجع نفسه، صـ ٥٥ .

٣- المرجع نفسه.

٤- المرجع نفسه.

٥- د. أمين ساعاتى، الشورى فى المملكة العربية السعودية (م الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩١)، ص ٣٥ - ٣٦.

الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية

لو نظرنا إلى الشورى الإسلامية بالمقارنة بالنظم الديمقراطية التقليدية لوجدنا أن النصوص المقررة لها – كما سبق تفصيله – جاءت عامة بحيث تصلح للتطبيق فى كل زمان ومكان، وتستوعب كل ماتجود به قرائح الفكر السياسى مادام يتمشى مع الشريعة الإسلامية نصا وروحا ولايجافيها ويخرج عليها.

إن التطبيقات العملية للشورى فى العهود الراشدةوما اقترب منها قد استوعبت معظم صور الديمقراطية السياسية المعاصرة. فالديمقراطية المباشرة نجد لها تطبيقا فى اختيار الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه. فبعد المناقشات التى دارت فى سقيفة بنى ساعدة اجتمع مسلمو المدينة فى المسجد الجامع وبايعوا أبا بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله فى رئاسة الدولة – دون سلطات النبوة – وكانت هذه هى البيعة العامة.

وفيما يختص بالتشريع فإن الوحى قد انقطع بوفاة الرسول ﷺ واختفى مصدر التشريع الذى كان يلجأ إليه المسلمون، ولكن كان الخليفة الأول إذا جد أمر نظر فى كتاب الله فإن لم يجد له فيه حكما نظر فى سنة رسول الله ﷺ فإن لم يجد فيما حفظه ووعاه منها حكما سأل الناس إن كانوا قد حفظوا عن رسول الله ﷺ شيئاً فى الواقعة، وكذلك يفعل سائر الخلفاء الراشدين. وكان اجتماع المسلمين يتم فى المسجد الجامع وكان الجامع – بهذا – يشبه برلمانات اليوم يحضره الرجال والنساء على السواء، ولكل فرد أن يدلى برأيه. وكان انعقاد هذا البرلمان يتم بموجب دعوة عامة هى الأذان. وسند هذه الصورة أيضا عمومية النص القرآنى – كما سبق القول – وأيضا قول الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه عندما سأله عن الأمر ينزل ليس فيه قرآن ولاسنة : « اجمعوا له العالمين (أو العابدين) من أمتى واجعلوه شورى بينكم ولاتقضوه برأى رجل واحد »[1].

١– د. سليمان الطماوى، مرجع سابق صـ ٢١٣.

وتمتاز الشورى الإسلامية بتطبيقاتها المباشرة عن الديمقراطية المباشرة فى أن القضايا التى عرضت على الشعب لمناقشتها عنيت بالدراسة والتمحيص والمناقشة الجادة المثمرة. كما حدث في اختيار أبي بكر . وكما حدث عندما عزم أبو بكر على قتال مانعى الزكاة.... أما فى الديمقراطية المباشرة فإن القوانين التى تعرض على اجتماع الشعب، يتطلب أخذ الرأى عليها جملة بالموافقة أو الرفض دون إدخال أى تعديل عليها. كما أن الديمقراطية المباشرة تسند جميع السلطات إلى جمعية الشعب، وقد وجه النقد إلى هذا على أساس أنه يستحيل عملا أن يقوم الشعب بنفسه بكل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. ولكن النظام الإسلامى غير هذا، فقد كان هناك الخليفة رئيس الدولة وأهل الشورى وبعض من أوكل إليهم القضاء .

والديمقراطية النيابية نجد لها تطبيقا فى اختيار أهل الحل والعقد أعضاء مجلس الشورى، وانتخاب الخليفة أو الإمام الذى هو بمثابة رئيس الدولة، وأساسها أيضا عمومية النص وما قال به الفقهاء فى هذا الصدد.

ويمتاز النظام الإسلامى عن النيابية الوضعية بأنه يتفادى كثيرا من الانتقادات التى وجهت إلى الديمقراطية النيابية، لأنه يرفض الحزبية أيا كانت وما يترتب عليها من تأثير على النواب والأعضاء وعلى تسيير دفة الحكم بوجه عام ، وما تثيره من أحقاد وضغائن وفرقة ، وذلك تطبيقا لقوله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا[1] ﴾. ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم[2] ﴾ ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء[3] ﴾ وقول الرسول ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله « يد الله مع الجماعة ».

وأهل الشورى – كما أشرت – يختارون الخليفة أو الإمام، وله مطلق الحرية فى اختيار وزرائه ومعاونيه سواء من بين أعضاء مجلس الشورى أو من خارجهم، وله تعيين القضاة وكل ما يلزم لتدبير أمور الدولة من المعاونين والمساعدين وكبار الموظفين وغيرهم. وله أن يقترح على مجلس الشورى أى مشروع قانون أوتشريع يراه ضروريا لمصلحة البلاد، فلا

١ – سورة آل عمران (١٠٣).

٢ – سورة الأنفال (٠٤٦).

٣ – سورة الأنعام (١٥٩).

يوجد فى الأصول الشرعية ما يمنعه من كل ذلك. ومجلس الشورى ليس له أن يفرض على الخليفة إجراء تنفيذيا معينا إلا إذا وجد أن الإجراء الذى اتخذه الخليفة يخالف تشريعا سماويا أو دستوريا. ولكن لهذا المجلس حق مراقبة الحاكم وتقويم اعوجاجه وعزله إن جار أو ظلم أو خرج على أحكام الشرع أو تعنت فى مواجهة مجلس الشورى دون استناد إلى دليل.

ولأعضاء مجلس الشورى حق إقرار التشريعات التى يرونها ضرورية لصالح الجماعة فى نطاق الشرع الإسلامى . وليس لهم أن يرجعوا إلى الشعب لأن الرجوع إلى الشعب أو الأمة معناه أنهم غير أكفاء أو أنهم فقدوا بعضا من الشروط التى توافرت فيهم .كما أن هذا المظهر قد انتقد من جانب الفكر السياسى الوضعى على أساس أنه يعطل أعمال السلطة التشريعية . فقد يرفض الشعب مسائل ذات أهمية ترى هذه السلطة ضرورة اتخاذها كاعتماد أموال لازمة للدفاع الوطنى ، هذا بالإضافة إلى جهل الشعب فى مجموعه بالإصلاحات الواجبة[1] .

يضاف إلى كل ذلك ما وجه إلى الديمقراطية شبه المباشرة من انتقادات عامة أهمها، أن تكرار دعوة الناخبين يؤدى إلى مللهم ويجعلهم ينظرون إلى الاستفتاء على أنه مسألة عادية لا تثير اهتمامهم . فضلا عما ترتبه من نفقات باهظة وإضاعة وقت الشعب وتعطيل أعماله. كما أنها تجعل المجالس النيابية لا تعتنى بالتشريع لأن المسئولية لا تقع على عاتقها بل على عاتق الشعب.،وفوق هذا وذاك فإنه فى الديمقراطيات بمختلف أنواعها وأشكالها ، للشعب أو ممثليه مطلق الحرية فى أن يضع ما يشاء من التشريعات ، وله أن يعدل دساتيره بالكيفية التى يراها شكلا وموضوعا . أما الأمة الإسلامية فتشريعاتها محكومة بأن تكون فى نطاق الذكر الإلهى قرآنا وسنة نصا وروحا ، وليس لها أن تعدل فى هذين المصدرين مهما بلغ الأمر ، وإن كان لأهل الاجتهاد فيها التأويل والاستنباط فقط[2] .

وأن حق الرقابة متبادل بين الرئيس والمجلس، وأن القضاء مستقل لا سلطان لأحد عليه، والخليفة أو رئيس الدولة يخضع للمحاكمة ويقام عليه الحد، بل ويخلع ، وفى هذا يقول ابن حزم الأندلسى: الإمام واجب الطاعة ما قادنا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ،

---

١ – د. زكى عبد المتعال، أصول النظم ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

٢ – د. محمد حسين هيكل ، حياة محمد، مرجع سابق، ص ١٠٠.

فإن زاغ عن شئ منها منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق ، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولى غيره. فهو يخضع للقانون ولا يتمتع بأية حصانة من دون المسلمين(١) .

وإذا أردنا تحديدا أكثر، فإن الشورى الإسلامية- إن جازت المقارنة- نيابية برلمانية رئاسية، ففيها من مظاهر النظام الرئاسى أن للخليفة أن يختار وزراءه منفذين يخضعون لرأيه وتدبيره وهم وسطاء بينه وبين الرعية يؤدون عنه ما أمر وينفذون عنه ما ذكر.

وفيها منه أيضا استقلال مجلس الشورى بسلطة التشريع وأن أحكامه وقراراته تسرى على الخليفة وعلى الرعية وليس للخليفة حق حل مجلس الشورى(٢) .

وفيها من النظام البرلمانى أن للخليفة الحق فى اقتراح القوانين وحق التعليق على قرارات المجلس وإعادتها إليه إن رأى فيها ما يوجب إعادة النظر.وأن فترة الخلافة قد تؤقت وقد لا تحد بمدة معينة، فليس فى روح الإسلام ما يمنع هذا ولا ذاك ،وأن الخليفة له أن يختار وزراءه ومعاونيه من بين أعضاء مجلس الشورى ، وله أن يستوزر وزارة تفويض تدبر الأمور برأيها واجتهادها وإمضائها دون الرجوع إليه، ويستلزم فيها شروط الخلافة، ويزاد عليها شرط الكفاية فى أمور الحرب والخراج. وفيها أيضا أن القضاء مستقل ومنفصل، وإذا كانت السوابق فى عهد النبوة والخلافة الراشدة يغلب عليها الجمع بين التنفيذ والقضاء إلا أن مبدأ الفصل فى حد ذاته تقرر مع نشأة الدولة الإسلامية، فالرسول ﷺ بعث معاذا إلى اليمن ثم قال له: «بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله .قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد برأيى. فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى الله ورسوله »،وبعث عليا ثم أوصاه بقوله : إذا حضر خصمان بين يديك فلا تقض لأحدهما حتى تسمع كلام الآخر(٣) .

وهذا لاشك استقلال فى الوظيفة والحكم ، وحرية القاضى فى قضائه مصونة فله أن يجتهد برأيه ولا يلزمه أن يقلد فى النوازل من اعتزى إلى مذهبه(٤) .

---

١ - د. سليمان الطماوى ، السلطات الثلاث ، مرجع سابق ،ص ٢٨١ - ١٨٣ .

٢ - أبو الحسن الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ٢٥ -٢٢.

٣ - د. سليمان الطماوى ، السلطات الثلاث، مرجع سابق ، ص٣٣٦.

٤ - المرجع نفسه، ص٣٣٧.

ومن هذا يتجلى الفصل بين السلطات بأوضح معانيه، ولو سلمنا بأنه كان هناك مزج بين سلطتين فى بداية الدولة الإسلامية فإن المزج فى عهد الخلافة الراشدة كان بين السلطتين التنفيذية والقضائية بصورة مؤقتة وفى حدود ضيقة.

وإذا كانت النظم الغربية قد أبهرت بعض رجال الفكر الدستورى والسياسى ، فما ذلك إلا لأنها اهتمت بالعرض فوضعت القوالب والأشكال وأطلقت عليها المصطلحات التى استحدثها الفكر السياسى الوضعى ليجارى بها تقلب تلك النظم من ديمقراطية مباشرة وغير مباشرة ونيابية برلمانية أو رئاسية أو مجلسية، واشتراكية واجتماعية وغير ذلك . وقد أشرنا إلى أن النظام الإسلامى قد سبق بمرونته واتساعه وعموميته ليشمل مضامين كل هذه الصورالمستحدثة وتقسيمات هيئاتها وسلطاتها من تنفيذية وتشريعية وقضائية وإجراءات تكوينها من انتخاب واستفتاء . وما يقوم بينها وعليها من فصل مطلق أو غير مطلق ورقابة ونقد ليس لهما فى التاريخ مثيل.

البيعـــــة

من أولى المهام السياسية التى مارسها الرسول مهمة البيعة ، فقبل أن يضع ﷺ أسس قيام الدولة الاسلامية الأولى فى المدينة .. بايعه نفر من أتباعه بيعة العقبة الأولى ومن الذين بايعوه أسعد بن زرارة ورافع بن مالك وعبادة بن الصامت وأبوالهيثم بن التيهان.عن عبادة بن الصامت قال:

كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، ألانشرك بالله شيئا، ولانسرق، ولا نقتل أولادنا، ولانأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى اللهعز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

وتمت بيعة العقبة الثانية فى أوسط أيام التشريق الثلاثة وبعد ذلك أصبحت البيعة ركنا من أركان بناء القيادة الشرعية فى الدولة الاسلامية.

ومازالت البيعة الإسلامية حتى اليوم ركنا من أركان النظام السياسى فى المملكة العربية السعودية.

الاسلام والعروبة.. طريق للالتقاء فقط

يجب أن نسلم أن موقع السياسة فى الدين الإسلامى موقع عضوى لايقبل الانفصال، والدين الإسلامى بذلك يختلف عن كل الأديان الأخرى التى تسمح بالفصل بين الدين والسياسة وتروج لمقولتها المشهورة: ما لقيصر لقيصر وما لله لله.فالرسول ﷺ حينما بشر بالدين الإسلامى .. استخدم الكثير من السياسة والدبلوماسية.

ولقد أفادت هذه السياسة وتلك الدبلوماسية كثيرا فى التوسع ونشر هذا الدين الأقوم فى جميع بلاد الدنيا.

ولذلك أشرنا الى أن الرسول ﷺ لم يبشر بدين الإسلام فقط وإنما بشر بنظام دولى جديد أيضا نبعه وسدته الإسلام.

بمعنى أننا لا نتصور أن ينتشر الإسلام بدون السياسة ولا نتصور أن يتفاعل الدين مع كل الأنشطة الإنسانية بدون سياسات ، وشرائع الإسلام تتجذر فى كل الأنشطة الإنسانية سواء كانت اقتصادية أوسياسية أو ثقافية أو اجتماعية.ولعلنا نلاحظ أن للإسلام فى كل هذه الأنشطة موقعا ومكانا إستراتيجيا ، وفى كلها لا نستطيع أن نستغنى عن الدور الإسلامى .

وإذا كان الإسلام نزل بالعربية وعلى العرب ورسول الله ﷺ عربى تتشرف العروبة به، فلماذا نقبل على أنفسنا أن نكون ممن يساهمون فى إحكام العداء بين الإسلام والعروبة[1] .

إن ظاهرة ضرب العروبة بالإسلام .. هى ظاهرة غريبة على العروبة والإسلام ، وهى ظاهرة جاءت تقليدا أعمى لما تعرضت له الكنيسة المسيحية من قبل القوميين الوطنيين الأوربيين فى عصر النهضة الأوربية ..

ولكن القضية بالنسبة للإسلام والعروبة جد مختلفة ، ولا يوجد أى وجه شبه بين قضية الإسلام والعروبة من جهة ، وقضية الكنيسة المسيحية والعلمانية الأوربية من جهة أخرى .

وإذا تأملنا جينات الإسلام والعروبة نجدها جينات من خميرة ومعدن واحد ولاتقبل التشطير أو التجزئة .ولذلك لا يمكن أن يكون الإسلام حربا ضد أهله العرب المسلمين، والعروبة لن تكون معولا لهدم دينها وملتها وإسلامها .

١- أبو الأعلى المودودى، الحكومة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٢ - ٤٥.

إن نظرة متفحصة للواقع العربى الراهن تظهر بوضوح وجود خلل فى فهم العلاقة بين الظاهرتين عند قطاع من المثقفين فى الوطن العربى. ويتمثل هذا الخلل تحديدا فى أن هناك قطاعا من حملة فكرة اليقظة العربية يعتبر أن حركة الإحياء الروحى والدعوة إلى الإسلام هى النقيض لليقظة العربية . كما أن هناك بالمقابل قطاعا من حمله الفكرة الإسلامية ينظرون إلى العروبة باعتبارها دعوة تتناقض مع الإسلام .

ولكى نفهم هذا الطرح المتناقض يجب أن نعود القهقرى إلى المرجعية التاريخية والأساس الفكرى المتقادم.

لقد ولدت فكرة اليقظة العربية فى القرن الماضى بفعل عوامل تفاعلت فى تكوينها. ولم يكن ظهور هذه العوامل بدرجة واحدة فى مختلف مناطق الوطن العربى، الأمر الذى أدى إلى تفاوت ملحوظ فى التعبير عن هذه الفكرة فى تلك المناطق. كان وضوح الفكرة العربية على أشده فى بلاد الشام، حيث تفاعلت ثلاثة عوامل فكونتها. وهذه العوامل هى تحدى الضعف الداخلى تحت الحكم العثمانى، وتحدى الاستعمار الغربى والصهيونية كجزء منه، وانتشار حركات القوميات فى أوروبا وظهور حركة القومية التركية فى الدولة العثمانية. لقد جابهت الفكرة هنا صراعا مزدوجا مع الاستعمار الغربى ومع الاستبداد العثمانى. وكان الحاكم العثمانى يدين بالإسلام ويتبنى – فى مرحلة معينة – فكرة الجامعة الإسلامية. كما تأثرت الفكرة هنا بوجود عرب لايدينون بالإسلام، ووجود مسلمين ليسوا عربا. ،وتأثرت أيضا بالتجارب القومية التى ظهرت فى أوروبا وبموقفها من الدين. كل ذلك هيأ الجو لحدوث هذا الخلل فى العلاقة بين العروبة وبين الدين الإسلامى فى مرحلة لاحقة .

ونجد فى الفترة نفسها أن حركة اليقظة العربية فى بعض البلاد العربية تأثرت بما يدور حولها فاستخلصت تعارضات وهمية بين العروبة والإسلام. حدث هذا فى مصر وفى بلاد الشام ضمن فهم خاص لمعنى العروبة، ولكن على عكس ذلك فى الجزيرة العربية وفى المغرب حيث تحددت العروبة من خلال الإسلام. ونلاحظ أن المغرب والجزيرة العربية لم يعرف فيهما وجود لعرب غير مسلمين، اللهم إلا نفر من اليهود. كما أن تجربتها مع الحكم العثمانى لم تكن مماثلة لتجربة بلاد الشام. أما مصر فقد أحاطت بها ظروف مختلفة، وعلى الخصوص منذ بروز محمد على حتى الاحتلال البريطانى، أثرت على فهمها لهذه العلاقة بين العروبة والاسلام .

لقد برز الخلل فى فهم العلاقة على صعيد قطاع من حملة الفكرة القومية فى الربع الثانى من القرن العشرين ، وكذلك برز على صعيد قطاع من حملة الفكرة الإسلامية. ففى خلال تلك الفترة اتخذ ذلك القطاع من القوميين المنحرفين موقفا حادا من الدين وطرح مقولات تضع الفكرة العربية فى مواجهة العقيدة الدينية . وبالمقابل كان رد فعل ذلك القطاع من الإسلاميين حادا هو الآخر فاعتبر الفكرة العربية دعوة إلى عصبية يأباها الإسلام. وقد وصل الخلل فى فهم العلاقة عند هؤلاء ، درجة أن يطرح شعار « أنا عربى قبل إن أكون مسلما » وهو شعار لا يستند إلى منطق حين يربط بين الانتماء والعقيدة بعلاقة زمنية بحسبة خاطئة. والصحيح أن الإسلام دين إبراهيم وهو قبل العروبة ، لذلك طرح المسلمون شعار « أنا مسلم قبل أن أكون عربيا » وطفق كل طرف يدلل على صدق شعاره بطريقته فيتعسف فى اصطناع الأدلة ويزيد فى تفاقم الخلل[١].

لقد فعل هذا الخلل فعله فى شطر الفكر العربى الإسلامى إلى فكر عربى وفكر إسلامى. وعلى الرغم من أن الخمسينيات والستينيات شهدت جهودا طيبة من الحكماء العرب المسلمين لمعالجة هذا الخلل إلا أن الغرب استطاع خلال الثمانينيات أن يدفع كل الأسباب اللازمة لإعادة إشعال الخلل وضرب المنابع الطبيعية بين الإسلام وعروبته. وأتصور أن حكماء العالم العربى وحكماء العالم الإسلامى فى أمس الحاجة - ونحن نوشك أن ندخل القرن الواحد والعشرين - أن يبادوروا ويعيدوا للإسلام والعروبة لحمتهما وسدتهما ويبعدوا عنهما عفن الدس الرخيص والتشويش البغيض الذى ما فتئ الغرب يدسه فى كل الأواصر والروابط الحميمة بين العروبة والإسلام .

لقد حان الوقت أن يدرك العربى أنه المسلم، وأن يدرك المسلم أنه خريج هذا الدين الذى بزغ نوره فى الجزيرة العربية أصل العربية ومأرز الإسلام .

وباختصار نستطيع أن نقول أن العمل من أجل الوحدة العربية .. يجب أن يكون خطوة على طريق تحقيق التضامن الإسلامى وأن الوحدة العربية اللاعرقية هى القاعدة التى يقوم عليها التضامن الإسلامى.

---

١ - أحمد صدقى الدجانى، «عروبة وإسلام ومعاصرة» بيروت: منشورات فلسطين المحتلة،١٩٨٢). ص٢٦-٢٧.

فالرسول ﷺ بدأ بتوحيد العرب فى الجزيرة العربية. بمعنى أن الأساس الإسلامى.. شرط حتمى للوحدة العربية المظفرة، والعروبة تتمتع بمرونة هائلة تيسر تطبيقها وتحقيقها. يقول الرسول ﷺ وهو يعتلى المنبر : أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى.

وفى ذلك قال الرسول ﷺ لعمه أبى طالب « ألا أدعوهم إلى كلمة تقولونها تدين لهم بها العرب وتملكون رقاب العجم » وذلك هو الذى تحدث به «سهيل بن عمرو» عندما وقف على باب الكعبة عقب وفاة الرسول عليه السلام ، وصاح فى وجه تيار الارتداد عن الطريق العربى الإسلامى : « يا أهل مكة ، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله ليتمن هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ، فلقد رأيته قائما مقامى هذا وحده يقول : قولوا معى لا إله إلا الله، تدين لكم العرب، وتؤدى إليكم العجم الجزية، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله [1].

التوفيق.. بين العروبة والإسلام

واضح مما سبق أن لا خلاف بين الإسلام والعروبة، ولكن الخلاف هو بين بعض المسلمين وبعض العرب الذين يسمحون لجراثيم الغرب ترتع بين صفوفهم.

إن بداية الحرب التى نظمها الغرب ضد العروبة والإسلام تمثلت فى تصميم السيناريوهات اللازمة لصنع التناقض بين الإسلام والعروبة.

ولقد جيش الغرب من أجل هذه الفتنة كل مراكز بحوثه وأوكار دراساته، فبث الكثير من الدراسات التى تجسد وتوسع دوائر الخلاف بل التناقض بين العروبة والإسلام.

والغرب الذى لم يفتأ يستخدم كل ذخائر ذكائه لم يرسل هذه الدراسات إلى مراكز الفكر العربى والإسلامى من خلال مؤسساته الغربية بل أرسلها من خلال المفكرين الإسلاميين من غير العرب.. حتى تبدو وكأنها تأتى من المسلمين وإليهم.

ولو عدنا إلى القرآن الكريم نستقرئ آياته التى تتحدث عن الوحى لوجدنا أن العروبة اقترنت بالوحى والتبليغ: فلسان القرآن الكريم عربى، وهو بعروبة لسانه موجه إلى قوم يعرفون

١ – د. محمد عمارة ،الإسلام واليقظة العربية (بيروت: دار الوحدة ،١٩٨١)، ص ٤٨-٥٢.

اللسان العربى: ﴿نزل به الروح الامين* على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربى مبين﴾[1] والعرب هم الذين يطالبون بعروبة الوحى: ﴿ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا (العرب): لولا فصلت آياته: ءأعجمى وعربى؟﴾[2]. والغرض الأول من وراء الوحى تصحيح الواقع العربى ﴿إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾[3] ثم إن العرب يدركون أسباب عروبة الوحى ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون﴾[4].

من هذه الآيات الكريمات نستنتج أن عروبة التوجه فى القرآن الكريم، أى عروبة الوحى وعروبة التبليغ، محطة أولية هامة فى مسار الدعوة الإسلامية ذات الهدف الكونى الأممى. ذلك أن العرب وفق المفهوم الإسلامى هم حملة الرسالة الدينية وحماتها، كما تؤكد ذلك الأحاديث الشريفة التى وردت فى ذكر العرب ودورهم الريادى. ولعل أبرزها قوله ﷺ «إذا ذل العرب ذل الإسلام» أى أن مجد العرب أساسا للمجد الإسلامى، وحب العرب إيمان وبغضهم نفاق. والحديث النبوى الأكثر وضوحاً هو الذى يفصل أسباب التفضيل العربى فى قولة «احبوا العرب لثلاث: لأنى عربى، والقرآن عربى، وكلام أهل الجنة عربى[5]».

العلمانيــة
أو
فصل الدين .. عن الدولة

كانت السلطة السياسية المطلقة فى الغرب إبان العصور الوسطى فى أيدى البابوات، وكانت محاكم التفتيش تصدر الأحكام بالسجن والتعذيب والحرق لكل من يقول بشئ يخالف نصوص التوراة والعهد القديم.

وبمقتضى تلك القوانين سجن جاليليو حينما قال : إن الأرض ليست مركز الكون وأنها كروية وأنها تدور مع باقى الكواكب حول الشمس.. وكانت تلك الأقوال هرطقة وإفكا وإلحادا ومخالفة للنصوص المقدسة فى نظر رجال الدين تستوجب أشد العقاب.

١- سورة الشعراء (١٩٢ - ١٩٤).

٢- سورة فصلت (٤٤).

٣- سورة الزخرف (٣).

٤- سورة فصلت (٣).

٥- المناوى، الجامع الصغير، ١/٤٠/١ ٧/١/٥٠.

وقد ظلت أوروبا غارقة فى ظلمات الجهل والتخلف.. واحتاج الأمر إلى ثورة على هذا الطغيان البابوى، وإلى تحجيم سلطة الكنيسة لينطلق العلم ولينطلق ركب التحرر الفكرى وليأتى عصر النهضة.. وانكمشت البابوية إلى رقعة صغيرة فى الفاتيكان وخضعت أوروبا لمنطق جديد هو: لندع مالقيصر لقيصر وما لله لله.. وتقلص دور الدين إلى نشاط هامشى لايبرح الأديرة والكنائس، واستولى العلم والعقل والدهاء على كل مواقع الدولة.

وكان ذلك أول ميلاد لفكرة « العلمانية » . ولمبدأ فض الاشتباك بين الدين والعلم وبين الدين والسياسة، ولذلك يقولون فى الغرب أن العلمانية هى فصل الدين عن الدولة وهى بالإنجليزية The Separation of Politics From Religion ولم يكن للدين المسيحى ذنب فيما حدث .. وإنما كان الذنب ذنب البابوات الذين أساءوا فهمه وتفسيره وإلى رجال الدين الذين أخضعوا الدين لأهوائهم ومصالحهم[١] .

ومع مولد عصر النهضة فى أوروبا جاء عصر الصناعة وغزو البحار واكتشاف أمريكا وجاءت الرأسمالية والعملقة العسكرية الأوروبية وجيوش الاستعمار التى انطلقت تغزو شرقا وغربا وجنوبا.

وفى تلك الأثناء كان المد الإسلامى الذى وصل إلى بوابة أوروبا الغربية فى الأندلس وإلى بوابتها الشرقية فى القسطنطينية.. كان ذلك المد الهائل قد بدأ يستنفد طاقته.. وبدأت خمر النصر وسوس الترف وأمراض الوفرة والرخاء تأكل أوصاله.. وبدأ يتمزق إلى دول ودويلات وطوائف تقاتل بعضها بعضا. وكانت المواجهة بين العسكرية الأوروبية الفتية وبين الخلافة الإسلامية المترهلة مواجهة غير متكافئة انتهت بسقوط الخلافة وتمزقها تحت أقدام الاستعمار.

وفى منتصف القرن العشرين خرج الاستعمار مكرها من الديار الإسلامية، ولكن بعد أن خلف جحافل من الغزو الثقافى ونظاما راسخا للتعليم الغربى على حساب الثقافة والعلوم الإسلامية، وترك اقتصادا تابعاً متطفلا على قروض وهبات الاقتصاد الغربى.

وفوق ذلك ترك الاستعمار فوق رأس الكثير من الدول الإسلامية والعربية عنواناً ضخماً يهيمن على كل السياسات فى كافة أطر المجتمعات الإسلامية، هذا العنوان هو « العلمانية » وترك لهذه العلمانية الغربية كل ماهو إسلامى وعربى.

١- Jhon Wiener, Church and Politics (Boston: Little Brown and Co., 1972), pp. 1-3.

والسؤال الآن: ألا يزال مصطلح « العلمانية » هو فصل الدين عن الدولة، أم أن الغرب أضافوا إليه فى العصر الحديث أبعاداً فكرية وسياسية جديدة ؟!

مع تزايد شهب الصحوة الإسلامية فى العقدين الأخيرين أعطى الغرب زخماً جديداً لمفهوم العلمانية، فلقد أصبح هذا المصطلح من أوسع المصطلحات السياسية انتشارا وتداولا، لا فى الأوساط الثقافية وحدها كما كانت من قبل، بل فى الدوائر السياسية والمنابر الدينية والندوات الاجتماعية والاقتصادية، ولم تعد تخلومنها أى دراسة تتناول أى جانب من جوانب الحياة فى العالم العربى والإسلامى المعاصر إلا وكان للعلمانية فيه نصيب.

ولكن العجيب فى أمر هذا المصطلح الواسع الانتشار أن معظم من يستخدمونه لا يستطيعون أن يحددوا له معنى دقيقا، بل إن المرء قد يقرؤه ويتداوله فى حديثه مرات ومرات، ثم يتساءل بعد ذلك : ولكن ماذا تعنى العلمانية بالضبط ؟

كثير من المفكرين يردون أصل هذا المصطلح إلى « العِلْم » والبعض الآخر يرده إلى «العَالَم ».

ومن الطريف أن مفكرين من المنسوبين إلى المعسكر « العلمانى » مثل فؤادزكريا وسلامة موسى وأمين العالم ، وآخرين من المعسكر المضاد للعلمانية، مثل أنور الجندى ومصطفى محمود وأمين ساعاتى ومحمد عمارة وعلى عبد الرازق ومعظم منظرى الحركة الإسلامية المعاصرة، قد اتفقوا على الرفض القاطع لنسبة العلمانية إلى العلم، وأكدوا أن اللفظ منسوب إلى « العَالَم »، وأنا أضيف بأنه منسوب إلى « العَالَم » الغربى على وجه التحديد.

ولاشك فى أن الربط بين العلمانية وبين معنى « العَالَم » أدق من الربط بينها وبين «العِلْم» ، لأن المصطلح الذى يقابل العلمانية فى اللغة الإنجليزية هو Secular وهو مشتق من كلمة لاتينية تعنى القرن Saeculum ، والقرن جزء من زمن أو هو فترة محدودة من فترات الزمن فى هذا العالم أو ذاك.

ولكن – مع هذا – نرى أن العِلْمَ ما هو إلا تعبير عن نزوع « هذا الإنسان » إلى فهم «هذا العالم » الذى يعيش فيه. ومن هنا فإننا نميل إلى الرأى القائل بأن الضجة التى أثيرت حول استخلاص كلمة « العلمانية » من « العَالَم » هى ضجة مبالغ فيها، لأن كلا من «العَالَم» و «العِلْم» – فى المنظور الغربى – لابد أن يؤدى إلى الآخر.

وإذا استقرأنا التطورات السياسية التى نشاهدها فى عالمنا العربى والإسلامى المعاصر، نجد أن العلمانية تحولت إلى الدفاع أمام الصحوة الإسلامية التى بدأت تعلو فوق صوت العلمانية وفوق كل أصوات الغربنة والتغريب، ولا أتصور أننا نبالغ إذا قلنا أن تيار الصحوة الإسلامية فى هذه الأيام آخذ فى التمدد على حساب الانكفاء العلمانى الذى بدأ يتقهقر ويتحول إلى الدفاع بعد أن كان منذ بداية هذا القرن تتسم حركته بالهجوم المستمر على القوانين والنظم الإسلامية التى كانت تتداعى بعد هزيمة الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى..

ولكن أشد مايبهرنا فى هذا المد الإسلامى الجديد هو أنه لم يقم على أنقاض بعض المصطلحات السياسية الجماهيرية التى يطرحها الغرب ليزغلل بها عيون وعقول المسلمين، وإنما جاءت الصحوة الإسلامية فى هذه المرة بمشروعها الخاص وأصبحت تتطلع إلى بناء مجتمع إسلامى متكامل يبدأ بالفرد وينتهى ببناء الدولة الإسلامية على غرار دولة الإسلام المحمدية الأولى.

وكان من الطبيعى أن يزداد شمول الحركة الإسلامية ويتسع إطارها، من مجرد دعوة تستهدف تقوية الدور الذى يلعبه الدين فى حياة الأفراد، إلى المناداة بتوجيه المؤسسات ذاتها – وليس الأفراد فحسب – فى الاتجاه الدينى، وإخضاع كافة أنظمة المجتمع لخطاب الدين الإسلامى الأقوم.

اتجهت الحركة الإسلامية المعاصرة إذن إلى المزيد من الفعل الإيجابى، وإلى المزيد من التوسع والشمول، وصب كافة جوانب الحياة وجميع مؤسسات المجتمع فى قوالبها الخاصة، وكان من الطبيعى أن يكون لهذا تأثيره الحاسم على تراجع مفهوم العلمانية فى عصرنا الحالى.

الأصولية الإسلامية

والواقع أن الغرب بدأ يستخدم كافة الأسلحة لمحاربة الصحوة المنتشرة فى كل أنحاء العالم العربى والإسلامى، فهو فى الآونة الأخيرة يقرن الإسلام بالإرهاب ويدلل على مصطلحات تسىء إلى المد الإسلامى، فيقولون اليوم بالإرهاب الإسلامى ثم يقولون بالأصولية الإسلامية، بعد أن مضى وقت على مصطلحات سابقة انقرضت وفشلت كمصطلح الرجعية الإسلامية والتطرف الدينى......

والاسلام فى الأصل يتعارض - جملة وتفصيلا مع الإرهاب، كما أنه لايوجد فى النظام الإسلامى المحمدى مايمكن تسميته بـ « الأصولية الإسلامية » ولا بالتطرف الدينى.. والأصولية نفسها بدعة وهى مصطلح لاهوتى مسيحى دخيل فلا يوجد مسلم أصولى ومسلم غير أصولى .. وإنما كل من يؤمن بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله هو مسلم أمام الله .. وأمام الناس، وإنما يتفاوت المسلمون بتقواهم وأعمالهم.

والأصولية بدعة سياسية ابتدعها أقوام أرادوا أن يتميزوا على الآخرين وأن يستبيحوا دماء الخصوم، وأن يتسلطوا بشريعة إلهية مزعومة على ضعاف العقول، وهى مصطلح زائف مثل مصطلح « التقدمية » الذى اتخذه الشيوعيون ليميزوا أنفسهم عن بقية البشر، وكانت عاقبة هذا التزييف أن نكسهم الله وجعلهم أكثر أهل الأرض رجعية وجهالة ثم اقتلع حكوماتهم وأحزابهم من أقطار الدنيا.

وجوهر الإسلام هو التقوى .. وحسن المعاملة .. والحلم.. والعفو .. ولين الجانب.. والوداعة والسماحة.. والعدل والشورى.

وما كان محمد ﷺ دمويا، ولا كان صحابته الأكابر أبو بكر وعمر وعثمان وعلى. كما أن حقوق الإنسان هى مبثوثة بطول المصحف وعرضه وبعدد سطوره وبين سطوره...

ومانراه فى الأصوليين من تشنج وتعصب وتخشب وضيق أفق لانعرف له مكانا فى الإسلام[١].

المغزى السياسى
فى
الإسراء والمعراج

من المعجزات التى نزلت على سيد الخلق محمد ﷺ معجزة الإسراء والمعراج، وهذه المعجزة، مايزال يَرِدُ عليها احتجاج المستشرقين الغربيين على نطاق واسع.

---

١ - د. مصطفى محمود، المؤامرة الكبرى (القاهرة : كتاب أخبار اليوم، ١٩٩٣)، صـــ ١٢٠ - ١٢١.

ورغم أن المستشرقين يقرون بالمعجزات عند الأنبياء والرسل، إلا أنهم – لحاجة فى نفس يعقوب – ينكرون الإسراء والمعراج على محمد ﷺ. والسبب أن محمدا ﷺ عرج إلى السماء وتقدم الأنبياء وتولى قيادتهم وصلى بهم، ويعتبر ذلك تفضيلا لمحمد ﷺ من عند الله سبحانه وتعالى. أى أن الإسراء والمعراج أخذا فى الراهن بعداً سياسياً رئاسيا أظهر محمدا ﷺ كما لو كان هو نبى الأنبياء وزعيم الرسل. لذلك استكثر المستشرقون أن يكون كبير الأنبياء من المسلمين وليس من النصارى واليهود(١).

ولذلك مافتئ المستشرقون الغربيون يشككون فى الإسراء والمعراج ويؤلفون القصص والإفتراءات للنيل من هذه الحقيقة الكبرى. والقصة أنه حينما تعرض الرسول ﷺ لمزيد من الكدر والآلام بعد وفاة زوجه خديجة وعمه أبى طالب، لجأ إلى الله طالبا رحمته، فاستجاب له سبحانه وتعالى ورفعه إلى السماء.

كان ذلك كما يروى فى شهر رجب، الشهر الثامن العربى (القمرى) والليلة التى عرج فيها محمد (ﷺ) إلى السماء كانت الليلة السابعة والعشرين من الشهر المذكور. فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان فى بيت أم هانئ ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب وكانت معه فاطمة الزهراء وعمرها تسع سنوات. وإذا بالباب يطرق فخرجت فاطمة – رضى الله عنها – لترى الطارق فإذا هو بشخص عليه الحلى والحلل فسألته عما يريد؟ فقال: أريد محمدا.. فرجعت تستأذن للطارق فخرج النبى ﷺ فلما رآه إذ به جبريل.

وحسب الروايات المتداولة أن العروج جرى على مرحلتين، المرحلة الأولى هى التى رحل فيها من مكة إلى بيت المقدس. والمرحلة الثانية هى التى صعد فيها إلى السماء(٢).

وقد ذكر شيخ الإسلام الامام محمد بن عبد الوهاب فى كتابه – مختصر السيرة – مانصه:

«ثم أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس راكبا على البراق صحبة جبريل عليه السلام. فنزل هناك.. وصلى بالأنبياء إماما وربط البراق بحلقة باب المسجد. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فرأى فيها آدم، ورأى أرواح السعداء عن يمينه، والأشقياء عن شماله، ثم إلى

١– صفاء الدين محمد أحمد، مجلة المنهل (٥١١)، رجب ١٤١٤هـ، ص ٢٠.

٢– عبد الله عمر خياط، جريدة عكاظ، ٢٥ رجب ١٤١٤هـ = ٧ يناير ١٩٩٤، ص ٩.

الثانية، فرأى فيها عيسى ويحيى، ثم إلى الثالثة، فرأى فيها يوسف، ثم إلى الرابعة، فرأى فيها إدريس، ثم إلى الخامسة فرأى فيها هارون، ثم إلى السادسة، فرأى فيها موسى، فلما جاوزه بكى، فقيل له: مايبكيك؟ قال: أبكى أن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى. ثم عرج به إلى السماء السابعة. فلقى فيها إبراهيم، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم رفع إلى البيت المعمور، فرأى هناك جبريل فى صورته، له ستمائة جناح.

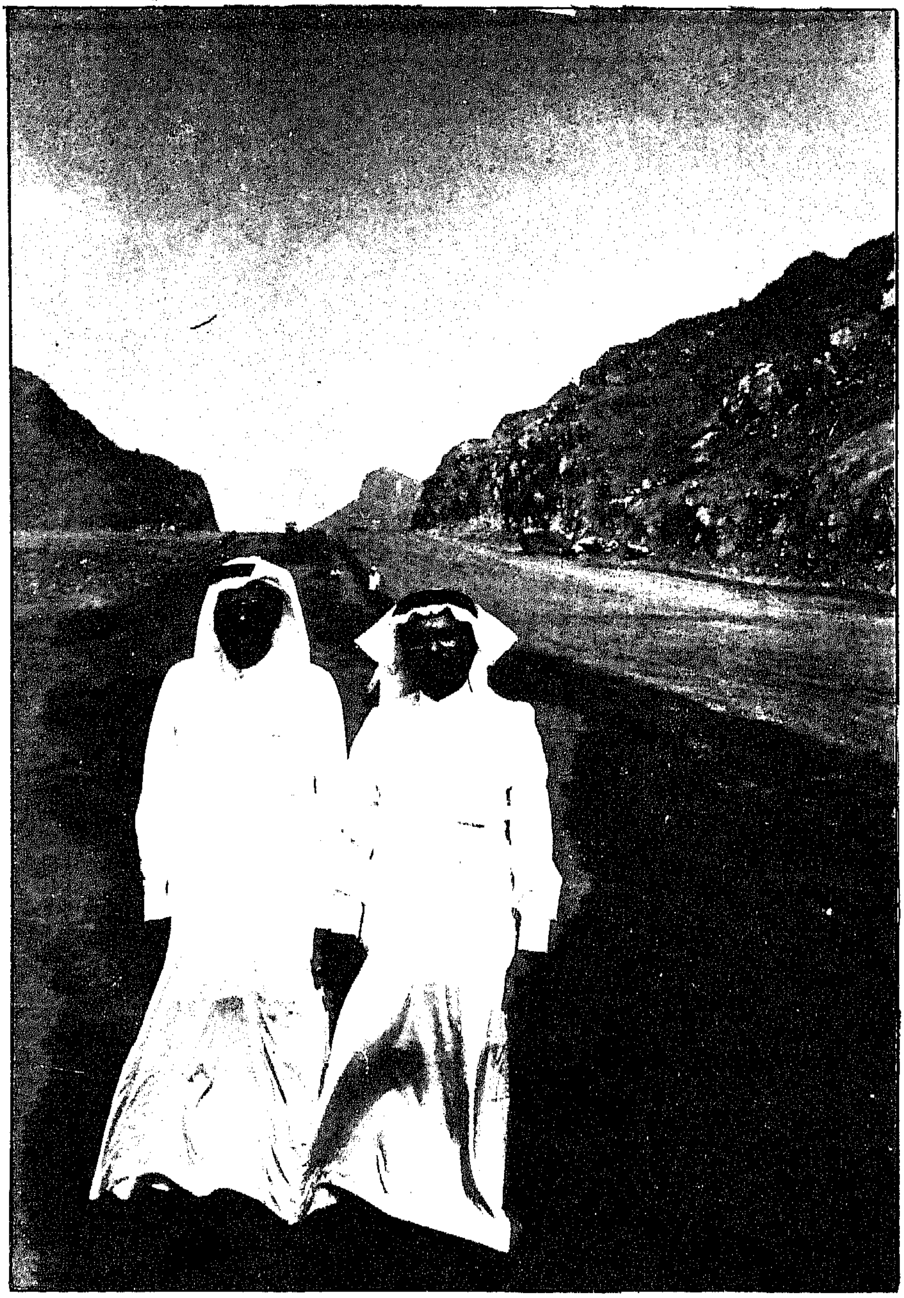
عندما بلغ محمد (ﷺ) السماء الأولى رأى مجموعة من الملائكة تحرس وتدقق فى هوية القادمين لمعرفتهم. ومع أن محمداً (ﷺ) لم يستطع أن يسمع صوت الله مباشرة فقد وصله صوته عن طريق جبريل لعدم تمكن الآذان بما فيها آذان الأنبياء من التقاط صوت الله مباشرة. وخاطب الله محمداً (ﷺ) بواسطة جبريل، فقال له :

– أعلم أنك طُردت من قبيلتك، ولكن عليك أن تتذرع بالصبر. وأعلم أن الأنبياء قبلك قاسوا أكثر، وزجروا بأشد مازُجرت، وفارق بعضهم الحياة من الأرزاء التى حلت بهم. وبعد ذلك خاطب الله رسوله (ﷺ)، وشرح له واجباته فى المستقبل، وقال له : لقد جمع موسى أصحابه وهاجر بهم من مصر، وعليك أنت أيضاً أن تهاجر بصحبك من مكة. وهجرتك تتطلب إرادة وعزيمة، وحتى نشد أزرك رفعناك إلى السماء[1].

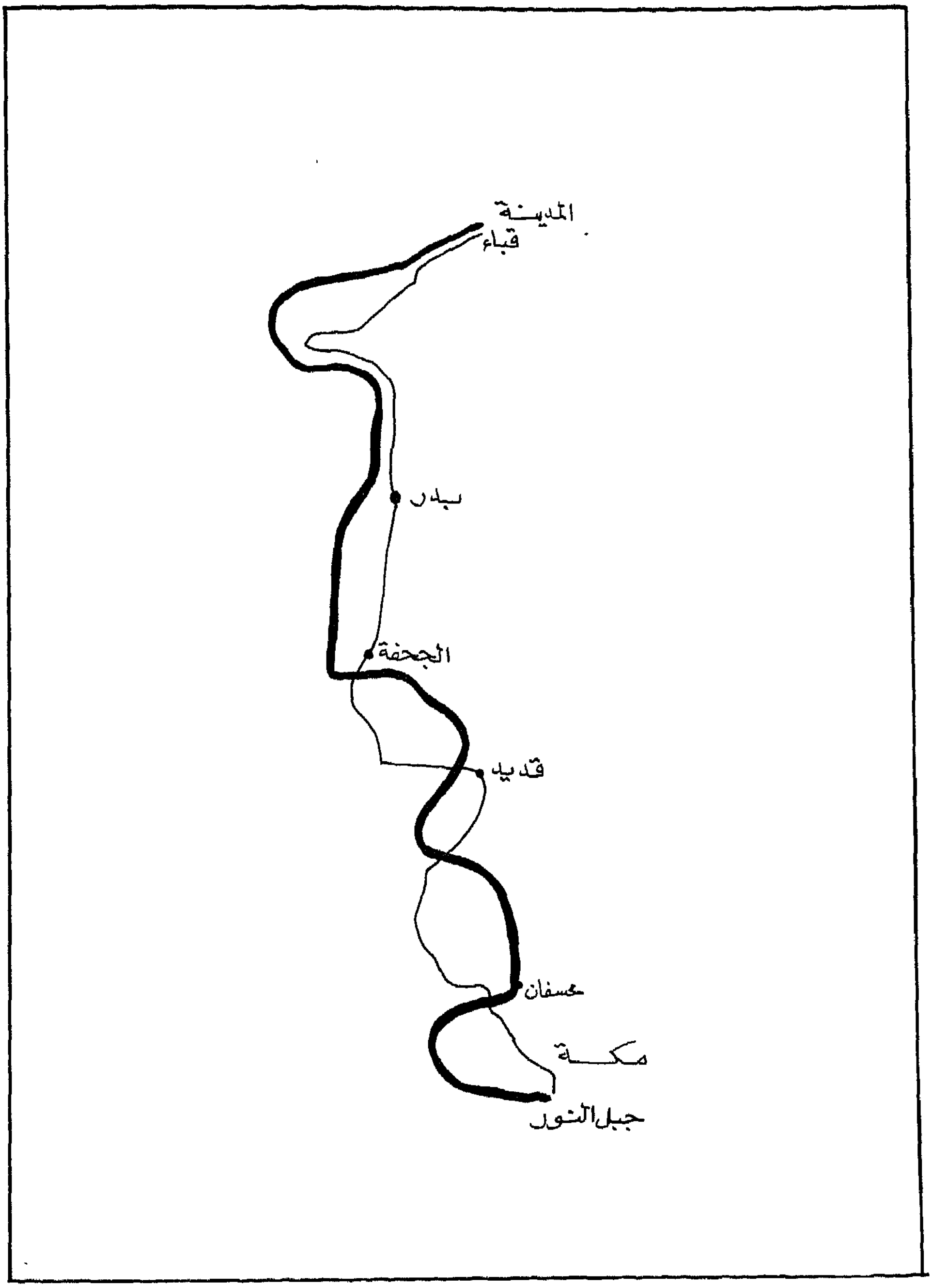
وهكذا حفظ الرسول ﷺ الأمانة وأدى الرسالة وأمر بالهجرة إلى المدينة، ثم هاجر هو وصديقه أبو بكر الصديق اللذان اعتصما فى غار ثور خوفاً من المشركين، ثم غادر إلى المدينة. وفى المدينة بدأ الرسول ﷺ يضع أسس قيام الدولة الإسلامية المحمدية.

ولا شك أن المعنى السياسى للإسراء والمعراج يتجسد فى أن الدين الإسلامى هو خاتم الأديان وأن الإسلام نسخ الأديان التى سبقته وأن الرسول هو نبى الأنبياء وقائدهم، ولذلك فإن محاربة الغرب للإسلام والمسلمين.. هى مخالفة صريحة للقيادة السياسية العالمية التى منحها الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد ﷺ. وأن ما يجب أن يفعله الغرب تجاه الإسلام هو العمل على التسليم بأهمية الحوار وأهمية إعطاء الدور لهذا الدين كى يقوم مرة أخرى لينشر الحدل والسلم فى ربوع الدنيا.

١– يرى ابن كثير أن بعض القصص التى أحاطت بالإسراء والمعراج فيها شئ من التشويش، ويرى ضرورة استبعاد بعض ما لم يرد منها بسند متين، كمسألة البراق ومسألة معارضة موسى عليه السلام للخمسين صلاة والإيعاز إلى الرسول ﷺ أن يطلب من ربه بخفضها إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة...



صورة التقطت للمؤلف مع زميله الأستاذ زاهد قدسى فى ٢٥ رجب ١٤١٤هـ = ٧ يناير ١٩٩٤م وهما يقفان عند مطلع جبل ثور فى ضواحى مكة المكرمة، وهو الجبل الذى صعد إليه محمد ﷺ مع رفيق دربه أبى بكر الصديق ليختبئا من فلول كفار قريش، وهما على طريق الهجرة إلى المدينة بعد أن صدر إليه أمر السماء بالرحيل والهجرة إلى يثرب.



طريق الهجرة وطريق الجادة المعتدلة التى سلكها الرسول ﷺ
مـن مكـة المكرمـة فى طريقـه إلى المدينة المنورة «يثـرب»

الفصل الثانى

المعمار السياسى

للدولة الإسلامية المحمدية

محمد ﷺ
يبشر بميلاد نظام عالمى جديد

بدأ الرسول (ﷺ) باستقراره فى المدينة المنورة يضع أسس الدولة الإسلامية الأولى التى كتب لها – فيما بعد – أن ترود العالم وتبشر بميلاد نظام عالمى جديد.

لقد بدأ النظام العالمى الإسلامى الجديد فى ذلك الوقت بترسيخ مبدأ العدالة الاجتماعية وإلغاء نظام الإقطاع ونظام الطبقات والأنساب والأشراف وإبطال العصبية القبلية وفرض المساواة بين الكافة، كما بدأ النظام العالمى الإسلامى الجديد بترسيخ الشورى وتكريسها فى الإطار المؤدى إلى بناء الحكومة الرشيدة.

وإذا جاز لنا أن نقارن بين تداعيات النظام العالمى فى زمن الرسول ﷺ، وتداعيات النظام الدولى الجديد الذى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية حاليا، لوجدنا المصداقية الأكيدة فى النظام الإسلامى العالمى، بينما نجد فى النظام الدولى الحالى فقدان المصداقية والتلاعب بشعار الديمقراطية وحقوق الإنسان ومصادرة حق الشعوب المعذبة فى الحرية...

بدأ الرسول ﷺ وصحبه يرفعون بناء أولى مؤسسات الدولة الإسلامية الجديدة فى اليوم الثالث من وصول الرسول إلى قباء، وذلك ببناء مسجد قباء، وكان أحد المسلمين قد أهداه أرضاً لهذا المسجد. إلا أن النبى ﷺ لم يقبل الهدية بل اشترى الأرض. ويعتبر مسجد قباء أول مسجد فى الإسلام، وقد اشتغل ببنائه مسلمو المدينة جميعاً من المهاجرين أهل مكة ومن الأنصار سكان المدينة، ويرمز العمل فى مسجد قباء إلى الائتلاف بين قوى العمل الإسلامى المشترك، وكان محمد ﷺ وأبو بكر يجلبان الطين، وعمر يحمل الحجر على كتفه، أو ينقل أكياس التراب. وقد اشترك فى البناء عدد من الأشراف كعمر وأبى بكر وصُهيب بن سنان وفقراء المسلمين. وأقام محمد ﷺ فى قباء عشرين يوماً حتى تم بناء المسجد. عندئذ انتقل إلى المدينة التى كانت تدعى «يثرب»، فى حين أن سكانها الأصليين يسمونها طيبة. وحتى يزيح محمد ﷺ تناقض هذين الاسمين بين المهاجرين والأنصار ألغاهما وأسماها «المدينة». وكانت مساحتها عند قدومه إليها ثلاثين كيلو متراً مربعاً. تقع فى حدودها بعض المنازل العادية كما تقع فى هذه الحدود اثنتان وسبعون قلعة، تسع وخمسون منها لليهود وثلاث عشرة للعرب. يتحصن فى هذه القلاع الطرفان أيام الخطر. ولكن رغم زيادة عدد القلاع اليهودية إلا أن

السكان يتناصفون بين العرب واليهود. والمدينة تقع وسط فلاة مرتفعة، كانت تقطع طولاً وعرضاً على الجمل بيوم كامل. يحيط بها جبلان فى الشمال والجنوب، وثلاث صحارى، وتنتشر فيها الصخور البركانية فى الشرق والغرب والجنوب. وطقسها فى ذلك الزمان ومثله فى هذا العصر يميل إلى الحرارة فى الصيف وإلى البرودة فى الشتاء، والمطر تكثر نسبته بالنسبة إلى كثير من المناطق فى الجزيرة العربية، وفى طرف المدينة بركة كبيرة تمتلئ بمياه الأمطار ولا تجف مطلقاً. وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ تعلم السباحة فيها.

والعرب كانوا يشتغلون بالزراعة ويرعون الأنعام وحرفتهم الأصلية هى التجارة. أما اليهود فهم يتفاوتون كثيراً من حيث العمل؛ فطائفة تتعاطى الزراعة وأخرى الصياغة وبيع الجواهر وثالثة تتعاطى الدباغة.

واليهود كانوا فى البداية سعداء بقدوم محمد (ﷺ)، لأنهم كانوا يأملون أن يستردوا على يديه ديونهم من عرب المدينة، وعندما بنى مسجد قباء حوّل المحراب نحو بيت المقدس. وحين رأى اليهود أن المحراب اتجه نحو بيت المقدس، ولاحظوا أن القرآن يعتنى بذكر الأنبياء الأسبقين أمثال إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، أيقنوا أن محمداً (ﷺ) سيتبع دين موسى. ذلك أنهم يعتقدون أن الأنبياء إنما يبعثون من شعبهم المختار.

وكان أول يوم صلى فيه المسلمون فى مسجد بنى سلمة يوم جمعة. وبعدها أصبحت صلاة الجمعة فريضة على المسلمين بنص القرآن الكريم. وكبر هذا الأمر على اليهود، لأنهم كانوا يتوقعون أن يعين يوم السبت[1].

فى يوم الجمعة الذى اجتمع فيه المسلمون لصلاتهم وعبادتهم فى المسجد اجتمع معهم اليهود فى المسجد. فحادثهم رسول الله قليلاً، وأراد أن يفهمهم أنهم لا يمتازون عن الأمم الأخرى، ولا يفضل الله قوماً على قوم، وهم جميعاً فى مستوى واحد، ولافضل بينهم إلا بالتقوى. ولدى خروجهم تأكدوا أخيراً أنه لن يكون يهودياً مطلقاً. ومنذ ذلك اليوم أخذوا بمخالفته ومعارضته فى كل أموره، وشرعوا ينشرون الشائعات الكاذبة بين الناس، من هذه الشائعات أن الله سيعقم كل النساء المسلمات، وكذلك ستغدو كل من أعلنت إسلامها عقيماً. وبينما كانت هذه الشائعات تسرى بين مسلمى المهاجرين والأنصار حلت الأمراض بالمسلمين من أثر جو المدينة الرطب، فوقع الرجال والنساء بالأمراض. وأضعفت هذه الشائعات من

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩) ، ص ١٨٣ – ١٩٨.

معنوياتهم، فخافوا. فطلب رسول الله (ﷺ) أن يجتمع بالمسلمين فى المسجد فوراً، وأخبرهم أن ما شاع بين النساء المسلمات ليس من أمر الله إنما هو من أناس لايوافقهم تقدم الإسلام وانتشاره. وحثهم على مراعاة نسائهم والتخفيف عنهن، ولهم على ذلك أجر وثواب. وفيما بعد أمر الله رسوله بأن يحول قبلة المسلمين نحو الكعبة. فبدلت قبلة المسجد، ولهذا أطلق المؤرخون على هذا المسجد اسم «مسجد القبلتين»[(١)].

وفى الصفحات التالية وعلى طول هذا الفصل، سوف نتابع استعراض الجهود النبوية العتيدة التى سبقت الوصول إلى يثرب «المدينة» لوضع أسس قيام الدولة الإسلامية المحمدية.

فى الطريق.. إلى عاصمة الدنيا

بعد أن أتم الرسول ﷺ بناء مسجد قباء امتطى ناقته المسماة «قصوة»، واتجه نحو المدينة. ويوم وصوله كان المسلمون جميعا ينتظرونه ويتلهفون لرؤية طلعته، وحينما وصل تقدم الرجال من ناقة الرسول (ﷺ) وأمسكوا بزمامها محاولين توجيهها نحو منازلهم. فأدرك الرسول ﷺ أنه إن حط رحاله فى دار أحدهم سبب ضيقاً للآخرين وجعلهم يظنون أنه يفضل على الآخرين، فقال لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة.

وعبرت قصوة عدة أحياء، حتى وازت دار بنى النجار، فبدت عمارة بنى بياضة، ثم مرت بمنزل أخواله. وتوقع المسلمون أن الناقة ستقف مقابل ذلك المنزل ولكنها لم تفعل، بل تابعت طريقها.. والمسلمون وراءها يريدون معرفة مبركها. وتابعت طريقها مأمورة حتى وصلت مربداً لتجفيف التمر، فبركت، وكان أقرب منزل إلى هذا المربد لرجل يدعى «أبا أيوب الأنصارى» والأرض التى توقفت فيها تابعة له. وابتهج المسلمون لدى رؤيتهم ناقة النبى، وقد اختارت مكانها، وعلموا أن رسول الله ﷺ سيبنى فى هذا المكان مسجداً لهم ومنزلاً له، وستغدو هذه البقعة مركز إشعاع الدولة الإسلامية الأولى، وسأل محمد (ﷺ): لمن هذه الأرض؟

فقال أحدهم: إنها تخص أخوين صغيرين يتيمين، وأنا أسعد بن زرارة النجارى من الخزرج الوصى عليهما. وإننى أهبك هذه الأرض، وبإمكانك أن تبنى عليها مسجداً ومنزلاً. فقال له رسول الله: لو لم تكن الأرض لليتيمين، وكانت لك لما رضيت أخذها بلا ثمن، فكيف وهى للطفلين؟ فقد كنت يتيماً من الأب والأم وأقدر ما يعانيه اليتامى من حزن وعذاب، لذا أقبل الأرض بشرط أن تبيعنى إياها بأغلى مما تستحق[(٢)].

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

(٢) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (القاهرة: مكتبة النهضة الإسلامية، ١٩٨٨)، ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

قال أسعد بن زرارة: قيمتها سبعة دنانير. وتشاور محمد (ﷺ) مع المسلمين فى مسألة تحديد ثمنها، فأكدوا له كلام الوصى، فقال محمد: فأشتريها بعشرة دنانير، حتى يتمكن أسعد من شراء أرض أفضل منها تكون أكثر نفعاً لليتيمين.

كان أبو بكر خازن الإسلام واقفاً خلف الرسول (ﷺ). ففتح كيسه فوراً ودفع لصاحب الأرض عشرة دنانير.

وباشر الرسول (ﷺ) فى اليوم الثانى بمساعدة المسلمين ببناء المسجد. وأقبل المسلمون جميعاً- بما فيهم محمد (ﷺ) - على نقل الحجارة والأتربة وعلى تهيئة الطين اللازم للبناء. وقد استمر المسلمون فى بنائهم مدة سبعة أشهر. وقد وجهت القبلة نحو بيت المقدس لأن الله لم يأمر رسوله حتى ذلك التاريخ بتحويلها نحو الكعبة. ولم يكن لعدد من المهاجرين مأوى ينامون فيه. لذا بنى رسول الله (ﷺ) فى طرف المسجد «صُفّة»[1] كبيرة من الآجر ينامون عليها ليلاً، ويحتمون فى ظلال سقفها نهاراً. هؤلاء الذين ناموا على هذه الصفّة دعوا «أهل الصفة». وقد حظى هؤلاء الناس بشهرة عظيمة فى الإسلام. هذه الصفة التى كانت مهجع الفقراء يوماً.. غدت منارة العلم الإسلامى فيما بعد، ثم عدّت أول جامعة إسلامية تقدم فيها الدروس[2].

ونعرف جميعا أن الشرائع لم تنزل مرة واحدة، بل نزلت بالتدرج على مدى ثلاث وعشرين سنة، ولهذا لم تطبق الأحكام الجديدة كلها دفعة واحدة. وعلة مراعاة هذا التحول التدريجى أنه لو ألغى كل أعرافهم دفعة واحدة وطبق الأحكام كلها، لضاق المسلمون واستحال عليهم التنفيذ. يضاف إلى ذلك أن الأعراب فى الجزيرة لم يكن عندهم هذا الاستعداد الكبير الذى يخولهم إدراك قوانين الإسلام الجديدة فى مدة وجيزة، فبعد بعثة محمد ونزول الأحكام من السماء، لم يؤمر المسلمون بإلغاء ما كانوا عليه. لهذا فإن الصلاة نحو بيت المقدس استمرت كما هى لأن الله تعالى لم ينزل آيته بمنع الصلاة نحوه والاتجاه نحو مكة المكرمةفور تشريع الصلاة، رغم أن الإسلام دين نزل على نبى عربى بلسان عربى، والكعبة كذلك بناء عربى بناه لهم جدهم إبراهيم.

١- صالون بلغة العصر الحديث، ومازالت «صفة» تستخدم عند أهل الحجاز حتى اليوم.

٢- عبد الرحمن الشرقاوى، محمد رسول الحرية (القاهرة: دار الشروق، ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠)، ص ١٣٤- ١٤٠.

وفيما كان المسجد يشيد كان الرسول ﷺ يفكر فى أمر تنظيم أمة الإسلام.

ولقد بدأ الرسول ﷺ فى وضع مراسيم بناء الدولة الإسلامية الأولى بتشكيل قياداتها الأوائل.

تشكيل القيادات الإسلامية الأولى

إن أية ظاهرة جديدة، أو أى نظام جديد فى حاجة إلى قيادات. ولقد بدأ تشكيل القيادات الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ حينما بدأ الحديث عن الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام.

كانت السيدة خديجة أول من آمن بمحمد (ﷺ) وتلاها فى الإيمان ابن عمه على بن أبى طالب، الذى كان بمثابة ابنه، والمسلم الثالث كان زيداً، غلام محمد (ﷺ)، الذى قلنا إنه كان غلام رسول الله (ﷺ) ثم أعتقه ورفض أن يعود مع والديه، وفضل العيش فى كنف رسول الله (ﷺ). وفى عام ٦١٣م أسلم أبو بكر، فصار عددهم أربعة أشخاص وبعد أن أسلم أبو بكر كانت ابنته «عائشة» أول وليد فى الإسلام، لأن أباها كان مسلماً، ثم نزلت الآية الكريمة: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1]. ويروى أن محمداً (ﷺ) بعد نزول هذه الآية طلب إلى ابن عمه على أن يدعو أعمامه وأبناء عمومته إلى وليمة. وتذكر الرواية أن عميه أبا طالب وأبا لهب وأبناء عمومته لبوا الدعوة جميعاً. وبعد أن طعم الجميع دعاهم إلى الإسلام ولكن لم يقبل بدعوته أحد، وكان عمه أبو طالب رجلا شريفاً وصادقا ولكنه امتنع عن الإسلام لكبر سنه، ولاستحالة التنازل عن عقيدة آبائه. وبعد أبى طالب سيد بنى عبد المطلب، اتجه نحو أبى لهب عمه الآخر. فقد كان تاجراً غنياً غير معتن بالمسائل الدينية إلا فى مدى استفادته، وكذلك كان أغلب تجار قريش، إذ كانوا يحمون معتقداتهم لازدهار تجارتهم، ومن أبرز هذه المعتقدات أنهم فى كل سنة يحرمون القتل والنهب أربعة أشهر، فتنطلق القوافل بكل حرية ويفتح سوق عكاظ كما سبق أن أشرنا للتجارة وإلقاء القصائد، وقد صرف الرسول (ﷺ) النظر عن إيمان عمه أبى لهب كما صرفه عن إيمان أبى طالب، ولكن كانت زوج أبى لهب امرأة متمكنة، وتدعى «جميلة» وهى أخت أبى سفيان، وأبو سفيان أغنى تجار مكة. وبالإضافة إلى هذه القرابة بين أبى لهب ومحمد (ﷺ) فقد جمعتهما صلة رحم أخرى، إذ تزوج ولدا أبى لهب وجميلة ابنتى محمد (ﷺ)، لذا كان هذان الولدان صهرى ابن عمهما محمد (ﷺ)، وكانت

١- سورة الشعراء (٢١٤).

جميلة شاعرة بارعة فى فن الهجاء. وحينما شرع محمد (ﷺ) بدعوته بدأت هى بهجائه. والحقيقة أن أبا لهب وزوجه لم يقبلا بالإسلام كما لم يمل قلبهما إلى أى دين آخر، فقد كانا ينظران إلى الدنيا من زاوية تجارية بحتة[١].

ودعا رسول الله (ﷺ) الابن الثالث لعبد المطلب إلى الإسلام، واسمه حمزة. كان حمزة يحب الرياضة ويتباهى بالفوز والبطولة. والولد الرابع هو العباس، وكان صرافاً مرابياً، والناس فى نظره طبقتان طبقة مستدينة، وأخرى دائنة.

وبذلك عرف محمد (ﷺ) أن أبا طالب رجل مسن وضعيف، وأبا لهب تاجر، وحمزة رياضى، وعباساً مراب، وليس بينهم من هو أهل لأن يستجيب لنداء الدين الجديد، ولكنه قرر بأن لايتهاون فى دعوة ذوى رحمه الأقربين. وقد نصحه أصحابه بأن يحاول ثانية مع أقربائه الأبعدين، فلعلهم يميلون إليه، ويقبلون على الدين الأقوم. ولكن محمدا ﷺ قرر أن يدعو أربعين نفرا من أقربائه الأدنين، على أن يتقدم الجميع أبناء عبد المطلب الأربعة، وبالفعل دعاهم إلى وليمة فى منزله. وكان على هو الذى يستقبل الضيوف. ويروى أن علياً وضع بين أيدى الضيوف قليلا من الطعام، فقال لهم محمد (ﷺ): كلوا باسم الله.

لم يكن ما وضع أمام الضيوف طعاماً كافياً، ولكنهم كانوا يأكلون منه ويأكلون من غير أن ينفد الطعام. ومع أنهم شبعوا تماماً فإن الطعام لم ينته. ثم قال محمد (ﷺ) لعلى: اسق القوم.

فأحضر عساً فيه لبن يكفى لرجل واحد. ولكن بعد أن شرب الضيف الأول من الوعاء لم يحتج إلى ملئه ثانية، فنقله إلى الضيف المجاور، وهكذا حتى ارتوى الجميع، ومازال فى العس بقية، فعجب الحاضرون كثيراً مما رأوا. فما كان من أبى لهب إلا أن قال: سحركم صاحبكم[٢]!

وخرج الجميع من منزل محمد من غير أن يفسحوا له فرصة لدعوتهم إلى قبول الدين الجديد. وحين أيقن محمد (ﷺ) أنه لن يتمكن من نشر دعوته بين أقربائه وأهله، وجه أنظاره نحو أهل مكة، فعزم على جمعهم فى جبل الصفا، ليعرض عليهم أمراً ذا بال. فتوافد الناس إلى

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد ، مرجع سابق، ص ١٢٨ - ١٣٢.

(٢) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢١٦ - ٢١٧.

المكان المعهود، ومعهم بنو عبد المطلب. فعلا محمد (ﷺ) مكاناً بارزاً، وقال لهم: أرأيتم إن عرضت عليكم أمراً، أتقبلونه أم لا؟

فقالوا له: بلى يامحمد نقبل، لأننا نعلم أنك رجل صادق ولم نسمع عنك كذباً. قال محمد: فإن الله اختارني لأداء رسالته وقد أمرني أن أدعوكم إلى عبادة الله الواحد، فاقبلوا هذا وأطيعوا الله فإن لم تطيعوه حل بكم بلاء عظيم[1].

يذكر الطبري أنه بعد أن أنهى محمد (ﷺ) كلامه صرخ أبو لهب قائلا: أدعوتنا يامحمد لتسمعنا هذا الكلام؟ ألم تفكر في أن هذا الكلام هراء، لا يعادل ترك أعمالنا وقدومنا إليك؟!.

ثم توجه أبو لهب نحو القوم وقال: لا تصغوا إلى كلامه أيها القوم، عودوا إلى بيوتكم فهو رجل مجنون.

فتفرق الجمع، وعادوا إلى منازلهم عدا اثنين ظلا مع محمد (ﷺ) هما: علي وزيد. فاشتد عليه بنو عبد المطلب إثر هذه الحادثة، لا يتوانون عن السخرية به ومحاربته. فاعترى رسول الله (ﷺ) ملل وضيق لم يصب بمثلهما قبلاً. وعندما لاحظ أبو لهب وزوجه جميلة أن الكلام القاسي لم يؤثر في محمد (ﷺ) عمدا إلى إيذائه بطرق أخرى. فقد حملا حجراً وقذفاه نحو منزله فتحطمت النافذة. وكانوا يمنحون الأطفال بعض الدراهم ليحصبوا منزل محمد بالحصى. وكانت بعض الضربات تصيب وجهه ورأسه، وحين يعود إلى منزله تسأله زوجه: أآذوك اليوم أيضاً يامحمد (ﷺ)[2]؟

وكان رسول الله (ﷺ) يجيب: إذا قدر المرء هدفه لم يعبأ بالآلام التي تعترضه، فاشتكى إلى ربه ما يتعرض له من آلام حتى نزلت هذه الآية: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾، والآية ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾، والآية ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾. ونزلت الآية الأخيرة خاتمة لما أنزل عليه في هذه السورة، هي: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾.[3] وعلى أثر نزول هذه الآيات، التي يشمل بعضها مواساة رسول الله (ﷺ)، وإعلامه بأن المشركين سوف يخذلون، طابت نفس محمد (ﷺ)، وظل يحتمل أصناف العذاب.

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحرية، مرجع سابق، ص ٧٤ – ٧٥.

(٢) الطبري، جزء ٢ ، ص ١٥٧.

(٣) سورة الحجر، الآيات: ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩.

وفي غضون هذه الأحداث فوجئ محمد ﷺ وخديجة بابنتيهما زوجتي ولدى أبي لهب تدخلان المنزل، ومعهما أمتعتهما الخاصة بهما، وقالتا لأبويهما: لقد طلقنا زوجانا، وطلبا إلينا أن نعود إلى منزل أبوينا.

فسألتهما خديجة: ولم طلقاكما؟ فأجابتا: لقد طلقانا بناء على أمر والديهما أبي لهب وجميلة، فقد قالا لهما إنه ليس من اللائق لولديهما أن يتزوجا بابنتي محمد (ﷺ)، لأن الناس جميعاً ينفرون من أبينا اليوم ويشعرون بالمهانة إن بقينا عندهم.

تألمت خديجة لهذا الأمر كثيراً، فطيب محمد (ﷺ) خاطرها.

وحينما لم تجد هذه الأعمال الصبيانية في ثني محمد ﷺ قررت قريش بعد السنة الرابعة من بعثته وصمموا على قتله. كان من عادة محمد (ﷺ) أن يذهب إلى الكعبة يتعبد الله فيها. فصممت قريش على منعه من دخول الكعبة إلا بإذن. فأجابهم محمد (ﷺ): إن الكعبة بيت الله، ولا حاجة بي إلى إجازة لزيارتها.

وبعد أن انخذلت قريش مرتين في مساعيها ، ولم يتيسر لها قتله أحجمت عن الأمر لوجود حام جديد إلى جانبه . ففي أحد الأيام ، وبينما كان محمد خارجاً من منزله هاجمه فتيان قريش فتضايق أحد المشاهدين من فعل المشركين ، فذهب إلى منزل حمزة عم النبي ﷺ ، يحكي له الأمر، وكان في تلك اللحظة قد عاد من صيده ورياضته. فقال الرجل له:كيف ترضى أن يضرب ابن أخيك، ويهان ويسمع أقذع الكلام ولا تتقدم لحمايته وأنت الهمام[1]؟

لم يكن حمزة يعبأ بدين محمد ﷺ كما سبق أن أشرنا ، لأنه سمع أن هذا الدين يخالف عقيدة الأجداد، ومن طبعه أن يحترم عقائد أسلافه. ولكنه عندما سمع ما يفعله المشركون بابن أخيه، ولا سيما أنهم يشتمونه سأل الرجل: وماذا كانوا يقولون له؟

فقص الرجل على حمزة بعض ما سمعه من الكلام النابي فثارت ثائرة حمزة ، وغلا الدم في عروقه ، وبدت عليه علائم الغضب .فشهر حمزة سيفه، وخرج متجها نحو منزل أبي جهل ، لأنه يعلم أنه رأس الفتنة والعداء ، وقرع الباب قرعا شديدا، وقال لأبي جهل، والشرر يتطاير من عينيه: أو تظن أن محمداً ﷺ من غير حماية؟ فتضربه بالحجارة وتشتمه

١- عبد الرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحرية، مرجع سابق، ص ٨١ - ٨٢.

بالكلام القبيح ، لقد دخلت فى الإسلام منذ اليوم . فمن مس محمدا ﷺ بإهانة لم يسلم من عقابى.

واشتد أزر المسلمين بحمزة ، لأنه بطل مبارز مرهوب الجانب. ومع ذلك فإن قريشا لم تدع فرصة لم تؤذ محمداً فيها، وظل المسلمون يجتمعون لأداء صلاتهم سرا فى منزل على تل الصفا.

بعد أن أسلم حمزة وفد على الإسلام عدد من الرجال ، حتى بلغ عددهم ثلاثين شخصاً . وكان سكان مكة ، ولا سيما قبيلة قريش ، يتخوفون من ازدياد عددهم .. لهذا اجتمعوا فى « دار الندوة » ليتدارسوا مسألة إنهاء هذا الدين الجديد . ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة مرضية . وكان عمر بن الخطاب من جملة المجتمعين، وقد أعلن لهم بعد انتهاء المجلس: أنا أقتل لكم محمداً وأريح مكة من شره [(١)].

كان أشراف قريش - كما ذكرنا - يتمنون قتل محمد ﷺ ، ولكنهم ما كانوا يجرؤون على ذلك.. فى حين أن عمر يستطيع ذلك ، فهو أحد ذوى العزم المتعصبين لمكة، ثم هو ذو قامة فريدة لا شبيه لها فى مكة، وكان طويلا لدرجة أنه عندما كان يدخل إلى مسجد المدينة (بعد الهجرة) كان يبلغ رأسه سقف المسجد . وأهل مكة على ثقة من كلام عمر ويعرفون أنه لا يتراجع عن كلامه مطلقاً . فإن قال : « سأقتل فلاناً » فإنه يقتله حتماً . وحين أعلن عمر أنه سيخلصهم من محمد ﷺ كان ذلك عام ٦١٤ م. وفى ذلك الوقت كان محمد ﷺ والمسلمون فى المنزل الذى ذكرنا أنه على تل الصفا . فذهب عمر إلى منزله ليأتى بسيفه ليقتل به محمداً، وفى الطريق لقيه شخص يدعى نعيم بن عبد الله النحام من بنى عدى ، وهو مؤمن سراً من غير أن تعرف قبيلة قريش ، فسأله: إلى أين ياعمر؟

فأجاب عمر بصوته الضخم المعهود: لم يخطر ببالى يا نعيم أننى سألقى رجلاً يهيننا مثل محمد طيلة حياتى، بل إنه أهاننا أكثر من أن يهيننا عدونا . لقد جاء هذا الرجل بدين جديد ونشره بين سكان مكة وسخر من أجدادنا ومرغ عقيدة آبائنا بالتراب، ويطالبنا اليوم بترك عبادة آلهتنا. لقد صبرنا عليه كثيراً لأنه واحد من قريش، ولكن إهاناته ازدادت الآن ولهذا فأنا ذاهب لأقتله وأريح سكان مكة من شره.

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ١٣٤ - ١٣٥.

فقفز الخوف والهلع من نعيم وقال له: تمهل ياعمر، فلى معك كلام . قال له نعيم: أنت لست راضياً حتماً عن دين محمد ﷺ لأنك تقول إنه يقلق دين سكان مكة. ولكن قبل أن تمنع الناس عن هذا الدين الجديد ، ألا ترى من الأفضل أن تهتم بأمور منزلك؟،فسأله عمر متعجباً:ماذا تريد أن تقول؟!

قال نعيم : اثنان من أقربائك أعلنا إسلامهما، وهما يقيمان الآن فى منزلك. وهما أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى القرشى فأرى أن تهتم بمن فى منزلك قبل أن تهتم بسكان مكة.

عندما سمع عمر كلام نعيم وافقه على رأيه، لأنه رجل منطقى ، وقال له: إن ما تقوله صحيح، على أن أقلع جذور الإسلام من منزلى قبل أن أنهيه من مكة.

وهكذا انصرف عن مهاجمة تل الصفا ، وعاد إلى منزله. وشاهد هناك أخته وزوجها سعيداً ورجلاً آخر اسمه خباب التميمى، وكان مسلماً أيضاً ، مشغولين بتلاوة آيات من القرآن. فهجم عمر على أخته يضربها بالسوط وشدد فى ضربها حتى سال دمها من عدة أجزاء من جسمها وقال لها:عليك أن تتركى دين محمد.

وقالت فاطمة له: لو قتلتنى بسوطك ماتنازلت. وأنت إن قرأت القرآن علمت أن دين محمد ﷺ هو حق. ومد عمر يده إلى القرآن وقرأ آيات منه،وتأثر بها تأثرا عظيماً . فقبل أخته واعتذر لها ، وقال لهؤلاء الثلاثه إنه يرغب فى الإسلام فوراً . وذهب الثلاثة ومعهم عمر إلى تل الصفا حيث كان محمد . وعندما شاهد المسلمون من أعلى التل أخت عمر ووجهها ينزف دماً ومعها عمر، تصوروا أنه قدم لقتالهم . ولكن عمر طيب خاطرهم وأخبرهم أنه قدم ليعلن إسلامه[1]. وقد بلغ عدد المسلمين بإسلام عمر أربعين شخصاً . وإسلامه هذا شجع كثيراً من الناس على الالتفاف حول محمد ﷺ، وحينما صعد عمر التل ليعلن إسلامه قال: فلنذهب إلى الكعبة. ومشى المسلمون ، لأول مرة فى تاريخ الإسلام ، بشكل جماعى فى أحياء مكة حتى وصلوا إلى الكعبة. وتجمع أبو جهل وأبو سفيان وأبولهب وسائر أشراف قريش مقابل الكعبة من غير أن يجرؤوا على دخولها . وبعد أن أتم المسلمون صلاتهم ، خرجوا إلى منازلهم . فتقدم عمرمن أشراف قريش وقال :إن كنتم فى حاجة إلى شئ من محمد ﷺ بعد الآن فكلمونى ، لأننى أعلنت إسلامى هذا اليوم . كان سادة قريش يخافون من عمر كثيراً لدرجة أنهم لم يجرؤوا على إجابته. وسار عمر مرافقاً

١- د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

لمحمد وحامياً له حتى أوصله إلى منزله. فلم يجرؤ أحد على إهانته أو قذفه بالحجارة. ولاحظ المشركون أن عمر تعهد حماية محمد ﷺ أكثر من تعهد حمزة له. فسبب هذا الأمر تخوفاً شديداً[1].

وبعد المشاورة قرروا أن يقصدوا أبا طالب سيد قبيلة هاشم ، ليطلبوا إليه أن يطرد محمداً ﷺ من قبيلته حتى يستطيعوا أن يخططوا لقتله، فما دام محمد ﷺ فى قبيلة هاشم فإن جماعة قريش لا تجرؤ على قتله. وإن وافقهم أبو طالب على هذا أبيح لهم سفك دم رسول الله ﷺ، وإن قتلوه من غير طرد طولبوا بدفع الدية، هذا إذا وافقت قبيلته على قبض الدية. وهكذا اختاروا عدداً من الأفراد يعرضونهم على أبى طالب ، لينتقى واحداً أو اثنين تعويضا عن محمد ﷺ حين يطرد من قريش .

وذهب ممثلو قريش إلى أبى طالب ، وأبلغوه اقتراح قبيلتهم . فأجابهم أبوطالب: أنا لن أعلن إسلامى مطلقاً، وسأموت على دين آبائى وأجدادى . ولكننى لا أستطيع طرد ابن أخى لتقتلوه، بيد أنى أعدكم بأن أحادثه ولعلى أوفق برده عن دينه الجديد ، فتعالوا إلى غداً لأطلعكم على ما وصلت إليه.

واستدعى أبو طالب ابن أخيه إلى منزله ذاك اليوم وقال له: لقد طلبت إلى قبيلة قريش أن أطردك ليتمكنوا من قتلك ، ولكننى قلت لهم إننى لن أقبل بدين محمد ﷺ كما لن أطرده ولعلى أصرفه عما هو فيه. فسأله محمد: عن أى شئ تصرفنى؟ أجاب أبو طالب: لقد وعدتهم بأن أحادثك لتصرف عن فكرك هذا الدين الجديد وتسكت عن أمثال هذا الكلام الذى تقوله.قال محمد ﷺ : أى عم ، عندما أمرنى الله بأداء رسالتى لم أعتمد إلا عليه فى أدائها ، والآن ليس لى اعتماد إلا على الله ، فإن شئت أن تطردنى فافعل .

ولكن أبا طالب لم يطرده لأن عمله هذا يعد عيبا منه.فقال لقريش : لن أطرد محمداً ولن أقبل دينه طوال حياتى.

عندما انخذل بنو قريش مع أبى طالب قرروا أن يحادثوا محمداً ﷺ وجهاً لوجه فأرسلوا أجدر رجالهم المعروفين بالحلم والأناة ومعرفة الرجال . فذهب عتبة إلى محمد ﷺ وقال له:يا محمد ، حين شببت أسميناك « محمداً الأمين » و «محمداً الصبور ». وكم

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ١٣٩ – ١٤٠.

كنا راضين عن حسن أخلاقك ولم نعرف عنك أذى لأحد. ولكنك الآن تؤذى سكان مكة جميعاً بكلامك ودعوتك، ولم يعد أحد راضياً عنك، ذلك أنك تعلن على الملأ أن ديننا باطل وأن أوثاننا غير نافعة وأن أجدادنا على باطل ، فى حين أنك واحد منا وابن لأجدادنا، فكيف تقبل أن تهين أجدادنا ؟ أريد منك أن تحكى لى ما تطمح إليه، فإن كنت تريد مالا أعطيناك قدر ما تريد ، وسنجمعه لك من تجار مكة لتحيا غير محتاج. وإن كنت تريد امرأة أعدك بأن قبيلة قريش تقدم لك أجمل بناتها ، وبإمكانك أن تنام كل ليلة مع واحدة من القرشيات الجميلات . وإن كنت تطلب جاهاً ومقاماً أجبناك إلى طلبك ورأسناك على بلدتنا، شريطة أن تغير عقيدتك وألا تخطئنا فى عقيدتنا وألا تعلن أن أوثاننا ليست على حق ، لأننا لا نتمكن من الإصغاء إلى هذه الإهانات، وكل كلمة تقولها فى هذا السبيل أشبه برمح يغرز فى صدورنا .

كان محمد يستمع إلى ممثل قبيلة قريش بكل اهتمام، وبعد أن أتم كلامه أجابه: إن ما يصدر عنى ليس منى إنما هو كلام الله ، وما يوحيه إلى أقوله لكم وبإمكانكم أن تفهموه وأن تعملوا به. فعندما أقول لكم إن أجدادكم ودينكم على غير حق وإنكم مشركون، فإنما هو كلام من عند الله أنطقنيه وأنا رسول الله وعلى أداء رسالتى، وما تهددوننى به أو ترغبوننى فيه لا ينفع، أطلب إليكم مخلصاً أن تبتعدوا عن طريق الشرك وتقبلوا دين الله، والله يقول لى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين﴾[1].

بعد أن سمع ممثل قبيلة قريش جواب محمد ﷺ ، وعاد إلى قبيلته قال لهم : لم يعد بإمكانى عمل ما ، فاصنعوا بمحمد ﷺ ما شئتم[2].

إنشاء الدولة الإسلامية الأولى.. فى المنفى

إن قيام المسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة وإنشاء الدولة الإسلامية الأولى فيها، يشبه إلى حد بعيد – بلغة الفقه السياسى المعاصر – ما يقال عنه بإنشاء الدولة الحرة فى

١– سورة فصّلت (٦).

٢– كونستانس جيورجيو، نظرة جديدة فى سيرة رسول الله، مرجع سابق، ص ١١٢ – ١١٥.

المنفى. فبعد أن أسلم عمر وحمزة ازداد حقد قريش واستثاروا غضباً على غضبهم وخوفاً على أوثانهم التى بدأت تتداعى أمام دعوات محمد ﷺ، وأمام إقبال الشباب القرشى عليها.

ولذلك قرروا الإمعان فى ملاحقة محمد ﷺ وأتباعه وتوقيع المزيد من الأذى بالمسلمين حتى اضطر بعضهم إلى التراجع عن دين الإسلام خوفاً مما يلحقهم من تنكيل وتعذيب .

أمام زيادة الضغوط من قبل قريش على محمد ﷺ وأتباعه ، قر رأيه على أن يصدر تعليماته بالهجرة إلى الحبشة. ويبقى هو فى مكة متحملاً كل الأخطار. وكان فى مقدمة المهاجرين جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء ،وعثمان بن عفان صهر النبى، وكذلك كان من المهاجرين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة، وسهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجه أم سلمة بنت أمية، وكان أيضاً من المهاجرين عثمان بن مظعون وحاطب بن عمر وسهيل بن البيضاء [1].

خرج هؤلاء من مكة خلسة، واتجهوا نحو ساحل البحر ، وركبوا من هناك سفينة ، عبروا بها إلى الحبشة. وكانوا أول مجموعة رحلت إلى الحبشة . وتبعتهم بعد ذلك مجموعات أخرى.

ولقد تولى جعفر بن أبى طالب قيادة المجموعة والحديث مع نجاشى الحبشة. وفى اليوم الذى دخل فيه المسلمون عاصمة الحبشة وضعت أسماء زوجة جعفر غلاماً. وفى اليوم نفسه وضعت زوج النجاشى غلاماً أيضاً. فأمرت الملكة أن تكون أسماء مرضع ابنها، وهكذا غدا ابن جعفر وابن النجاشى أخوين بالرضاع.

وتوالت جموع المهاجرين إلى الحبشة حتى بلغ عددهم مئة وتسعة أشخاص. وأخيراً تنبه كفار قريش إلى أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة، فأرسلوا اثنين منهم وهما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد شقيق خالد بن الوليد ليطلبا إلى النجاشى أن يعيد المسلمين المهاجرين إلى مكة. وعندما دخلا على النجاشى قال عمرو: أيها الملك ، لقد آويت أناساً فاسدين منشقين عن ديانة أجدادهم التى يعتبرونها باطلة ويرون آباءهم على خطأ. ياملك

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٧.

الحبشة إن الذين حميتهم قد يكونون السبب فى تبديل ديانة شعبك والأفضل لك أن تسلمنا إياهم لنعيدهم إلى أهاليهم فهم ينتظرون عودتهم ، ثم وصفوهم كما لو كانوا بمثابة منظمة سياسية أجنبية تتخذ من الحبشة مقرا لها لتهدد أمن وسلامة الحبشة ثم تنقض على جيرانها فى مكة. إزاء هذا التشويش أمر النجاشى أن يمثل المسلمون أمامه، فسألهم: قدم هذان الرجلان من مكة وادعيا أنكم أناس مارقون وأن عليكم أن تعودوا إلى أهاليكم فما تقولون فى هذا الادعاء؟

فتقدم جعفر خطوة وقال: يا مليك الحبشة اسأل هذين الرجلين أسرقنا شيئاً من مكة أو من أى مكان آخر فى الجزيرة؟ أقتلنا أحداً ؟ هل قمنا بما يشين فى مكة؟

فسألهما ملك الحبشة ذلك ، فأجابا:كلا لم يسرقوا ولم يقتلوا.

فتابع جعفر كلامه: يا ملك الحبشة كنا نعبد الأوثان ونقضى أوقاتنا فى اللهو والعبث حتى هدانا إلى الله الواحد نبى اسمه محمد بن عبد الله ﷺ فتنزهت نفوسنا عن الشهوات وترفعت عن الموبقات وأهملنا عبادة الأوثان واتبعنا تعاليم الله وأعنا الضعفاء ، أما هذان الرجلان اللذان يريدان منا أن نعود إلى أوطاننا فهما من قوم يعبدون الأوثان المصنوعة من الحجارة أو من الخشب ، ويظلمون الضعفاء ولا يألون جهداً فى انتهاز كل فرصة للإساءة بمحمد ، حيث كانوا يرشقونه بالحجارة ويوصمونه بأشنع الأوصاف .

وبعد أن استمع النجاشى إلى رأى الطرفين أمر بأن تعاد الهدايا التى أحضرها عمرو وعمارة، وقال لهما : إن الذين دخلوا بلادى هم فى حماى ومقربون منى جداً، لأنهم يعبدون إلهاً نحن نعبده ولا أسمح لكم بأن تخرجوهم من ديارى أوتؤذوهم.

وبعد أن خرج عمرو وعمارة من حضرة النجاشى ، طلب إلى جعفر أن يشرح ما يعرف عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام. فقرأ للنجاشى وللحاضرين بضع آيات من سورة مريم المتضمنة تفصيلاً عن قصة مريم والسيد المسيح . ولما استمع النجاشى إلى آيات القرآن غلب عليه البكاء، وشاركته حاشيته فى التأثر، ثم قال للمسلمين: إن نبيكم رجل عظيم وصديق، وأنتم فى بلدى آمنون، ولن يجرؤ أحد على إخراجكم منها.

وبعد أن أيقنت قريش أن القسم الأعظم من المسلمين هاجر إلى الحبشة ضيقت الخناق على من تبقى منهم فى مكة. وكان رأس الفتنة أبا جهل ، وهو وحده الذى يجابههم فإن بلغه أن أحد أشراف مكة أعلن إسلامه اعترضه وحقره وأساء إليه، ولقد أصدرت قريش فرمانا يمنع الاتجار مع المسلمين[1] .

١- سيرة ابن هشام، جزء ١ ، ص ٢٢٩.

واستمرت قريش على تخوفها، وبالتالى كان الراغبون فى الإسلام يتراجعون عن الدخول فيه، مما يلقونه من عنت المشركين . وقد كان أبو بكر فى هذه المرحلة الحرجة هو التاجر الوحيد الذى لم يتخوف من تهديد تجار مكة، واستقبل ضياع أمواله بكل رحابة صدر ، لأن المشركين لم يدفعوا له ما استحق عليهم من أموال له. وبالتالى بذل ما تبقى لديه فى سبيل الإسلام ،حتى الذين هاجروا إلى الحبشة سافروا بأموال أبى بكر(١).

وكان أبو بكر يقرأ القرآن بصوت مرتفع حالما يحل الليل وتهدأ أصوات مكة ويأخذ الناس طريقهم إلى منازلهم. وكان كل من كان يمر بمنزل أبى بكر يتوقف ليصغى إلى آيات القرآن. وكان الطريق يزدحم بالناس حتى يصعب العبور . وعندما رأت قريش هذا أرسلت هدية إلى رفاعة، ومعها رسالة تطلب إليه فيها: « إنك حميت أبابكر ونريد منك الآن أن تأمره بخفض صوته حين يقرأ القرآن حتى لا يزدحم الناس خلف منزله، لأن تجمعهم هذا مخالف لنظم مكة» ولكن قريشاً لم يرقها ما يفعله أبوبكر ويسيل به أهل مكة فسعت إليه وعنفته حتى أجبرته على خفض صوته.

التمهيد لتشكيل حكومة المدينة الإسلامية

حينما عاد محمد ﷺ إلى مكة قادماً من الطائف حاول أن يحصل على حماية إحدى القبائل ولكنه لم يجد من يحميه. وصادف ذلك الوقت شهر رجب ، ومن عادة العرب أن يحجوا العمرة، لأنهم يعتبرون العمرة فى « رجب » حجاً أصغر . فانتهز محمد ﷺ فرصة قدوم عدد من القبائل إلى مكة لقضاء العمرة، فاتصل برؤسائها ، ولكنه كان كلما قدم إلى رئيس يعرض عليه حمايته ويعدهم بأنهم سيحكمون العالم المجاور فى المستقبل . لم يوفق إلى واحد منهم ، بل إن بعضهم كان يسخر منه ويصرف السمع عنه. ومع أنه لقى سلبية من قبل خمسة عشر رئيساً فإنه لم يلق ذلك من السادس عشر، لم يسخر هذا الرجل من محمد ﷺ ،بل أصغى إليه بكل اهتمام ، وما أن شرع بتلاوة بعض الآيات حتى آمن به. وبعد ذلك ناداه مرافقوه الخمسة، وطلبوا إليه أن يتلو عليهم بعضاً من القرآن، وهكذا أسلم الرجال الستة. وبعد أن أدوا عمرتهم عادوا إلى يثرب بعد أن أعلموا محمداً ﷺ أنهم سيعملون على إسلام بقية قبيلتهم ، ثم يعلنون حمايتهم له.

---

(١) كونستانس جيورجيو، المرجع السابق، ص ١٢٠ - ١٢٢.

وبعد مضى عدة أيام من بقاء محمد خارج مكة وافق رئيس قبيلة نوفل ، والتى تعتبر واحدة من قبائل قريش العشر على حماية محمد ﷺ . وإثر ذلك استطاع أن يعود إلى مكة ويدخل منزله. وفى ذلك الوقت تزوج بسودة.

لم تكن سودة صبية ولاجميلة. وقد صرح محمدﷺ بأن زواجه منها إنما لمساعدة أولاده من خديجة، حتى لا يعيشوا بلا مشرف. وبعد أن تزوجها عرض عليه أبوبكر صديقه المخلص أن يخطب ابنته عائشة، وقال له: ابنتى أول مخلوق فى عهد الإسلام ، فحرى بها أن تكون زوجك.

فقال له محمد ﷺ: ولكنها فتاة صغيرة، ولما تبلغ السابعة من عمرها!

فقال له أبوبكر: اخطبها يارسول الله، ثم نصبر عليها حتى تكبر، وبعد ذلك تزوجها.

وبعد عام، قدم عدد من سكان يثرب إلى مكة لأداء الحج، وكان عددهم اثنى عشر رجلاً،، وواضح أنهم مسلمون قدموا لزيارة مكة. عشرة منهم من قبيلة، واثنان من قبيلة أخرى. واتخذوا «العقبة» مركزاً لهم، وتشاوروا فيه مع رسول الله (ﷺ). والعقبة شق بين جبلين، يقع بين مكة ومنى، وقد دعى هؤلاء الاثنا عشر رجلاً من مسلمى المدينة كما دُعى معهم سائر مسلمى المدينة باسم «الأنصار». وبعد أن وصلوا إلى العقبة، أخبروا محمداً أن المسلمين زادوا فى يثرب، وسبب زيادتهم اطلاعهم على القرآن الكريم. وبعد ذلك راجعه هؤلاء ببعض المسائل السياسية الخاصة بمدينتهم وقالوا له:

– لقد حصل خلاف بين قبائل يثرب فى مسألة انتخاب «ملك» لهم، مع أن الصائغ أعدّ تاجاً لأحد سادة القوم، ويدعى «عبدالله بن أبى» إلا أن عدة من القبائل لم توافق على سلطنته، واقترحت بدلاً عنه نبياً لحل مشكلاتها. ولما كان محمد (ﷺ) من طائفة قريش، وأبوه عبد الله المدفون فى ظاهر يثرب، وهو نبى، فإن سكان يثرب يجمعون على استقباله. وهم يعلمون أن للنبى ميزات على السلطان، لأنه يستلهم الله فى حكمه.

فقال لهم محمد (ﷺ) : أأنتم مستعدون لأن تبايعونى «بيعة النساء » ؟

وبيعة النساء هنا هى عهد ووفاء تقدمه القبيلة لرجل فاقد قبيلته. وهكذا بايعه ممثلو القبيلتين «بيعة النساء»، أى على الوفاء. ويقسم المبايع فى هذه البيعة على أن يكون وفياً

كوفائة لزوجه وأولاده، ولهذا يدعوها العرب بيعة النساء. وبعد أن أقسم هؤلاء الرجال قال محمد لهم : إن بررتم فى قسمكم دخلتم الجنة، وإن نكثتم فعقابكم عند الله، هو يجازيكم أو يعفو عنكم.

وأرسل معهم مصعب بن عمير وهو شاب حسن الحديث، ويتلو القرآن بصوت عذب جميل. وقد استطاع بعد أن وصل يثرب أن يدخل عدداً من المشركين فى الإسلام. وتقدم الإسلام فى يثرب، فلم يكد ينتهى عام ٦٢١م حتى غدا كل السكان مسلمين عدا اليهود تقريباً. ومع أن اليهود لم يكونوا مستعدين للدخول فى الإسلام فإنهم لم يمانعوا فى قدوم محمد (ﷺ) إلى يثرب، لأنهم بواسطته سيحلون الخلافات بينهم وبين الآخرين[1].

وقدمت فئة أخرى من المدينة لأداء فريضة الحج عام ٦٢٢م، فلقيهم محمد (ﷺ) ليلاً فى ذلك الشعب، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين. وحين اكتمل جمعهم قرأ عليهم محمد (ﷺ) بضع آيات من القرآن. ثم طلب إليهم أن يبايعوه بيعة النساء، كما بايعه الذين سبقوهم. فبايعوه بيعة يدافعون فيها عنه كما يدافعون عن نسائهم وأولادهم. وأكد لهم محمد أن بيعتهم هذه تضطرهم للدفاع عنه كما يدافعون عن أهلهم وقال لهم : قد نضطر إلى الحرب فى سبيل الإسلام، فهل أنتم مستعدون للحرب، وهل أنتم مستعدون لبيعتى بيعة الحرب ؟

ووافق مسلمو المدينة على مبايعة محمد بيعة الحرب، وعاهدوه على الدفاع وعلى الهجوم، ولكنهم قبل المبايعة قالوا له : ولكننا، يارسول الله، نخشى أن تتركنا وتعود إلى مكة إن أظهرك الله ونصرك.

ولهذا أقسم لهم وقال : يامسلمى يثرب، إن دمكم دمى ودمى دمكم، أنا منكم وأنتم منى. وكل من يحارب منكم فى سبيل الله سأحارب معه.

وبعد أن بايعه الناس انتخب منهم اثنى عشر نقيباً، تسعة من طائفة، وثلاثة من طائفة أخرى. ثم قال للنقباء الاثنى عشر: أنتم تمثلوننى، فاشرحوا لأهل يثرب أحكام الله، وقولوا لهم: المسلمون سواسية، والله يقول : ﴿ إنما المؤمنونَ إخوةٌ فأصلحوا بينَ أخويكُم واتقوا الله لعلَّكم

١- د. يحيى إسماعيل، منهج السنة فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم (المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)، ص ١٦٣ - ١٧٠.

تُرحمون ﴾[1] وقوله تعالى﴿ يأيها الناسُ، إنَّا خلَقناكم من ذكر وأنثى، وجَعلناكم شعوباً وقبائل لتَعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير ﴾[2]. وهكذا فإن الرسول ﷺ أزال كل الفوارق الطبقية فى المجتمع الإسلامى الجديد[3].

كان النبى (ﷺ) يعلم أن هجرته من مكة ستفرز ظهور مجتمع جديد، يختلف عن مجتمعه القديم تماماً، ليس فيه نسب ولاحسب، ولاثروة، ولن يكون فيه فرق بين أبيض وأسود وغنى وفقير، وابن أمير وابن رجل عادى، وسيدعى الناس هناك جميعاً بـ «الأمة». وسيكونون متساوين جميعاً لأنهم على دين الإسلام الواحد، وستكون الطاعة الوحيدة لله، ورسول الله، وكل أفراد هذه الأمة الجديدة متساوون أمام الله.

و «الأمة» تختلف عن العشيرة والقبيلة فى الحسب والنسب والدم، والذى يفصل بين الناس جميعاً فى هذه الأمة هو أحكام القرآن، وشرط الدخول فى هذه الأمة، هو أن يقبلوا حكم الله.

إن الإعلان عن مواصفات المجتمع الإسلامى الجديد الذى لايعبأ بالأحساب ولا الألوان إنما كان ثورة اجتماعية عظيمة، أزالت كل معالم نظام الطبقات والأشراف.

الإسلاميون الأحرار

تمت بيعة الحرب - كما أشرنا - فى عام ٦٢٢م، وبرز منذ تلك البيعة فى الساحة العربية والإسلامية مصطلح سياسى جديد، هذا المصطلح هو « المهاجرون والأنصار ». فالمهاجرون هم مسلمو مكة الذين هربوا من التعذيب الذى كانوا يلقونه من المشركين، والأنصار هم مسلمو المدينة الذين أسلموا منذ بيعة العقبة. وقد أطلق لفظ «الأنصار» فى بادئ الأمر على المجموعتين اللتين بايعتا رسول الله ﷺ فى العقبة. وفيما بعد غدت مصطلحاً شائعاً لكل سكان المدينة.

وقد تمت بيعة الحرب هذه سراً، ومع هذا فإن فئة من قبيلة قريش اكتشفت أن محادثة جرت بين محمد (ﷺ) وبين سكان يثرب، وأن الطرفين اتفقا على شئ ما ولهذا سألوا مجموعة أخرى قدمت إلى مكة للحج: متى؟ وأين رأيتم محمداً؟ وماذا قلتم له؟ وماذا سمعتم منه؟

١- سورة الحجرات آية (١٠).

٢- سورة الحجرات آية (١٣).

٣- د. يحيى إسماعيل، منهج السنة فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم، مرجع سابق، ص ١٦٥ - ١٧٢.

غير أن القادمين كانوا عبدة أوثان، قدموا لزيارة أصنام الكعبة، ولم يعرفوا شيئاً عن «بيعة الحرب»، لأن الخمسة والسبعين مسلماً الذين اجتمعوا فى العقبة ليلاً عادوا إلى يثرب بعد أن غيروا وجهة سيرهم خشية أن يتعقبهم أهل قريش. وبعد عودة مسلمى المدينة بثلاثة أيام أدرك المشركون من أهل قريش أن «عهد حرب» جرى بينهم وبين محمد (ﷺ) فقرروا أن يلحقوهم ليعيدوهم إلى مكة. كانت القوافل العادية تقطع الطريق بين مكة والمدينة بأحد عشر يوماً، بيد أن الجمال السريعة البيضاء تطوى المسافة بثلاثة أيام مع لياليها، ولما غيّر المسلمون الطريق، وامتطوا النوق النشيطة لم يستطع القرشيون أن يكتشفوهم، وعوضاً عن ذلك أوقفوا أحد تجار يثرب، وكان من جملة المسافرين مع القافلة المسلمة، فأسروه وأعادوه إلى مكة. وهناك استنطقوه فقال لهم : لقد كنت مع قافلة يثرب، وعدت معهم، غير أننى لم أسمع بأن المسافرين صرحوا بأنهم لقوا محمداً (ﷺ) فى مكة وتحادثوا معه.

لقد صدق التاجر المدنى فى كلامه، لأن المسلمين لم يصرحوا لغريب عن اجتماعهم. وكان هذا التاجر غنياً ومن قبيلة ذات مكانة، فإن آذته قريش جوبهت بصعوبات جمة ووقعت فى حروب قبلية، كما أن للتاجر المذكور أصدقاء، ويرتبط بصداقات واسعة مع بعض تجار مكة، فأطلقوا سراحه، وأرسلوا جاسوسين إلى يثرب ليستشفا أخبار المسلمين هناك، ويعلما ماهية القرار الذى جرى بينهم وبين محمد (ﷺ) .

وحالما اطمأن رسول الله (ﷺ) إلى وصول المسلمين الخمسة والسبعين إلى يثرب أوعز لمسلمى مكة بالهجرة والإقامة فى منازل الأنصار. وقد أخذ المسلمون بالهجرة على شكل مجموعات صغيرة بدقة متناهية، حتى لاينتبه أهل قريش. ولكن سكان مكة يعرفون بعضهم بعضاً، وسفر عدد منهم وإن جرى بطريقة سرية يلفت النظر. وكان قد قرر ثلاثة من المسلمين الهجرة، هم : « عياش بن ربيعة »، وأخواه «هاشم» و «أمية» أبناء العاص، وكان موعد الرحيل ليلاً، غير أن هاشماً فقد ولم يعثر عليه. فاضطر المسلمان الآخران إلى الرحيل من دون أخيهما، وفهم المسلمون – فيما بعد– أن هاشماً أسرته قريش لأنه مسلم.

وبعد أن وصل جاسوسا قريش إلى يثرب قصدا عياشا وقالا له : إن أمك فى مكة تشارف على الموت، فإن أردت أن تراها قبل موتها فانهض ورافقنا إلى أمك لأننا عائدان إليها. ولقد انطلت الفرية على عياش وسار معهما إلى مكة، وحالما وصل قيدوه بالحديد، ورموه فى

الصحراء إلى جانب أخيه. ولكن عندما وصل نبأ أسر هاشم وعياش إلى يثرب قدم عدد من الأنصار على نوق سريعة، ففكوا قيودهما ليلاً، وأركبوهما جملين، وعادوا بهما.. ولم يكن بقى فى جسميهما إلا الجلد والعظم. وارتكب كبار قريش عددا من السرقات للمسلمين الأثرياء تنكيلاً بهم، فعندما هاجر أحد المسلمين الأغنياء إلى يثرب ويدعى «بنو جاش» استولى أبو سفيان على منزله الكبير وأقام فيه. ثم التقت قريش بأحد أثرياء العرب المعروفين واسمه «صهيب بن سنان الرومى» وقالوا له : ياصهيب يوم قدمت إلى مكة كنت رجلاً فقيراً فاشتغلت بالتجارة هنا، وتمكنت بمساعدتنا أن تصبح من أغنياء مكة. والآن تريد أن ترحل عن بلدتنا بثروتك التى جنيتها منا، لهذا لانسمح لك أن تخرج من المدينة بمالك.

فترك كل أمواله فى مكة واتجه نحو المدينة، فنزلت الآية الكريمة: ﴿ ومن الناسِ مَن يَشْرِى نفسهُ ابتغاءَ مَرْضات الله، والله رؤوف بالعباد ﴾[1]. وعجبت قريش مما فعله صهيب، لأنها لم تتوقع أن تري أحداً يعاف الدنيا ليلتحق بدين يخدمه بكل وفاء وإخلاص. ذلك أن مكة اعتادت ألا ترى شيئاً ذا قيمة إلا المال، وأهل قريش يسعون إلى الإكثار من أموالهم وكنز ثرواتهم، لهذا اعتبرت قريش صهيباً مجنوناً، لأنها تصورت أن الإنسان المجنون وحده هو الذى يتخلى عن أمواله فى سبيل دينه. وبعد صهيب غادر عدد من المسلمين منازلهم نحو المدينة، وهم يعلمون علم اليقين أن قريشاً ستستولى على منازلهم. ثم مالبثت هجرة المسلمين أن اشتدت وتوسعت، حتى لاحظت قريش أن مسيرتهم غدت تشبه نهراً أصابه الفيضان على طرفيه ليغرق المدينة ومن فيها.

وهكذا، عندما تنبه أفراد قريش إلى هجرة المسلمين أحسوا بوضع عصيب يعترضهم، فاجتمعوا فى دار الندوة، ليصلوا إلى حل له. وبعد المناقشات والمداولات أجمعوا على قتله. وحتى يضمنوا عدم تدخل قبيلته أو أى قبيلة، قرروا قتله بشكل جماعى، بأيدى أفراد القبائل العشر، فإذا اشتركت القبائل العشر بقتله لم يستطع أحد أن يطالب قريشاً بشيء، لأن دمه سيضيع بين عشر قبائل. وقبل أن يبدأوا تنفيذ الجريمةوعلمت إحدى عمات محمد (ﷺ)، وتدعى «رقية بنت أبى سيف» خطة قريش لقتل محمد (ﷺ)، وهى أن يهاجموه فى منزله ليلاً ويضربوه ضربة رجل واحد. فأسرعت رقية إليه، وقالت له : عليك أن تفكر فى وسيلة تنقذ نفسك بها من القتل.

١- سورة البقرة (٢٠٧).

وأحس محمد (ﷺ) بالخطر يداهمه، فذهب إلى منزل أبى بكر، وشرح له خطة قتله. فخرج أبو بكر من مكة فى الليلة نفسها، أى فى الليلة السابقة لقتله وأنزل محمداً (ﷺ) فى غار فى جبل « ثور »، الذى كان يقع فى ظاهر مكة وأبقاه فيه، وأخبره أن لديه ناقتين بيضاوين (والبيضاء من النوق هى السريعة فى الجرى)، وعليهما سوف يرحلان عن مكة. وقال أبو بكر: إن أحضرتُ الناقتين الآن تنبهت قريش إلى ما سنفعله، وعلينا أن نقوم بشئ غامض على قريش. فطلب محمد (ﷺ) من على أن يرتدى بردته الخضراء، ويظل طيلة اليوم قرب النافذة جالساً، وينام مكانه ليلاً حتى تتوهم قريش أنه موجود فى المنزل ولم يخرج. فقال له على : لقد خدمتنى يامحمد (ﷺ) كثيراً، واعتبرتنى مثل ولدك، ولهذا فإننى أفديك بروحى وأنا سعيد بذلك. وارتدى على فى ذلك اليوم عباءة محمد، وجلس خلف النافذة، يرى قريشاً أن محمداً (ﷺ) موجود، فى حين أنه كان فى الغار مع أبى بكر فى أمان. وقد سعى أبو بكر لأن يبعد النبى (ﷺ) عن مسالك القوافل والمسافرين حتى لايعرفوه. وطوى الاثنان الصحراء من الصباح حتى المساء، حتى بلغا غاراً آخر. ولما كان الطريق إليه ممتلئا بالحجارةفقد تجرحت قدما محمد (ﷺ)، إلا أنه لم يعبأ بآلامه. وفى هذا الغار حدثت المعجزة التى سوف نجئ على ذكرها ونحن نتابع الجهود النبوية التى سبقت الوصول إلى يثرب «المدينة» لتأسيس أركان الدولة الإسلامية الأولى[1].

منظمة التحرير الإسلامية

تابع محمد (ﷺ) وأبو بكر طريقهما إلى يثرب وظلا يشقان الطريق ليلاً حتى اضمحل الظلام وأشرقت الشمس ووصلا إلى الغار الذى أراد أبو بكر أن يخفى فيه محمداً (ﷺ).

فى الوقت نفسه اتجه أفراد قريش نحو منزل محمد (ﷺ) ليقتلوه ولكن المفاجأة أخرستهم حينما وجدوا علياً محله.

فسألوا علياً عنه : هل خرج محمد (ﷺ) من مكة؟

ولما كان على رجل صدق، ولايستطيع الكذب أجابهم : نعم خرج.

واندفعت جماعة قريش إلى ظاهر مكة ليلاً يتعقبون محمداً (ﷺ). وبدأوا أول الأمر

١- محمد الغزالى، تأملات فى الدين والحياة (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م)، ص ٢١٤ - ٢١٦.

بالبحث عنه فى البوادى المحيطة بالبلدة. وأرسلوا من ينادى فى الناس أن من يسلم محمداً (ﷺ) أو يدل على مكان اختفائه، فإن جائزته مئة جمل. وفى صبيحة اليوم التالى ركب عدد من أبناء قريش جمالاً سريعة، وأخذوا يبحثون عنه، حتى وصلوا إلى «غار ثعبان». ومع أنهم عبروا من أمامه ورأوه فإنهم لم يدخلوه، لأن اللهأمر بعض العناكب بأن تنسج خيوطها مقابل باب الغار. فعندما رأى الرجال بابه موصداً بالعنكبوت. اطمأنوا إلى أنه لايمكن أن يكون قد دخله مخلوق، لأنه إن دخله تمزق نسيج العنكبوت لامحالة.

وبعد أن عبرت هذه المجموعة من المشركين من أمام الغار قدمت أخرى، فشاهدت عند مدخله حمامة صنعت عشاً، ووضعت فيه بيضاً. وقال أحدهم : لم يدخل محمد (ﷺ)، بلا شك هذا الغار، فلو دخله لتمزق العنكبوت ولما حطت الحمامة فى هذا المكان.

ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى بعد أن عبرت الفرقة الثانية، أنزل صخرة من أعلى الجبل، فأوقعها على باب الغار فسده، ولم يعد أحد يستطيع الدخول إليه. كان أبو بكر مريضاً داخل الغار إثر عضة ثعبان، فأخذ الرسول ﷺ يخفف عنه ويسليه ويطمئنه إلى أن الله معهما، حتى نزلت الآية ﴿ إلاَّ تنصروهُ فقد نصره الله، إذْ أخرجَهُ الذين كَفروا ثانى اثنين إذْ هُما فى الغار إذ يقولُ لصاحبه لاَ تَحزنْ إنَّ الله مَعَنَا ... ﴾[1].

ولقد أمضى محمد (ﷺ)وأبو بكر ثلاثة أيام بلياليها فى الغار، عندئذ قدم عامر بن فهيرة، غلام أبى بكر بناقتين بيضاوين، فامتطياهما واتجها نحو المدينة، وحتى لايلحق بهما المتعقبون اتجها نحو ساحل البحر. واستمرت قريش ترسل المنادين ينادون أن لمن يقبض على محمد (ﷺ) أو يدل عليه جائزته مئة جمل.

كان سراقة بن مالك رئيس قبيلة بنى مدلج، فى أحد الأيام فى خيمته مع نفر من صحبه فدخل عليه شخص وقال له : ياسراقة، لقد رأيت اليوم رجلين راكبين جملين أبيضين يتجهان نحو ساحل البحر وأعتقد أن أحدهما محمد. حين سمع سراقة هذا النبأ فهم من كلامه أن أحد الرجلين محمد (ﷺ) بلا شك، فإن قبض عليه نال مئة جمل. وحتى لايشرك أحداً فى هذه الجائزة قال له: لقد أخطأت فيهما، إنهما ضيفاى، كانا عندى مساء أمس وقد رحلا اليوم[2].

١- سورة التوبة (٤٠).

٢- د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٦٧ - ٢٧٥.

وحين ذهب الرجل من عنده نهض مع بعض رجاله (وقبيلته متفقة مع قريش) وركبوا خيلاً، وهدفهم أسر محمد (ﷺ) ليحوزوا الجائزة. واستطاع سراقة أن يبلغهما لأن الجواد سريع، غير أن أطراف جواده غارت في الرمال.

وحاول سراقة ثلاث مرات الوصول إلى محمد (ﷺ)، إلا أن أطراف جواده كانت تغوص في الرمل كلما حاول التقدم. وبعد أن امتنع جواد سراقة ثلاث مرات عن الإقدام، اقترع .. هل يتابع اللحاق بمحمد أم لا ؟ وجاءت القرعة سلبية، ومع ذلك فإنه حاول بجواده مرة رابعة فغاصت أطرافه، ولم يستطع الدنو من الجملين.

وعندما رأى سراقة جواده يتعثر للمرة الرابعة ولم تخالفه القرعة نزل عن جواده ونادى: توقف يا محمد (ﷺ)، أريد أن أحادثك. وسلم سراقة جواده إلى أحد المرافقين، واتجه نحوه ماشياً، وقال له : لقد اتفقت مع قريش يا محمد (ﷺ) على أسرك لإعادتك إليها ولأنال الجائزة، لكنني فهمت الآن أنك على حق. ولهذا أتمنى منك الأمان على نفسي وقبيلتي يوم أن تعود زعيماً على قريش[(١)].

فقال محمد (ﷺ): ستكون في أمان ذلك اليوم، ولن يؤذيك أحد أنت وقبيلتك.

وبعد أن أسلم سراقة غدا أحد القواد المشهورين في الإسلام. ومنذ ذلك اليوم والأيام بعده، كان سراقة يحول الباحثين عن محمد (ﷺ) وجهة مخالفة. وصادف محمد وأبو بكر قافلة فيها الزبير بن العوام أحد أقرباء النبي (ﷺ)، وبمساعدته حصلا على الثياب والطعام. وبعد يومين آخرين وصلا إلى قبيلة « أسلم » واسم رئيس هذه القبيلة هو أوس بن هاجر فأعد لهما دليلا يدعى (مسعودا) ليوصلهما إلى المدينة.

وسار المسافرون بإرشاد مسعود حتى وصلوا إلى نهاية رمال قبيلته عندئذ قال لهما : إلى هنا أنا معكم، ولن أتخطى حدود قبيلتي.

فسمح له محمد (ﷺ) بالعودة. وبعد أن تركوا موطن تلك القبيلة دخلوا أرضاً تنتهي بمنطقة « قباء » في ١٦ يونيو ٦٢٢م[(٢)].

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ١٧٨ – ١٧٩.

(٢) محمد الغزالي، تأملات في الدين والحياة، مرجع سابق، ص ٩٥ – ٩٩.

وبعد أن وصل محمد (ﷺ) إلى مشارف « قباء » على حدود يثرب طلب من أبى بكر أن يبيعه الناقة. فسأله أبو بكر : لم أبيعك إياها، وقد قدمت هذه «القصية » لك ؟

وحين لاحظ أبو بكر أن محمداً غير مستعد لأن يقبل الناقة هدية باعه «القصوة» بمبلغ أربعمائة درهم، وغدت الناقة ملكاً له وظل اسمها مذكوراً فى التاريخ الإسلامى.

وبعد أن وصل الرسول ﷺ إلى قباء بدأ يضع أسس تكوين نظامه السياسى الذى سيقوده إلى تحرير مكة من المشركين. وإذا كان الرسول ﷺ قد أسس فى المدينة دولة المدينة، إلا أنه فى قباء يمكن أن نقول أنه وضع أسس بناء ما يمكن تسميته بمنظمة التحرير الإسلامية.

البرنامج السياسى للرسول ﷺ

لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كانت هناك مجموعة من القضايا الساخنة تنتظر أن يبت فيها سريعاً.

أولاً: إيجاد صيغة ملائمة للوحدة الوطنية تتعايش من خلالها كل القوى العرقية (قبائل)، أو الدينية والمذهبية (مسلمين، يهود، وثنيين).

ثانيا : وضع برنامج اقتصادى يقضى على الاحتكار الذى كان اليهود يضربونه على التجارة فى المدينة.

ولقد بدأ الرسول ﷺ برنامجه السياسى بطرح مشروع الوحدة الوطنية بين المهاجرين والأنصار، ثم أوصى بإنشاء سوق اقتصادية للمسلمين لمنافسة الأسواق التجارية لليهود، كما أوصى بمنع الاتجار مع مشركى قريش وإعلان المقاطعة الاقتصادية معهم[١].

وبعد ذلك ألقى الرسول ﷺ مجموعة من الخطب السياسية الهامة التى تشكل فى مجموعها البرنامج السياسى الكامل للدولة الإسلامية المحمدية.

روى البيهقى عن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس، فقدموا

(١) عبد الرحمن الشرقاوى، محمد رسول الحرية، مرجع سابق، ص ١٤٠.

لأنفسكم. تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولاحاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فلينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظر قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله ﷺ فى الناس مرة أخرى فقال:

« إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، وقد أفلح من زينه الله فى قلبه، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه. أحبوا ما أحب الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم . إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم».

وروى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها . قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك.. أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن.

كما كان الأنصار يختصمون على المهاجر، كلهم يريد أن يضمه إلى نفسه حتى أنه لم ينزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة.

بهذه الروح التى بثها رسول الله ﷺ فى أتباعه حلت مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل[1].

ولقد أكد الرسول على الوحدة الوطنية بقوله:

« تآخوا في الله أخوين أخوين ». ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: «هذا أخى» فكان رسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أخوين . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله ﷺ وعم رسول الله ﷺ ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين. وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين الطيار، ومعاذ بن جبل أخوين. وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بن أبى قحافة وخارجة بن زهير أخوين. وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين. وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن الربيع أخوين. والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين. وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين. وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبى بن كعب أخوين. ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين. وأبوحذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين. وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين. وأبو ذر الغفارى والمنذر بن عمرو أخوين. وكان حاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين . وسلمان الفارسى وأبو الدرداء أخوين. وبلال مولى أبى بكر وأبو رويحة أخوين.

فهؤلاء الذين سماهم الرسول ﷺ هم رموز الوحدة الوطنية التى أراد الرسول ﷺ أن يقول عنها بأن كل المسلمين من مهاجرين وأنصار هم أخوين... أخوين.

وهكذا، تيسرت سبل العيش على المهاجرين بالمدينة بفضل حسن معاملة الأنصار لهم، ذلك أنهم منحوهم بعض أموالهم وسمحوا لهم بالتجارة والاشتراك معهم فى زراعة أراضيهم، كما كان لفرض الزكاة على المسلمين بعد مقدم الرسول إلى المدينة أثر فى تحسين حالهم[2].

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ١٨٣ - ١٨٦ .

(٢) المقريزى، إمتاع الأسماع، ص ٥٠.

كذلك أذن الرسول لفقراء المسلمين بالمدينة الذين ليس لهم منازل ولاعشائر أن يبيتوا فى المسجد، وكان يدعو طائفة منهم ليلا لتناول العشاء معه، ويكلف أصحابه بإطعام الآخرين ، وقد عرف هؤلاء المسلمين بأهل الصفة. لأنهم كانوا يأوون إلى صفة المسجد، وهى المكان المسقوف منه[1]. ولقد بلغ مستوى الوصال بين المهاجرين والأنصار إلى درجة التوارث.

ظل التوارث بالمؤاخاة قائما حتى اجتمع شمل الأنصار والمهاجرين وأوقعوا الهزيمة بالمشركين فى غزوة بدر، فأنزل الله تعالى ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شئ عليم﴾[2]. فنسخت هذه الآية ماكان قبلها، ورجع كل مسلم إلى نسبه وورثه لذوى قرباه.

الرسول ﷺ
يضع أول نظام أساسى للحكم

بداية يجب أن نميز بين مصطلح النظام الأساسى للحكم، ومصطلح الدستور.

يعرف الدستور بأنه مجموعة القواعد القانونية التى تعبر عن طبيعة النظام الأساسى فى الدولة، وتحدد سياستها العامة وهويتها الوطنية، كما تتناول القواعد القانونية للدستور تنظيم العلاقة بين السلطات الثلاث التشريعية « التنظيمية» والتنفيذية والقضائية، وتحديد الاختصاصات والصلاحيات بين مختلف السلطات والأجهزة[3]..

والدستور بهذا التعريف يقوم بالوظائف الكبرى لمبادئ نظام الحكم فى الدولة. وإذا كانت هذه هى الوظيفة الرئيسية للدستور فإن « الدستور » هو المصطلح السياسى الوضعى الذى يعبر عن مصطلح « النظام الأساسى للحكم » فى الفكر السياسى الإسلامى[4].

ويعرف بعض فقهاء القانون، أن الدستور هو النظام الأساسى للحكم، وبعضهم يعتبرون النظام الأساسى للحكم هو مرحلة تسبق الدستور، وهم يقولون أن الفرق بينهما كالفرق بين مبادئ الحكم ونظام الحكم.

---

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٢، ص ٢٠.

(٢) سورة الأنفال (٧٥).

(٣) محمد شريف غربال، الموسوعة العربية الميسرة (القاهرة: دار الشعب، ١٩٥٩). ص ٧٩٤ - ٧٩٥.

(٤) محمد فريد وجدى، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الرابع (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، موسوعة)، ص ٣٦ - ٤١.

والمملكة العربية السعودية مهد الرسالة المحمدية التى تستلهم مصطلحاتها التشريعية «التنظيمية» والسياسية من دينها الإسلامى الخالد، لاتستخدم بعض المصطلحات التى درج على استخدامها الفكر الوضعى الدستورى المعاصر، بل تستخدم المصطلحات المستلهمة من مبادئ نظام الحكم فى الإسلام.

وهى لذلك تستخدم عبارة «النظام الأساسى للحكم»، بدلاً من كلمة «الدستور»، وتستخدم مصطلح «نظام» بدلاً من «قانون»، ومصطلح «السلطة التنظيمية» بدلاً من «السلطة التشريعية» إلى غير ذلك من المصطلحات الشائعة فى الفقه السياسى المعاصر(1).

فى ضوء ذلك نستطيع أن نسمى المشروع الذى طرحه الرسول ﷺ لتنظيم علاقات الدولة مع الزمر والفئات المختلفة، وكذلك تنظيم العلاقات بين مختلف الزمر والفئات بـ «مشروع النظام الأساسى للحكم».

فبعد أن استقر الرسول (ﷺ) فى بيته بيت الحكومة وأتم بناء المسجد النبوى الشريف، باشر فى عام ٦٢٣م بوضع قواعد النظام الأساسى للحكم. وقد تضمن مشروع النظام اثنين وخمسين بنداً، خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دون هذا النظام الأساسى الذى يعرف بين بعض المفكرين بـ «دستور المدينة»، بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولكن فى حال مهاجمة المدينة من قبل عدو خارجى عليهم أن يتحدوا جميعا لمجابهته وطرده. ولقد وضع هذا النظام فى السنة الأولى للهجرة، وقد استلهم الرسول ﷺ من القرآن كل القواعد المتعلقة بتنظيم العلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾(2).

وينص مشروع النظام الأساسى للحكم (دستور المدينة) الذى أصدره الرسول ﷺ على ما يلى:

1- د. أمين ساعاتى، الشورى فى المملكة العربية السعودية (مصر الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية)، ١٩٩٢م)، ص ٣٩.

2- سورة البقرة (٦٢).

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم[2]، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا[3] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[4] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن. وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم. وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. وإن المؤمنين يبىء[5] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

١- الربعة: الحال التى وجدهم عليها الإسلام.

٢- أى يعقل بعضهم عن بعض. والعقل: الدية.

٣- المفرح: المثقل بالدين والكثير العيال.

٤- الدسيعة: العظيمة.

٥- أباءه به: قتله به، جعله بواء له.

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط[١] مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[٢] إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم[٣]، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته. إلا من ظلم. وإن الله على أبر هذا[٤]. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين[٥]. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو

---

١ – اعتبطه: قتله بلا جناية توجب القتل.

٢ – يوتغ: يهلك.

٣ – أى إن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزاً عن الإثم.

٤ – أى إن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به.

٥ – كان هذا قبل أن تفرض الجزية وحين كان الإسلام ضعيفا، كان لليهود إذ ذاك نصيب فى المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين شرط االنفقة معهم فى الحروب.

اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ. وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره. وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره. وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى. ومحمد رسول الله ﷺ.

ورغم أن النظام الذى وضعه الرسولﷺ لم يقسم إلى أبواب وفصول ومواد كالذى نقرأ فى الدساتير الوضعية الحديثة.. إلا أنه بالإمكان استخلاص المواد التالية.فى البندين الأول والثانى بعد أن يعدد الرسول ﷺ أسماء القبائل الموجودة فى المدينة« المؤمنون إخوة ، فلا يضايق أحد أحداً، وعليهم تقديم المساعدات بإخلاص ، وأن يفدوهم ويبذلوا الأموال لتحريرهم أو دفع الديات عنهم» . فقبل أن يأتى الإسلام - كما ذكرنا قبلاً - كان كل فرد عضواً فى قبيلته. ومن قتل نفساً أخذت قبيلة القتيل الدية من قبيلة القاتل . وبعد أن حل الإسلام ساوى بين الناس جميعاً وألغى الامتيازات الخاصة بأشراف القبائل ، وأبرز النظام الجديد طبقة خاصة هى « المؤمن »، الذى هو جزء من هذه « الأمة» فإن أسر فرد من الأمة وطالب الآسرون بفدية لتحريره توجب على المسلمين أن يدفعوا فديته ويفكوا أسره. وإذا حكم على مؤمن بالقتل (بشرط أن يكون بريئا من هذه التهمة) فإن على المسلمين أن يدفعوا حق دمه لينقذوه.

وقد قام بعض المفكرين الإسلاميين بوضع فقرات هذا النظام فى سلسلة من المواد. ومن أهم هذه المواد، المادة الثالثة عشرة التى تقول: « إذا ظلم المسلم أو تجنى أو غمط حق أحد بشكل ما ، أو أثار فتنة بين المؤمنين ، فلن يعان طبقاً لأحكام المادتين الأولى والثانية، وعلى المسلمين رفع هذا الجور بأية وسيلة ».

وجاء فى البند الخامس عشر : « الفقراء والأغنياء متساوون فى جميع الحقوق ».

وجاء فى البند السادس عشر أنه يجب معاقبة القاتل . قال محمد ﷺ « من قتل نفساً عمداً من غير ذنب قتل بها ، ولايحق لأى امرئ حماية القاتل ».

وجاء في البند الثالث والعشرين « كل خلاف مرجعكم فيه إلى الله، وبواسطة رسوله تحلونه ».

وجاء في البند السادس والعشرين « يحتفظ اليهود بدينهم ، وكذلك المسلمون «ويسرى هذا الشرط على من كان على دين ومولاه على دين ».

كما جاء في النظام « لليهود حريتهم في مصاريفهم ، وكذلك المسلمون، ولكن إذا هاجم معتد المدينة فعليهم أن يتحدوا ضده وعلى الطرفين أن يحسنا المعاملة فيما بينهما، ولايعتدى طرف على طرف ».

وجاء في النظام أيضا « لا يُسمح لأى فرد من سكان المدينة حماية أحد من أهل قريش أو من أنصارهم».

وجاء في مادة أخرى: « أرض المدينة حرام، لايسمح أن يثار فيها الجدل»[1].

ونستخلص من مشروع النظام الأساسي للحكم ما يلي:

١ - أن جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة، ويتبين ذلك من هذه الفقرة: « إنهم أمة واحدة من دون الناس ».

٢ - التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية، ويؤكد هذا المعنى قوله: « إن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس».

٣ - فتح الطريق للراغبين من اليهود في الإسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق فيقول :« وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم».

٤ - تقرير حرية الاعتقاد لليهود : «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم».

١- سعيد حوى، الرسول ﷺ (القاهرة: مكتبة وهبة، بدون تاريخ)، ص ١٩٣ - ١٩٤.

٢- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٢، ص٣.

٣- ابن هشام، سيرة النبى، جـ٢، ص ١١٩ - ١٢٣.

٥ – ما يتبع فى فض الخصومات بين أهالى المدينة فيقول:« وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله – ﷺ –».

٦ – تضمن الكتاب كيف تعامل قريش التى كانت إذ ذاك تقف من المسلمين فى المدينة موقفا عدائياً، فقال: « وإنه لاتجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ».

٧ – يبين الكتاب ما يتبع فى الحرب التى قد تقع بين المسلمين فى المدينة وأعدائهم، ويقرر أن كل جماعة تنفق على نفسها فيقول:« وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة»،.

٨ – يقرر الكتاب حرمة المدينة، أى أنه يحرم فيها ما يحرم بمكة.

المجابهة الاقتصادية .. مقدمة للحرب العسكرية

حينما نتصفح أسباب الحروب فى العصر الحديث، نجدها مختبئة وراء الظروف الاقتصادية الضنكة التى تمر بها الدول التى تشعل الحروب.

وهكذا كانت المشكلة الاقتصادية عنصرا هاما من عناصر الاستعجال فى إعلان الحرب على مشركى قريش.

فبعد أن أحست قريش أن محمداً ﷺ بدأ يرتاح فى المدينة من جورهم ويعمل على بناء دولة الإسلام الأولى ازدادت ضغينتهم عليه وحقدهم على الإسلام. فكتب اثنان من قادتها رسالة، وهما أبو سفيان وأبى بن خلف، وأرسلاها إلى مسلمى المدينة(الأنصار)، وقد ختماها بإنذار أخير:« يعز علينا أن نقطع علاقتنا معكم ، ويهمنا الإبقاء على صداقتكم . بيد أن ما قمتم به أزّم الروابط بيننا. فقد آويتم رجلا كان من رجالات مكة، لهذا ننصحكم بألايكون هذا الرجل سبب إيجاد العداء بيننا . فلوكان هذا الرجل ذا قيمة لعرفنا ذلك قبلكم ولكنه رجل سيئ وعلينا معاقبته».

فما كان من الأنصار بعد أن تسلموا هذه الرسالة إلا أن طلبوا إلى كعب بن مالك شاعر المسلمين أن يهجو قريشاً ، فنظم قصيدة يهجو فيها قريشاً .وحين سمعوا القصيدة الهجائية كتبوا رسالة أخرى وأرسلوها إلى عبد الله بن أبى رأس المنافقين، وقالوا له: نطالبكم برد المهاجرين الذين حميتموهم ، فإن لم تحولوهم إلينا هاجمنا المدينة ،وقاتلناكم وسبينا نساءكم ». ولكن عبد اللهوسائر المنافقين معه لم يعبئوا بالرسالة.فبادر كفار قريش وطيروا رسالة ثالثة إلى اليهود ، طالبين منهم أن يسلموهم محمداً. لكن اليهود لم يعطوهم جواباً شافياً بمهاجمة محمد أو بأسره . ولكنهم وعدوهم بالمساعدة.

وحين لم تجد رسائلهم الثلاث فتيلا عمدوا إلى محاربةمحمد ﷺ اقتصادياً، فحاصرت قبائل قريش العشر كل مسالك القوافل المتجهة نحو الشمال، حتى صار من المتعذر وصول الأغذية إلى المدينة. ولو جرى مثل هذا الحصار لمكة لمات سكانها جوعاً لأن أرضها غير قابلة للزراعة، فى حين أن الأرض المحيطة بالمدينة خصبة زراعية، والحقول تمتد مسافات ومسافات . ومع هذا فقد شق عليهم العيش، إذ ارتفعت أسعار الأغذية والحبوب كثيراً جداً بشكل لا يحتمل.

وبات محمد ﷺ فى مسكنه قرب المسجد متأثراً من هذا الحصار الذى فرضته قريش ، وهدفت من ورائه إذلال المسلمين وتجويعهم.

كانت القوافل القرشية المكية التى تعبر أراضى المدينة قوية جداً، والقبائل التى عقدوا معها المعاهدات لا تستطيع محاربتها؛ لأن القافلة الواحدة تضم ألفين وخمسمئة محارب تقريباً فانتخب رسول الله ثمانية من المسلمين، أحدهم صهره عبد الله بن جحش شقيق زينب أم المؤمنين وهو رئيسهم، وحمله كتاباً جاء فيه: أعل نجداً (مكاناً عالياً)، وهناك سترى نبع ماء، فاسق جمالك منه، ثم فض الرسالة واعمل بما فيها. وبناء على أوامر الرسول ﷺ اتجه عبد الله غرباً مسيرة يومين، حتى بلغ بئراً، فروى جماله، وقرأ الرسالة. فرأى أن النبى (ﷺ) يأمره فيها أن يعترض لقافلة مكة على رأس الطريق إلى الطائف فى مكان يدعى «نخل». فتابع طريقه حتى وصل إلى المكان المقصود فى أواخر شهر رجب ٢ هـ = ٦٢٣م. وهو أحد الأشهر الحرم. والأشهر الحرم هى ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب المرجب. وهذا الشهر بالإضافة إلى أنه أحد الأشهر الحرم فإنه شهر الحج الصغير أى «العمرة». والعرب يفدون على مكة فيه لأداء شعائر العمرة[١].

---

(١) سعيد حوى، الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص ١٩٧.

عندما وصل عبد الله بن جحش مع أصحابه إلى «نخل» كان قد بقى يوم واحد لانقضاء شهر رجب. وفكر عبد الله ماذا يعمل؟ فإن هاجم القافلة خالف أعراف العرب.

ورأى فى نهاية المطاف أن ينفذ ما جاء إليه ويهاجم القافلة. وقد كان على القافلة أربعة أشخاص من قريش، فقتلوا واحداً وأسروا اثنين وهرب الرابع. واستولى المسلمون على القافلة، والمسلم الذى قتل القرشى يدعى وقيد بن عبد الله، وهو أول من قتل رجلا فى سبيل الله. أما الذى هرب فقد وصل إلى مكة، وحكى لقريش ما جرى معهم. فقرر المشركون أن يلاحقوا المسلمين ويأسروهم، غير أنهم لم يوفقوا إلى هدفهم، إذ وفقت القافلة ووصلت إلى المدينة بسلام. ولكن حينما عرف محمد (ﷺ) أنهم هاجموا القافلة فى رجب تضايق، وأمر بأن تحفظ أموالها فى مكان خاص، حتى يفكر بشأنها. وتأثر محمد من هذه الواقعة كثيراً، وأعلن أن نقض مقررات الأشهر الحرم أمر جلل. لكن الله حتى يطمئن رسوله (ﷺ) أنزل عليه هذه الآية : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام، قتال فيه؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله، وكفر به والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل. ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم، إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[١].

وقد أيد الله حرمة الحرب فى الأشهر الحرم، لكنه صرح بأن مافعلته قريش بالنبى (ﷺ) والمسلمين إذ أخرجوهم من الكعبة، ونفوهم عن أوطانهم، هو أسوأ من الحرب فى الأشهر الحرم. وقد أزالت هذه الآية اضطراب النبى، وأشعرته بأن الحرب فى شهر رجب لم تكن وخيمة عند الله، وتأكد له أيضاً من هذه الآية أن مايعمل على نشر الإسلام يمكن إجراؤه ولو فى الأشهر الحرم[٢].

بدر إستراتيجية حرب ... أم إستراتيجية سلام؟!

بعد ستة أسابيع على حملة قافلة مكة فى « نخل » رجعت «عيون» المسلمين حاملة نبأ قدوم قافلة كبيرة مؤلفة من ألفى جمل، تحمل بضائع قيمتها خمسون ألف دينار. تدنو من حمى المدينة متجهة نحو مكة ورئيسها أبو سفيان. والقافلة تخص كل تجار مكة ولاسيما القرشيين، إزاء ذلك أمر الرسول (ﷺ) أن تشكل سرية من المسلمين لاعتراض القافلة. وفى

١- سورة البقرة (٢١٧).

٢- سعيد حوى، الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص ٢١٢ - ٢١٤.

مكة المكرمة أخطرت « عاتكة ابنة عبد المطلب » قومها - قبيل وصول القافلة إلى المدينة - بأن سوءاً سيحل لكل سكان مكة، وأكدت أن الحادثة ستحل بهم بعد ثلاثة أيام تقريباً، فقد كانت هذه المرأة تقرأ الغيب. لكن سكان مكة تجار، ويعتبرون السوء هو مايصيب أموالهم. ولما كانوا يصدقون حدس ابنة عبد المطلب، فقد توقعوا خطباً يعترى القافلة.

فى مكة مجلس وظيفته إعلام الناس بالأخبار المهمة النافعة، ولهذا المجلس عدد من المنادين يدعى الواحد منهم «المؤذن»، ويطوف المؤذنون فى حوارى مكة أو فى مفارق الطرق. حيث يتوقفون وينادون بصوت عال، معلنين عن الأخبار التى يحملونها. ولكن فى ذلك اليوم نادى المؤذن بالناس، ينذر بويل ماحصل، وراح يصرخ ببطن الوادى، يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه. لاأرى إلا أن تدركوها. الغوث الغوث.

ولم تمض ساعات حتى اجتمع ٩٥٠ رجلاً و ٧٠٠ جمل و ١٠٠ جواد، بالإضافة إلى كثير من النساء اللاتى فُجعن بالنبأ، وكن يتمنين البشرى، فشاركن الرجال فى حملتهن، وأعلن أنهن مستعدات لمرافقتهن ولو إلى المدينة، وبالإضافة إلى هذا الاستعداد فقد جمعت مائتان وخمسون ألف درهم مصاريف للحرب.

كان جيش المسلمين ينتظر قدوم القافلة فى ١٧ رمضان ٢هـ = ٦٢٤م فى مكان يدعى «وادى بدر»، لكن القافلة لم تصل فى ذلك اليوم ولا الأيام التالية. كان فى المدينة- عدا المسلمين- فئتان، الأولى هى اليهود والثانية المنافقون.. والفئتان لم تشتركا فى الحرب. وقد تمكنت الفئتان من إخطار أبى سفيان وإعلامه النية المبيتة للمسلمين، فقرر أن يعد جيشاً لمواجهة المسلمين، وسبق جيش المشركين اثنان من الطلائع، فأسرهما الجنود المسلمون وقادوهما إلى النبى (ﷺ)، ففهم منهما عدد المحاربين القادمين، ثم أمر بأن يحفظا أسيرين. وبعد ذلك خطب فى المسلمين قائلاً إن القافلة لن تمر من هنا، لأن بعضهم أخطرهم بعزمنا، وبالتالى فإن جيشاً من قريش وعددهم ٩٥٠ رجلاً قدموا إلينا ليحاربونا بقيادة أبى جهل. نحن نستطيع أن نعود من هنا إلى المدينة، لكن عودتنا لن تنقذنا من مهاجمة جيش قريش، لأنهم سيدخلون المدينة ويقاتلوننا، والأفضل أن نتوقف هنا ونستعد لمهاجمتهم، لأن هذا المكان أفضل للحرب من المدينة، وحظنا من النصر فى هذا الوادى أوفر من حظنا فى المدينة[1].

١- سعيد حوى، الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص ٢١٧ - ٢١٨.

ولقد قمت بزيارة ميدانية لوادى بدر الذى اندلعت فيه معركة بدر، وهو يقع على الطريق بين جدة والمدينة. وينقسم وادى بدر إلى قسمين قسم ترابى وقسم آخر صخرى ورملى، يقع الوادى بين جبلين، شرقى يدعى «العدوة القصوى»، وغربى يدعى «العدوة الدنيا»، ويطل عليه من الجنوب جبل يدعى «الأسفل»،كان فى هذا الوادى فى صدر الإسلام عدد من الينابيع، تتوقف حولها قوافل مكة فترتوى وتستريح. وبعد أن صمم رسول الله (ﷺ) على الحرب قرر أن يغير إستراتيجيتها بتغيير موقع الهجوم، وينتقل إلى طرف الجبل الأسفل ويستعد هناك، لتكون الينابيع فى حمايتهم ولايدع العدو يستفيد من الماء. ونفذ أمر النبى (ﷺ) وانتقل المسلمون من شمال الوادى إلى جنوبه واحتلوا منابع الماء.

وقد رتبت تشكيلات الجيش الإسلامى على شكل مثلث، ارتفعت ثلاث رايات إسلامية فى رؤوس المثلث، وقد أبرز محمد (ﷺ) عبقريته العسكرية فى تنظيمه هذا المثلث واستحكام كل جندى فى مكانه واستقباله العدو من غير استدبار. وقد حمل راية الضلع الأول على بن أبى طالب، ورايته بيضاء نقش عليها عقاب. وحمل راية الضلع الثانى مصعب بن عمير أحد المهاجرين. وحمل راية الضلع الثالث سعد بن عبادة.

عندما دنت الشمس من المغيب بدا جيش مكة، غير أن الطرفين لم يرغبا فى الحرب لحلول الظلام. وفى أثناء الليل بدل الرسول (ﷺ) مكان معسكره حتى لا تسلط أشعة الشمس نحو أبصار المسلمين. وقد طلب النبى (ﷺ) فى تلك الليلة من المسلمين جميعاً أن يناموا عدا الحراس المناوبين. حتى إذا حل الصباح أقبلوا على الحرب مستعدين، ودعا لهم أن تهدأ قلوبهم ويناموا هانئين. يقول الله سبحانه وتعالى ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾[1]. ثم بدأت الحرب فى الثامن عشر من شهر رمضان المبارك بإنشاد الشعر الذى يرفع من مقام منشده، ويضع من مكان خصمه. ثم برز ثلاثة فرسان من بين صفوف قريش وترجلوا ساحة الميدان. أحدهم «عتبة» وهو أبو زوجة «أبى سفيان»، والثانى «شيبة» أخو عتبة، والثالث «الوليد» أخو زوجة أبى سفيان. وحين وصل الثلاثة إلى وسط الساحة شهروا سيوفهم ونادوا: هل من مبارز؟

فتقدم ثلاثة من الأنصار نحوهم، وقالوا؟ نحن مستعدون لمبارزتكم.

١- سورة الأنفال (١١).

فسأل المبارزون القرشيون المشركون: من أنتم؟

فأجابوا: رهط من الأنصار..

فقال المشركون الثلاثة: مالنا بكم من حاجة، فليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا.

فنادى عمر بن الخطاب بصوت عالٍ: المسلمون متساوون جميعاً، ولا يفضل واحد على واحد.

فقال الثلاثة: نحن لانحارب إلا من رجال مكة، فهم الذين نعرفهم.

فقال رسول الله (ﷺ) : قم ياعبيدة بن الحارث، وقم ياحمزة، وقم ياعلى.

فتقدم الأبطال الثلاثة المسلمون. وحين دنوا منهم شرعوا ينشدون الشعر، والشعر يعرف بمنشده، وبعد ذلك تبدأ المبارزة، ونادى على: أنا على بن أبى طالب بن عبد المطلب[1].

كان على يجيد المبارزة بالسيف، ويضرب بأسرع من ضربات خصمه الوليد. لذا لم تطل الحرب بينهما أكثر من دقائق. إذ سرعان مالقى الوليد ضربة قتلته من سيف على. وقتل حمزة خصمه كذلك. أما عبيدة. فمع أنه جرح فإنه استطاع أن يقضى على خصمه. ودل نصر هؤلاء الثلاثة على تفاؤل حسن للمسلمين. وعلى عكس ذلك حينما رأى المشركون أن فرسانهم الثلاثة قتلوا رفعوا حرابهم وهللوا إشارة إلى بدء المعركة. كان المهاجمون يعلمون أن من بين المسلمين من هم أبناؤهم أو إخوتهم أو أعمامهم، ومع هذا فقد حملوا عليهم. ولم يمر فى تاريخ الجزيرة يوم كان يحمل فيه الأب على ابنه، والأخ وعمه على ابن أخيه أو العكس. فهم أقرباء ومن قبيلة واحدة، وفى العادة لايحترب رجال القبيلة الواحدة ضد بعضهم بعضاً.

وإذ رأى محمد (ﷺ) المعركة محتدمة نزل عن عريشه (مربض القيادة) وتوسط السرايا، وشرع بتلاوة القرآن بصوت عال مؤثر. كان يقرأ الآيات التى تحث على الاستشهاد وعلى مايجنيه الشهيد وقاتل المشرك من رضاء الله. وبعد أن انتهى محمد (ﷺ) من تلاوة القرآن صاح بالناس يحرضهم: والذى نفس محمد (ﷺ) بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

---

١ – سعيد حوى، الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص ٢٢٣ – ٢٢٤.

وهاجت نفوس المسلمين من أثر سماعهم آيات القرآن وكلام محمد (ﷺ). فما كان من عمير إلا أن صاح: بخ. بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.

ومع أن أبا جهل قائد جيش قريش، كان يحيط به عدد من المدافعين عنه، إلا أن المسلمين استطاعوا أن يقتلوا حماته ويصلوا إليه. واستطاع أحد المسلمين واسمه معاذ بن عمرو، أن يصيب أبا جهل فى قدمه فجرحه فقعد. وتقدم عكرمة ابنه نحو أبيه يدافع عنه، فرمى سيفه تجاه معاذ فقطع يده اليمنى، ولكنها ظلت معلقة بالجلد، فلم يبد عليه أى ألم بل شدها بيده اليسرى ورماها بعيداً، وقال: فى سبيل الله.

وانحنى يرفع سلاحه، ثم عاد إلى مبارزته بيده اليسرى، وماهى إلا لحظات حتى قتل أحد المسلمين أبا جهل، وانهارت معنويات المشركين إثر مقتل قائدهم أبى جهل. وقد هالهم أن يظفر هذا العدد القليل من المسلمين ويضع السيف فى رقابهم من غير أن يتمكنوا من فك هذا الحصار الذى حافظ عليه المسلمون. عندئذ فكروا بالتقهقر، ولما لم يكن بينهم رئيس يجمعهم وليس عندهم عزم ليكروا ثانية، فقد لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم سبعين جثة مشركة منثورة بشكل أشلاء فى ساحة الحرب، فى حين أن قتلى المسلمين أربعة عشر شخصاً[1].

وانتهت المعركة بفوز ساحق للمسلمين، وبعد انتهاء المعركة راح أحدهم يفتش بين القتلى. هذا الرجل المسلم يدعى عتبة بن ربيعة، ولما كان من المهاجرين أى من أهل مكة أصلاً فقد أراد أن يتفحصهم ليرى هل يعرف أمراً؟ وفجأة توقف تجاه أحد القتلى فانحنى نحوه ينظر إلى الجثة، ثم نهض وقد ارتسمت على سحنته علائم الأسى. ومر بعد قليل محمد (ﷺ) بذلك المكان، فرأى عتبة حزيناً فقال له: لاتحزن لأن الله نصر المسلمين اليوم.

فأشار عتبة إلى الجثة وقال: إننى حزين لأنها جثة أبى.

فخفف محمد (ﷺ) على عتبة، فقال له عتبة: إننى حزين، لأننى كنت أتمنى أن يأتى يوم يصحو فيه أبى من عبادة الأوثان ليدخل فى الإسلام، وحين رأيت جثته حزنت لأنه قتل على الكفر.

لقد كانت معركة بدر ومازالت حتى اليوم من مفاخر المسلمين التى ورثتهم فيما بعد إمبراطوية من أعظم الإمبراطوريات فى التاريخ، وحضارة من أغنى الحضارات فى الوجود.

١- سعيد حوى، الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

أسرى الحرب. فى القانون النبوى

عندما ظهر الإسلام كان وضع أسرى الحرب فى الممالك المجاورة وفى شبه الجزيرة العربية، لا يخرج عن أمرين لا ثالث لهما، إما أن يتم قتلهم وأما أن يصير استرقاقهم.

فلما انتصر المسلمون فى غزوة بدر وأسروا بعض الكفار شاور النبى ﷺ أصحابه فى شأن هؤلاء الاسرى.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: هم بنو العشيرة نأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإنه قال: لا والله ما أرى الذى رأى أبو بكر بل أرى أن تمكننا يارسول الله من رقابهم فنقربها فإنهم أئمة الكفر. فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبهم ثم دخلو فقال ناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال ناس: بقول عمر. ثم خرج عليهم فقال: إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وأن الله عز وجل ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وأن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾[١] وأن مثلك ياأبا بكر كمثل عيسى، قال: ﴿إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[٢]. وأن مثلك ياعمر كمثل موسى، قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾[٣]، ومثلك ياعمر كمثل نوح قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾[٤]. ومال رسول الله ﷺ إلى رأى أبى بكر وأخذ منهم الفدية، ومن لم يكن له مال من هؤلاء الأسرى جعل فداءه أن يعلم عددا من أولاد المسلمين القراءة والكتابة[٥].

وقد كانت تلك الواقعة سببا لنزول الآية الكريمة ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم* لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[٦].

١- سورة إبراهيم (٣٦).　　　٢- سورة المائدة (١١٨).

٣- سورة يونس (٨٨).　　　٤- سورة نوح (٢٦).

٥-د. عبد الواحد محمد يوسف الفار، أسرى الحرب (دراسة فقهية وتطبيقية فى نطاق القانون الدولى العام والشريعة الإسلامية (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٥)، ص ١٨٣ - ١٨٤.

٦- سورة الأنفال (٦٧ - ٦٨).

ويمكن تلخيص موقف الإسلام من أسرى الحرب فيما يلى:

١- إن الأسر مشروع فى الإسلام بدليل قوله تعالى ﴿وخذوهم واحصروهم﴾ وبقوله تعالى ﴿فشدوا الوثاق﴾. وشد الوثاق هنا كناية عن الأسر.

٢- إنه يجب معاملة الأسرى معاملة حسنة لقوله تعالى فى وصفه المؤمنين الصادقى الإيمان: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ وكذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى أسرى بدر «استوصوا بالأسارى خيرا».

٣- إن حالة الأسر تنتهى فى الإسلام بأحد أمرين، إما المن أو الفداء كما جاء فى سورة محمد، لأن (إما) تفيد الحصر مثل (إنما)، والآية الكريمة تحصر التخيير بين أمرين ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾[1].

وبعد الهزيمة التى منى بها القرشيون فى بدر توعد أبو سفيان المسلمين وقال أنه سوف يثأر لابنه ولأبى زوجته وأخيها. وأقسم أبو سفيان ألا يعاشر زوجته حتى يثأر لهم من محمد وسائر المسلمين. كانت زوجة أبى سفيان حاضرة، فأقسمت هى الأخرى ألا تعاشر زوجها إلا إذا قتل قاتل ابنها وأبيها وأخيها، وأخرجت كبده من أحشائه ومضغته، كما أقسمت أن تقطع

١- بعد الحرب العالمية الثانية عقد مؤتمر دولى لإعادة النظر فى القوانين الجارية عن أسرى الحرب. وفى ١٢ أغسطس ١٩٤٩م أثمر هذا المؤتمر عن إبرام أربع اتفاقيات هى:

١- اتفاقية معاملة الجرحى فى الحرب البرية.

٢- اتفاقية الجرحى والغرقى فى الحرب البحرية.

٣- اتفاقية معاملة أسرى الحرب.

٤- اتفاقية معاملة المدنيين.

ويعتبر النظام القانونى الذى وضعته اتفاقية أسرى الحرب نظاما متكاملا من الوجهة الإنسانية، حيث قررت أن لأسير الحرب الحق فى الحماية من أفعال الاعتداء على الحياة وعلى سلامة الجسم أو الشرف أو الاعتبار، مع تقرير مسئولية الدولة الآسرة للمحافظة على الأسير وإعاشته فى معسكرات تتوافر فيها الشروط الصحية والخدمات الطبية اللازمة، مع السماح له بأداء الواجبات الدينية والذهنية والبدنية، وفى مقابل ذلك فرضت الاتفاقية على الأسير بعض الالتزامات التى يجب عليه مراعاتها وعدم الخروج عليها وإلا تعرض للمحاكمة وتوقيع الجزاء عليه. ووقعت على الاتفاقية أكثر من سبع وسبعين دولة ثم توالت الدول على الانضمام إلى الاتفاقية، وتأتى الدول العربية والإسلامية فى مقدمة الدول الموقعة على هذه الاتفاقية.

آذان قاتليهم وآنافهم وألسنتهم وتعلقها طوقاً على رقبتها. ووعدت أنها يوم زوال الإسلام ستنزل إلى أحياء مكة، وترقص والطوق حول نحرها.

وبينما كان الغضب يشتعل فى نفوس أهل مكة ضد المسلمين وصل نبأ يعلمهم أن سكان المدينة مستعدون لتحرير أسراهم بدفع أربعة آلاف درهم عن كل واحد. وحتى يحرروا سبعين أسيراً عليهم أن يدفعوا مبلغ مائتين وثمانين ألف درهم. وقد عارض أشراف قريش فى البدء ورفضوا افتداء رجالهم وقالوا: إن المسلمين فقراء، فإن دفعنا لهم هذا المبلغ غدوا أثرياء، فعلينا أن نتأبى، وألا نكون سبب ثرائهم.

لكن الأسر المفجوعة اتصلت بأشراف قريش- ومن جملتهم أبو سفيان- واسترحموهم ورجوهم أن يقبلوا دفع الفدية، لينقذوا آباءهم وأزواجهم وإخوتهم وأولادهم. وأخيراً وافق الأشراف على دفع الفدية. وكان أحد هؤلاء الأسرى «أبا العاص» وهو ابن أخى خديجة زوجة النبى الأولى، وزوج زينب بنت محمد. فأرادت زينب أن تحرر زوجها من يد المسلمين، فجمعت ثلاثة آلاف درهم، ولم يتيسر لها تأمين الألف الرابعة، فما كان منها إلا أن وضعت مع المال قطعتين من الجواهر، تعادل قيمتهما ألف درهم، وأرسلتها وقالت: أطلقوا بها زوجى أبا العاص.

حينما رأى محمد المال والجواهر، عرف أن إحدى القطعتين قلادة كانت لزوجته خديجة، قدمها إلى ابنته بعد وفاة أمها، وحين وقع بصره عليها بكى، ولاحظ المسلمون المتحلقون حوله أن نبيهم يبكى فتأثروا وتساءلوا عن سبب بكائه وقال له عمر بن الخطاب: لم تبكى يامحمد؟ عندما تغرورق عيناك بالدموع تتقرح أفئدتنا.

فقال محمد (ﷺ): كانت هذه القلادة لزوجتى خديجة، وحين تزوجت ابنتى زينب أبا العاص أهديتها القلادة وها هى ذى زينب ترسل القلادة مع ثلاثة آلاف درهم، وقطعة أخرى من حليها لتحرر زوجها أبا العاص، فترامى إلى خاطرى صورة زوجتى وابنتى، فأجهشت بالبكاء.

فخاطب عمر بن الخطاب المسلمين قائلا: أقترح أن يحرر زوج زينب من غير مال.

فقال نبى الإسلام: لافرق بينى وبين الآخرين ياعمر حتى يحرر زوج ابنتى من غير مال. ما لم يتعهد أبو العاص طلاق ابنتى وبقاءها عندى، وتصبح مسلمة.

فرأى المسلمون ما رأى محمد (ﷺ)، وقالوا:

- ليس من اللائق أن تكون ابنة النبى (ﷺ) زوجة رجل مشرك.

وكذلك حصل، فبعد أن حرر أبو العاص وعاد إلى مكة أطلق زينب إلى المدينة.

كان من بين أسرى بدر عباس عم النبى (ﷺ)، وكان محمد (ﷺ) عطوفاً رحيماً يحب ذوى رحمه.

واستمع إلى العباس وهو يقول: إنى كنت مسلماً، ولكن القوم استكرهونى.

قال محمد (ﷺ): الله أعلم بإسلامك، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك به، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، وليس الإسلام دين خفاء، فافد نفسك. ثم إنك كنت فى المعركة بين صفوف المشركين، وهأنتذا أسير فافد نفسك. ولم يجد العباس مفراً إلا بفداء نفسه[1].

بعد محاولة اغتيال فاشلة.. قيادات قريش تتساقط

بعد أن انكسر المشركون فى بدر، واضطروا إلى دفع فدية أسراهم ازداد حقد أبى لهب ضد الرسول ﷺ ففكر مرة أخرى فى قتله. فراح يبحث عن قاتل يستأجره، ليرسله إلى المدينة لأداء هذه المهمة. واستأجر أبو لهب رجلاً يدعى «عمير بن وهب»، وقد أسر ابنه فى بدر فتصنع هذا الرجل الذهاب إلى المدينة ليفتدى ابنه، ويطلق سراحه. لكن أبا لهب وأبا سفيان وصفوان بن أمية يعلمون أنه يريد أن يذهب ليقتل محمداً (ﷺ). وتعهد أبو لهب دفع مصاريف سفره ومصاريف زوجته وأولاده فى مكة.

ودخل عمير المدينة، وقصد محمداً (ﷺ)، فأخبروه أنه فى منزله الآن. فدخل المنزل فرآه يغسل ثوبه، فرفع محمد (ﷺ) رأسه وسأله إذا كان يريد منه أمراً، فقال عمير: أرى أنك مشغول يامحمد بغسل ثوبك، وهذا عمل غير طبيعى بالنسبة إلى رجل يدعى النبوة!

فسأله محمد (ﷺ): ولماذا هو غير عادى؟

أجاب عمير: إن رجلاً يدعى النبوة لايغسل ثيابه بنفسه، ومثل هذا العمل يقوم به الغلمان والإماء. فقال له محمد (ﷺ): ليس عندى غلام ولا أمة وإننى أنجز أعمالى الخاصة بنفسى، وأطمئنك إلى أن النبى إن غسل ثوبه يظل نبياً ولا ينقص منه شئ. ثم غيَّر النبى (ﷺ) موضوع الحديث فقال: أعلم أنك جئت لأمر ما.

١- د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٧٥ - ٤٨١.

قال عمير: أجل يامحمد، لقد قدمت طالباً إطلاق سراح ولدى، فكم على أن أدفع فدية له؟

فقال رسول الله (ﷺ): بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين على وعيالى لخرجت حتى أقتل محمداً. فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له، والله عز وجل حائل بينى وبينك.

فشهر سيفه من بين ثيابه ورماه أرضاً، وقال: هذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، وليس من يعرف أننى جئت لأقتلك إلا ثلاثة أشخاص من أهل مكة، وإننى على يقين من أن هؤلاء الثلاثة لم يبوحوا بالسر لأحد، فوالله ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق.

كما يروى أن عميراً بعد أن أسلم قال: قد كنا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء. وإنى أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام.

فلحق عمير بمكة، وحين وصل إليها سمع بأن أبا لهب قد مات، وأن لموته قصة مثيرة. ففى مكة ميدان يدعى «المربد»، تتوقف عنده القوافل، ويتعرف السفر إلى بعضهم بعضاً، ويتبادلون أطراف الحديث مما شاهدوا أو سمعوا. وذات مرة مر أبو لهب فى ذلك الميدان، فرأى أعراباً يتحادثون وقد علا صوت أحدهم، فبلغ الآذان. فرنا أبو لهب ليصغى إلى ما يقول ذلك الأعرابى. ففهم أنه يتحدث عن معركة بدر ويقول: إن المسلمين انتصروا بعقيدتهم، وبمشاركة خمسة آلاف نزلوا من السماء، ولهذا خسرت قريش. ويتابع الأعرابى كلامه ولعله يقصد إلى الإمعان فى التأثير: لقد شاهدت الملائكة بعينى تهبط من السماء بثياب متشابهة.

وازداد عجب المستمعين من كلام هذا الرجل، وبان أنهم أخذوا بكلامه. ولمح أبو لهب انفعال الجمهور، فقال له: أنت تكذب.. لم ينزل من السماء ملائكة لمساعدة المسلمين فى بدر.

فرد عليه ذلك الأعرابى: لقد رأيتهم يهبطون من السماء بألبسة متحدة الألوان.

وأكد أبو لهب كذب ادعاء الرجل، فى حين أن بعض الحاضرين صدقوا كلامه حتى قال أحدهم: لو لم تهبط الملائكة لما غلب ثلثمائة نفر جيش قريش.

لكن عدة أخرى أخذت جانب أبى لهب واشتد الخصام بين الفريقين، فجرح أبو لهب جرحاً بليغاً، فنقلوه إلى منزله ومددوه، ولم تمض سبعة أيام حتى فارق الحياة من أثر جراحه.

وبعد أبى لهب تزعم الخلاف ضد الإسلام أبو سفيان وزوجه هند، التى أظهرت خصومتها نحو محمد (ﷺ) قبل زوجها، وقامت على تجهيز جيش مكى بعد مضى عشرة أسابيع من بدر لتأديب المسلمين والإطاحة بهم، واتجه الجيش نحو المدينة بإمرة أبى سفيان.

خرج أبو سفيان من مكة بأربعمئة رجل فى الشهر الحرام، ودنوا من المدينة حيث حطوا رحالهم عند جبل اسمه «تيت». وأخذ بعض الرجال معه واتجهوا نحو المدينة، ليقابل اليهود الذين وعدوهم أنه إذا قامت قريش بحرب ضد المسلمين بادروا إلى مساعدتهم. وكان أبو سفيان مطمئناً إلى هذا الاتفاق، فنزل فى دار سلام بن مشكم وهو من يهود بنى النضير فقراه وسقاه وأحسن وفادته، وقبيل انصراف أبى سفيان قال لصاحب المنزل: لقد جئنا إلى المدينة لأننا واثقون من وعدكم لنا حين نحمل على محمد وصحبه.

فقال سلام: نحن على عهدنا الذى قطعناه، لكننا لم نتوقع أن تصلوا بهذه السرعة، فلسنا مستعدين الليلة ولا فى الأيام الأخرى ما لم تمنحونا فرصة نستعد فيها.

كانت نية أبى سفيان أن يهاجم محمداً (ﷺ) والمسلمين فى تلك الليلة، لكن حملته خذلت . وفيما كان عائداً من المدينة مر ببعض منازل العرب، فأشعل النار فيها وقتل اثنين من الأعراب وغنم غنائم منها أكياس من السويق. وحين علم المسلمون بإغارته تبعوه. وحتى ينجو بنفسه رمى بأكياس السويق على الأرض وهرب. ولهذا سجلت هذه الحادثة فى تاريخ الجزيرة العربية بعنوان«غزوة السويق ».

وإثر هذه الغزوة عاد المسلمون إلى إغارتهم على قوافل مكة التى تقترب إلى المدينة. ووصل فى أحد الأيام خبر عودة قافلة مكة برئاسة أبى سفيان وصفوان بن أمية من خيبر حاملة أوانى من الفضة. وقام مائة مسلم بقيادة زيد بن حارثة على ملاحقة تلك القافلة ودنا المسلمون من نبع ماء اسمه « القردة »، ويقع على طرف من نجد، وهاجموا قافلة مكة فجأة. فغنم المسلمون كل ما كانوا يحملون، وكان مائة ألف درهم ثمناً لتلك الأدوات. وهذه أول قافلة مكية تقع فى قبضة المسلمين. وهكذا عوض المسلمون عن غزوة السويق، فازداد غضب المشركين فى مكة من هجمة المسلمين، مما حثهم على الإسراع فى حملتهم القادمة.

«أحد»، هل كانت معركة فى الحرب..
أم إستراتيجية فى السلام؟

أعد أبو سفيان قائد فيالق قريش فى ١٢ شوال ٣هـ= ٢٠ آذار ٦٢٥م جيشا جرارا قوامه ثلاثة آلاف محارب لمحاربة المسلمين فى المدينة، تتقدم هذا الجيش قيادات عسكرية كانت فى ذلك الوقت على درجة كبيرة من الممارسة والتدريب، منهم خالد بن الوليد وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل الذى كان يحقد على محمد (ﷺ) حقد أبيه عليه. واشتركت هند زوجة أبى سفيان فى هذه الحملة، لتؤدى نذرها الذى قطعته على نفسها بأن تجمع آذان المسلمين وآنافهم بيدها، وتجعلها عقداً على رقبتها.وكان جيش المسلمين يتألف من سبعمائة محارب. ولم يكن فى جيش المسلمين غير جوادين وعدد من الدروع قليل جداً. ومع ذلك استعد محمد(ﷺ) لمجابهة جيش مكة، كما لم يكن عتاد المسلمين كافياً لأنهم لم يكونوا أغنياء قادرين. وفيما كان محمد (ﷺ) يستعرض رجاله أخبرهم أن اليهود الموجودين فى جيشه ليس بعيداً أن ينفضوا عن جيش المسلمين ليلحقوا بجيش مكة.

وسار جيش محمد(ﷺ) فى اليوم الثانى متجهاً نحو الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى من الناحية الشرقية، فى حين أن جيش قريش نزلوا منزلهم فى الطرف الغربى منه. وفى صباح يوم السبت الخامس عشر من شوال انسحب عبد الله بن أبى رأس المنافقين مع كل رجاله تاركاً المسلمين واليهود وحدهم. وأثبت انسحابهم ذلك اليوم صحة سوء ظن النبى (ﷺ) بهم.ولقد استدار الرسول (ﷺ) إلى اليهود وقال لهم:إن هذه المعركة ذات طابع دينى، لا تدخل فى أساس اتفاق النظام الأساسى للحكم (دستور المدينة) وبإمكانكم أن تنسحبوا وتدافعوا عن المدينة، ولا يعقل أن تحموا ديننا ضد المشركين. كما أن اليوم هو « السبت »، يوم راحتكم ولا تستطيعون أن تحاربوا فيه. فالأفضل أن تعودوا إلى منازلكم، وتتركونا نحارب المشركين بأنفسنا ، وليفعل الله ما يريد[١].

عندما سمع اليهود هذا الكلام من محمد انسلوا من الجيش وعادوا إلى منازلهم، ولم يبق غير سبعمائة رجل مسلم. ولقد كان استعداد المسلمين تجاه خصمهم أسوأ من استعدادهم

١- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٣١ - ٢٣٥.

تجاهه في معركة بدر، لأن عدد جنود مكة يتجاوز أربعة أضعاف جيش المسلمين. وقبل البدء بالمعركة وقف محمد (ﷺ) صباحاً وهو يلبس الدرع والبيضة يخطب في المسلمين قائلاً:

– إن خطتنا الحربية اليوم هي خطتنا في يوم بدر تماماً، فعليكم أن تشكلوا الصفوف المتكاملة المتراصة، حتى لا يجد الخصم فرصة لشق الصفوف ومحاربتكم من الخلف. وبعد ذلك أشار محمد (ﷺ) بإصبعه نحو الجنوب وتابع:

– إن أراد خالد بن الوليد مهاجمتنا فسيأتينا من هذه الناحية، لأن هذا السهل يسهل حركة جياده. وتكثر فيه الحقول ، ومن يعبر هذه الحقول باتجاه الجنوب وصل إلى المدينة. كما أن الرسول(ﷺ) قسم الرماة من المشاة إلى فرقتين برئاسة عبد الله بن جبير وأمره أن يتخذ مكانه على تلك التلة التي كانت تسمى « عينين ».

ثم استدار الرسول (ﷺ) إلى عبد الله بن جبير وقال: انضح عنا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك.

صعد عبدالله وبقي بين يدي محمد (ﷺ) ستمائة محارب فنظم منهم عدة أشكال حربية على طريقة معركة بدر، وسلم الراية الأولى علياً ابن عمه، وقال الرسول(ﷺ) للزبير:

– إن رأيت مجموعة ما في ضائقة فأقدم لنجدتها . وظل محمد (ﷺ) حتى آخر لحظة من بدء المعركة يوصي المسلمين بعدم الحرب الإفرادية وعدم ترك الصفوف، لأن الخصم أقوى منهم والحرب الفردية تفنيهم. وكانت هند زوج أبي سفيان مع عدد آخر من نساء قريش قبل بدء الحرب يضربن الدفوف، ثم أعلنت هند لغلمانها وعبيدها أنها ستعتق من يقتل محمدا ﷺ، أو حمزة، أو أبا بكر، أو عمر، أو عليا.

ومع أن قوة المشركين تفوق أربعة أضعاف قوة المسلمين ، فإن بشائر النصر واكبتهم منذ الوهلة الأولى. فقد فوجئ جيش قريش بسيوف المسلمين تنزل عليهم من كل جانب، وبالنبال تتقاطر من كل حدب تحصدهم حصداً ، حتى بدا من المستحيل عليهم تخطّي المسلمين، بينما تابعت صفوف المسلمين تحركها بانتظام وتقدم. وشرعت جحافل قريش تتراجع، وعندما رأى المسلمون تراجعهم أقبلوا على الغنائم يجمعونها. وطمعوا بالخيل والجمال والأسلحة والذهب والفضة، فصاح علي بن أبي طالب، حامل اللواء الأول، بالجنود: إلى أين تتقدمون ؟ ربما كانت خدعة من العدو، ألم يأمركم النبي بعدم الإخلال بالصفوف[1] ؟

---

١ – محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

فقالوا له: لقد أمرنا الرسول(ﷺ) بالمحافظة على النظام مادامت الحرب، والآن انتهت المعركة وانتصرنا فلا ضرورة لهذا النظام، حتى لا نفقد غنائمنا من قريش.

حتى تلك اللحظة لم يشترك خالد بن الوليد قائد الفرسان ، بل كان يرقب تحركات الجيشين. وحينما رأى ملاحقة جيش المسلمين للمشركين، انتهز الفرصة وحمل على المسلمين من الخلف، وهكذا وقعوا بين طرفى جيش المشركين . واستطاع غلام جبير بن مطعم أن ينال حمزة برمح فى ظهره فيرديه شهيدا. وحين سمعت هند بقتل حمزة، لم تكتف بأن أعتقته، بل خلعت أساورها وخلاخيلها وهى فى ساحة المعركة ووهبتها لغلام جبير.

وهكذا فرق فرسان خالد جيش المسلمين كله؛ مقدمته ومؤخرته، غير أن عدداً من الرجال حافظوا على رسول الله (ﷺ)، والتفوا حوله وهم : أبو بكر وعمر وعلى وأبو دجانة وغيرهم ، حيث ألفوا صفاً صغيراً . حالوا بسيوفهم دون تقدم فرسان العدو على محمد (ﷺ). وقال محمد (ﷺ) لمن حوله:

– إن موضعنا هذا مناسب ضد هجوم فرسان خالد، وإن وفقنا إلى الصعود أكثر تعثرت الخيل فلم تبلغنا ، وسنكون هناك فى أمان. وبعد ذلك عاتب محمد (ﷺ) المسلمين على عدم إطاعتهم أوامره بفك صفوفهم، وقال : لقد قلت لكم لا تتخلوا عن صفوفكم ، وأمرت الرماة بأن يثبتوا فى مواضعهم مهما كانت الأسباب. لكنهم لم يعملوا بأمرى، فلا أعتقد بأن الله سيمنحنا النصر، كما منحنا إياه يوم بدر.

وحين صمد محمد (ﷺ) وصحبه مقابل فرسان خالد وصلوا إلى نقطة من الجبل، لم تعد الخيل تستطيع الصعود بعدها[1].

وبعد أن استرجع الرسول ﷺ عزمه نادى سعد بن أبى وقاص، وطلب منه قوساً ونبالاً، وشرع يرمى المشركين من مكانه. وحين رأت البقية الباقية من المسلمين أن رسول الله استعاد نشاطه، وأقدم معهم نسوا تعبهم وجراحهم ، وعادوا ثانية إلى تنظيم صف عسكرى ، وغدا صفهم أشبه بقلعة متحركة، وثبتوا وأثبتوا جدارة منقطعة النظير. وعندما ألقى محمد ببصره على ميدان الحرب بعد رحيل جيش مكة، وشاهد جثمان حمزة، وقد برز منه صدره وبطنه

١– محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٤٤ ، ٢٤٦.

وكبده، وقطعت منه أذناه وأنفه، تألم كثيراً ، وأقسم أن يقتص من المشركين من أجل حمزة فى أول معركة معهم، وأن يمثل بثلاثين منهم. ولكن نزلت عليه الآية ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[1] . وبعد نزول هذه الآية خاطب النبى ربه معتذراً صابراً. وقد قتل من المسلمين سبعون شخصاً؛ أربعة وستون من الأنصار وستة من المهاجرين. وقبل أن تغرب الشمس قدم أبو سفيان إلى ساحة المعركة، وخطا بين جثث القتلى وصاح:

– أما زال محمد حياً؟

وسبب سؤال أبى سفيان هذا أن شائعة قتل محمد انتشرت بين الناس ذلك اليوم وكان ذلك سبباً من أسباب تفرق المسلمين . فصاح عمر بن الخطاب بأعلى صوته:

– أجل ، محمد (ﷺ) حى.

وصاح أبو سفيان ثانية:

– يا محمد ، قتلتم منا سبعين فى معركة بدر ، وقتلنا منكم اليوم سبعين، وهكذا صُفِّى الحساب بيننا. ومع ذلك فإن كنت ترغب فى حربنا فإننا جاهزون فى العام القادم فى سوق بدر.

وبعد أن ألقى أبو سفيان كلمته التى تدل على الكبرياء والغرور انسحب من ساحة الحرب وقاد جيشه وولى. وحين ابتعد المشركون عن المكان عادت فلول بعض المسلمين، فأمرهم رسول الله (ﷺ) بأن يدفنوا قتلاهم.

بعد الحرب.. إعادة تنظيم السياسة والجيش

الدين الإسلامى.. هو دين السلام، فلم يدخل مصطلح «الحرب» فى تعاليمه مع نزول الوحى على محمد ﷺ فى مكة، ولكن حينما بدا أن الدفاع عن المسلمين من عدوان المشركين، قدر لا مفر منه.. شرع الإسلام فى السنة الثانية من الهجرة – على المسلمين «الجهاد» .﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أ ن يقولوا ربنا الله﴾[2] .

---

١ – سورة النحل(١٢٦).

٢ – سورة الحج (٣٩ ، ٤٠).

وتلا هذه الآية فى أمر الجهاد قوله تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾[1] .

كذلك أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[2] .

كان لتشريع الجهاد أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين بالمدينة، فقد أعطاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل ، ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية ، عليهم أن يجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب[3] .

وقد أخذ الرسول ﷺ بعد نزول آيات تشريع الجهاد ينشر الدعوة الإسلامية بين القبائل العربية ، ويعد العدة لصد كل اعتداء يصيب المسلمين من أعدائهم ، كما عول بعد مقدمه المدينة على الاقتصاص من قريش التى اضطرت المسلمين إلى الخروج من مكة تاركين أموالهم ومتاعهم وديارهم.

بعد انتهاء معركة أحد بنتائجها السلبية والإيجابية، كان لابد من التفكير فى إعادة تنظيم الخطط السياسية والعسكرية لجيش المسلمين. وذلك انطلاقاً من أن معركة أحد- وفقا لرأى الفقهاء العسكريين- لا تعتبر هزيمة ساحقة للمسلمين، إذ أنها لم تنته باحتلال المشركين للمدينة المنورة، كما أن جيش المسلمين ظل متماسكا حتى آخر لحظة، وحينما عاد الرسولﷺ إلى المدينة كان تحت قيادته جيش منظم، بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن الكريم لم يعترف بخسارة المسلمين فى أحد ، فقد نزلت الآيات فى التخفيف عن المسلمين: ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [4]. وفى الآية بعدها: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ﴾، وفى الآية بعدها: ﴿ وليمحص الله

---

١ - سورة الأنفال (٣٩).

٢- سورة البقرة (٢١٦).

٣- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

٤ - سورة آل عمران (١٣٩).

الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾. ووجه الله تعالى خطابه إلى الذين هربوا من ساحة المعركة، ونصح الرسول(ﷺ) بأن يعاملهم بشئ من الرحمة والعفو، فقال: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ﴾.

وقبل أن يعود جيش المسلمين من منطقة أحد انسحب قاتل حمزة المعروف باسم «وحشى» من جيش أبى سفيان، وقدم إلى جيش المسلمين ثم ذهب إلى محمد(ﷺ)، فاعترف له أنه قاتل عمه. ولم يعاقبه النبى (ﷺ) لأنه كثير الشفقة والشهامة. بل اكتفى بأن طلب إليه ألا يراه مطلقاً بعد ذلك ، وحتى يعوض عن جرمه بقتل حمزة قتل عدداً من أعداء الإسلام، ومن جملتهم مسيلمة الكذاب[1].

أحس المسلمون إثر عودتهم إلى المدينة بأن تلك الحرب كانت امتحاناً قاسياً ، لكنهم لم يعتبروا امتحانهم هذا خسارة حربية. أما اليهود فقالوا:

- إن محمداً قد خسر فى أحد. وادّعوا أنه لو كان رسول الله حقاً لما خسر.

وفى ذلك الوقت نزلت الآيات السابقة من السماء، وفيها رفع من معنويات المسلمين ورد على اليهود، فى أن عدداً من الأنبياء خسروا فى حروبهم فما يئسوا، بل ثابروا على إيمانهم ، حتى جاء أمر الله بالنصر. فطمأنت هذه الآيات المسلمين، وخففت عنهم. إلا أن اليهود لم يتراجعوا عن فكرتهم، وصمم المزارعون منهم على حرب النبى(ﷺ). وعندما بلغ محمداً (ﷺ) نبأ عزم المزارعين على حربه حاصر حيهم وقال لهم: إنكم ترغبون فى مخالفة دستور المدينة، والأفضل لكم أن تعزفوا عن فكرتكم، ليحيا المسلمون واليهود بمحبة فى المدينة. لكنهم رفضوا اقتراحه فدعاهم إلى الخروج كما فعل الصاغة فوافقوا . وقال لهم : تستطيعون حمل ما تريدون معكم، وهكذا فعلوا، حتى أبواب منازلهم ونوافذها أخذوها معهم ولم يبق فى المدينة غير فئة الدباغين[2] .

دبلوماسية الأزمات

بعد الأزمة التى تعرض لها المسلمون فى معركة أحد، مارس الرسول ﷺ ما يعرف اليوم فى الفقه السياسى المعاصر بـ« دبلوماسية الأزمات» ولقد بدأ ﷺ فى ممارسة دبلوماسية الأزمات بإعادة تنظيم السياسة والجيش كما أشرنا.

١- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

٢- كانت طوائف اليهود فى المدينة تنقسم إلى ثلاث طوائف وهم الصاغة والمزارعون والدباغون.

وما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلوا المعركة أن يستعدوا مباشرة للحرب رغم إعيائهم ، ثم خرج بهم تابعا آثار المشركين . ولم يكد المشركون يسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرد وراءهم حتى أعلنوا الرحيل الذى يشبه الهرب، مع أنهم كانوا يفكرون أثناءها بالرجوع إلى المدينة لضرب المسلمين فيها ولم تقع يومها حرب ، ولكن هذه العملية التمويهية غسلت آثار أحد السلبية.

إستراتيجية الخندق.. تبطل مفعول هجمة الأحزاب

وصل فتيان من خوذة إلى المدينة المنورة ليخبروا رسول الله (ﷺ) بأن قريشا قد انتهت من تجهيز جيش محارب يقدر بعشرة آلاف رجل وقد عزموا ألا يعودوا إلى مكة ما لم يقتلعوا جذور الإسلام من المدينة هذه المرة.

وبعد أن أنهى الرجال كلامهم مع النبى (ﷺ)، أمر بالاستعداد للحرب فوراً. وأخبرهم أن عدد المشركين يفوق عددهم أضعافاً كثيرة . فعليهم أن يدافعوا دفاعاً مستميتاً عن دينهم. وكانت وسيلة الدفاع هذه المرة هى حفر « الخندق »، ولهذا دعيت المعركة التى جرت عام ٥هـ = ٦٢٧م لدى المسلمين بمعركة « الخندق ». ولكن لما كان المشركون جماعات مختلفة فى الحرب فقد دعيت من قبلهم بغزوة «الأحزاب».

ولقد كانت خطة الرسول (ﷺ) الحربية محط إعجاب وتقدير علماء الإستراتيجيات فى مختلف العصور، لأن النبوغ ليس فى استنباط الخطة وحسب ، بل فى تنفيذها أيضاً. وقد كان حفر الخندق لمنع هجوم جيش معاد ظاهرة جديدة فى تاريخ الحروب بالجزيرة.

وفى الساعة التى أمر فيها محمد (ﷺ) بحفر الخندق أصدر أمراً آخر يقضى بجمع كافة المحاصيل الزراعية الموجودة خارج المدينة وإدخالها ، حتى لا يستفيد جيش قريش منها. وكانت النتيجة أن جيش مكة وصل إلى المدينة، فلم يجد أعلافاً لحيواناته ولا طعاماً له. وقد شارك فى عملية الحفر كل قادر على الضرب بالفأس أو حمل الزنبيل رجالاً ونساء صبياناً وبنات. واستمرت عملية الحفر حتى شملت القسم الشمالى والغربى والجنوبى الغربى، وقسماً من الجنوب ماراً بأطراف قباء[١].

١- د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٠١ - ٥٠٥.

وقد قسم محمد (ﷺ) المسلمين عشرة عشرة ، وخص لكل عشرة أربعين ذراعاً وكان طول الخندق اثنى عشر ألف ذراع، أى ستة كم، أما عمقه فقد تجاوز خمسة أذرع أى مترين ونصف المتر إلى ثلاثة أمتار. ولابد أن يكون هذا الخندق عريضاً وذا جدران عمودية. فلو كان عرضه قليلاً لتمكن الفرسان من القفز، والمشاة من عبوره. وقد اعتمدت بعض الحروب القديمة على الخنادق الجافة، وعدوها أفضل من الممتلئة ماء ، لأن الماء يساعد الفرسان على عبور الماء على ظهور الخيل، كما أن المشاة يعبرونه بواسطة القوارب المائية.وحين وصل جيش مكة إلى المدينة كان المسلمون قد أنهوا حفر خندقهم، وحملوا سلاحهم، وتربصوا. وقدم جيش مكة مبتعداً عن الجنوب، متجهاً نحو الشمال والغرب ، أى اتجه نحو سفح جبل أحد. وكم تمنى أبو سفيان أن يلقى المسلمين ويحاربهم قرب أحد. وتألف جيشه من رجال مكة، ومن قبائل عديدة مثل: بنى فزارة، وغطفان، والأحابش، وتهامة، وكنانة. وكان أبو سفيان بهذا الجيش اللجب يطمح إلى إفناء المسلمين ، وحين لم يلقهم فى جبل أحد أمر الجيش بأن يتحول نحو المدينة.ولكنهم فوجئوا بخندق يحيط بها، يمنعهم من هذا الهجوم.

لم يعتد العرب قديماً على الاستحكامات العسكرية ولا على الأسوار العالية، كما لم يروا خندقا قبل ذلك اليوم. فاعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم له، وتوقفوا تجاهه حائرين لأنهم لايستطيعون تخطيه . فما كان من أبى سفيان إلا أن أمر بنصب الخيام حول الخندق ، لأنه لم ير وسيلة إلامحاصرتها. وهكذا كان جيش مكة على طرف الخندق الخارجى، وجيش المدينة على طرفه الداخلى، يسمعون أصوات بعضهم بعضاً ويرون بعضهم بعضاً. ولكنهم لا يستطيعون أن يلتحموا ويبدءوا المعركة بالسلاح الأبيض كما جرت العادة فى حروب العرب يومذاك.

وحل فى ذلك الفصل برد شديد أصاب المسلمين والمشركين. أما المسلم فكان إذا اشتد به المرض عاد إلى منزله واحتمى به. وأما المشركون فلم يكن لهم ملاذ يحميهم، فى حين أن محمداً(ﷺ) كان طيلة الليل يرقب الحدود الحربية، ولا يأوى إلى منزله، وكان الطرفان يتناوشان بالنبال، ووقع عدد من الجرحى بسبب هذه المنابلة.. إلا أنهم كانوا يتوقفون عن النبل ليلاً أو حين يحل الظلام، عندئذ يباشرون بقذف الشتائم والكلام وإنشاد الشعر الهجائى بصوت عال[1] .

١- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٦٦ - ٢٦٩.

ومضت أيام من غير أن ينجلي موقف جيش قريش من مسألة العبور. لكنه فكر بأن يغرى اليهود بالحملة على المسلمين من داخل المدينة. وقد ذكرنا أن طائفتين من أصل ثلاث هاجرتا من المدينة ، ولم يبق إلا بنو قريظة الدباغون. واستطاع أبو سفيان أن يتصل بهم ويشجعهم على تنفيذ خطته، لكن المعلومات كانت تصل إلى محمد (ﷺ) تباعا فأدرك مسعى أبى سفيان ، فأرسل محمد (ﷺ) إلى اليهود رجلين. سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ابن النعمان ليذكرا اليهود بدستور المدينة، وبالعهد الذى قطعوه مع المسلمين على صد أعداء المدينة. لكنهما وجدا أن اليهود مصممون على الوقوف إلى جانب جيش قريش. وأيقن محمد (ﷺ) أن أبا سفيان سرعان ما يعقد الصفقة مع بنى قريظة على أن يهاجموه من الخلف. وعندئذ سيقع المسلمون بين حدين، ولن ينفع الخندق فى حمايتهم. وتخوف المسلمون من هذا الأمر فالتمسوا محمداً (ﷺ) ليحل لهم هذه المعضلة وقالوا له: نحن الآن معرضون للفناء إن حمل علينا اليهود.

فأجابهم محمد: يأمل أبو سفيان بأن تأتيه النجدة من اليهود، أما نحن فنأمل بالمساعدة من الله ، ولا أحسب أنه يتركنا من غير رعاية. إن كنا قد خسرنا فى معركة أحد فلأن بعض المسلمين لم ينقادوا لأوامرى، ولم يطيعوا تعليماتى.

كان قول محمد (ﷺ) حقاً . فلقد كان الله معهم وأمدهم بعطفه، ففيما كان القرشيون يتفاوضون مع بنى قريظة حدث أمر مهم جداً بالنسبة إلى المسلمين.فقد أتى محمداً (ﷺ) الرجل الذى ينقل الأخبار بين الطرفين، وهو « نعيم بن مسعود » وقال له: يارسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت.

بعد أن سمع محمد (ﷺ) كلام نعيم تذكرعطف الله عليه؛ بأن أرسل هذا الإنسان ليحمى المسلمين . فقال له محمد (ﷺ): إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذ عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة. وأطاع نعيم أمر النبى (ﷺ)، ومنذئذ بدأ ينفذ الخطة التى أمره بها رسول الله ، وذهب إلى اليهود ، وقال لهم :

يا بنى قريظة، قد عرفتم ودى إياكم، ولا سيما ما بينى وبينكم، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد، وقد ظاهرتموهم عليه.. البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم

بغيره، فليسوا كهيئتكم، إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً (ﷺ) حتى تناجزوه.

عندما سمع اليهود نصائح نعيم أحسوا بأن كلامه كلام رجل عاقل، ووعدوه بأن يحسنوا التفكير والتصرف قبل أن يقطعوا صلتهم بالمسلمين. عندئذ ذهب نعيم إلى أبى سفيان وقال له ولمن معه: يا معشر قريش، قد عرفتم ودى إياكم، وفراقى محمداً(ﷺ)، وقد بلغنى أمر رأيت حقاً على أن أبلغكموه نصحاً لكم على.. إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم. ثم نكون معك على من بقى منهم؟ فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود تلتمس منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً. ثم جربوا أن تطلبوا إليهم خوض الحرب يوم السبت، فإن اعتذروا فاعلموا أنهم يراوغون ويعرقلون خطتكم، ولا يريدون الاشتراك فيها.

وانغمر أبو سفيان فى تفكيره بعد إذ سمع آراء نعيم. وأشاع المسلمون أن اليهود سيأخذون رهائن من قريش ليسلموها إلى محمد(ﷺ)، ليقتلهم جميعاً.

وأرسل اليهود إلى أبى سفيان رسالة يطلبون فيها إرسال عدد من سادة قريش ليكونوا رهائن ، لأنهم يخشون أن تحجم قريش أو تنسحب أثناء المعركة.وفكر أبو سفيان ورجاله فى الأمر وتراءى لهم أن اليهود اتفقوا مع المسلمين. لذلك رفض طلب اليهود[1] .

وهكذا وقع سوء الظن بين الطرفين، فلم يتمكنا من الحرب معاً. وبعد مرور أسبوعين على انتظار عشرة آلاف محارب مقابل الخندق قل الطعام وندرت الأعلاف. فتضايق قائد الجيش فى حين أن المسلمين فى المدينة لم يشعروا بهذه الضائقة، فقد كان أبو سفيان يظن حينما قدم إلى المدينة أنه سيلقى الأعلاف حولها، غافلاً عما أمر به رسول الله ﷺ. وبالإضافة إلى هذا، فإن برودة الطقس أثناء الليل آذت جيش قريش كثيراً، ولا سيما أنهم فى مكة يعيشون فى منطقة حارة. فلم يكفهم الاحتماء فى الخيام من هذه الرياح القاسية. ثم

١- د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٤٤ – ٤٥٢.

إن شهر شوال يؤذن بالأفول ويدنو شهر ذى القعدة، أحد الأشهر الحرم. ويعلم رجال أبى سفيان أن شوال إذا انقضى لا يتمكنون من محاربة المسلمين إلا بعد مضى ثلاثة أشهر، ولم يجد سادة قريش أمامهم إلا بضعة أيام، فإن لم يحملوا فيها على المسلمين استحال عليهم الأمر، ثم لا يمكنهم أن ينتظروا ثلاثة أشهر فى هذه الضائقة وهذه البرودة، وهم فى الصحراء ومعهم عشرة آلاف محارب.

وحل بالمشركين إرجاف هائل من الجوع والبرد الشديدين، مما ضعضع صفوف الجيش. وفى إحدى الليالى هبت رياح قارسة أطاحت بالخيام، وأخمدت النيران. وبعد دقائق هطلت أمطار غزيرة وعنيفة، سال لها الوديان، فخشى أبو سفيان أن يهاجمهم المسلمون فى مثل هذه الساعة، فأمر القوم بالرحيل، وبرحيله انتهت معركة الخندق، أو معركة الأحزاب، ولم يخسر الطرفان غير ثمانية رجال، لأنهما لم يلتقيا(١).

الوجود اليهودى.. فى الجزيرة العربية قبل الإسلام

كان اليهود قبل ظهور الإسلام قد احتلوا أخصب بقاع الحجاز فى المدينة وخيبر والعلا، واستغلوها فى الزراعة والصناعة والتجارة، وقد أدى استعمارهم تلك البقاع واعتدادهم بأنفسهم ودينهم إلى كراهة العرب لهم ورغبتهم فى إخراجهم من الحجاز، ونلحظ ذلك بصفة خاصة فى يثرب (المدينة) حيث كان الأوس والخزرج يبذلون جهدهم للحلول محل اليهود فى أراضيهم الخصبة، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة حرص على تحقيق أحد أمرين، إما أن يدخل اليهود المقيمين بها فى الإسلام أو يكتسب صداقتهم وإخلاصهم مع بقائهم على دينهم. وتحقيقاً لهذه الغاية، ضمّن النظام الأساسى للحكم (دستور المدينة) ما لهم من حقوق وماعليهم من واجبات، غير أنهم أخذوا يصرحون بالشك فى رسالته، ويقولون أن النبوة مقصورة عليهم، وأنها لا تأتى الحجاز وإنما يجب أن تكون فى الشام موطن الأنبياء.

كذلك عمل اليهود على إثارة النزاع والفتن بين أصحاب النبى وخاصة بين الأوس والخزرج. كما أن اليهود مالوا ناحية قريش حين وقعت الحرب بينها وبين الرسول، وقد ظهر واضحا عقب واقعة بدر؛ إذ قام شعراء من اليهود - كما سنبين - يرثون قتلى قريش ويعرضون بالمسلمين.

١- د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٥٠١ - ٥٠٥.

ولكن مع ذلك لم يكن اليهود فى الحجاز يتميزون بوحدة الهدف ووحدة المصير ولا تجمعهم رابطة سياسية واحدة.

كانت قبيلة بنى قينقاع أول من استهدف من يهود المدينة لمقاومة المسلمين، وكان الرسول ﷺ قد جعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم شروطاً، منها: ألا يظاهروا عليه عدواً. ولكن حينما قدم من بدر أظهر بنو قينقاع الحقد والحسد ونقضوا العهد الذى عقده معهم[1]، فأنزل الله على نبيه ﴿وإما تخافن من قوم خيانة، فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين﴾[2] فجمعهم الرسول بسوق بنى قينقاع وقال: «يامعشر يهود. أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش، فوا الله إنكم لتعلمون أنى رسول الله تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم»، فقالوا: يامحمد، لايغرنك من لقيت، إنك قهرت قوماً غماراً، وإنا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقابل مثلنا[3].

لم يكن لبنى قينقاع حصون ولامعاقل. وإنما كانوا تجاراً وصاغة، وهم حلفاء لعبد الله ابن أبى بن سلول. فسار إليهم الرسول ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا إلى النزول على حكمه الذى تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له وتكون النساء والذرية لهم، ثم أخلى سبيلهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبى وأمرهم بالجلاء عن المدينة، فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات بأطراف الشام، وقسم الرسول ماغنمه منهم على المسلمين[4].

كذلك توترت العلاقة بين قبيلة بنى النضير وبين الرسول ﷺ بعد واقعة أحد، ويرجع السبب المباشر فى ذلك إلى ماروى من أن الرسول ﷺ كان قد بعث المنذر بن عمرو فى سبعين رجلا من الأنصار يعرفون بالقراء ليدعوا أهل نجد إلى الإسلام[5]، فساروا من المدينة حتى نزلوا بئر معونة[6]، وأرسلوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل، فلما قدم عليه لم يقرأ كتابه وقتله، ثم استعان بقبائل بنى سليم فى مقاتلة القراء، فقاتلوهم ولم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الضمرى[7].

١- المقريزى، إمتاع الأسماع، جـ٢، ص١٠٤.

٢- سورة الأنفال (٥٨).

٣- ابن هشام، جـ٢، ص ٤٢٦.

٤- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ص ٦٨.

٥- النبهانى، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، ص ٧٩.

٦- المقريزى، إمتاع الأسماع، جـ١، ص ١٧٠.

٧- المقريزى، إمتاع الأسماع، جـ١، ص ١٧١.

وقد بعث الرسول ﷺ إلى بنى النضير رسولا يأمرهم بالجلاء عن بلده لنقضهم العهد بمحاولتهم الغدر به، وأمهلهم عشرة أيام يحاربون بعدها إذا لم يخرجوا، فأبوا عليه ذلك فأمر الرسول أصحابه بالتهيؤ لمحاربتهم، ثم زحف إليهم فى ربيع الأول سنة ٤ هـ، فوجدهم مقيمين بحصونهم، ولم تعنهم قريظة بل اعتزلتهم، كما أن عبد الله بن أبى وحلفاءهم من غطفان خذلوهم[١]، فحاصرهم الرسول، وألقى الله فى قلوبهم الرعب، فلما رأوا أنه ليس لديهم القوة لمحاربة الرسول طلبوا منه الصلح[٢] فصالحهم- بعد أن ظل يحاصرهم خمسة عشر يوماً- على ألا يتعرض لأحد منهم بسوء وأن يرحلوا من بلده ولهم ما حملت الإبل من أموالهم ومتاعهم، ولرسول الله أرضهم ونخلهم وأسلحتهم[٣]، فخرجوا من المدينة على ستمائة بعير نقلوا عليها ما استحسنوه من بيوتهم التى خربوها بأيديهم، ونزل أكثرهم بخيبر وذهبت طائفة منهم إلى الشام[٤].

وقد أنزل الله تعالى فى بنى النضير وجلائهم عن المدينة هذه الآيات: ﴿سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم* هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار* ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار* ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب* ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين﴾[٥].

لم يبق بالمدينة من اليهود بعد إجلاء بنى النضير إلا بنو قريظة. وكان بينهم وبين الرسول عهد فنقضوه وانحازوا إلى قريش - كما أوضحنا- فى واقعة الخندق[٦]. فأصبح الرسول يرى بعد موقفهم العدائى منه فى هذه الواقعة أن وجودهم بالمدينة خطر عليه، لذلك نجده بعد انصراف الأحزاب يشرع من فوره إلى دعوة المسلمين لمحاربة بنى قريظة، فساروا معه وحاصروهم

١- البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٣١.

٢- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ص ٩٩.

٣- اليعقوب، جـ٢ ، ص ٣٧.

٤- البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٣١.

٥- سورة الحشر : (١ - ٥).

٦- اليعقوبى، الجزء الأولى، ص ٣٩

فى حصونهم التى تحصنوا بها فبعث إليه بنو قريظة رسولا من قبلهم يطلب منه أن يصالحهم كما صالح بنى النضير، ويخرجون من المدينة بنسائهم وذراريهم وما حملت إبلهم، فأبى الرسول لأنه رأى أن بنى النضير بعد أن أجلاهم من المدينة ألبوا عليه الأحزاب فأثاروا قريشاً وعرب البادية من غطفان وغيرها، فإذا ما أجلى بنى قريظة كما أجلى بنى النضير فإنهم قد يتحالفون مع بنى جلدتهم من اليهود ضده ويثيرون عليه القبائل العربية التى لم تزل على وثنيتها، فضلا عن أن بنى قريظة كادت تكون سبباً فى إلحاق الهزيمة بالمسلمين بمظاهرتها قريشا فى واقعة الخندق، لذلك رأى الرسول أنه لابد من التخلص منهم، فلما اشتد عليهم الحصار، نزلوا على حكمه بعد أن ظل يحاصرهم خمسة عشر يوماً، فأمر باعتقال أسراهم وأبقى النساء والذرارى فى ناحية بعد أن أخرجهم من الحصون، وجمعت أموالهم ومواشيهم وأسلحتهم فطلبت الأوس من الرسول أن يهب لهم بنى قريظة لأنهم حلفاؤهم، فقال لهم: أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم؟ فرحبوا بذلك، ووقع اختيار الرسول على سعد ابن معاذ الأوسى، فلقى هذا الاختيار قبولا منهم، وقضى سعد بأن تقتل رجالهم وتسبى النساء والذرية، وتقسم أموالهم بين المسلمين. فأقر الرسول هذا الحكم وعمل على تنفيذه[١].

وبذلك تم للنبى بالقضاء على بنى قريظة السيطرة على المدينة، وأصبح يأمن فيها على نفسه بعد أن تخلص من العناصر المناوئة، كما انتفع فقراء المسلمين بصفة خاصة من أنصار ومهاجرين بتلك الأراضى والمنقولات التى كان يمتلكها اليهود. ولكن لم ينته خطر اليهود ببلاد الحجاز بإجلائهم عن المدينة، فرأى الرسول بعد أن عقد مع قريش صلح الحديبية أن يهاجم خيبر حيث يقيم اليهود الذين كانوا يمتون بصلات كثيرة إلى قبائل بنى قينقاع وبنى النضير، وكان الخطر من قبلهم على المدينة لا يزال متوقعاً، فتأهب الرسول للخروج إليهم فى السنة السابعة للهجرة وأمر أصحابه بالتهيؤ للغزو، وأعلن بينهم ألا يخرج معه إلا كل راغب فى الجهاد[٢]، ثم سار قاصداً خيبر على رأس ألف وأربعمائة من المسلمين الذين كانوا معه فى الحديبية. وكان يهود خيبر إذ ذاك يقيمون بحصون على نحو ما كان يفعل بنو جلدتهم بيثرب. ولم يدر بخاطرهم أن الرسول سيغزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم، لكن الرسول مالبث أن نزل بساحتهم ليلا على حين غفلة منهم، بحيث لم يستطيعوا أن يضموا إليهم

١- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، الجزء الثالث، ص ١١٧.

٢- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣ ص ١٥٢.

حلفاءهم. فلما أصبح الصباح وشرعوا يتأهبون لأداء أعمالهم فوجئوا بمشاهدة المسلمين أمامهم، فذعروا وولوا هاربين[١]. وكان لانتصار المسلمين فى خيبر أهمية خاصة، فقد ترتب عليه أن أصبح لدولتهم الناشئة أراضٍ مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج، كما أدى إلى وجود جماعة من اليهود يشملها السلطان السياسى للدولة الإسلامية. وهكذا وجد بتلك الدولة لأول مرة أهل ذمة. وقد سمح لهؤلاء الذميين بأن يظلوا على دينهم ويستغلوا أراضيهم وفق الشروط التى تؤخذ عليهم.

وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين

ظل اليهود كعادتهم يخالفون العهود والمواثيق التى كانوا يبرمونها مع الرسول (ﷺ)، كما استمرءوا مخالفة النظام الأساسى للحكم (دستور المدينة) الذى وضعه الرسول ﷺ - كما سبق أن أشرنا - لسكان المدينة كافة (مسلمين ويهودا) والذى كان ينص على أن طائفة اليهود لايجوز لهم الاتفاق مع خصوم الإسلام. ولكن رغم هذا الاتفاق الواضح القراح ذهب عدد من شعراء اليهود إلى مكة يؤيدون جيش المشركين ضد محمد ﷺ والمسلمين. وينشدون الشعر فى هجاء خصومهم المسلمين. وكان للشعر السياسى فى ذلك التاريخ دور كبير فى إذكاء روح الشعب ورفع معنويات الجند. وكان تأثيره فى الهجاء القبلى أعمق من طعنة الرمح. وقد أنشد كعب بن الأشرف الطائى من شعراء اليهود قصائده الهجائية فى المسلمين، ثم ذهب إلى مكة وأقام فيها عدة شهور يلهب حماس سكانها ضد محمد (ﷺ) والمسلمين، ومن شعراء المدينة المناوئين للإسلام امرأة تدعى «أسماء بنت مروان»، من جميلات بلدتها. كانت تهاجم بشعرها محمداً (ﷺ) وجبريل والمسلمين، فتضايق المسلمون منها كثيراً حتى قضى عليها بيد رجل أعمى من المسلمين وهو قريب لها كان يزورها منذ سنوات. فتعرف إلى كل مكان فى منزلها، وعرف أين تنام، ثم جاءها بالليل وقتلها.

واستمر الهجاء ضد المسلمين من قبل يهود المدينة، فطالب الرسول (ﷺ) اليهود أن يكفوا أذاهم عن المسلمين طبقا لما جاء فى النظام الأساسى للحكم، واجتمع محمد (ﷺ) إلى رئيس طائفة الصاغة من اليهود لبناء علاقة طيبة معهم تقوم على الحياد وعدم الممالأة مع قريش.

١- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ص ١٦٠.

وقال له محمد (ﷺ): نحن لا نريد أن نحاربكم بل أن نصادقكم، لكننى أحس بقدوم جيش كبير نحو المدينة، فإن كنتم لا ترغبون فى مشاركتنا الحرب، فبإمكانكم أن تبقوا محايدين. وقد أجاب رئيس الصاغة بجواب سياسى مبطن قال فيه:

– إن هذا الأمر موكول إلى مدى معاملة المسلمين، فإن كانت معاملتهم مرضية بعد قدوم جيش مكة أعلنا حيادنا. وبينما كان المسلمون يراعون اليهود مرت فتاة مسلمة من حى الصاغة اليهودى، فتعرض لها فتيان يهود أسمعوها غليظ القول، ولم يكتفوا بل حاولوا أن يشدوا ثوبها ويكشفوا عما تحته. وبينما هم على هذه الحالة خرج صائغ يهودى من دكانه، وربط دون أن تدرى ثوبها بخيط، وحين أرادت الفتاة الهرب منهم تمزق ثوبها، وانفصل عن جسدها، فبدت عارية. ومر من ذلك المكان رجل مسلم، فدنا من ذلك الصائغ ولكمه على رأسه. فحمل الفتيان اليهود على ذلك الرجل المسلم حماية لصديقهم، فأوسعوه ضرباً حتى فارق الحياة بين أيديهم. فطالب المسلمون اليهود بدفع الدية، ولكنهم رفضوا أداءها. وكانت العرب إذا رفضت قبيلة القاتل أداء الدية وجب عليها الاستعداد للحرب.

وهكذا حاصر المسلمون حى الصاغة مدة أسبوعين، من غير أن يقتل واحد من الطرفين. وبعد مضى أسبوعين ترامى إليهم أن جيش المشركين لما يخرج من مكة. ولما كان الصاغة فى ضائقة من أمرهم قرروا التسليم. ومع ذلك فإن محمداً (ﷺ) لم يأخذ منهم غير السلاح. وخيرهم بين الإسلام والرحيل عن المدينة. ورحلوا حاملين معهم كل ما يملكون حتى الأبواب والنوافذ. وبعد أن وصلوا إلى ظاهر المدينة انقسموا قسمين؛ قسماً اتجه نحو الجنوب إلى مكة ليلتحق بجيشها، ويساعدها على حرب المسلمين، وقسماً راح يبحث عن بعض المناطق التى يعيش فيها اليهود فى الجزيرة ليسكنوا معهم(١).

كيف كان المسلمون يعاملون اليهود وكيف أصبح اليهود يعاملون المسلمين؟!

فى لعبة السياسة، نسمع أن السياسيين يتشكلون ويظهرون كالعملة ذات الوجهين. ويأتى اليهود – فى الماضى والحاضر – على رأس من يمارسون هذه اللعبة، وهم يضيفون إلى

---

١ – د. محمد سيد طنطاوى، بنو إسرائيل فى القرآن والسنة (القاهرة: الزهراء للإعلام العربى، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧)، ص ٢٤٣ – ٢٥١.

هذه المقولة أنه لامكان للمبادئ والأخلاق فى السياسة، وأن الغاية تبرر الوسيلة وأن المصلحة المادية، فوق كل الاعتبارات الأخلاقية والعاطفية....

ونحن نبحث هذا الموضوع فإننا نجد أن اليهود هم أكثر الناس احترافاً وتعاملاً مع السياسة بهذا الوجه الكئيب.

فقد كان بنو النضير من أشهر الفصائل اليهودية التى كانت تسكن المدينة، وكانت لهم - كما بينا - مواقف شائنة تجاه الرسول ﷺ والمسلمين. ولذلك نزلت فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها، تصف خستهم وتتوعدهم بالخزى والهزيمة فقال تعالى: ﴿هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين﴾ ثم قال تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار* ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾ وكان لهم من الله نقمة ﴿لعذبهم فى الدنيا﴾، أى بالسيف. ﴿ولهم فى الآخرة عذاب النار﴾ مع ذلك ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة علي أصولها﴾ واللينة: ما خالف العجوة من النخل ﴿فبإذن الله﴾ أى فبأمر الله قطعت، لم يكن فساداً، ولكن كان نقمة من الله ﴿وليخزى الفاسقين* وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ يعنى من بنى النضير ﴿فما أوجفتهم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول﴾: ما يوجف عليه المسلمون بالخيل والركاب، وفتح بالحرب عنوة، فلله وللرسول ﴿ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾ وقوله تعالى: ﴿يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعنى بنى النضير، إلى قوله ﴿كمثل الذين من قبلهم ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾ يعنى بنى قينقاع، ثم قوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين* فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾.

وهكذا وجدت الدولة الإسلامية الجديدة أنه لابد من تأمين نفسها عن طريق التخلص من هذه الجيوب اليهودية غير المأمونة، والتى تمارس الغدر والخيانة فى قلب قاعدة المدينة التى بدأت فيها تنطلق معالم الدولة الإسلامية الأولى.

وبعد ذلك وقع على اليهود وعد الله سبحانه وتعالى مما يمكن أن نوجزه فيما يلى:

فى سنة ٤هـ = ٦٢٥م تم إجلاء يهود «بنى النضير»... بعضهم إلى «خيبر» وبعضهم إلى الشام.

وفى سنة ٥ هـ = ٦٢٦م فتح المسلمون حصون يهود «بنى قريظة».

وفى سنة ٧ هـ = ٦٢٨م فتحت حصون يهود خيبر الثمانية.

وفى نفس العام (سنة ٧ هـ = ٦٢٨م) فتحت «وادى القرى» و «تيماء».

حتى إذا كان عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، استطاع المجتمع العربى الإسلامى الجديد أن يحقق ذلك التجانس فى الرعية، بل الوحدة فى هويتها، فتم فى ذلك العهد إجلاء باقى الجماعات اليهودية عن أرض شبه الجزيرة العربية[1].

ولكن قصة القضاء على جيوب اليهود فى المدينة لا يجب أن تمر سريعاً هكذا على المسلمين المعاصرين الذين مازالوا – حتى اليوم– يتلقون من اليهود شتى أصناف الغدر والخيانة والنقوص بالعهود. وهذا ما سوف نفصله تباعاً فى الصفحات القادمة لكى تكون دروساً مستفادة على طريق التعامل مع الدولة اليهودية الإسرائيلية التى بدأت منذ مفاوضات السلام فى عام ١٩٩١م مرحلة جديدة من مراحل التغلغل «السلمى!» فى الكيانات العربية والإسلامية.

القاضى يدين اليهود بالخيانة العظمى
والمسلمون ينفذون الحكم

بعد أن منى جيش مكة وحلفاؤه اليهود بهزيمة ساحقة فى موقعة بدر، التفت محمد ﷺ إلى ابن عمه «على بن أبى طالب» ورمقه بنظرة عميقة فاحصة ثم كلفه بأمر بنى قريظة. وتنفيذا لهذا الأمر أمر على بمحاصرة بنى قريظة فى حوائرهم وحصونهم، ثم طلب منهم أن يدخلوا فى الإسلام، ولكنهم قالوا له:

نحن لا نعترف بمحمد نبياً، ولن ندخل فى دينه، لأنه عربى. ولا يكون النبى من العرب، بل يكون من بنى إسرائيل، لأن الله لا يخاطب أحداً غيرهم، ولا يبعث نبياً إلا منهم. وكل الأنبياء القدماء من بنى إسرائيل، وإن ظهر نبى جديد اليوم وجب أن يكون من بنى

١– د. محمد عمارة، اليقظة العربية، مرجع سابق، ص ٥٣.

إسرائيل. وهكذا أمر على بتشديد الحصار على بنى قريظة أربعة أسابيع حتى نفدت أغذيتهم، فنادى كعب بن أسد رئيس بنى قريظة من وراء قلعته: ياعلى، يفتقد أبناؤنا إلى اللبن، لأن أثداء أمهاتهم جافة، لعدم وجود ما يأكلنه.

فنادى على: ياكعب بن أسد، نحن الذين نحاصركم عندنا أطفال، ونعلم كم يعانى الطفل من الجوع. نحن لا نريد بهم أذى، لكنكم نقضتم عهد المدينة مرات، ولم نعد نأمن منكم مطلقاً. فهل تقبلون حكماً يحكم بيننا؟

أجابه كعب: نعم نقبل. قال على: نمنحكم حرية اختيار الحكم الذى ترتضون به، حتى لا تظنوا بنا السوء. وبعد أن يتم تعيينه نرسل إليه ممثلين من قبلنا وممثلين من قبلكم. وسيتحدث ممثلانا عن نقضكم عهد المدينة، ومخالفتكم له، وليقل ممثلاكم ما يشاءان. وسننفذ ما يصدره الحكم. فهل تقبلون به؟

أجاب اليهود: نعم ياعلى نقبل. وقال على: ونحن نقبل به أيضاً.

ومع أن الحرب لما تنته، ومع أنهم مازالوا محاصرين، فإنه سمح لهم بنقل الأطعمة التى يرغبون فيها.. حتى لا تبقى الأمهات من غير لبن لأطفالهن. وتشاور اليهود ثانية، وقر رأيهم على تعيين سعد بن معاذ حكما لهم.

كان سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس، وهو صديق العرب واليهود على السواء. وبعد أن عين الحكم أرسل اليهود ممثلين لهم، والمسلمون ممثلين. وشكا المسلمان إليه ما فعله اليهود بمخالفة دستور المدينة، وقالوا له: كان على اليهود أن يشاركونا فى الدفاع عن المدينة ضد أى هجوم. لكنهم خالفوا العهد الذى بيننا، واتفقوا مع جيش قريش على مهاجمة المسلمين من الخلف، وهكذا يقع المسلمون بين عدوين خصمين.

أما ممثلا اليهود، فقد عرضا مسألة معركة أحد، وقالا: كنا نريد أن نساعد المسلمين فى معركة أحد، لكنهم لم يقبلوا منا ذلك، واعتقدنا أن محمداً (ﷺ) لا يريد مساعدتنا فى معركة الخندق.

ورد ممثلا المسلمين عليهما فقالا: لكن بنى قريظة اتفقوا مع قريش ضدنا. ولو لم يوفق محمد إلى منع هذا الاتفاق لوقع المسلمون بين خصمين. وأتيا بنعيم بن مسعود شاهداً. فاعترف للحكم بدقائق مساعيه مع ذكر الأسماء صراحة. ودامت المحاكمة عدة أيام، كان سعد فيها يستمع إلى قول الممثلين والشهود. وبعد ذلك أعلن رأيه فقال:

- خالفت قريظة العهد، وأهملت العقد، وسعت إلى الاتفاق مع الخصوم لضرب المسلمين من الخلف، لذا توجب عليها الإعدام.

لم يصدر المسلمون هذه الفتوى، بل أعلنها رجل اعتبره اليهود صديقاً لهم، وهم الذين اختاروه لهذه المهمة. وبعد صدور هذا الحكم برأ عليّ النساء والأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد، والشيوخ المسنين. أما الباقون فمن دخل فى الإسلام برئت ساحته، وأما الباقون فقد ثبتوا فى القلاع والمنازل. حتى لايخونوا ما عاهدوا الله والرسول ﷺ [1].

وحديثنا عن اليهود سوف يكون موصولاً فى الصفحات القادمة مع رأينا فى مستقبل دولة إسرائيل بخاصة ومصير اليهود بعامة.

الدبلوماسية الإسلامية
فى مفاوضات السلام بالحديبية

تعتبر مفاوضات السلام فى الحديبية بين المسلمين والمشركين.. قمة العمل التفاوضى فى السلك السياسى.

وإذا أردنا أن نستخلص الدروس والعبر من دبلوماسية المفاوضات السياسية، فإن مفاوضات الحديبية تعتبر رافدا مهما من أهم روافد معلم البشرية محمد (ﷺ) للمسلمين فى مجال فن المفاوضات السياسية.

كان المسلمون يظنون أن النبى (ﷺ) سيهاجم خيبر أو مكة ليفك الحصار، لكنه ارتأى حلا آخر لم يتوقعه المسلمون، ذلكم هو ذهاب المسلمين جميعاً لأداء العمرة، فى حين أن مكة تحمل فى طياتها الضغينة والحقد لمحمد (ﷺ). فهى التى جيشت الجيوش لحربه. ومع كل هذا فقد صمم على الذهاب إليها سلماً. وقد ظنوا بادئ ذى بدء أنه يريد فتحها، لكنه أجابهم بأنه يريد زيارتها لا حربها.

وهكذا سار، ومعه ألفا رجل تقريباً، وعدة مئات من الجمال، إلى مكة فى العام السادس من الهجرة = ٦٢٨م [2].

١- د. محمد سيد طنطاوى، بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٢٧٠ - ٢٧٦.

٢- محمد حسين هيكل حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

ولما أعلن الرسول ﷺ عن زيارته إلى الكعبة لم يكن أبو سفيان موجودا فى مكة، فحار أشراف مكة ماذا يصنعون، فالمسلمون يصلون فى الشهر الحرام ولا يحق لهم اعتراضهم. ولكن كيف يسمحون لهم، بعد تلك المعارك الطاحنة، بدخول بلدتهم؟ وفى حال اعتراضهم وعدم السماح لهم بالدخول لأنهم مسلمون، فكيف يقال إن مكة بقعة حرام.. يحق لكل إنسان أن يزورها ويطوف حولها؟

وبعد جدال ومشاورات حادة أزمع أشراف مكة على الحؤول دون دخولهم إلى مكة، وجهزوا أربعين فارسا لإيقاف زحف المسلمين ومنع تقدمهم. ولكن المسلمين أسروهم جميعاً، وأخذوا منهم أسلحتهم. لكن محمداً (ﷺ) أمر بأن ترد إليهم أسلحتهم وأن يطلق سراحهم من غير فدية.

وسأل عدد من المسلمين محمداً (ﷺ): لماذا نطلق الأسرى من غير فدية، ونعيد إليهم أسلحتهم؟

أجاب محمد (ﷺ): لأننا زوار بيت الله الحرام، ولسنا محاربين. قصدنا هو الطواف حول الكعبة، ومن كان هذا هدفه لا يحق له أن يحارب أو يأسر أحداً.

وبعد قليل خرج من مكة مائتا فارس، واتجهوا نحو محمد ﷺ، ليمنعوه من الدخول. وكان قائدهم عكرمة بن أبى جهل. وحين وصل عكرمة إلى مضارب المسلمين.. رآهم يصلون ووجهتهم الكعبة. كان مشهدهم مهيباً وقوراً، لهذا لم يجرؤ على مهاجمتهم، فتنحى عنهم من غير أن ينأى.. لكنه استعد ليمنعهم من التقدم نحو مكة.

كان محمد (ﷺ) يهمه أن يفهم أهل قريش أنه لا يرفض الاعتراف بقدسية الكعبة.

وقبل دخول مكة وقف الرسول فى مكان يدعى «ذو الحليفة».[1] ومن هناك أحرموا لحج العمرة. وحتى لا تسفك الدماء مع عكرمة وقواته أمر محمد (ﷺ) المسلمين بالاتجاه نحو مكة عن طريق «ذى الحليفة» الجبلى. وقد عانى الفرسان كثيراً من عبورهم الأرض التى تلت «ذا حليفة»، لأنها منطقة جبلية، وبالإضافة إلى ذلك فإن حرارة الشمس والعطش أرهقت المسلمين، حتى خرجوا من ذلك المأزق، ووصلوا إلى الحديبية[2]. وبعد أن كانت الحديبية تبتعد عن مكة بنحو اثنى عشر كيلو متر، أصبحت اليوم تلتحم مبانيها مع مبانى مكة المكرمة.

١- منذ ذلك التاريخ حتى الآن، أصبح «ذو الحليفة» من مواقيت مكة المكرمة.

٢- د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٥١٠ - ٥١٤.

وقد ذرف كل من كان أصله من مكة الدموع عندما رآها فرحاً بها، لأنهم متيقنون أنهم سيبلغون وطنهم بعد ساعتين. إلا أن جمل النبى (ﷺ)، واسمه «ثعلب»، توقف فى الحديبية وعلى أثر توقف الجمل قال محمد (ﷺ) للمسلمين: يريد الله أن نتوقف هنا.

فنزل المسلمون عن جمالهم متأسفين متألمين، لأنهم كانوا يتمنون أن ينزلوا فى مكة. والأرض التى توقف فيها محمد (ﷺ)، وهى جزء من منطقة الحديبية، تدعى «غدير الأشطاط». كانت هذه المنطقة ذات مياه فى فصل الربيع. لكنها حين قدم المسلمون إليها كانت جافة تماماً، فتوافد المسلمون على النبى (ﷺ)، وقالوا له: نحن ألفا نفر (أو أقل) يامحمد (ﷺ)، ومعنا مئات الجمال، وهذه المنطقة خالية من الماء، فلا نستطيع اللباث فيها ولعل الأفضل أن نتقدم لنصل إلى مكان فيه ماء.

كان محمد (ﷺ) يعلم أنه إن تقدم أكثر جرت معركة بينه وبين المشركين. وعندئذ ستسفك الدماء فى الأرض الحرام، ولا يجوز ذلك أبداً، ولهذا قال لهم: لن نتقدم أكثر، والله يأمرنا بالتوقف هنا.

فقال له المسلمون: وكيف نبقى من غير ماء؟

يروى أن محمداً (ﷺ) رفع يديه إلى السماء يستسقى الله: ربنا، أغثنا فقد دخل المسلمون الأرض الحرام.

وبينما كان محمد منشغلاً بمناجاة ربه قال له أحد المسلمين: إن تحت قدميك ماء يامحمد (ﷺ)، فإن حفرنا هنا وصلنا إليه، وفعلا عثر المسلمون على ماء كثير، يزيد عن حاجتهم. وبعد أن زال قلقهم بشأن الماء دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: عمر للرسول (ﷺ):

مادمت على حق، وتستطيع دخول مكة فلم تطلب الإذن منهم؟

وهكذا لم يقبل أن يكون رسولاً إلى المشركين.

فدعا رسول الله (ﷺ) عثمان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمته.

واتجه عثمان نحو مكة، ولكنه لم يعد. وشاع بين المسلمين أن قريشاً أسرته، ثم شاع أنها قتلته.

عندما وصل خبر مقتل عثمان إلى محمد (ﷺ)، كان المسلمون متجمعين تحت شجرة كبيرة فى منطقة غدير الأشطاط فدعاهم رسول الله (ﷺ) إلى تنفيذ رأيه وإطاعته من غير تساؤل أو اعتراض، عند ذلك تقدم أحد المسلمين واسمه «أبو سنان» وقال له:

يامحمد، أبايعك على ما تأمرنا به، وأقسم بأن أنفذ أوامرك.

وأمسك بيده وبايعه، وتبعه المسلمون جميعاً الواحد تلو الآخر. وتعرف هذه البيعة بـ «بيعة الرضوان»: ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما فى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾[1].

ولقد تخوف المشركون، ولاسيما قريش من بيعة الرضوان، التى بموجبها يتعهدون بتنفيذ ما يأمرهم رسول الله (ﷺ)، وإن كان مخالفاً لمعتقداتهم. فلقد تصوروا أن الرسول (ﷺ) أخذ هذه البيعة لأنه سيهاجمهم، وسيقتل من يقاوم ويأسر من يستسلم. ولقد كانت قريش على يقين من براعة محمد (ﷺ) العسكرية بعد أن لمسوا منه ذلك فى المعارك السابقة، كما أيقنوا بأن المسلمين يتحلون بيقظة تامة، ووثقوا بأن محمداً (ﷺ) إن صمم على احتلال مكة فعل. ولهذا أطلقوا سراح عثمان فوراً، وأعادوه إلى الحديبية، وحملوه رسالة إلى النبى (ﷺ)، وهى أنهم مستعدون للمباحثة معه وسيرسلون وفداً لذلك. وبالإضافة إلى هذا فإن أشراف مكة أمروا عكرمة بن أبى جهل الذى يحيط بالمنطقة الجبلية قرب الحديبية بعدم التعرض للمسلمين وعدم مضايقتهم[2].

ويتضح من خلال هذه المرحلة من مراحل التفاوض بين المسلمين والمشركين أن دبلوماسية المسلمين حققت خطوة كبيرة نحو الدخول إلى مكة وتثبيت دعائم الإسلام فيها.

فلو أن محمداً (ﷺ) قبل برأى عمر، واتجه نحو مكة مباشرة لسفكت الدماء حتماً، ولكان هو السبب فى خرق المنطقة الحرام فى الشهر الحرام، لكنه استطاع من غير أن يفقد قطرة دم واحدة أن يجعل المطلوبين طالبين، إذ قرروا إرسال وفد للتباحث معه. فكما أن محمداً (ﷺ) لم يكن فى معركة أحد خاسراً من وجهة نظر عسكرية، فهو فى الحديبية أيضاً لم يكن

١- سورة الفتح (١٨).

٢- د. يحيى إسماعيل، منهج السنة فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم (المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)، ٢ ١٦٥ - ١٧١.

خاسراً من وجهة نظر سياسية. ولقد تمكن محمد ﷺ بسياسته هذه من أن يجبر خصومه فى الحديبية على الانقياد لآرائه. فى حين أن قريشاً لم ترد من هذه المحادثة والمفاوضة إلا تفحص وضع المسلمين، وهل هم مسلحون فعلاً؟ وإن كانوا مسلحين فإلى أى حد هم مطيعون للنبى (ﷺ)؟. وكان عروة بن مسعود الثقفى أول من عين فى هذا الوفد، كان يعيش فى الطائف، ومن أشرافها، ثم رحل عنها ليقيم فى مكة، وذهب إلى محمد وجالسه تحت الشجرة. فسأله: لم أتيت إلى مكة يامحمد؟

أجابه محمد (ﷺ): لم نأت لحرب، إنما جئنا زائرين لهذا البيت. ثم أردف محمد (ﷺ): وها هى ذى الهدى المعدة للذبح.

وذهب عروة يتفحص الهدى مع بعض المسلمين. ثم عاد عروة إلى مكة وقال لأشراف قريش: يامعشر قريش، إنى قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه. وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه.

وبعد عروة خرج من مكة رجل من قبيلة كنانة، ووصل إلى الحديبية، ليرى محمداً والمسلمين، ويتأكد بنفسه من أسباب قدومهم. فأطلع المسلمون محمداً (ﷺ) أن شخصاً من بنى كنانة يطوف بهم، فأخبرهم النبى أنه من قبيلة تكبر مسألة القرابين، فقربوها ليراها. فقدم المسلمون الهدى. فدنا الكنانى من الجمال وتفحصها، ثم عاد إلى قريش وقال لرجالها: لقد رأيت الهدى بأم عينى، وكان المسلمون محرمين يتقدمون، وهم يدعون «لبيك اللهم لبيك»، ولا أشك أنهم يريدون الزيارة، فلا تقفوا فى طريقهم.

وتشاور سادة قريش يومين، حتى عاد الذين ذهبوا ليتفحصوا وضع المسلمين تباعاً إلى دار الندوة، يعرضون على الأشراف ما شاهدوه. كانوا يقولون إن المسلمين يؤدون احتراماً خارقاً للعادة لمحمد (ﷺ). فلو طلب كوباً من الماء لابتدر عشرة منهم لأمره. ومن لم يفز بتقديم الماء شعر بالحرمان وسوء الحظ. وأن من غرائب أوضاعهم فى حياتهم أنهم يقفون مصطفين متراصين عدة مرات فى اليوم، متجهين نحو الكعبة، وشكلهم يبعث على الحيرة والاحترام.

وبعد أن استمعت قريش إلى هذه الأخبار تخوفت أكثر وأصابها الذعر. فأعملت فكرها يومين كاملين، ثم رأت أن ترسل ممثلها سهيل بن عمرو على رأس وفد إلى الحديبية ليتباحث

مع محمد (ﷺ) على الصلح وعلى عدم الحرب. ويروى أن محمداً (ﷺ) حينما رأى سهيلا يدنو منه قال لمن حوله: سهل أمرنا، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل[1].

وبعد أن تشاور الوفد مع محمد (ﷺ) عينوا يوماً يعقدون فيه الهدنة. ثم دعا محمد (ﷺ) علياً صهره، وقال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: لا أعرف «الرحمن الرحيم»، ولكن اكتب «باسمك اللهم»، لأن عهودنا كلها نبدأ بها هكذا.

فسأل علي رسول الله (ﷺ): ماذا أعمل يارسول الله (ﷺ)؟

أجاب محمد (ﷺ): اكتب باسمك اللهم. فكتب علي ما أملاه عليه النبي (ﷺ). ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.

فقال سهيل: لا تكتب هذا، لأننا لو شهدنا أنك رسول الله (ﷺ) لما قاتلناك ولسمحنا لك بالدخول إلى مكة، عليك أن تكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله (ﷺ): اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

وافق محمد (ﷺ) على رأى سهيل حتى لا يضايقه. وبعد هاتين الملاحظتين لم يعترض سهيل على ما جاء في العهد مطلقاً، لأنهما كانا متفقين على الأسس الأولى. وأملى محمد (ﷺ) علياً ما يلي:

– اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض. على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بينهما عيبة مكفوفة[2] وأنه لا إسلال ولا إغلال[3]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه.

١– محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٩٧ – ٢٩٩.

٢– عيبة مكفوفة: صدور منطوية على ما فيها.

٣– الإسلال: السرقة خفية. الإغلال. الخيانة.

وقالوا: ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب، السيوف فى القرب، لا تدخلها بغيرها[1].

ولقد دوِّن هذا العقد فى السنة السابعة للهجرة. ولم يدرك المسلمون المغزى الناجم عنه، لذلك أعربوا عن استيائهم، فهم قد أحرموا وأعدُّوا الجمال (الهدى) للذبح ليدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت. وكما قلنا إن عدداً منهم مكيون يأملون بالعودة إلى أوطانهم ليطمئنوا على بلدتهم. وقد ضايقهم البند الذى يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بزيارة الكعبة ويحرم المسلمين منه، ولهذا أحسوا بالصدمة فى هذا العقد. ثم إن المسلمين الآخرين شعروا بالإهانة بسبب هذا المنع. لكنهم يحترمون النبى (ﷺ) لذا لم ينبسوا ببنت شفة. إلا عمر بن الخطاب، فقد أعلن عن سخطه، وهو المعروف بصراحته ووضوحه، وبعدم تمكنه من كتم غيظه وحبس إحساساته، فقد ذهب إلى محمد (ﷺ) وقال:

- يامحمد (ﷺ)، ألم تقل إننا سوف نذهب إلى مكة ونطوف بالبيت؟

أجاب محمد (ﷺ): بلى ياعمر قد قلت هذا، ولكننى لم أقل إننا سنذهب هذا العام.

فقال عمر: فمتى إذا؟

أجاب محمد (ﷺ): فى العام القادم نزور مكة ونطوف بالكعبة.

وبالإضافة إلى عدم رضا المسلمين، فقد حصلت حادثة زادت من ضيقهم. فبعد أن سجل سهيل بن عمرو هذا العهد، كان له ابن يدعى أبا جندل بن سهيل بن عمرو، وهو مسلم من غير علم أبيه، وقد هرب بعد يومين من الاتفاق على الهدنة وقدم إلى الحديبية، وقال لهم: أنا مسلم، وأنتم إخوتى فى الدين، فاحمونى.

وتبع سهيل ابنه أبا جندل على الفور، وقال لمحمد: لقد اتفقنا يامحمد (ﷺ) على رد كل قرشى يحتمى بالمسلمين من غير موافقة وليه، فرد لى ابنى.

ولم يستطع محمد (ﷺ) أن يحول دون أبى جندل، لأنه سجل برضائه العقد لمدة عشر سنوات، وقبل أن يعود أبو جندل إلى أبيه قال: سيقتلنى أبى يامحمد.

١- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

فأجاب محمد (ﷺ): يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا، عهد الله. وإنا لا نغدر بهم.

وهكذا لم يقتل أبو جندل بل ظل حياً. لكن هذه الحادثة زادت من غضب المسلمين. فهم لو لم يعقدوا «بيعة الرضوان» على الطاعة الكاملة لثاروا، لكن العهد الذى قطعوه منعهم من ذلك وأوقفهم عند حدهم. لأن المسلمين لم يكونوا محنكين بالسياسة حنكة نبيهم (ﷺ)، لهذا لم يقدروا مدى المنفعة التى سيجنونها من هذا العهد فى عدم إثارة الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات. فمحمد أنقذ مدينته من حصارها الاقتصادى، بل غدت قوافلهم تمر بمكة بكل حرية. كما أن العهد يضمن لهم الحياة الحرة، والاتحاد مع من شاؤوا طيلة هذه المدة. كما ارتاحوا من أكبر خصم لهم، وهم سكان مكة. لم يدرك المسلمون كل هذه المكتسبات، لأنهم تضايقوا من عدم دخولهم مكة، ومن رد أبى جندل إلى أبيه. واعتبروا هذين الأمرين خسارتين كبيرتين. والحقيقة أنهم تألموا لأبى جندل أكثر من تألمهم لأنفسهم، لأنهم عرب. ومن احتمى بأحد استقبله ودافع عنه، فكيف بمسلم يلجأ إلى إخوانه المسلمين؟ لكنهم لم يدركوا أن رده من قرارات العهد، وأن الفتى قدم بعد التوقيع، لذلك فإن رده لم يكن إهانة مطلقاً.

حين رأى محمد (ﷺ) المسلمين مهمومين كثيراً جمعهم وأخبرهم أن هذه الهدنة إن هى إلاّ فتح مبين، وقد أنزل الله آياته فى هذا النصر: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾[1].

وقال أحد المسلمين قبل أن يبين محمد (ﷺ) رأيه للمسلمين عن هذا العهد: نحن لم نزر الكعبة وأرى أننا لن نزورها.

فقال له رسول الله إن زيارة الكعبة مقبولة من هذا المكان، بل كأن المرء طاف حول البيت، وأعلن (ﷺ) أنه سيزور من هنا، ويذبح الهدى ويحلق شعره ويفك إحرامه وأمرهم بأن يعملوا مثله.

وسأله مسلم آخر: وكيف توضح لنا تسليم أبى جندل إلى المشركين، بل كيف وافقتهم على رد من يأتينا مسلماً فى حين أننا لا نستطيع استرجاع الهاربين من عندنا؟

---

(١) سورة الفتح: ١.

أجابه محمد بأن إعادة أبى جندل إلى المشركين جرى طبقا للعهد، فليس إهانة موجهة إلينا وسيحفظ الله أبا جندل. وعلى فرض أنه قتل فإنه يموت شهيداً مصيره الجنة. أما المسلم المرتد إلى الشرك فإننا لا نريده لأنه كافر وخائن ومرتد ولا نقبله بيننا أبداً، وهذا الفتح المبين سيجعل المسلمين فى مأمن من سكان مكة طيلة عشر سنوات، يقوى فيها المسلمون ويتحدون مع من يريدون ويحلون عقدة الحصار الاقتصادى الذى لن يتكرر ثانية.

وسأله أحد المسلمين: ولم كتبت يارسول الله (ﷺ) أن هذا العهد بين محمد بن عبد الله... ولم تكتب «رسول الله».

أجاب: صحيح أننى كتبت «ابن عبد الله»، ولكننى لم أكتب أننى لست رسول الله، وعلى هذا فلم ينقص المسلمين شئ، ولم أذكر «رسول الله» لأن المشركين رفضوا ذلك، ودل طلبهم هذا على أنهم أطفال، ولم أرد أن أرفض لهم هذا الطلب، وهدفنا هو إنهاء حالة الحرب مع قريش، وقد نجحنا.

وفيما كان المسلمون متجهين نحو الشمال بائسين هرب مسلم آخر من مكة اسمه «أبو بصير»، يريد الالتجاء إليهم، لكن محمداً (ﷺ) لم يجبه إلى طلبه، فقد فكر أن لجوءه ربما كان خدعة من أهل قريش، ليروا مدى تجاوبه. ولكن محمداً (ﷺ) بعد أن تحقق من الأمر اتضح له صحة لجوئه وإسلامه. فقد قاسى أبو بصير الكثير فى مكة، ولما أحس بأنهم ينوون قتله هرب. وبعد قدوم أبى بصير قدم اثنان من قريش يطالبان به. فقال عمر: يارسول الله، يجب ألا تسلمهم الرجل هذه المرة، فقد لجأ إلينا، ولو كلفنا أرواحنا.

لكن محمداً أصر على تنفيذ العهد، فأمسك الرجلان بأبى بصير على مرأى من المسلمين وربطاه إلى الجمل وسارا به نحو مكة. لكن أبا بصير قوى وشجاع، فاستطاع وهم فى الطريق أن يقطع الحبل ويهرب بعد أن يقتل أحد الحارسين. وعاد ثانية إلى المسلمين ورجاهم أن يقبلوا حمايته فهذه المرة لم يهرب وحسب، بل قتل أحد أبناء قريش. فأمر محمد (ﷺ) بإيقافه، ريثما يأتى أهل مكة فى طلبه، ووصل فى اليوم الثانى الحارس الآخر مطالباً به، فسلمه إياه محمد (ﷺ) مقيداً. وقبل أن يفارق معسكر المسلمين تمكن من الهرب ثانية.

عندما جاء أبو بصير إلى المسلمين قال له النبى (ﷺ): يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك.

أدرك أبو بصير أنه إن عاد إلى مكة قتلوه، ولهذا هرب إلى قلب الصحراء يعيش وحيداً.

واستقر أبو بصير فى منطقة اسمها «ذو المروة»، فتبعه أبو جندل وأقام معه. وبعد ذلك فر مسلم آخر اسمه عتبة بن أسيد، وتبعهما.. وهكذا شيئا فشيئا تزايد عدد المسلمين فى ذى المروة، وهم الذين يهربون من مكة، ليؤسسوا أمة جديدة. إنهم فى عملهم هذا لم ينقضوا عهد المسلمين مع المشركين فى الحديبية، لأن «ذا المروة» لم تكن تابعة للمدينة ولا يسيطر عليهم محمد (ﷺ).

ولم يمض حين حتى ازداد عددهم، واستطاعوا أن يؤلفوا جيشاً. فأخذوا يغيرون على قوافل مكة. فتضايقت جماعة قريش كثيراً منهم، فاضطرت إلى مراسلة النبى (ﷺ) تسأله بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم. فطالبهم رسول الله (ﷺ) بكتاب خطى كى يكون سنداً له وعهداً. وبهذا نقض هذا الشرط من كتاب العهد. وما فتئت الشروط التى لم تكن لصالح المسلمين يزول مفعولها شيئاً فشيئاً، لتعم الفائدة على المسلمين. وما هى إلا مدة وجيزة حتى غدا صلح الحديبية كله فى صالح المسلمين[1].

وقال الله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون، فعلم ما لم تعلموا﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فجعل من دون ذلك فتحا قريباً﴾.

المسلمون واليهود.. فى التجارب التاريخية السابقة
لتعلون علوا كبيرا.. ثم لتردون ثم تذهب ريحكم

بعد أن حجّم الرسول (ﷺ) العداء المستحكم بين مكة والمدينة بالتوقيع على اتفاقية الحديبية، استمر اليهود فى خيبر على عدائهم ومنعهم لقوافل المدينة من أن تذهب شمالاً، ظناً منهم أنهم وحدهم يتمكنون من التصدى للمسلمين، عند ذلك رأى الرسول (ﷺ) أن يفك الحصار شمالاً مع خيبر كما فكه جنوباً مع مكة، إلا أن اليهود لم يبدوا أى رغبة فى المصالحة معه. وخيبر بالعربية معناها «القلعة» وتقع إلى الشمال بين مكة والمدينة، وهى مدينة عربية قديمة.

١ – د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٥١٤ – ٥٢٠.

وحينما علم اليهود فى خيبر أن المسلمين عقدوا هدنة مع أهل مكة، ظنوا أن المسلمين سوف يغيرون عليهم انتقاما من موقفهم الحليف لقريش. لذلك أعد اليهود أنفسهم للمعركة المحتملة مع المسلمين. وحينما علم المسلمون أن يهود خيبر جهزوا جيشاً جرارا لمواجهة المسلمين، أمر الرسول (ﷺ) بإعداد جيش قوامه ألف وخمسمائة محارب لمواجهة يهود خيبر.

وحين وصل المسلمون إلى خيبر كان محمد (ﷺ) قائد المعركة، فقال لهم إننا لا نملك وسائل لهدم هذه القلاع وسلاحنا عبارة عن سيف ورمح وقوس وهذه الأسلحة لا تهد الصخور المبنية، لكننا نستطيع إجبار اليهود على التسليم إذا حاصرناهم وسددنا مسارب المياه الداخلة فى القلاع.

ومنذ وصول المسلمين إلى القلاع بدأ اليهود يرمونهم بالمنجنيق وينحتون الصخور بشكل كروى ويقذفون بها المسلمين[1].

وأثناء المعركة، شعر الرسول ﷺ بشئ من الحمى، فأمر على بن أبى طالب أن يقود الجيش. ولكن على هو الآخر كان يعانى من رمد يلوك عينيه.

ومع ذلك فقد قبل القيادة وهاجم قلعة «نطاة». وقبل أن يغزوها نهض قائدها اليهودى فوق السور ونادى بأعلى صوته: من قائدكم؟!

فأجابه على: أنا قائد المسلمين، واسمى على بن أبى طالب.

فقال له اليهودى: أنا «مرحب» ياعلى، وإحدى هذه القلاع تدعى باسمى. أترى فى نفسك جرأة لتبارزنى؟

فأجابه على: أنا لم أرفض مبارزة دعيت إليها يوماً، ولن أرد دعوتك هذه.

فقال مرحب: فأنا نازل إليك. ففتح باب القلعة وخرج منه مرحب ثم أغلق دونه. ومع أن عينى على مريضتان ولم يكن على جسمه درع، فإنه بارز هذا المدجج بالحديد وقتله، وبعد ذلك أمر على أن يحطموا باب القلعة بشجر «العشر». وهو عبارة عن جذع شجرة يحمله ثلاثون مقاتلاً أو أربعون ويركضون به نحو الباب حتى يحطموه بشدة. وبينما كانوا يضربون الباب بالعشر، كانت فئة أخرى تصعد إلى سطح السور بالسلالم. فقد استفادوا من الأبراج الخشبية، ليصلوا بواسطتها إلى طرف السور وليصعدوا بعدئذ بالسلالم. وبعد يومين سقطت قلعة نطاة، إذ

١- د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٤٥٢ - ٤٥٤.

كسروا باب القلعة ودخلوها، وأسروا من فيها، وهكذا سقطت أول قلعة من قلاع خيبر على يد علي بن أبي طالب. فاتجه نحو القلعة الثانية واسمها «ناعم». ولم تمض عشرة أيام إلا وعلي قد ذلل أربع قلاع ثم تبعها بالأخريات.

وحين سقطت آخر قلعة من قلاع خيبر كان محمد (ﷺ) قد أبل من مرضه، فبلغه ما أحرزه علي من انتصار باهر، فقبّله بحضور المسلمين ودعاه «أسد الله» وغدا لقباً له.

وقد أحسن محمد (ﷺ) معاملة اليهود. إذ سمح لمن يريد منهم بالرحيل، وحمل ما يريدون، عدا التمر والغنم والغلال. أما من لم يرد الرحيل فليبق، وله الحرية في العمل الذي يريد. كما أن علياً منع الجنود المسلمين من دخول بساتين اليهود، والعبث بحقول النخيل حتى لا يؤذوا فواكههم أو أشجارهم. وكي يوطد محمد (ﷺ) العلاقة بين المسلمين واليهود عقد قرانه على «صفية» إحدى نسائهم[1].

ثم أعاد المسلمون إلى اليهود معابدهم كما أعادوا إليهم كل ما وقع في أيدي المسلمين من أوراق ومن كتب مقدسة، وآلت الأمور إلى ما كانت عليه من سلام ووئام. عندئذ رغبت زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم في تقديم طعام للنبي تعبيرا عن الوئام والسلام بين المسلمين وطائفتها اليهودية فسألت:

– سأرسل للنبي طعاماً، فأي عضو من الشاة أحب إليه؟

فقيل لها: الذراع، فَشَوَتْ له خروفاً، وأكثرت السم في الذراعين، ثم أرسلته إلى رسول الله (ﷺ). وكان عنده بشر بن البراء بن معرور. فتناول رسول الله (ﷺ) الذراع الأولى وقدمها إلى بشر، ثم تناول الذراع الأخرى، فلاك منه مضغة فلم يسغها، فأما بشر فاستساغها. وقال النبي (ﷺ) فجأة: لا تذق هذا اللحم، فهو مسموم.

لكن بشراً أكل منه واستساغه، ففارق الحياة. وسيقت زينب إلى النبي (ﷺ) فسألها إذا كانت قد وضعت سماً في اللحم، فاعترفت المرأة اليهودية بذلك. فسألها النبي (ﷺ): ما حملك على ذلك؟

فأجابت: وضعت السم وقلت إن كان نبياً فسيخبر، وإن كان ملكا استرحت منه.

---

١ – محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٣١٣ – ٣١٤.

نهايـــة إسرائيـــــل

فى ضوء هذه الدراسة الموجزة بين العرب المسلمين واليهود، ماذا نستطيع أن نقول عن مصير دولة إسرائيل فى عصرنا الحديث؟! لقد بدأت مفاوضات السلام بين العرب المسلمين وإسرائيل فى مدريد عام ١٤١١هـ = ١٩٩١م، ويؤمل أن تنتهى المفاوضات باتفاقيات سلام وبإرساء قواعد للتطبيع بين العرب والإسرائيليين فى جميع مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية.

والواقع أن كلام الشارع العربى يختلف عن كلام الشارع الإسرائيلى، فبينما يقول بعض الإسرائيليين إن العرب سوف يقتحمون إسرائيل وأن الإسرائيليين سوف يذوبون فى الكثافة العربية، يرى بعض العرب أن الذكاء الإسرائيلى سوف يهيمن على الاقتصاد العربى ومؤسسات الأموال العربية كما حدث بالنسبة للاقتصاد الأمريكى الذى يديره النفوذ الصهيونى فى أمريكا.

والواقع أن هذا الكلام فيه الكثير من القول الجزاف، ومسألة «الالتهام» المتبادل بين العرب وإسرائيل هى من أهم المسائل المطروحة اليوم فى مراكز البحوث والإستراتيجيات الغربية.

ونحن فى هذا الكتاب نناقش المسألة من خلال مجموعة من النقاط الهامة التى قررت فى التاريخ القديم والحديث مصائر الشعوب والدويلات، وهى هذه تقرر مصير إسرائيل فى عالم الغد.

فى البداية يجب أن نشير إلى أن قوانين التاريخ لا تقول وحدها بأن الدولة الصهيونية سوف تغيب عن الوجود، بل هناك العديد من القوانين الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية والدينية تؤكد على أن إسرائيل دولة غريبة تحوطها أمة عربية من المحيط إلى الخليج، وتتمتع هذه الأمة العربية بحضارتها وتراثها وتاريخها الراسخ والكفيل بإبعاد أى جسم غريب ينحشر فى الأرض العربية، تماما كما طردت الكثير من الأمم - عبر التاريخ القديم والحديث- كل الدخلاء فى أراضيهم الأصيلة.

أى أنه حتى بعد توقيع الاتفاقيات فإن قوانين زوال إسرائيل من المنطقة هى قوانين قائمة وقابلة للتحقيق.

والواقع أن «المتغيرات» التى طرأت على المنطقة فى الوقت الراهن تلمح إلى أن مرحلة بقاء إسرائيل فى فلسطين توشك أن تبدأ نهايتها، وأنه ليس أمام إسرائيل إلا أن تتجه بقوة نحو توقيع اتفاقيات السلام الشامل والعادل والدائم.

ويجب أن نلاحظ أن الغرب الذى أوجد إسرائيل هو الأحرص على بقاء إسرائيل وهو بالتالى الأحرص على أن يصل الطرف العربى والطرف الإسرائيلى إلى سلام شامل ودائم.

ولاشك أن هذه المفاوضات التى يتبناها الغرب بقوة فى هذه الأيام هى بالضرورة خلاصة لدراسات علمية غربية عميقة تؤكد أن الوقت يسير فى غير صالح إسرائيل وأن بقاء إسرائيل مرهون بالتوقيع على اتفاقيات تحقيق السلام الدائم.

لنأخذ بإلماحة عاجلة «المتغيرات» التى طرأت على المنطقة مؤخراً والتى تشكل تكريسا يتنامى فى هذه الأيام ويؤكد على احتمالات تعرض الدولة الصهيونية للاضمحلال:

** من الناحية الاقتصادية مثلا، فإن إسرائيل لا يمكن أن تعيش دون معونات وهبات من الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الأخرى حيث إن اقتصادها هو اقتصاد اعتمادى هش لا يستطيع بأى حال من الأحوال أن يتحمل مسئوليات توفير المال وتكريره ثم ضخه فى جميع أوصال وشرايين مؤسسات الاقتصاد القومى، الإسرائيلى، أكثر من هذا فإن الدخل القومى الإسرائيلى لا يغطى أكثر من ٢٥ ٪ من الإنفاق القومى وأن القطاع الخاص يرتبط عضوياً بمؤسسات المال الغربية. ولذلك إذا كان واقع الاقتصاد الإسرائيلى يلهث بهذا الشكل، كما أن اقتصاديات الدول الغربية والولايات المتحدة على وجه التحديد تتعرض لأزمة مازالت تتفاقم، فإننا يجب أن ندرك أن الغرب لا يستطيع فى المستقبل الوفاء بالتزاماته الاقتصادية نحو إسرائيل. بمعنى أن العامل الاقتصادى قد يؤدى إلى انحلال إسرائيل وزوالها تماما كما حدث فى الاتحاد السوفييتى أو كما سيحدث فى جنوب أفريقيا التى بدأت تتعرض لهزات ستعيد البلاد إلى أصحابها الشرعيين[(١)].

** ومن الكتب التى أثارت جدلاً واسعاً فى جميع الأوساط السياسية والإستراتيجية ومازال هذا الجدل قائما كتاب بول كنيدى صعود وسقوط القوى العظمى The Rise and the Fall of Great Powers، حيث توصل المؤلف إلى نتائج تاريخية مقارنة تؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية فى طريقها إلى الانحسار لأنها تعيش فى هذه الأيام نفس الظروف التى عاشتها أسبانيا فى القرن السادس عشر والإمبراطورية العثمانية وفرنسا فى القرن الثامن عشر وبريطانيا فى عهد الملكة فكتوريا حينما بدأت تتراجع وتفقد أرجاءها التى كانت الشمس لا تغرب عنها. فبينما كانت أمريكا تنتج نصف الإنتاج العالمى فى الخمسينيات لم تتعد مساهمتها

---

١ – د. أمين ساعاتى، الأمن القومى العربى، صيغة مناسبة للدخول فى القرن الواحد والعشرين (م الجديدة، المركز السعودى للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٣)، ص ٧٣.

فى الإنتاج العالمى ٢٠٪ وفقا لإحصائيات عام ١٩٨٦، كما أن معدل نموها الاقتصادى تراجع من ٣,٧٪ إلى ٢,٢٪ فى عام ١٩٨٦. يضاف إلى هذا أن الولايات المتحدة التى كانت أكبر دولة دائنة فى العالم أصبحت أكبر دولة مدينة. وعن احتمالات سقوط أمريكا، فقد تجاوزت الأرقام فى عام ١٩٩٣ هذه الأرقام التى استخدمها بول كندى فى دراسته وهو ما سوف نفصله فى الباب الثالث.

ويتناول بول كنيدى بالتحليل الإمبراطوريات التى ظهرت فوق كوكب الأرض منذ عام ١٥٠٠م حتى نهاية القرن العشرين، ويخلص إلى أن التدهور الاقتصادى كان مقدمة – فى كل الإمبراطوريات محل الدراسة – للتدهور العسكرى ثم بدأ انحسار هذه الإمبراطوريات. وإذا وضعنا طروحات بول كندى على محك التجربة فى ظل انهيار الاتحاد السوفيتى نجد أن أطروحته صحيحة، فالاتحاد السوفيتى كان قويا عسكريا ولكن حينما انهار الاقتصاد انهارت الدولة بكل مؤسساتها.

ويضيف بول كنيدى أن الولايات المتحدة قد ربطت سلسلة من العلاقات والتحالفات، ففى بداية السبعينيات كان لها أكثر من مليون جندى فى حوالى ثلاثين دولة وكانت عضوا فى أربعة أحلاف دفاعية ومشاركة نشطة فى حلف خامس ووقعت اتفاقيات دفاع مع ٤٢ دولة وهى تقدم مساعدات اقتصادية وعسكرية لأكثر من مائة دولة ومنتمية إلى ٥٣ منظمة دولية. والآن تكاد تفقد كل تلك الالتزامات. وتعانى الولايات المتحدة، مثل بريطانيا فى عهد الملكة فكتوريا، من المبالغة فى التوسع الإمبريالى ولم تعد تملك اليوم الإمكانيات للاستمرار فى هذا التوسع[(١)].

ولقد أكد بول كنيدى ما توصل إليه من استنتاجات حول انهيار الولايات المتحدة فى كتاب جديد أصدره فى عام ١٩٩٢ تحت عنوان «اضطرابات وكوارث».

وفى ضوء ذلك يمكن للباحث أن يستنتج أن سقوط الولايات المتحدة سيتبعه بالضرورة سقوط إسرائيل التى تستظل بظلها الظليل.

وأكثر من هذا فإن الحضارة الغربية التى تمثل أمريكا فحواها الرئيسى فى الوقت الراهن، مهددة بالانحسار وفقا للمعايير التى وضعها ابن خلدون فى نظريته التى تناول فيها نشوء الدولة

١ – Paul Kennedy, The Rise And the Fall of the Great Powers (N.Y.,1987) p.p. XV-XXV.

وانحسارها، ثم صادق على نظرية ابن خلدون مجموعة من المؤرخين والفلاسفة الغربيين مثل أرنولد توينبى فى نظرية التحدى والاستجابة، واسوالد شبنغلر الذى أصدر دراسة فى مجلدين أسماها سقوط الغرب The Decline of thd West.[(1)]

** أما من الناحية العسكرية فإن الغرب- طوال العقود الأربعة الماضية - ضمن لإسرائيل أن تكون الدولة الأقوى عسكرياً فى المنطقة وضمن لها امتلاك القنابل الذرية والأسلحة النووية المدمرة...

ولكن فى هذا الزمن الذى نعيشه الآن ثبت للغرب أن السيطرة على أسلحة الدمار الشامل لم تعد فى يدها، فقد امتلكت بعض الدول العربية الكثير من أسلحة الدمار الشامل كالأسلحة البيولوجية والكيمياوية والعنقودية التى لا تقل فتكاً بأى حال عن الأسلحة النووية والقنابل الذرية، بل إن الدول العربية قد تتوصل قريبا إلى صنع قنابل ذرية مثلها مثل إسرائيل.

بمعنى أن إسرائيل لن تكون إلى الأبد هى الدولة الأقوى عسكريا فى المنطقة، ولقد أشار إسحاق رابين إلى ذلك فى أحاديثه الأخيرة، وأكد بأن المخاطر التى تحيق بإسرائيل بدأت تتزايد مع احتمال دخول الأسلحة النووية إلى المنطقة والتى وصفها بأنها مميتة، وأكد بأن إنهاء الصراع العربى الإسرائيلى بسرعة هو العامل الأهم لرد المخاطر.

ولنا أن نتصور أن العرب امتلكوا هذا السلاح أو ذاك مع الزيادة المتوقعة فى عدد السكان والتى تصل فى عام ٢٠٠٠م إلى مائتين وأربعين مليون نسمة مقابل ٩ ملايين إسرائيلى، ماذا تتوقع إسرائيل من العرب، وماذا يتوقع محبو إسرائيل لإسرائيل؟! إن اجتياحاً سكانيا عربيا لإسرائيل يكفى لتهديد الوجود الإسرائيلى برمته.. بل لو قامت أسراب من العرب بالهجرة المستمرة إلى إسرائيل والإقامة الدائمة فيها- وفقا لسياسة التطبيع التى تركض إسرائيل خلفها- فإن العرب سيصبحون أغلبية فى الكنيست، وإذا أصبح العرب أغلبية فإن دولة إسرائيل سوف تصبح «دولة إسرائيل العربية» وسوف تعود- عبر الديمقراطية الغربية- إلى أهلها العرب الشرعيين.. أى تعود فلسطين كما كانت قبل عام ١٩٤٨ بأغلبية فلسطينية وأقلية يهودية.

** أما من الناحية الاجتماعية والثقافية، فإن الدولة العبرية تتكون من كم كبير من الزمر العرقية، كما تتكون من عدد متضارب من العادات والتقاليد والعقائد التى أخذت تضرم

١- صدرت دراسة اسوالد شبنغلر فى عدة ترجمات منها ترجمة إلى الانجليزية، أصدرتها دار AL Fred A. Knopf فى نيويورك فى عام ١٩٦٢، وبالعربية صدرت فى مجلدين عن مكتبة دار الحياة ببيروت فى عام ١٩٨٢ وترجمها أحمد الشيبانى.

نارها الآن من أجل أن تستمر فى حرب أهلية مدمرة عقب التوصل إلى اتفاقيات سلام. فحالما تنتهى الحرب العربية الإسرائيلية فسوف تبدأ الحرب الأهلية الإسرائيلية التى سوف تساعد على تحقيق قوانين التاريخ والاقتصاد والتراث والحضارة.. القوانين التى تراهن على حتمية زوال دولة إسرائيل.

** وقبل كل هذه العوامل التى تشير إلى احتمال زوال إسرائيل فإن ديننا الإسلامى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول بأن قوم إسرائيل سوف يعلون علواً كبيراً ثم يهبطون إلى زوال، وكل شئ سيحارب الإسرائيليين حتى الحجارة سوف تنطق وتفضح الإسرائيلى أينما توارى وحل[1].

والخلاصة أن التوصل إلى مبادئ للسلام العادل هو مطلب عربى قبل أن يكون مطلبا إسرائيليا، ولكن توقيع هذه الاتفاقيات لا يعلن الإلغاء الكامل لقوانين التاريخ والحضارة والاجتماع والوعد الحق... بل يعنى تكريس هذه القوانين من أجل النفاذ إلى تحقيق الوعد الحق وإعلاء شأن الحقوق العربية كاملة على الأرض الفلسطينية.

سيـــف الله

فى الطريق إلى منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية

تنفيذا لاتفاق السلام فى الحديبية الذى وقعه المسلمون والمشركون فى عام ٦ هـ = ٦٢٨ والذى ينص على السماح للمسلمين بزيارة مكة والحج فى العام التالى، قام فى عام ٧ هـ = ٦٢٩م أكثر من ألفين من المسلمين بزيارة مكة، ولقد احتاط الرسول ﷺ قبل دخول مكة من مكائد المشركين، فجهز مائة فارس تحت إمرة محمد بن مسلمة، وأوقفه فى منخفض فى منطقة «مر الظهران» الواقع قرب مكة وإلى جوار ذلك المنخفض جبل.. يمكن لمحمد وفرسانه أن يرقبوا مكة من عل. وأمر النبى (ﷺ) قائد الفرسان أن يحملوا على المشركين إن هاجموهم.

وعجب المشركون من نظام المسلمين فى أثناء دخولهم مكة، واستغراقهم فى عبادتهم، وهم يرونهم من مواقعهم العالية. وعندما كان بلال الحبشى يؤذن «الله أكبر... الله أكبر.. لا إله

---

(١) د. أمين ساعاتى، الأمن القومى العربى «صيغة عربية مناسبة للدخول فى القرن الواحد والعشرين» الطبعة الثانية (م الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م)، ص ٦٣ - ٦٧.

إلا الله....» كان المشركون من أعالى الجبال يراقبونهم، وكانوا يتوقعون أن تغضب أوثانهم.. فتتهدم السماء على رؤوسهم، لكن شيئاً لم يحصل للمسلمين. وللمرة الأولى يعلو اسم «الله أكبر» في سماء مكة. وحينما كان المسلمون يطوفون حول الكعبة كانوا يذرفون دموعهم من أثر الخشوع لله حتى عمر كان يبكى. ويتهدج بصوت عالٍ.

وبعد أن تمت مراسم الحج، أراد محمد (ﷺ) أن يربط وشائج القربى بينه وبين جماعة قريش، فعقد قرانه على ميمونة بنت الحارث، أخت زوج العباس. فكان هذا الزواج ذا صبغة دينية وسياسية ترمى إلى تهدئة النفوس والاجتماع إلى كلمة سواء.

ولقد كان من أهداف النبى (ﷺ) فى هذا الزواج أن يجعل خالد بن الوليد قريباً له؛ فقد كان ابن أخى ميمونة، وتعتبره ميمونة بمثابة ولدها الربيب. وحين تزوجها رسول الله (ﷺ) غدا خالد أشبه بولد له. وبعد أن تم القران أراد محمد (ﷺ) أن يدعو جميع أشراف قريش إلى وليمة، يجتمع فيها القرشيون والمسلمون إلى سماط واحد.

وقد شغل محمد (ﷺ) منذ اليوم الثانى لدخوله مكة بالإعداد لهذا الاجتماع.

ولقد كان موقف المسلمين وآذانهم وإخلاصهم لدينهم، وكان تقدير خالد بن الوليد الذى قال: إن رجلا ذا عقيدة كما أرى، وله تابعون بهذا العدد وهذه الطاعة، ليس مخادعاً ولا مخاتلاً.

وفى صبيحة اليوم الثالث، استعد محمد لأن يبعث إلى سكان مكة، وهم فى الأعالى، رسلا يدعونهم إلى الوليمة التى أعدها بمناسبة زواجه. ولكن قبل أن يتجه الداعون إلى الجبال قدم وفد من قبل قريش برئاسة «ابن عبد العُزّى». و «العزّى» – كما سبق أن ذكرنا– أحد الأوثان المهمة فى الكعبة وكانوا يسمون بعضهم بها فقالوا: عبد اللات، وعبد مناة، وعبد العزى.

وحينما علم ابن عبد العزى أن الرسول ﷺ يعد حفلا كبيرا لقريش قال له إن أعيان مكة يريدونك أن تخرج من مكة. وبرؤية سياسيةعالية، هم الرسول ﷺ بالخروج من مكة.

وفيما كان يخرج اعترضه خالد بن الوليد، الذى غدا قريباً ومأخوذاً بنظام المسلمين وإيمانهم، وأسلم على يديه. وغدا فيما بعد من القواد المسلمين اللامعين، ولقبه رسول الله (ﷺ) بـ «سيف الله». وفيما كان خالد فى طريقه.. صادف رجلاً قد رافقه إلى الحبشة، هو

عمرو بن العاص، وكان يريد أن يلتحق بالمسلمين أيضاً، فقدم الاثنان معاً وأعلنا إسلامهما. ومع أن صلح الحديبية يأمر المسلمين بإعادة من يعلن إسلامه من أهل مكة، فإنهم لم يجرؤوا على طلب رجل مثل خالد لأنهم أيقنوا بقوة المسلمين.

وإثر وصول المسلمين إلى المدينة طرأ على المسلمين طارئ مهم جداً، يعتبر أكثر أهمية من إسلام هذين الرجلين.. ألا وهو قدوم أبى سفيان، القائد الأعلى لجيش مكة إلى المدينة لزيارة محمد (ﷺ). فقد جاء من غير جيش ودخل المدينة التى كان كل سكانها مسلمين، لكنه لم يتهيب لدخوله هذا، لأن معاهدة الصلح مازالت قائمة بين الطرفين. وهو يعلم أن المسلمين لن يفعلوا به شيئاً، ما دام لم يخالف معاهدة الصلح وما دام قادماً من غير جيش. ثم إنه يعلم أن محمداً الأمين لاينقض عهداً ولا يسئ معاملته، كما أن دخوله من غير جيش يعادل دخوله لائذاً، والعرب يحمون روح اللائذ بهم وماله. والذى دعا أبا سفيان إلى مجيئه ما ورد فى معاهدة الصلح التى تنص على حرية الطرفين فى الاتحاد مع من يشاؤون، والحرية فى حرب من يريدون. وعلى أحد الطرفين أن يكون حيادياً إذا شغل الطرف الآخر بإحدى الحروب.

كانت قبيلة خزاعة فى تلك الأيام متحدة مع المسلمين، وقد حمل عليها بنو بكر. والمعروف أن قريشاً كانت تحامى بنى بكر وتساندها، ومساعدة قريش لبنى بكر مخالفة لصلح الحديبية. ولكن أشراف مكة اهتموا لهذا الأمر كثيراً ولاسيما بعد سقوط خيبر.

فعندما سقطت خيبر بأيدى المسلمين امتد سلطان المسلمين على الأقسام الشمالية لجزيرة العرب فتخوف أهل مكة كثيراً. لهذا ذهب أبو سفيان إلى المدينة ليحل المشكلة المتفاقمة. وحين وصل المدينة دخل بيت «أم حبيبة» ابنته وزوج النبى، فحين رأت أباها فى منزلها جمعت فراشاً كانت قد بسطته على الأرض. فعجب أبو سفيان من عمل ابنته، فسألها: ولم جمعت الفراش يابنتى؟!

فأجابت أم حبيبة أباها: لأن محمداً (ﷺ) يجلس عليه وينام، وأنت مشرك لا يجوز لك الجلوس عليه.

ومن غير أن يجلس طلب من ابنته أن تتوسط بينه وبين زوجها محمد (ﷺ)، ليتمكن من حل مشكلة الحرب بين خزاعة وبنى بكر حلا مناسباً. فأجابته أم حبيبة:

– لا يمكننى أن أتوسط. والسبيل الوحيد لحل مشكلتك أن تذهب إليه إلى المسجد وتتذاكر معه.

فذهب أبو سفيان إلى المسجد. وحين رآه رسول الله (ﷺ) طلب إليه أن يجلس، ثم سأله عن أمره فقال: لقد قدمت يامحمد (ﷺ) لأحادثك بشأن الحرب بين خزاعة وبنى بكر.

ولما سأله التوضيح عما ينوه به قال له: لا نريد منك أن تعترض على الحرب بين القبيلتين.

وجاء فى جوابه لأبى سفيان: إنكم إن لم تساعدوا بنى بكر فلن نساعد خزاعة. ولم يستطع أبو سفيان أن يحصل على جواب مرض من محمد (ﷺ)، لذا خرج من المدينة مضطرباً واتجه نحو مكة.

وما يهم فى هذا الموضوع هو أن الرسول (ﷺ) حقق أهدافه السياسية من هذه الرحلة إذ استطاع أن يهيئ الأسباب لإسلام الفارس خالد بن الوليد الذى يعتبر منحه لقب «سيف الله» مقدمة لاستلام مهام منصب القائد العام للقوات الإسلامية المسلحة.

كما أن هذه الرحلة قد أوقعت ضعفاً فى صفوف المشركين وتفككا من القاعدة حتى القمة حيث قام زعيم أمة الشرك أبو سفيان بزيارة إلى رسول الإسلام ولكن رسول الإسلام رده على عقبه وفشل فى مهمته السياسية التى تتعارض مع بنود العهد الموقع بينهما. والمسلمون عند عهودهم صادقين ومتشبثين[1].

الخطة الإستراتيجية المحمدية لتحرير مكة

واضح أن إستراتيجية فتح مكة، اشتملت على العناصر الأساسية والخطوات التكتيكية التالية:

١ – إطالة أمد الحصار حتى تنهار القوة المعنوية لقريش، وتزداد صلابة المسلمين. حتى يخضع المشركون فى مكة لحصار محكم يفرضه عليهم المسلمون، ومنهم أبناء مكة الذين أجبرهم القمع القريشى الكافر على النزوح عن وطنهم، مكة.

٢ – أوامر الرسول الكريم المشددة بعزل أى قائد عسكرى مسلم، يبدى تعطشاً لسفك الدماء أو للفتك بالقريشيين، انتقاماً لما عملوه بالمسلمين.

---

١ – محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٣٣٠ – ٣٣٤.

ضمن هذه المبادئ، تم عزل سعد بن عبادة الأنصارى أحد القادة الذين كانوا يحاصرون أحد مداخل مكة، وتم تعيين ابنه مكانه، بسبب ما بدر منه من عزم على التنكيل بالمشركين عند بدء المعركة.

٣- الاحتواء السياسى من الرسول الكريم لوفد قريش الذى جاء يفاوض للسلم، وكان على رأس الوفد أبو سفيان بن حرب (والد معاوية مؤسس الدولة الأموية) فلم يرفضهم الرسول، كما لم ينخدع بهم.

٤- اعلان الرسول ﷺ بأن من دخل الحرم فهو آمن، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، إذ ساهم الإعلان باتاحة الفرصة لأن تطلب قريش النجاة بما يحفظ ماء الوجه. ولم يكن اعلاناً من الرسول بمساواة بيت أبى سفيان بمنزلة الحرم، بل كان الهدف حقن الدماء فقط.

٥- دخول قوات المسلمين مكة من جميع مداخلها، وفى وقت واحد، مما عجل باستسلام قريش.

كان لابد لهذه الإستراتيجية المحمدية الإسلامية، أن تجعل تكلفة تحرير مكة تتم بشهيد مسلم واحد فقط وبعشرة قتلى من كفار قريش. بل هنالك من يقول أن تحرير مكة تم بدون أى قتيل[1].

حينما تجوع القيادات.. من أجل أن يشبع الشعب

يلاحظ المراقب السياسى أن الأنظمة السياسية فى كل الدول التى سبقت الإسلام كانت تسعى إلى تركيز حياة الترف والثراء فى الطبقة الحاكمة، بينما يظل السواد الأعظم من الشعب يتضور جوعاً. ولذلك فإن الإسلام حينما جاء إلى الدنيا برؤية تقلب هذه الصورة رأساً على عقب، وتعيد تنظيم الطبقات فى المجتمعات الإنسانية على أساس أن تجوع القيادة السياسية من أجل أن يشبع الشعب.

وهكذا كانت حياة الرسول ﷺ، وهكذا كان جهاده - كما رأينا فى الفصول السابقة- من أجل بناء الدولة التى تسهر على راحة الإنسان المسلم لا النخبة الحاكمة. وهكذا مهد الرسول ﷺ للقضاء على الأنظمة السياسية المستثرية على حساب الشعوب وبناء الدولة الإسلامية العالمية.

١- عثمان عبد عثمان، السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والإستراتيجية العليا فى إدارة الصراع الدولى كما حدد مبادئها الرسول ﷺ (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٤)، ص ٩٢ - ٩٦.

الطريق إلى بناء الدولة الإسلامية العالمية

بعد أن سوى الرسول (ﷺ) مشكلة المسلمين مع قريش وأتم تصفية جيوب اليهود فى خيبر، طفق يواصل مسيرة بناء الدولة الإسلامية العالمية، وهكذا بدأت الدولة الإسلامية المتألقة تدخل مرحلة تدويل الدين الإسلامى ونشره فى كل بقاع الدنيا.

فالإسلام – كما أشرنا– أرسل إلى الكافة فى كل الأصقاع والبقاع ولم يرسل إلى العرب فحسب. فهو ليس دينا متقوقعا على أمة بعينها كالأديان التى سبقته. بل هو دين يحمل فى جعبته إمكانيات زاخرة للتوسع ويتمتع بقدرات هائلة فى إدارة الأمم وتنظيم شئونها وشجونها.

ولهذا رأى الرسول ﷺ أن يبعث الرسائل إلى ملوك الدول المجاورة، يدعوهم فيها إلى الإسلام. كانت إحدى هذه الرسائل إلى إمبراطور بيزانطة، وكسرى إيران، ونجاشى الحبشة، وملك مصر، وكان من جملة الملوك المجاورين ملك عربى هو «الحارث بن أبى شمر» ملك دولة الغساسنة، وكان يعيش تحت نفوذ إمبراطور بيزانطة.

وقد كلف الرسول (ﷺ) الحارث بن عمير بحمل رسالة ابن أبى شمر، وطلب إليه أن يسلمها ويعود بجوابها. غير أن شرحبيل بن عمرو أحد ولاة ابن أبى شمر التابعين له أسر ابن عمير وقتله. وكانت هذه الحادثة عصيبة على المسلمين. فأرسل النبى رسالة إلى الحارث بن أبى شمر يخبره فيها أن أحد حكامك ويدعى شرحبيل بن عمر قتل رجلا بريئاً، كان يحمل رسالة إليك، وقد قدم الرجل إلى بلادك وحيداً.. يدل مظهره على أنه غير معاد ولا مخاصم. ولو كان سيئ النية لجاء بجيش معه. وإن قتل حامل الرسائل أمر ترفضه كل الطوائف والأديان. وأريد أن أعلم هل أقدم تابعك على قتل رسولى من غير إذنك؟ فإن كان كذلك، نريد أن تسلمنا إياه لينال جزاءه، أما إن كان قام بهذا العمل بأمرك، فأنت حينئذ المسؤول.

وجاء جواب الحارث كما يلى:

«أنا ملك بلادى، وحر التصرف فيها. فإن حكمت على أحد بالقتل فلا أرسله إليك كما طلبت. ولقد قتل رسولك بأمر منى».

وحين رأى النبى (ﷺ) هذا الجواب القاسى صمم على مهاجمة بلاده، فأعد ثلاثة آلاف محارب. ولما كان الحارث تحت نفوذ البيزنطيين، فقد طلب العون منهم.

عندما التقى جيش المسلمين الصغير بجيش الروم العظيم رأى عدد من المسلمين أن يتناقشوا فى أمر الهجوم، وهل يحاربون أم لا؟ فمع أنهم كانوا يحاربون ضعف عددهم أو عدة أضعاف، فإنهم الآن تجاه عدو يفوقهم بأربعين أو خمسين ضعفاً، ناهيك عن العتاد والاستعداد.

وأجابهم قائد الجيش:

- نحن نحارب فى سبيل الله، فإن قتلنا ذهبنا إلى الجنة، وإن انتصرنا فمصيرنا الجنة كذلك. فلماذا نخاف من كثافة العدو؟

ورغم أن المسلمين خسروا فى موقعة «مؤتة» أكثر مما كسبوا.. إلا أن هذه المعركة كانت البداية للفتح الإسلامى المبين فى كل قارات الدنيا لتكون هذه المعركة الجسر الأول على طريق بناء الدولة الإسلامية العالمية[1].

مكة عاصمة الإسلام
والمدينة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى

كان الرسول (ﷺ) حتى بعد خروجه من مكة إلى المدينة، يرى أن مكة هى عاصمة الإسلام التى شع منها نوره، وأن المدينة هى عاصمة الدولة الإسلامية الأولى التى بدأ فيها وضع أسس قيام أول دولة إسلامية عتيدة.

ولقد أدرك أبو سفيان بعد مقابلته للرسول (ﷺ) أن المسلمين لم ينسوا مكة العاصمة وأنهم أوشكوا على اتخاذ قرار بدخولها.

وفعلا أصدر الرسول (ﷺ) بعد أن التقى أبا سفيان أمراً إلى المسلمين أن يستعدوا للحرب، ولكنه لم يعين وجهة المعركة، حتى أبو بكر وعمر وهما والدا زوجتيه لم يعلما بخطته. وبعد أن أصدر أمر الاستعداد أمر بأن ينقطع اتصال المدينة بظاهرها، فلا يسمح لأحد بالخروج منها، ولا بالدخول إليها، لأنه يعلم أن الناس إن خرجوا نقلوا إلى القبائل الأخرى أنباء تجهيزاته، وسيصل الأمر عندئذ إلى قريش لإعلامها بنبأ الحملة عليهم.

١- عثمان عبد عثمان، السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والإستراتيجية العليا فى إدارة الصراع الدولى كما حدد مبادئها الرسول ﷺ، المرجع السابق، ص ٩٢ - ٩٦.

لقد انقطعت الروابط مع المدينة تماماً، إذ أوقفت القوافل وأنزلت أحمالها وبيعت خارجها. وكان من بين سكان المدينة رجل نادر الذكاء اسمه «حاطب بن أبى بلتعة»، فقد أدرك أن النبى (ﷺ) سيحمل على مكة. ولما كان له معارف فيها فقد أرسل رسالة إليهم وعهد بالرسالة إلى امرأة تدعى «سارة» وهى أمة صديق له اسمه صيفى بن عامر. ولما كان هذا الرجل تاجراً من تجار المدينة يدخل بضائعه من خارج المدينة فقد استطاع أن يخرج من المدينة من غير أن يعترضه أحد. وبعد ذلك اتجه نحو مكة ومعه سارة. وكان على بن أبى طالب مأموراً بحماية الطرقات فى ظاهر المدينة. وفهم أن سارة متجهة نحو مكة.. فأرسل بطلبها وإعادتها. وطلب إلى الذين أرسلهم أن راقبوها حتى لا تفقد شيئا منها. وأعاد المأمورون سارة وأخذوا منها الرسالة وسلموها إلى على. فقرأها وعلم أن حاطباً كتب هذه الرسالة إلى معارفه فى مكة. واستجوبت سارة بعدئذ ليفهموا ألديها معرفة بمضمون الرسالة أم لا؟ وتبين لهم أنها لم تكن على معرفة مطلقاً. ونقل على الموضوع إلى محمد فطلب حاطباً إليه وأراه رسالته، وقال له:

– أأنت أرسلت هذه الرسالة بواسطة أمة صيفى بن عامر لتحملها إلى مكة؟

فاضطر حاطب إلى الاعتراف بالأمر الواقع فسأله: أيعرف صيفى أنك حملت أمته رسالة؟

أجاب حاطب: كلا يارسول الله (ﷺ)، إنه لا يعلم ذلك.

ولما كان حاطب يهدف من رسالته هذه إلى تنبيه أقربائه بخطر حرب قادمة والابتعاد عن مكة فقد عفا عنه.

علم العباس عم الرسول (ﷺ) بقدوم المسلمين فلم ينتظر فأسرع معلناً إسلامه. وأدرك أبو سفيان الخطر القادم فأعلن هو الآخر رغبته فى أن يقابل الرسول (ﷺ). ويقول العباس: وقال لى محمد (ﷺ): خذ ياعباس أباسفيان إلى خيمته الليلة وأحضره إلى صباح الغد. فأطعته وأخذت أبا سفيان إلى خيمته لينام. وفى الصباح الباكر ذهبت إلى الرسول ومعى أبو سفيان، فقال له محمد (ﷺ): أما آن لك أن تؤمن بالله؟

فقال أبو سفيان: أومن يامحمد (ﷺ) بأنك رجل أمين وتحفظ صلة الأرحام، لكننى لم أتأكد بعد من أنك نبى حقاً حتى أدخل فى دينك.

فقلت (أى العباس) : لقد خنت العهد ياأبا حنظلة ويجب أن تقتل على هذا، فإن لم تقبل الإسلام قتلت.

وقبل أبو سفيان دخول دين الإسلام وبدخول أبى سفيان زعيم المشركين فى الإسلام دخلت كل بطاح مكة فى الإسلام فأصدر الرسول (ﷺ) أمرين:

الأول: أن يمر جيش الإسلام فى ذلك اليوم من أمام أبى سفيان.

الثانى: أن كل من دخل منزل أبى سفيان فهو آمن.

وبعد أن استعرض الجنود أبا سفيان وعرفوه أمره بالاتجاه نحو مكة ليعلم سكانها أنه حكم عليهم بالقتل وأموالهم حلال للمسلمين إلا من دخل الكعبة، أو دخل منزل أبى سفيان أو منزله، ولم يتعرض للمسلمين، فماله وروحه عندئذ فى أمان. وتبعه جيش المسلمين وأحاطوا بمكة من غير سفك للدماء، وتوقف أبو سفيان تجاه الكعبة ونادى: إن جيش المسلمين يريد دخول مكة ولا يمكننا مقاومته. ويقول محمد (ﷺ) : إن كل من يدخل الكعبة آمن.. وكل من دخل منزل أبى سفيان آمن.

والذين لا يصلون إلى الكعبة أو إلى منزلى يبقون فى منازلهم ولا يخرجون منها. وليطمئن الجميع إلى أنهم لن يتعرضوا لأرواحهم ولا لأموالهم.

وغضبت هند زوجته من كلامه هذا فقالت: اقتلوا هذه القربة الممتلئة، لأنه خاننا - وكان أبو سفيان سميناً - فمع أنه قائد الجيش ويجب أن يحرض الناس على الحرب.. نراه يطالبهم بألا يخرجوا من منازلهم ليصونوا أرواحهم وأموالهم.

لكن الناس لم يرغبوا فى قتل أبى سفيان، لأنهم يعلمون أنه لا يستطيع أن يحارب المسلمين. وحين رأت هند أن أحداً لن يقبل بقتله أقدمت هى على ذلك فمنعها الناس.

كانت المجموعة الأولى التى دخلت مكة من المسلمين بقيادة على، وكان يحمل لواء النبى (ﷺ) واتجه نحو الكعبة مع جنوده. والمجموعة الثانية بقيادة الزبير بن العوام، حيث دخل من جهة الغرب، ودخل سعد بن عبادة الأنصارى من الشرق، ودخل خالد بن الوليد من جهة الجنوب. وقد أمر النبى (ﷺ) القواد الأربعة بألا يشهروا سيوفهم من أغمادها، وبألا يحاربوا أحداً ما لم يحمل عليهم، ولكن سعد بن عبادة حين دخل مكة صاح بصوت عال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة[١].

١- د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٢٨ - ٥٣٦.

ويقصد بذلك أن حرمة الكعبة زالت هذا اليوم وبإمكان المسلمين أن يقتلوا المشركين فيها. ووصل النبأ إلى الرسول (ﷺ) فأمر بعزله عن قيادة الجيش فوراً وأتبعه بعلى.. حتى لا يحارب سعد أحداً. ولم تلق الجيوش الأربعة مقاومة تذكر.. إلا جيش خالد الجنوبى، فقد اعترضه عدد من القرشيين والأحابيش، لكن خالداً - سيف الله - نادى بأعلى صوته: لاتسفكوا دماءكم بلا سبب، لأن حملتكم هذه لن توقف من زحف المسلمين، فقد أمرنا رسول الله (ﷺ) بأن نفتح مكة اليوم، وسنفتحها بإذن الله.

لكنهم لم يستجيبوا لنصيحته.. بل حملوا عليهم. وما هى إلا مدة وجيزة حتى وقع خمسة عشر قتيلا، اثنان منهم مسلمون. ولما وجد الباقون أن ثباتهم مستحيل هربوا. وهكذا تم النصر المؤزر للمسلمين وفتحت مكة، واجتمعت الجيوش الأربعة حول الكعبة وكان معهم محمد (ﷺ) على ناقة بيضاء، فطاف حول الكعبة سبع مرات ثم اتجه نحو الكعبة، وطلب من «عثمان بن طلحة» مفتاحها، لكن أم عثمان صاحت فى وجهه: لن نفتح لك باب الكعبة.

لكن عثمان هدأ أمه وفتح الباب، فدخل خمسة أشخاص هم: رسول الله (ﷺ)، وعلى، وعثمان بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة خادم الكعبة. وبعد أن أتم زيارة الكعبة خرج منها، ووقف على عتبتها يخطب فى الناس:

لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى، فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ مثل العمد، والسوط والعصا فيهما الدية مغلظة (مائة من الإبل)، منها أربعون فى بطونها أولادها.

يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب.

ثم تلا رسول الله (ﷺ): ﴿يايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..﴾[1].

يامعشر قريش، وياأهل مكة، ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء.

---

(١) سورة الحجرات، (١٣).

ولقد أبقى محمد ﷺ السقاية فى أهل مكة، وكانت لعمه العباس؛ لأنه يسقى الناس بالسوية، ومن غير اعتبار لمقام. وحين أسلم سكان مكة احتفظ عثمان بن طلحة بمنصب سدانة الكعبة. وانتقل منصبه بعد وفاته إلى أولاده، ومازال مفتاح الكعبة حتى اليوم فى أيدى أحفاد عثمان، ويسمون اليوم بيت الشيبى وتسكن هذه العائلة فى مكة ولكن شبابها خرج إلى جدة والرياض بحثاً عن العمل. ومازال مفتاح الكعبة لدى كبير بيت الشيبى.

وبعد أن أنهى محمد خطابه حطم بيده أحد أوثان الكعبة، وطلب من على أن يحطم سائر الأصنام والصور.

وبينما كانوا يحطمون الأصنام كان رجال قريش الموجودون داخل الكعبة يغطون وجوههم بعباءاتهم من الألم والأسى حتى لا يروا آلهتهم تهشم وتداس.. بل كان بعضهم يعتقد بأن علياً ومن معه وهم فى عملهم هذا سيزالون من الوجود. ولكن شيئاً لم يحدث، وتكسرت الأوثان واحداً تلو الآخر من غير أن يتأثر أحد من المسلمين.

وخرج الجميع من الكعبة إلا محمداً (ﷺ) لأنه لم يكن له مكان يأوى إليه، فقد كان منزله جميلاً ومؤلفاً من طابقين، ويعتبر من مساكن مكة المشهورة، ولكن بعد موت خديجة غدا لعقيل أخى على وباعه هو أيضاً. وقد قال له بعض المسلمين إن له الحق فى اختيار المنزل الذى يريد ليسكنه مادام قد فتح مكة، فأجابهم بأن سكان مكة وأموالهم فى أمان ولا يمكننى أن أختار منزل أحد. ولما لم يستطع البقاء ليلاً فى الكعبة انتقل إلى منطقة تدعى «الخائف»، وهناك نام فى الخيمة.

وأظهر محمد (ﷺ) نبلا بعد فتح مكة ورأفة نحو عدد من أعداء الإسلام، إذ عفا عنهم جميعاً، ومنهم عكرمة بن أبى جهل الذى هرب من مكة قبل قدوم المسلمين. ولقد ذهبت زوجة عكرمة تطلب الأمان لزوجها، فسمح لها بأن يعود إلى منزله. وكذلك هند (ماضغة كبد حمزة)، عفا عنها من غير أن تلقى أذى من أحد، وصفوان بن أمية الذى حاول قتل النبى (ﷺ) أعلن إسلامه وأهدى المسلمين مائة درع وخمسة آلاف درهم.

وبعد أن شرعت أعلام الإسلام فى بطاح مكة عاصمة الإسلام والمسلمين وأسلم كل السكان تقريباً، عاد الرسول (ﷺ) إلى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى حينذاك، وقال للأنصار: إننى سأبقى بينكم مادمت حيا، وسأموت فى المكان الذى أنتم فيه[1].

١- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مرجع سابق، ص ٣٣٤ - ٣٣٧.

حروب الفجار.. حروب القبائل

يندر أن تتجاور قبيلتان عربيتان دون أن تندلع بينهما الحروب. هذه حقيقة سائدة فى الماضى ومائلة فى الحاضر. وفى الماضى كانت قبيلة هوازن تسكن بالقرب من مكة. ولقد احتربت هوازن مع سكان مكة مراراً، وكثيراً ما خرقت هوازن حرمة الأشهر الحرم فى هذه الحروب. ويسمى العرب هذه الحروب بـ «حرب الفجار». وكانت الخصومة بين هاتين القبيلتين متوارثة عن الأسلاف. وقد قتل أبو السيدة خديجة فى إحدى هذه الحروب. ومحمد (ﷺ) نفسه اشترك فيها فى مرحلة فتوته مع عمه أبى طالب ضد هوازن. وكان جزء من قبيلة هوازن يقيم ما بين البحر الأحمر والصحراء، أى فى منطقة الحجاز، وقسم آخر كان يقيم فى مدينة الطائف. وهم قبيلة «ثقيف». وكانت بنو سعد وبنو بكر وسليم وسائر قبائل هوازن على عداء مع الإسلام. والصنم الأكبر «اللات» كان فى الطائف. وهى المدينة التى رفضت قبول الرسول (ﷺ) بعد أن طردته قريش فى المراحل الأولى من نزول الرسالة.

وكان الرسول ﷺ قد أمر خالد بن الوليد بالذهاب إلى نخلة ليحطم فيها الأوثان. وحين رأت قبائل هوازن أن المسلمين بادروا إلى تحطيم أوثانهم عزموا على حربهم. وتحرك عشرون ألف نفر بنسائهم وأطفالهم ودوابهم لحرب المسلمين.

إن جلب النساء والأبناء والدواب إلى ساحة الوغى علامة أرادتها هوازن لتعلم خصمها استعدادها لمقابلة الموت أو الأسر أو الفناء. وكان هدفهم احتلال مكة، حتى لا تكون هذه البلدة مصدر إزعاج مستمر لهم. وهذه المرة هى الأولى التى تستعد فيها هوازن كل هذا الاستعداد للحرب. وعندما اطلعت قريش على ما هدفت إليه هوازن زالت عنها آخر شائبة فى نفوسها ضد المسلمين، فاتفقت معهم على حرب هوازن، حتى صفوان بن أمية أبدى استعداداً لتقديم الأموال والأسلحة للمسلمين.

وأعد محمد (ﷺ) لحربهم اثنى عشر ألف رجل؛ ألفين من رجال قريش. ومشى الجيش الإسلامى فى عام ٩ هـ = ٦٣١م إلى وادى حنين وهى منطقة جبلية تقع بين مكة والطائف.

كان الرسول ﷺ فى ذلك اليوم يسير فى مؤخرة الجيش راكباً بغلته البيضاء (الشهباء) التى أهداها إليه إمبراطور الحبشة.

وبينما المسلمون فى طور الإعداد والتشكيل، وإذا بهوازن تغير عليهم وهم لـمّا يزالوا فى قلب الوادى فأرهبهم هذا الهجوم المباغت وولّى بعضهم الأدبار فنزلت الآية الكريمة: ﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[1]. ثم قال تعالى فى الآية بعدها: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين﴾[2].

وعندما رأى محمد (ﷺ) جيشه يهرب نزل عن بغلته، وسلم عنانها إلى أبى سفيان، ووقف على صخرة عالية وراح ينادى:

– أين أيها الناس! يامعشر الأنصار، ياأصحاب السمرة.

وهكذا عادوا وتجمعوا حول النبى (ﷺ). وعندئذ أمرهم بتنظيم حربهم، بأن يتجهوا نحو الطرف الآخر من المضيق، ويصطفوا فى منطقة اسمها «أوطاس». وفعل المسلمون ما أمرهم به.

وحاولت هوازن أن تعترض تقدم المسلمين، لكنهم بسيرهم المنظم استطاعو أن يقتلوا عددا منهم.. وحين وقع نساء هوازن وأنعامها فى يد المسلمين أمر النبى بأن ينقلوهن إلى منطقة «جعرانة»[3] والتى كانت تبعد ١٥ كم شمالى مكة. وبعد أن انتهت معركة حنين بنصر المسلمين قرر محمد (ﷺ) أن يحمل على الطائف.

وكان يحوط الطائف سوران، وحين رأى سكانها دنو المسلمين منهم أغلقوا بوابات المدينة، وصمموا على الدفاع. فاستخدم المسلمون المجانيق لدك السور.

كما استخدموا العرابات (الدبابات الجلدية). وقد كانت معنويات المسلمين قوية جداً إثر نصرهم فى حنين. فكانوا يحاربون بشهامة واستطاعوا أن يهدموا منزل مالك بن عوف قائد قبائل هوازن. وقد وعد النبى (ﷺ) سكانها أنهم إن سلموا المدينة أمنوا من الأذى، فاستسلم ثمانون منهم وهم الذين أسلموا فيما بعد.

١– سورة التوبة، (٢٥).

٢– سورة التوبة: ٢٦.

٣– مازالت «جعرانة» بهذا الاسم وفى نفس موقعها، ولكن بسبب توسع مكة وانتشار عمرانها، أصبحت جعرانة اليوم داخل حدود مكة المكرمة.

وظلت الطائف أربعين يوماً محاصرة. ولما لم تسقط سلم قيادة الجيش إلى أحد القواد وعاد إلى جعرانة ليقسم الغنائم على المسلمين. ومن جملة غنائمهم ستة آلاف أسير، قسمت على المسلمين. ومن هؤلاء الأسرى امرأة اسمها «شمة»، ذهبت إليه وقالت له: أنا أختك بالرضاع حينما كنت عند حليمة.

وقد أرته جرحاً قديما كان على يدها. ثم قالت له: كنا نلعب معاً حين كنا طفلين فجرحتنى سهواً، ومازال أثر الجرح باقياً. لذا لا تجعلنى أمة.

فسألها محمد (ﷺ): ألا ترغبين فى الإسلام ياشمة وتتحررين؟

قالت له: كلا يامحمد (ﷺ).. أريد أن أعود إلى الصحراء وأعيش فيها.

فقال لها: ولكننى لا أستطيع تحريرك إلا بطريقة ما. وهى أن تكونى جزءاً من غنائمى. وفى هذه الحالة ستكونين أمة لى، فأعتقك.

وهكذا كان. إذ غدت شمة جزءاً من غنائم النبى (ﷺ)، ثم حررها. وبعد ذلك قالت له: وزوجى أيضاً أسير، وأريد منك أن تعتقه. فاستجاب الرسول ﷺ وجعله من حصته وأعتقه. وعندما رأى أسرى هوازن أن شمة وزوجها قد تحررا انتخبوا عدداً منهم، وأرسلوهم إلى النبى، وقالوا له: إن مرضعك حليمة من هوازن، وعلى هذا فنحن جميعاً إخوانك وأخواتك بالرضاع. فعليك أن تعتقنا من غير فدية لنعود إلى مضارب خيامنا.

لكن محمداً (ﷺ) اعتذر لأنهم قسموا جميعاً بين المسلمين. فأجابه ممثلو هوازن: يارسول الله (ﷺ) إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك.

فقال لهم رسول الله: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم.

كان أبو بكر وعمر حاضرين، فأعتقا من كان فى نصيبهما. وتبعهم فى هذا الأمر سائر المسلمين، إلا أنهم لم يردوا أموالهم. وعندما شاهد الهوازنيون نبل المسلمين وشهامتهم أسلموا جميعاً، وعادوا إلى منازلهم، وكان مالك بن عوف فى جملة من أعتق ورد له ماله لأنه كان من حصة النبى (ﷺ). فأسلم، ثم غدا من جملة المسهمين فى إعلاء كلمة الإسلام.

وهكذا حلت مسألة تقسيم الأسرى والأموال، وعاد محمد (ﷺ) إلى الطائف ليرى ما آل إليه أمر الحصار. فوجد أن الوضع لم يتغير، وأن الذين كانوا يحيطون بالطائف لم يستطيعوا

فتحها. إلا أن إسلام هوازن أضعف من أهمية الطائف. ولم تعد تلك المدينة خطرة لأنها غدت محاصرة من كل ناحية من قبل المسلمين. كان محمد (ﷺ) يعلم أن حصار الطائف مدة طويلة سيجبر أهلها على الاستسلام، فترك الجيش يحاصرها وعاد مع سائر المسلمين إلى مكة. وبعد وقت ليس بالطويل استسلم الطائف وأهله للمسلمين[1].

عـــام الوفـــود

لم يفتح الرسول (ﷺ) مكة وحدها فى السنة التاسعة، بل فتح الجزيرة العربية كلها وقد بدأ الرسول (ﷺ) فى ذلك العام يضع أسس المراسم الدبلوماسية للدولة الإسلامية حيث استقبل فى ذلك العام السفراء والممثلين الدبلوماسيين الذين جاءوه وفودا من مختلف القبائل. ولذلك سمى هذا العام بعام الوفود.

ومع أن الإسلام عم الجزيرة كلها فى السنة التاسعة، فإن محمداً لم يكره اليهود ولا النصارى على قبول دينه، لأنهم أهل كتاب. وقد جاء فى رسالة محمد إلى أبى الحارث أسقف نجران أن وضع المسيحيين في الجزيرة بعد الإسلام تحسن كثيراً، يقول فى هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من رسول الله (ﷺ) إلى أبى الحارث أسقف نجران الأكبر وقساوسته وأساقفته. أما بعد، فليعلم الأسقف الأكبر وقساوسته وأساقفته أن كنائسكم ومعابدكم وصومعاتكم ستبقى كما هى، وأنكم أحرار فى عباداتكم. ولن يزاح أحد منكم عن منصبه ومقامه، ولن يبدل شيء، كما لم يبدل فى مراسم دينكم، مادام الأساقفة صادقين، ويعملون بحسب تعاليم الدين. فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله (ﷺ)، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

ويشير مضمون هذه الرسالة إلى أن المسيحيين فى الجزيرة كانوا أحراراً فى أداء شعائرهم، ولن يزاحمهم من المسلمين مزاحم. وقد قام فى السنة التاسعة وفد من مسيحيى نجران يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر، وعبد المسيح الأسقف، والأيهم رئيس القافلة. وبعد أن زاروا النبى (ﷺ) سألوه أن يسمح لهم بأداء شعائرهم، فطلب منهم أن يؤدوا صلواتهم فى مسجد المدينة، فدخلوه واتجهوا نحو بيت المقدس وتعبدوا هناك.

١- د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٥٣٧ - ٥٤٣.

يقول الله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾[1] . ويقول فى الآية بعدها: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون، ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾، ويقول بعدها كذلك: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين؟﴾، ويقول بعدها: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾.

ولاشك أن جزءا كبيرا مما ذكره القرآن عن النصارى إنما جاء ردا على إكرام إمبراطور الحبشة المسيحى للمهاجرين المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ومكثوا فيها ضيوفاً على أهلها.

وسوف نعود إلى هذه الآيات الطيبات حينما نتصدى فى الباب الثالث للرد على صامويل هنتنغتن صاحب نظرية صدام الحضارات والتى طالب الغرب من خلالها تجييش الجيوش لمواجهة هجمة الإسلام القادمة.

الخطاب النبوى
حدد معالم مستقبل الخطاب السياسى الإسلامى

قبل أن يباشر الرسول (ﷺ) بإلقاء خطبة الوداع سأل الحاضرين: هل تدرون أى شهر هذا؟

قالوا: الشهر الحرام.

قال لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا. فهل تدرون أى بلد هذا؟

(١) سورة المائدة (٨٢) وما بعدها.

فيقولون: البلد الحرام.

فيقول: إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة بلدكم هذا. فهل تدرون أى يوم هذا؟

قالوا: يوم الحج الأكبر.

قال لهم: إن الله حرم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا. ثم شرع فى إلقاء خطبته(1):

«أيها الناس، اسمعوا قولى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا. وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا رباً. وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع. وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب- وكان مسترضعاً فى بنى ليث، فقتلته بنو هذيل- فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: «إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله»، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، و «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم» ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن

(1) تاريخ الطبرى، جزء ٣، ص ١٥٠.

تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى، فإنى قد بلغت، وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً؛ كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس اسمعوا قولى، فإنى قد بلغت، واعقلوه. تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغت! قال: فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله (ﷺ): اللهم اشهد».

ولقد أثرت هذه الخطبة فى الحاضرين كثيراً، وقيل بأن عددهم يصل إلى مائة وأربعين ألف رجل وامرأة.

وتدعى هذه الخطبة كذلك بـ «خطبة حجة البلاغ»، لأن الرسول ﷺ كان يستخدم كلمة «بلغت» بصيغة الاستفهام. ولكن هذه الخطبة تعرف فى أوساط المسلمين باسم «خطبة حجة الوداع» وتعتبر هذه الخطبة بمثابة الخطاب النبوى الذى حدد معالم مستقبل الخطاب السياسى للدولة الإسلامية فى جميع مراحل تاريخها[1].

الرسول (ﷺ) فى النزع الأخير
آخر الغزوات تبوك.. وأولها بدر

بعد شهر من عودة الرسول (ﷺ) إلى المدينة قادما من مكة، توعكت صحته وأحس بدنو الأجل فأقبل على الناس يخطب فيهم قائلاً:

«إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده، فاختار ماعند الله». وبعد أن انتهى الرسول (ﷺ) من هذا الكلام خيم وجوم على الدنيا بأسرها وبكى المسلمون بحرقة بعد أن استشفوا معنى ما يعنيه من كلامه هذا، وأدركوا أن الذى اختار ماعند الله.. هو محمد (ﷺ) نفسه.

١- د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٥٥٠ - ٥٥١.

وعند ذاك استدار رسول (ﷺ) إليهم ليخفف من آلامهم ورجاهم عدم العودة إلى البكاء. ثم قال لهم:

«أما بعد أيها الناس، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، وإنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ومن كنت شتمت له عرضا هذا عرضى فليستقد منه. وبعد هذا الخطاب.. سرت شائعات فى دول الجوار، فقررت بيزنطة عندئذ أن تحمل على الجزيرة عن طريق سورية لإنهاء وجود المسلمين. ووصل إلى النبى (ﷺ) خبر هذه الحملة، فصمم على استقبال هذا الجيش بنفسه. لذا أعلن التعبئة العامة على الرغم مما هو فيه من المرض.

لم يكن وضع بيت المال آنئذ يساعد على إعلان الحرب، فتسابق المسلمون إلى دفع المال وبهذا الإخلاص أعد الجيش القوى المؤلف من ثلاثين ألف محارب يجمعهم الإيمان والتصميم، وكان عشرة آلاف منهم فرساناً. وحينما خرجوا من المدينة نحو الشام كان منظرهم يدل على المباهاة والاعتزاز بشكل لم يكن له نظير فى الإسلام. وحين وصل الجيش إلى حدود سورية هرب الأمراء والرؤساء الذين كانوا ينتظرون العون من بلاد الروم، فتراجعوا حتى حدود الشام العليا.

ولما كان مركز الجيش على الحدود فى قلعة تدعى «تبوك»[1] فقد دعيت هذه الحملة بحملة تبوك. والحقيقة أن الجيش الإسلامى لم يحارب هناك لأن جيش الروم تراجع كما أن أمراء الطريق تخوفوا من جيش الإسلام، واضطروا إلى عقد معاهدة معه على عدم المهاجمة والحرب والوقوف على الحياد.

فى تلك المعركة أحجم عدد من المسلمين عن الاشتراك فى الحرب، إما طلبا للراحة وإما خوفاً من الموت، وهم: أبو لبابة وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حرام، وأبدى هؤلاء الثلاثة ندمهم. فعندما عاد رسول الله (ﷺ) من تبوك ربطوا أنفسهم إلى عمود فى مسجد المدينة، وقالوا: لن نتحرك عن مكاننا ما لم يعف عنا رسول الله (ﷺ).

فمن عادة النبى (ﷺ) عندما يعود من كل سفر أن يدخل المسجد، ويصلى ركعتين. وعندما دخل المسجد ليصلى شاهد هؤلاء الثلاثة مربوطين. فسألهم عن سبب ذلك، فاعترفوا له

١- تقع مدينة تبوك حاليا ضمن حدود المملكة العربية السعودية وتدير شئونها إمارة «محافظة» مستقلة.

بذنبهم وأنهم لم يشتركوا فى الحرب معه، ولن يفكوا قيدهم حتى يعفو عنهم رسول الله (ﷺ). فقال النبى: الله هو الذى يعفو، ولست بالذى يعفو عن المذنبين، وبعد ذلك نزلت الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً، عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾[1] وهكذا عفا الله عن هؤلاء الثلاثة، ولهذا أعلنوا استعدادهم لأن يهبوا كل ما يملكون إلى بيت المال.

ولم يشترك النبى (ﷺ) بعد تبوك بأية حرب أخرى. ولكنه لم يتوان عن التفكير بتقوية الإسلام، لذلك رأيناه يأمر أسامة بالحملة على سورية، لكن أسامة توقف عن سفره لوفاة رسول الله (ﷺ).

وفى ربيع الأول من عام ١١ هـ = ٦٣٢م ازدادت صحته سوءاً، فأحس بدنو الأجل. فتذكر أن لديه سبعة دنانير عند عائشة، ولم يكن يملك غيرها، فطلب عائشة إليه، وسألها عن الدنانير فأخبرته أنها مازالت موجودة، فأمرها بأن توزعها على الفقراء، لأنه يخجل أن يقابل الله ومعه سبعة دنانير.

كان حول النبى (ﷺ) يوم الاثنين صهره على، وأبو الفضل ابن عمه العباس، وأسامة ابن زيد وشقران العبد المعتوق، وأوس بن خولى. تقول عائشة:

«كنت فى ذلك الوقت صبية، ولم أكن أدرك أن زوجى على شفا حفرة من الموت. وكانت يداه حول رقبته حين توفى. ولم أفهم أنه مات، إلا أننى حين رأيت النساء يندبن والرجال يبكون فهمت أن النبى (ﷺ) قد مات»[2].

فطناء العرب.. يحلون أزمتين سياسيتين قبل الدفن

فى اللحظة التى فارق فيها رسول الله الحياة زال ختم النبوة من بين كتفيه لأنه أتم رسالته بوفاته. وعندما مات النبى (ﷺ) لم يكن يملك من مال الدنيا إلا بغلة بيضاء، أهداه إياها ملك الحبشة، وبضعة سيوف. وكادت وفاة الرسول (ﷺ) أن تثير أزمتين سياسيتين بين المسلمين وهما: أين يدفن وكيف يدفن. ولكن الرسول قبل وفاته حسم قضية دفنه فى

١- سورة التوبة: ١٠٢.

٢- د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٥٥٠ - ٥٥٢.

المدينة،ومن عادة العرب أن رئيس القبيلة عندما يموت يدفن فى مكان وفاته، لذا قرروا أن يدفنوه مكان سريره. ولكن القضية الأخرى هى قضية كيف يحفرون قبره! هل يحفرونه على عادات أهل مكة أم على عادات أهل المدينة؟ فأهل مكة بعد أن يحفروا الأرض، يحفرون نفقا عميقا يضعون فيه جسد المتوفى، ثم يغلقون النفق، ثم يمهدون التراب على الحفرة تمهيداً. وقد أشار فطناء العرب لحسم هذه القضية إلى أن يدعوا رجلين من حافرى القبور؛ واحدا من مكة وآخر من المدينة، ليحفر أحدهما قبراً فى المنزل. فإن سبق المدنى حُفِرَ قبر الرسول على طريقة أهل المدينة، وإن سبق المكى حُفِرَ القبر على عادات أهل مكة. وفى ذلك اليوم سبق المدنى، لذا كان قبره مطابقاً لقبور سكان المدينة. وبعد أن حفر القبر ألبسوه ثوبه الوحيد حتى لا يرتديه أحد بعده، ثم غسلوه. ومن عادة العرب أن يغسلوا الميت ما لم يكن عندهم ماء. وفى أثناء غسله لم يخلعوا عنه ثوبه رعاية واحتراماً، وفى القبر وضعوا وجهه الطاهر نحو الكعبة المشرفة، ثم أغلق وورى بالتراب وسقى بالماء.

وفى اللحظات الأخيرة راجت إشاعات سياسية تزعم أن الرسول (ﷺ) لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.

إزاء ذلك خطب أبو بكر بالناس قائلا:

«أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت». ثم تلا الآية: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزى الله الشاكرين﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ١١٤.

الباب الثالث

مشروع
الدولة الإسلامية المعاصرة

الفصل الأول
النموذج المحمدى
فى
الدولة الإسلامية المعاصرة
الفصل الثانى
الحضارات . حوار وصدام
الفصل الثالث
الحكومة الإسلامية
فى
الدولة الإسلامية المعاصرة

مشروع الدولة الإسلامية المعاصرة

فى ضوء الفصول السابقة التى درسنا من خلالها السيرة المحمدية العطرة والمراحل التى قطعتها على طريق بناء الدولة الإسلامية المحمدية الأولى، أوضحنا أن السيرة المحمدية حملت راية المسيرة الإسلامية ومكنتها من قيام إمبراطورية إسلامية رادت الدنيا بأسرها، واستطاعت أن تطرح على العالم نظاماً دولياً جديداً وحضارة إسلامية زاهية أسهمت بفعالية فى بناء الإنسان ووضعت البشرية على طريق الحق والأمن والسلام.

وفى هذا الباب نتساءل: إذا كان الإسلام قد أفرز كل هذا التقدم الحضارى وقدّم إنجازا إيمانيا ودنيويا للبشرية ليس له مثيل فى تاريخ الكون، فلماذا لا تستلهم البشرية من الإسلام مايعيد إليها تقدمها وآدميتها وإنسانيتها؟ ولماذا لا تعطى للإسلام الفرصة مرة أخرى لإدارة النظام الدولى وتحميله مسئولية نشر التقدم والسلام فى ربوع الدنيا، ولاسيما أن الحضارة الغربية التى كانت تقوم بهذه المهمة طوال ثلاثة قرون أثبتت فشلها، وأن العالم قد وقع طوال هذه القرون الثلاثة ضحية وعود الحضارة الغربية المادية التى لم تبر بوعودها، بل أفرزت هذه الحضارة المادية الكثير من المشاكل وفى مقدمتها الحروب كأداة لحل الخلافات بين الأمم والشعوب، وكذلك نشرت أسلحة الدمار الشامل كما أفرزت الأزمات السياسية الخانقة ولوثت البيئة والمناخ، وساعدت على نشر الإرهاب والبطالة والفقر وانتشار المخدرات، وكرست التصحر، وبذلت قصارى جهدها للقضاء على الجوانب الإيمانية والإنسانية، وعملت على إلغاء السمات الآدمية فى تعاملات البشر(1).

بمعنى أننا سوف نسعى فى هذا الباب للبحث عن إجابات للأسئلة التالية:

ما الذى تبقى من الدولة المحمدية الإسلامية الأولى فى العالم الإسلامى المعاصر؟

وما حجم تأثير الرسالة المحمدية على الأنظمة السياسية فى العالم الإسلامى اليوم؟

وهل هناك أية إمكانية فى أفق العالم الإسلامى لإعادة بناء هذه الدولة، وبالذات فى الظروف العالمية الحالية التى مازال العالم يبحث فيها عن نظام دولى جديد؟ هل هناك إمكانية

١- مالك بن نبى، تأملات (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٧)، ص ٤٩.

كى تعود الدولة الإسلامية المحمدية بنفس القوة التى قامت بها قبل أكثر من أربعة عشر قرنا؟ وكيف يمكن أن نستفيد من تجارب السيرة العطرة فى مراحلها الأولى لإعادة بناء الدولة الإسلامية المأمولة؟، وهل الشعوب الإسلامية فى العالم العربى والإسلامى جاهزة الآن لتحمل مسئوليات بناء هذه الدولة وجاهزة للانتشار فى العالم؟ وهل الظروف الدولية والعربية والإسلامية مواتية للبدء في إعادة البناء؟ وهل هناك عوائق تحول بين الأمة الإسلامية فى ممارسة حقوقها المشروعة لبناء دولتها على المنهج الإسلامى الأقوم؟ وكيف السبيل إلى الوثوب فوق العقبات؟ ثم كيف يستطيع المسلمون استثمار المعطيات الإسلامية الجديدة التى بدأت تلوح فى أماكن مختلفة من العالم الإسلامى باسم الصحوة الإسلامية؟

فى هذا الباب سوف نحاول الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة التى تناقش إمكانية بناء دولة إسلامية محمدية تستفيد من التجارب المحمدية الزاخرة وتحمل مسئولية إعادة العالم الإسلامى إلى قيادة النظام الدولى الجديد.

الفصل الأول

النموذج المحمدى
فى
الدولة الإسلامية المعاصرة

مقدمـــــة

لم يعد نادرا أن يقول المفكرون بأن العالم يمر اليوم بأزمة حادة فى نظامه العالمى، وأن الانفراط فى النظام الدولى القائم، يتجه بالمجتمعات العالمية إلى مصير مجهول.

ولكن السياسيين الغربيين، فى المقابل، يقولون بأنهم يسعون إلى وضع صيغة جديدة لقيام نظام دولى جديد.

بيد أن الإنسان المتجرد حينما يتصفح الواقع... يجد أن الغرب منذ أن تسلم مفاتيح عصر الحضارة الغربية فى القرن الخامس عشر، ظل يضع الصيغ التى تتمشى مع أغراضه وأهدافه.

فهو حينما فشل مسيحيا، أدارها علمانيا ونادى بفصل الدين عن الدولة.

ولقد ثبت أن الأنظمة الغربية التى قامت على مبدأ فصل الدين عن الدولة وأبعدت الصيغ الدينية عن حل مشاكل الإنسان وزعمت بأنها جاءت كى تخلص الإنسان من مشاكله، لم تستطع هذه الأنظمة الغربية المادية أن تحل مشاكل الإنسان، بل كرست الكثير من المشاكل التى لا قبل للإنسانية والبشرية بها، فأصبحت هناك مشاكل بيئية ومشاكل صحية ومشاكل الفقر والبطالة وانتشار المخدرات وتفسخ المجتمعات والتصحر والمناخ الملوث والإرهاب المنظم، وهناك أسلحة الدمار الشامل، إلى جانب الكثير من المشاكل التى أفرزتها الآلة الغربية. هذه المشاكل أضيفت إلى حصائل المشاكل التى مازالت ترهق الإنسان، ومازال الغرب يضع بشأنها المعايير المزدوجة، ويضع المجتمعات الإنسانية فى التيه والانحراف عن الحق، فحقوق الإنسان فى فلسطين غيرها فى إسرائيل وحقوق الإنسان فى البوسنة غيرها فى الصرب، والديمقراطية فى الشرق غيرها فى الغرب. وهكذا تزداد الفوارق بين ما هو ممكن وما هو مأمول!!

وهكذا تدخل الإنسانية – ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين– فى دوامة البحث عن صيغ جديدة لنظام دولى جديد.

ولكن يبدو أن حكماء العالم الذين أعطوا الغرب مسئولية إدارة شئون الكون على مدى ثلاثة قرون وأكثر، فاض بهم الصبر وهم اليوم يحذرون الغرب وينذرون المجتمع الدولى بعامة من مغبة أن يُدْفَع العالم إلى «لا نظام» يدخله فى متاهات الانفراط والتصادم المدمر[1].

١– روجيه غارودى، وعود الإسلام، ترجمة د. ذوقان قرقوط (القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣)، ص ٢٤ – ٢٥.

والغرب بحكمائه وسياسييه لاينكر أن الإسلام بخصائصه الإيمانية والدنيوية وبتجاربه الزاخرة التى مازال تأثيرها حياً حتى اليوم.. هو المرشح لاستلام زمام إدارة الكون من الحضارة الغربية المتداعية(١) .

ولذلك فإن كثيرا من مراكز البحوث الغربية تحذر - فى هذه الأيام - من قدوم المسلمين، وتطرح مشاريع كثيرة لضرب طموحاتهم الجديدة التى بدأت تظهر بنجاح فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى، بل وفى قلب العالم الغربى أيضا.

ولعل من أهم المشاريع التى يطرحها الغرب حاليا لإجهاض الصحوة الإسلامية هو مشروع «صدام الحضارات» الذى يدعو من خلاله صاموئيل هانتنغتون إلى ضرورة وضع الخطط اللازمة للتعامل مع الحركات الإسلامية النشطة والعمل بكل قوة إلى قمعها وتحجيمها.

وإذا كان هذا المشروع يحذر من الحركات الإسلامية النشطة، ويجيّش الكوادر فى البلاد الغربية لقمعها، فإن هناك مشاريع غربية أخرى ترى أن سقوط الحضارة الغربية سيكون بسبب تردى الأوضاع الاقتصادية فى البلاد الغربية، ويضربون بالاتحاد السوفيتى مثلاً لهذا السقوط المحتمل، بل إن الكثير من المفكرين الغربيين فى علوم الاقتصاد والانتربولوجى يقولون أن سقوط الولايات المتحدة الأمريكية اقتصاديا وسياسيا وثقافيا أصبح وشيكا، وأن سقوط أمريكا سيتبعه بالضرورة تصدع شامل للحضارة الغربية المتعثرة.

وإزاء ذلك فإن الغرب يركض فى هذه الأيام وراء تنفيذ العديد من المشاريع الاقتصادية الكبرى فى شكل تكتلات اقتصادية تربط أوربا بأوربا (السوق الأوربية المشتركة)، وتربط أمريكا بأمريكا (اتفاقية نافتا)، وتربط الأوربيين والأمريكين جميعاً (اتفاقية الجات) ثم بالإضافة إلى ذلك يسعى الغرب (أوربيين وأمريكان) إلى إنشاء أنظمة إقليمية تحت مظلتهم الغربية تارة باسم السوق الشرق أوسطى وأخرى باسم النظام الشرق أوسطى.

وكل هذه التكتلات الاقتصادية والسياسية إنما تأتى لإحكام السيطرة حول رقبة العالم العربى الإسلامى، كى لا يفيق ويتهيأ للقيام بدوره المطلوب من أجل المساهمة بفعالية فى بناء النظام الدولى الجديد.

١- John Kenmeth Galbraith, The New Industrial State (New York: Dolphin Book, 1967), pp 13-16.

النموذج الإسلامى السياسى
فى قبالة
النموذج الغربى السياسى

يبدو أن الحرب الباردة لم تختف إلى غير رجعة، وإنما توارت خلف حطام الشيوعية البائدة إلى حين، وهى الآن – أى الحرب الباردة – تبدأ مرحلة استجماع قواها لتطل بظلالها الكئيبة وأنيابها الشرسة على مواقع الصحوة الإسلامية التى بدأت إيناعاتها الجديدة تتلألأ فى أماكن مختلفة من العالم.

وحينما تفكك الاتحاد السوفييتى فى نهاية عام ١٩٩٠ وأصبح أثراً بعد عين.. أعلن العالم الغربى أن الشيوعية قد لفظت أنفاسها الأخيرة وأنها ماتت إلى غير رجعة؛ لأنها لم تقم فى يوم من الأيام على فروض واقعية قابلة للتطبيق. ولقد اعتبر المعسكر الغربى وفاة الشيوعية انتصاراً صارخا للرأسمالية الغربية. وراهن الغرب على أن الديمقراطية.. هى النظرية الصحيحة والسليمة، وأن الشيوعية دفعت ثمن ضحكها على شعوب ما كانت تسمى بـ «الاتحاد السوفييتى» ودول أوربا الشرقية.

ولكن ما كاد الغرب يطلق زغاريد الفرح ويؤلف السيمفونيات ويتغنى بالرأسمالية (الباقية!!) حتى لاحظ أن الصحوة الإسلامية بدأت تزدهر فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى. متحدية – بذلك – بريق الرأسمالية الباهتة والديمقراطية الغربية المتآكلة. ويبدو أن الشيوعية لم تكن قط ندا للرأسمالية. ولذلك لاقت مصرعها فى أقل من سبعين عاما.. أى أن المعركة التى دارت بين الرأسمالية والشيوعية طوال سبعة عقود لم تكن معركة متكافئة.. بل كانت معركة تنتهى فى معظم الأحايين لصالح الرأسمالية المادية الغربية.

ولكن ما نود أن نقوله هنا فى هذه الدراسة هو أن الرأسمالية والشيوعية هما وجهان لعملة غربية (الحضارة الغربية) واحدة يلعب فيها الجانب المادى دورا مركزيا ورئيسيا.

ولذلك يمكن أن نستنتج أن ما يجوز على الشيوعية.. يجوز بالضرورة على الرأسمالية، بمعنى أنه إذا كان الوهن والتهتك قد أصاب الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى، فإن الرأسمالية هى الأخرى معرضة للتحلل والانزواء مثلها مثل الشيوعية. ولا نذهب بعيدا إذا استرجعنا الماضى

القريب حينما كادت الرأسمالية أن تسقط وتنهار على المجتمعات الغربية فى فترة ما سمى بـ «الكساد الكبير». وكان ذلك عقب الحرب العالمية الأولى.

ويومذاك لم ينقذ النظام الرأسمالى إلا القدر الذى ألهم الخبير الاقتصادى البريطانى «كينز» بتصميم نظرية اقتصادية حللت النظام الرأسمالى من بعض أخطائه.

وهكذا تمت عملية إنقاذ المجتمعات الرأسمالية وفى مقدمتها المجتمع الأمريكى من السقوط فى آخر لحظة من موت محقق كاد أن يودى بها- قبل الشيوعية - فى عالم النسيان.

وإذا كان البعض يراهن على أن المجتمع الأمريكى الرأسمالى غير قابل للتفكك، فإننى لا أتفق مع هذا الرأى.. بل أميل إلى القول بأنه لا يوجد شئ اسمه المجتمعات غير القابلة للتفكك، وإن وجدت هذه المجتمعات فإن المجتمع الإسلامى الذى يطبق الإسلام قولا وعملا هو المجتمع الوحيد غير القابل للتفكك والتحلل.

إن الرأسمالية مثلها مثل الشيوعية تفتقر إلى الغطاء الروحى، وكل ما يفتقر إلى الغطاء الروحى آيل لا محالة إلى التحلل والاضمحلال.

ولذلك فإننى أؤكد على الإسلام كأداة حتمية لحفظ المجتمع المسلم من التفكك، بدليل أن الاضمحلالات التى تعرضت لها المجتمعات المسلمة عبر أربعة عشر قرنا.. لم تنته بهذه المجتمعات إلى زوال، بل عادت وحقنت هذه المجتمعات وكتبت لها الاستمرار والبقاء ثم الارتقاء..

ولو أن دينا حورب على مدى أربعة عشر قرنا كما حورب الإسلام، لأصبح هذا الدين - منذ وقت بعيد - أثرا بعد عين، ولكنه الإسلام المتميز بالخلود، وهو الذى يميز المجتمع المسلم عن أى مجتمع عصرى أو حجرى بالاستمرارية والخلود.

وإذا كان الغرب يجاكر بالرأسمالية تارة وبالديمقراطية تارة أخرى، فإننا يجب أن نذكر الغرب بأن الأيديولوجيات الفارسية والرومانية والصليبية والأوربية.. ظلت توقد النار وتنفخ فيها لأكثر من ألف وأربعمائة سنة. ولكن النيران لم تحرق إلا أصحابها، وبذلك آلت تلك الأيديولوجيات إلى خبر كان.

ونود أن نؤكد للغرب بأن التاريخ الذى يحفظ أسباب سقوط تلك الأيديولوجيات فى مواجهة الإسلام، يحذر الغرب الحديث من مغبة تجهيز حملته الجديدة ضد الإسلام والمسلمين.

ويجب أن نذكر بأن كل الحضارات وأيديولوجياتها لم تمت وتنته إلا فى مرابض الإسلام.. أى حينما بدأت حملتها الضارية ضد الإسلام والمسلمين.. بدأت تتآكل وتضمحل.

هكذا انهارت الفارسية وكذلك الرومانية.. ثم هكذا اندحرت الصليبية والأوربية.. وأخيرا الشيوعية.. وهكذا ستموت الرأسمالية..

وحدة الأمة.. مقابل التعددية القبلية

يستطيع الفكر السياسى المعاصر أن يستخلص من «العقيدة الإسلامية» أنها طرح سياسى يحمل معه صيغ التغيير الأمثل للبشرية، ولعل أهم صيغة طرحتها العقيدة الإسلامية هى الانتقال من القبلية المتصارعة ومن واقع التشرذم والتبعية، إلى موقع الوحدة واستقلالية القرار، فمفهوم «الأمة الواحدة» فى القاموس الإسلامى يواجه مفهوم «التعدد القبلى» فى القاموس الجاهلى: ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[1]. وتأتى مظاهر التوحيد فى الفكر والعبادة والواقع الاجتماعى لتساهم فى تعميق فكرة التلاقى والتوحد داخل إطار «الأمة الواحدة» انطلاقا من التوحيد المقابل لتعدد الآلهة فى المجتمع الجاهلى، ومروراً بالتوحيد فى أشكال العبادة ومظاهرها، فالصلاة جامعة خلف إمام واحد فى وقت موحد، والصوم على نمط واحد وبتوقيت واحد، والحج فى وقت واحد وعلى طريقة واحدة، إنما هو تجسيد للفكر والعبادة.

ولقد انتقل مفهوم «الأمة الواحدة» من الحيز النظرى إلى التطبيق العملى داخل جماعة المؤمنين بالدعوة الإسلامية، فكانت ظاهرة المؤاخاة فى مكة توكيداً لوحدة الأمة الناشئة، هدفها إنشاء علاقة عقائدية جديدة فى مواجهة رابطة الدم الجاهلية، وكان تمتين تلك المؤاخاة بإقامة مؤاخاة ثانية تجمع بين مهاجرى مكة وسكان المدينة من أوس وخزرج فور انتقال النبى ﷺ إلى يثرب، كانت هى الأخرى علاقة عقائدية جديدة، وبدأ يتضح الاختلاف النوعى بين الأمة الواحدة الجديدة والتجمعات القبلية الجاهلية، فهى أمة تحارب التقليد والاتباعية فى التفكير والممارسة: «ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا

---

(١) سورة الأنبياء (٩٢).

على آثارهم مقتدون»[1] وهى أمة تؤمن بسيادة العقل والمنطق السليم لتصحيح الانحراف الإنسانى فى المفاهيم الجاهلية «وإذا الموءودة سئلت* بأى ذنب قتلت»[2] وهى أمة ترفع شعار التحرر من عبودية الحكام الطغاة فى إطار نزعة استقلالية تأبى الخضوع إلا لله رب الخلق ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾[3]. ولقد ترتب على هذه الطروحات نجاح هذه الأمة الواحدة الجديدة فى وقت وجيز بإقامة دولتها، والإعلان عن وجودها السياسى والدولى عقب فتح مكة وإخضاع الطائف فى السنة الثامنة للهجرة بعد أن حققت - بشكل ثابت - حول مثلثها الجغرافى الأول (مكة، المدينة، الطائف) العناصر الضرورية لتكوين الدولة، من خلال:

١- وحدة النظام المتمثل بالتشريع الإسلامى الموحد للجماعة المؤمنة والقائم عليه نمط حكم جديد مركزى التوجه مرتبط بعنصرى الوحى والشورى.

فالوحى نص تشريعى ملزم يتقبله الإقرار بفعل إيمانى، والشورى تدبير سياسى فى معالجة القضايا الخارجة عن دائرة الوحى.

٢- وحدة الشعب المتمثلة بمفهوم الأمة الذى ركزه الرسول فى أذهان المؤمنين عبر مبدأ المؤاخاة والأخوة الدينية فى مكة والمدينة.

٣- وحدة الحكم المتمثلة بقيادة الرسول ﷺ لجماعة المؤمنين بالدعوة إلى قيادة سياسية معترف بشرعيتها فى النفوس قبل النصوص لارتباطها بفعل إيمانى هادف نحو مصلحة جماعية «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم»[4].

٤- وحدة الأرض المتمثلة بالنواة الأولى للدولة العربية الإسلامية فى المثلث الجغرافى (مكة، المدينة، الطائف) واكتسبت شرعية وجودها كسلطة فى منطقة الجزيرة العربية فى السنة العاشرة الهجرية أى عام الوفود، حين جاءت القبائل المجاورة لها تعلن ولاءها السياسى للرسول ﷺ كنبى وكحاكم.

٥- وحدة الهدف فالأمة الجديدة تحمل فى نشأتها نزعة أممية باعتبارها حاملة رسالة كونية التوجه، محورها إقامة العدل والمساواة فى المجتمعات، فالدين الإسلامى دين عالمى «نزل

---

(١) سورة الزخرف (٢٣).
(٢) سورة التكوير (٨ - ٩).
(٣) سورة البقرة (٢٥٦).
(٤) سورة الأنفال (٢٤).

الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا»[1] . وأمة الإسلام شاهدة على الأمم كلها «لتكونوا شهداء على الناس»[2] .

وتنفيذا لهذا الهدف، وجه الرسول ﷺ - كما سبق أن أوضحنا- كقائد للأمة الجديدة رسائل إلى ملوك الأمم المجاورة وحكامها والمسئولين السياسيين والدينيين فيها يعلن قيام نظام دولى جديد ويحذر من الوقوف فى وجه تبليغ رسالتها الأممية، لعل أبرزها إلى النجاشى ملك الحبشة وهرقل ملك الروم وأسقف القسطنطينية وأسقف إيلة ثم المقوقس حاكم مصر وكسرى ملك الفرس. واختلفت ردود هؤلاء المسئولين بين اللطافة والليونة من جهة، والصلابة والعناد من جهة ثانية.

مبادئ النظام السياسى الإسلامى

فى الإطار الذى تحدثنا فيه فى مقدمة هذا الباب، فإن النظام السياسى الإسلامى بات يتعرض فى هذه الأيام لحملة مسعورة أخذت تلاحقه وتتهمه بأنه نظام غير سياسى، ولا شك أن هذه الحملة المدبرة من قبل مراكز التنصير والضالعين معها تأتى كرد طبيعى للصحوة الإسلامية التى علت أصواتها فى كثير من بلاد العالم الإسلامى، والتى غدت تطالب حكامها بضرورة العودة إلى الإسلام وتطبيق نظامه السياسى العادل. ولقد أخذت الحملة أشكالا شتى، فهى إما مجموعة كبيرة من المقالات تدبجها يراعات المتغربين، أو هى مجموعة من الكتب التى تتستر تحت عباءة الدراسات العلمية.

ولقد قرأت مؤخرا عدة مقالات تستهدف تعليق مختلف المثالب - بغير وجه حق - بالنظام السياسى الإسلامى، كما قرأت فى العام الماضى كتابا للدكتور محمد رضا محرم تحت عنوان «تحديث العقل السياسى الإسلامى» يلمح فيه إلى ضرورة «غربنة» النظام السياسى الإسلامى[3] .

ويمكن أن نلخص فحوى الحملة التنصيرية التى تدور رحاها اليوم فى أنها تحاول إفهام المسلمين الذين يتطلعون إلى العودة إلى تطبيق النظام السياسى الإسلامى بأن نظامهم الإسلامى السياسى لم يأت لكى يحقق «الدولة» وإنما جاء فقط لوحدة الأمة والخليفة بعيدا عن فكرة إنشاء دولة.

١- سورة الفرقان (١).　　٢- سورة البقرة (١٤٣).

٣- د. محمد رضا محرم، تحديث العقل السياسى الإسلامى (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٦)، ص ١٧ - ٤٧.

والغريب أن القائلين بهذه المزاعم هم الذين يستخدمون المعايير الغربية لقياس النظام السياسى الإسلامى واتهامه بأنه لم يبن «الدولة الإسلامية»، وإنما بنيت الدولة الإسلامية على مخلفات الأنظمة السياسية الفارسية والرومانية...

والواقع أن استخدام المعايير فى الحكم على النظم السياسية يعتبر من أهم وسائل دراسة هذه النظم؛ ولذلك كان يجب على هؤلاء المتغربين استخدام المعايير التى تفضى فعلا إلى نتائج علمية محايدة.

فمثلا إذا كان الإسلام يرفض القوانين الوضعية ويرفض المعايير الغربية فكيف نحكم له أو عليه من خلال هذه الأدوات التى تتناقض مع مفاهيمه ورؤاه.

وبالمثل فلو أردنا أن نقيس مدى صلاحية أو عدم صلاحية النظام السياسى الغربى فإن حكمنا على هذا النظام من خلال أدوات النظام السياسى الإسلامى حتما سيؤدى إلى نتائج ضد النظام السياسى الغربى.

وعلى المفكرين الإسلاميين أن يتنبهوا إلى أن من أهداف الحملة المغرضة ضد النظام السياسى الإسلامى هو أن يساق إليها بعض رجال الفكر الإسلامى ويستخدموا المفاهيم والمصطلحات الغربية التى قد تقودهم إلى نفس النتائج التى توصلوا إليها أو التى يريدوننا أن نصل إليها حتى نسلم ببعض الطروحات الغربية المضللة.

إن الغرب القديم حينما بدأ يدخل فى العصر الذى أسماه بـ «عصر النهضة» لم يجرؤ على القول بأن النظام السياسى الإسلامى لم يكن مشروعا لبناء الدولة.. بل قال بالفم الملآن إنه المشروع الأوحد والأساسى لبناء الدولة، ثم أخذ - فى ذلك التاريخ - يتهافت على الاقتباس من النظام السياسى الإسلامى المتألق ومن الحضارة الإسلامية الزاهية٦٢١٩.

إن الفكر السياسى الغربى يعرِّف «الدولة» بأنها مجموعة دائمة ومستقلة من الأفراد (الأمة) يعيشون على إقليم معين، وتربطهم رابطة سياسية مصدرها الاشتراك فى الخضوع لسلطة مركزية تكفل لكل فرد منهم التمتع بمباشرة حقوقه المشروعة[٢].

إذا كان هذا هو التعريف العلمى «للدولة» كما حددها الفكر الغربى، فهل الدولة الإسلامية التى استمرت ألفا وأربعمائة عام تقريبا وكانت تتألف من أمة إسلامية تعيش فوق إقليم محدد وترتبط هذه الأمة برابطة سياسية وتخضع لسلطة مركزية يرأسها الخليفة[٣].

١- عثمان عبد عثمان، السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٩٧ - ١٠١.

٢- د. محمد يوسف موسى، نظام الحكم فى الإسلام (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م)، ص ١٥ - ٢٣.

١- جاك ريسلر، الحضارة العربية، تعريب خليل أحمد خليل (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٣)، ص٧٣-٧٤.

فهل - بعد هذا - نتجاهل كل هذه المقومات التى تتفق مع تعريف الدولة كما جاء فى الفكر الغربى ونقول بأن النظام السياسى الإسلامى لم يأت بمشروع قيام الدولة؟

ثم كيف يمكن أن نفصل الأمة عن الدولة، هل يمكن أن نطلق على الدولة بأنها دولة بعد أن نفرغها من محتواها (الأمة)؟

بمعنى: كيف نقول بأن الإسلام جاء لوحدة الأمة ولم يأت لبناء الدولة رغم أن وحدة الأمة هى النواة الأساسية لبناء الدولة وقيامها؟!!(١)

من المسلم به علميا أن النظم السياسية لا يمكن أن تبدأ من فراغ، وإنما تستمد مقوماتها من الجذور الضاربة فى بطون التاريخ والتراث، والإسلام هو المحتوى النفيس الذى تعود إليه أمة الإسلام لتستلهم منه استقرارها ونظمها. ولا يضير هذه الأمة أن يقال حول نظامها السياسى ما يقال، فيكفى هذه الأمة فخرا أن نظامها السياسى مستوحى من شريعة الله.(٢)

إن الدولة الإسلامية الأولى ظهرت مع بزوغ فجر الإسلام، ثم امتدت طويلا فى عروق التاريخ حتى طوت عشرة قرون، وكان لابد عبر هذا المدى من القرون أن يتعرض النظام السياسى لسنة التطور والتبدل، فهو فى عهد الخلفاء الراشدين غيره فى عهد بنى أمية، غيره فى عهد العباسيين، غيره فى عصر الإمبراطورية العثمانية.

وإذا عزنا إلى دليل آخر من واقع الحال فإننا نأخذ الديمقراطية الغربية التى تأخذ بها اليوم الكثير من الدول الحديثة، ولكن مع هذا فإن تطبيق الديمقراطية اليوم يختلف عن تطبيقها فى القرن الثامن عشر، ثم القرن التاسع عشر.. بل يختلف من جيل إلى جيل فى ذات الدولة الواحدة.

ولا شك أن هذا «التطور التاريخى» للنظام السياسى الإسلامى يؤكد أن الإسلام جاء بنظام سياسى لبناء الدولة مثله مثل النظام الديمقراطى الغربى بل وأفضل منه كما أوضحنا ذلك فى الفصول الأولى من هذا الكتاب.

والخلاصة، أن النظام السياسى الإسلامى أفرز «الدولة» وأفرز «الأمة» وأفرز «الحضارة» الخالدة التى قامت عليها الحضارة الغربية.

١- أبو الأعلى المودودى، الحكومة الإسلامية، ترجمة أحمد إدريس (جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م)، ص ١٥١ - ١٥٢.

٢- د. محمد عبد القادر أبو فارس، النظام السياسى فى الإسلام (عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٨٠)، ص١٣١ - ١٤١.

الرسول ﷺ حقق أول وحدة عربية فى التاريخ
لأن الوحدة العربية.. مقدمة هامة للوحدة الإسلامية

تؤكد تجارب التاريخ العربى القديم والحديث أن الوحدة العربية الناجحة لا تأتى صحيحة ومتعافية، إلا إذا جاءت من الجزيرة العربية مهد العروبة ومنبع الأمة العربية.

وحينما دعا محمد ﷺ من مكة المكرمة إلى اعتناق الدين الإسلامى الحنيف بدأ بتوحيد الجزيرة العربية، ثم أخذت دعوته المباركة تتواكب من المدينة المنورة حتى استكمل الخلفاء الراشدون وحدة البلاد العربية على كل التراب العربى الواسع الأرجاء[1].

ففى إطار العمل العربى المشترك، بعث الرسول ﷺ رسالة إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين يدعوه فيها إلى الإسلام وجاء فى الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية»[2].

---

١ – يقر على عبد الرازق فى كتابه «الإسلام ونظام الحكم» الذى أثار ضجة واسعة فى مصر فى الثلاثينيات الميلادية، أن الرسول ﷺ أنشأ الوحدة العربية، ولكن على أسس دينية فحسب لا على أسس الحكم المدنى. ويخالف على عبد الرازق – بذلك– طبيعة وحقيقة الأحداث السياسية والعسكرية والمدنية التى بدأت مع بداية قيام الوحدة العربية فى عاصمة دولة الوحدة العربية بالمدينة. ففى المدينة المنورة بدأ الرسول ﷺ يضع أسس قيام الحكم المدنى على أسس ومبادئ الدين الأقوم، فهو الذى تلقى أمر الله بنشر الشرائع، وقام بوضع وتنفيذ أسس الحق والعدل والمساواة وأصدر الأحكام وجيش الجيوش وقاد معارك التحرير ومثل الحكومة فى المفاوضات وأمر الكثير من القيادات الإسلامية بمهام ووظائف سياسية ومدنية لا توجد إلا فى الحكومة المدنية الكاملة. ويقول الدكتور محمدعمارة فى سلسلة مقالات نشرها بجريدة الحياة فى صيف ١٩٩٣ أنه يميل إلى القول أن كتاب «الإسلام ونظام الحكم» هو من تأليف الدكتور طه حسين وبمشاركة القاضى على عبد الرازق الذى زج به طه حسين فى الواجهة.

٢– النبهانى، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، ص ١٦٩ – ١٩٠.

وكتب الرسول إلى أميرى عمان جيفر وعباد ابنى الجلندى- وهما من الأزد - كتاباً بعثه مع عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان[١]. وجاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى جعفر وعباد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكم وتظهر نبوتى على ملككما. فأجابا إلى الإسلام وصدقا بالنبى[٢].

وكتب الرسول إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق كتاباً بعثه مع شجاع ابن وهب، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك». فلما أتاه الكتاب، قال: من ينزع منى ملكى، أنا سائر إليه (أى محاربه) ولم يسلم. فقال الرسول: باد وباد ملكه.

كذلك بعث الرسول الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى صاحب بصرى، فلما نزل مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو الغسانى وقتله[٣]، وبعث الرسول ﷺ سليط بن عمرو برسالة إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن على الحنفيين ملكى اليمامة.

وكتب الرسول ﷺ إلى مسيلمة فى اليمامة:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وكتب الرسول ﷺ إلى بعض أمراء اليمن، منهم الحارث بن عبد كلال الحميرى وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال. ونعمان قيل ذى يزن ومعافر وهمدان، وزرعة ذى رعين، يدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم أن يؤدوا الصدقة والجزية لمعاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيرا، فبعث إليه مالك بن مرارة يخبره بإسلامهم ودخولهم طاعته[٤].

١- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٢، ص ٢٧.

٢- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٢، ص ٢٧.

٣- المقريزى، إمتاع الأسماع، جـ١، ص ٣٤٥.

٤- ابن سعد، الطبقات الكبير، جزء ٢، ص ٢٩.

وما كادت السنة العاشرة للهجرة تهل ويتأهب الرسول ﷺ لأداء حجة الوداع.. إلا والجزيرة العربية قد توحدت تحت راية الإسلام.

بمعنى أن الزعماء العرب المتعاقبين، حينما بعدوا عن جزيرة العرب، بعدت عنهم الوحدة العربية.

وما حدث للدولة الأموية من تفكك واعتلال، يشهد بأن الوحدة العربية يجب أن يكون مركزها الجزيرة العربية..

ثم ما حدث للدولة العباسية من تشرذم واضمحلال، يؤكد أن تفاعلات الكيمياء العربية يجب أن تعمل عملها على أرض النبتة التى نبتت فيها أولا، ثم تتفاعل تفاعلاً طبيعياً مع فروعها الأصيلة.

ونحن حينما نقول ذلك لا نستلفه من أى أحد، ولكن هذه ضرورة تقتضيها الطبيعة العربية والميراث العربى الذى أعطى هذه المنطقة أسرار اللحمة والسداة، وأعطاها أيضا الكثير من التجارب التاريخية السليمة.

ولقد أكدت الكثير من مشاريع الوحدة فى أى مكان فى العالم بأن مكان الانطلاق، من أهم الضمانات اللازمة لنجاح المشروع الوحدوى.

والجزيرة العربية تحتضن كل أسباب نجاح أى مشروع وحدوى. فمنها النبت والجذر، ومنها المقدسات التى تهوى إليها قلوب كل العرب.

ولذلك حينما استطاع الملك عبد العزيز آل سعود بذكائه الخارق أن يكمل مشروعه الوحدوى فى عام ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م، بدأ بتوحيد الجزيرة العربية، وحقق هذا النموذج نجاحا منقطع النظير.

ومازال مشروع الملك عبد العزيز الذى أسماه «المملكة العربية السعودية» يحظى بتقدير واحترام كافة الدول والمنظمات الدولية، ويتقدم فى هذه الأيام ليصل بتقدمه وتطوره إلى مستوى كثير من الدول المتقدمة. ولقد قال لنا معالى الأستاذ محمد أبا الخيل وزير المالية والاقتصاد الوطنى أن كثيرا من الدول المتقدمة تعاملنا فى الوقت الراهن على أساس أن السعودية دولة متقدمة وليس على أساس أنها دولة نامية رغم أن بقاءنا ضمن مجموعة الدول النامية هو فى صالحنا[1].

١- تم اللقاء فى اجتماع على ضفاف النيل بالقاهرة أقامه على شرفه فى ٩ فبراير ١٩٩٤ الأستاذ عمر كردى المندوب الدائم للمملكة العربية السعودية لدى جامعة الدول العربية.

ولعل أهم أسباب هذا النجاح الذى حققه مشروع المملكة العربية السعودية هو أنه انطلق من نقطة الانطلاق الطبيعية، وبذلك ضمن أهم أسباب نجاحه المتألق.

وإذا كانت المملكة العربية السعودية هى الخطوة الأولى لتحقيق الوحدة العربية، فإننا نستطيع أن نعتبر مجلس التعاون الخليجى هو الخطوة التالية، لأن هذا المجلس هو التجربة الموضوعية القابلة للتمدد فى كل أنحاء العالم العربى، هو باختصار يحمل معه إمكانيات بقائه ونموه واستمراره ونجاحه.

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد أرسى دعائم الدولة الإسلامية المحمدية من المدينة، ثم امتدت دولته فى كل أنحاء الجزيرة العربية والخليج العربى.

ولو أراد العرب (كل العرب) مزيدا من اطراد النجاح على طريق الوحدة العربية، فإنه يتوجب عليهم أن يعملوا على دعم مجلس التعاون الخليجى، ويجعلوه فى القلب بالنسبة لجهودهم الرامية إلى تحقيق الوحدة العربية، ولاسيما أن الحس القومى العربى يوجد بصورة مستمرة فى البيانات الرسمية التى تصدر عن المجلس، وكذلك يتصدر الحس القومى العربى تصريحات المسئولين الخليجيين ابتداء من القادة الخليجيين.. حتى المسئولين فى كافة المستويات[1].

هل أنشأ الرسول ﷺ نظاماً إسلامياً شرق أوسطى؟

فى ظل المفاوضات التى تدور فى هذه الأيام بين العرب وإسرائيل لإيجاد صيغة للسلام فى منطقة الشرق الأوسط، يتداول الإعلام الغربى - باهتمام بالغ- مسألة قيام نظام شرق أوسطى وسوق شرق أوسطية تحت مظلة الغرب..

١- آخر التصريحات الرسمية وردت فى الكلمة التى ألقاها معالى الأستاذ فاهم القاسمى الأمين العام لمجلس التعاون لدول الخليج العربية فى يوم افتتاح مؤتمر العالم العربى وتحدياته فى ظل التغيرات الدولية الذى نظمة المركز العربى الأوربى فى ٢٥ يناير ١٩٩٤ بفندق سميراميس بالقاهرة.

انظر أيضا بيان تأسيس مجلس التعاون الخليجى الذى صدر فى الرياض فى ٤ فبراير ١٩٨١ عقب مؤتمر ضم وزراء خارجية الدول المؤسسة الست: المملكة العربية السعودية، الكويت، عمان، قطر، البحرين، الإمارات العربية المتحدة. ولقد أوضح البيان أن إنشاء المجلس جاء تمشيا مع الأهداف القومية للأمة العربية وفى نطاق ميثاق جامعة الدول العربية الذى حث على التعاون الإقليمى الهادف إلى تقوية الأمة العربية.

ويضم هذا النظام الدول العربية من ناحية، وإسرائيل وتركيا وإيران وكل الدول الواقعة فى حزام ما يسمى بـ «الشرق الأوسط» من ناحية أخرى..

ونستطيع أن نعرف النظام الشرق أوسطى بأنه مجموعة من دول تستثمر عوامل الجغرافيا والتاريخ لوضع صيغة للتكامل فيما بينها فى مجالات متعددة بهدف تحقيق معدلات أعلى فى التنمية والنمو..

وإذا كان هذا هو تعريف النظام الشرق أوسطى، فهل قام الرسول ﷺ ببناء أول نظام شرق أوسطى إسلامى فى التاريخ؟!

لقد أعلن الرسول ﷺ - كما سبق أن أشرنا فى الفصول السابقة -على أمته بأن كنوز الأرض ستفتح أمامكم وأنكم ستدخلون بلاد مصر..

هذا الحديث فى تقديرنا بمثابة خطة يطرحها الرسول ﷺ لبناء النظام الشرق أوسطى بهويته الإسلامية الواقعية..

ثم أخذ الرسول ﷺ بأسباب بناء النظام الشرق أوسطى حينما بدأ بتطبيق دبلوماسية الرسائل، حيث أوفد عمرو بن أمية الضمرى إلى نجاشى الحبشة، وبعث معه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام. فكتب إليه النجاشى رسالة يخبره فيها بقبوله دعوته وتصديقه إياها[(١)].

أما هرقل قيصر الروم، فبعث إليه الرسول كتاباً مع دحية بن خليفة الكلبى، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (الفلاحين). و «ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». فقبل هرقل كتاب الرسول وكتب إليه. «إلى **أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى**، من قيصر ملك الروم، أنه جاءنى كتابك مع رسولك، وإنى أشهد أنك رسول الله. نجدك عندنا فى الإنجيل، بشرنا بك عيسى ابن مريم، وإنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك، فأبوا ولو أطاعونى لكان خيراً لهم ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك»[(٢)].

---

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جزء ٢، ص ٢٩.

(٢) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، جـ٢، ص ٦٢.

وبعث الرسول إلى كسرى فارس كتابا مع عبد الله بن حذافة السهمى يدعوه فيه إلى اعتناق الإسلام، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عز وجل فإنى رسول الله إلى الناس كلهم لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم المجوس»، فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مزق الله ملكه»[1].

كذلك وجه الرسول إلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم كتابا مع حاطب بن أبى بلتعة، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط، «ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». فأحسن المقوقس استقبال رسول النبى وقبل كتابه وأجابه بقوله: «كنت أعلم أن نبياً قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام- وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس، والقبط لاتطاوعنى فى اتباعه، ولا أحب أن يعلموا بمحاورتى إياك[2]».

* * *

وبعد مجموعة الرسل والرسائل الدبلوماسية.. أخذت الدولة الإسلامية - كما ذكرنا فى الفصول السابقة- فى التمدد فى كل أنحاء وبلدان منطقة الشرق الأوسط.

وهكذا يمكن أن نقول أن الرسول ﷺ أول من أنشأ نظاما شرق أوسطى بهوية إسلامية مستنيرة.

النظام الشرق أوسطى المعاصر

ولكن الاختلاف كبير بين النظام الشرق أوسطى ذى الهوية الإسلامية، والنظام الشرق أوسطى المعاصر الذى تعلوه هوية غربية.

---

(١) الطبرى، جـ٢، ص ٢٩٦.

(٢) د. أمين ساعاتى، العلاقات المستمرة بين مصر ودول الخليج منذ العصور الفرعونية حتى العصر الحديث (م. الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٣)، ص ٦٠.

لو أردنا أن نبحث عن الأسباب التاريخية والسياسية التى يؤسس عليها الغرب اهتمامه الشديد بإنشاء نظام شرق أوسطى جديد، لوجدنا أنها فكرة تقوم على أساس مبدأ «وحدة الحضارة».

ووحدة الحضارة فى الفكر الغربى تعنى ضرورة إيجاد صيغة من التناغم بين مختلف الأنظمة فى كل الدول فى هذا العصر، عصر الحضارة الغربية، هذه الوحدة تساعد الغرب على تعميم مبادئ حضارته وإحكام السيطرة على كل دول العالم.

والنظام الشرق أوسطى.. هو فى أساسه محاولة جديدة من محاولات الغرب للسيطرة على دول المنطقة واحتواء القوى العربية الإسلامية فيها.. وهذه المحاولات ليست جديدة على المنطقة.

فمنذ انهيار الحكم العربى الإسلامى فى الأندلس بدأ الغرب تصميم الكثير من الخطط التى تستهدف «تحجيم» الدور العربى الإسلامى وإيقاف تهديداته التى قد تعود وتطال استقلال الدول الغربية ذاتها.

ولذلك نقول إن محاولة إنشاء نظام شرق أوسطى لحماية المصالح الغربية فى المنطقة، ظاهرة غربية مستمرة ولم تتوقف، فلقد ظلت الحروب الصليبية قبل تسعمائة عام تقيم الكثير من الاستحكامات حول القوى العربية الإسلامية. ولكن هذه الاستحكامات ظلت تنهار أمام المقاومات العربية الإسلامية المستمرة.

وإذا كان ثمة خلاف فى المبادرات الغربية فإنه اختلاف فى «اللافتة» التى يسمى بها الغرب ظاهرة الاحتواء والسيطرة.

فلقد كانت آخر لافتة رفعها الغرب (ولن تكون الأخيرة) للسيطرة على هذه المنطقة هى «لافتة حلف بغداد».

ولقد تزامنت فكرة إنشاء نظام شرق أوسطى.. مع نظرية «صدام الحضارات» التى يروج لها - كما ذكرنا - فى هذه الأيام صامويل هنتنغتون، لتشكل هذه النظرية الأرضية التى يقوم عليها النظام الشرق أوسطى.

وتهدف النظرية - كما سنوضح بالتفصيل - العودة إلى ضرب الحضارات القديمة التى بدأت تداعيات بعثها تفرض نفسها اليوم فى مجمل الأحداث الساخنة.

إن الشروط التى يفرضها الغرب على كل دول العالم اليوم تبدأ بشرط تطبيق الديمقراطية (**الديمقراطية الغربية طبعا**)، وتطبيق مبادئ حقوق الإنسان (**حقوق الإنسان الغربى طبعا**).

وهذان الشقان من النظرية الغربية يكفيان لتحقيق **«الوحدة السياسية»** أو ما يمكن تسميته بالتناغم والوحدة بين كل الأنظمة السياسية فى العالم..

ثم بعد ذلك يفرض الغرب على كل دول العالم بدون استثناء شرط تطبيق نظام السوق الحر (**الحرية الاقتصادية الغربية طبعا**). وهذا السوق سيقود الدول إلى ما يمكن تسميته بالوحدة الاقتصادية.

ولا شك أن الوحدة السياسية، ثم الوحدة الاقتصادية تكفيان لتوفير شرط ما يسمى بـ «وحدة الحضارة» ، وتساعدان على إحكام السيطرة الغربية على مقدرات الحياة فى جميع دول العالم.

ومن المصطلحات المتداولة فى هذه الأيام، مصطلح «شرقنة الشرق»، الذى استخدمه المفكر الفلسطينى الأمريكى إدوارد سعيد للتعبير عن الاستشراق الذى كان ومازال يهدف إلى «غربنة» العالم العربى الإسلامى.. أو البحث فيه بغية تشريحه وتقسيمه لتسهيل عملية التعرف على أسراره ثم السيطرة عليه وبالتالى تحديثه وتغريبه[1] .

وهكذا يتم إحكام قفل كل الدوائر على رقبة الأنظمة السياسية والاقتصادية فى كل دول العالم، ليصبح النظام السائد فى العالم هو نظام الحضارة الغربية أو هو نظام الإمبراطورية الرومانية الجديدة.

إن هذا الاهتمام المتزايد من الغرب فى هذه الأيام بمبدأ «وحدة الحضارة»، سببه الأساسى أن الغرب - كما ذكرنا - طفق يحس بأن الحضارة الغربية بدأت تعانى من أمراض الشيخوخة، وغدا نسيم خريفها يهب فى كل مكان من أراضى الحضارة الغربية، بدءا بسقوط الاتحاد السوفييتى ثم قرب تفكك الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد ذلك الإصابات الموجعة التى أضحت تنخر أوصال المجتمع الغربى وتكرس دواعى ضعفه وهزاله وتضطره إلى التخلى عن مرابض حضارته مثل انتشار المخدرات والإرهاب والعطالة والجنس والمجون وانحسار القيم والأخلاقيات وتفكك النظام الاجتماعى والأسرى.

إلى غير ذلك من مظاهر التقهقر والتراجع فى معدلات الممارسات التى تشهد بها الحضارات الإنسانية المتألقة فى الغابر والحاضر.

١- إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩١)، ص ٨٣ - ٩٠.

بمعنى أن اهتمام الغرب- فى هذه الأيام- بإنشاء نظام شرق أوسطى تحت مظلة الغرب.. هو محاولة جديدة لتجديد أواصر الحضارة الغربية المتداعية، وهو فى الوقت نفسه تثبيط لروح الإقدام على بناء أو بعث الحضارات القديمة الجديدة التى بدأت ملامحها تظهر فى الشرق الأوسط وآسيا، وكان يؤمل أن تستلم من الحضارة الغربية المتداعية.. مهمة قيادة وإدارة المجتمعات الإنسانية العالمية..

إن مبدأ «وحدة الحضارة» كما يشير إليه أرنولد توينبى، يقوم على أساس أن الدولة القومية قد انحسرت، وأن هذا العصر هو عصر الدولة فوق القومية أو الكونية أو ما يسمى فى الفكر الغربى المعاصر بالدولة الكوكبية Globalism نسبة إلى الكوكب Glob ، وطبعا آخر هؤلاء المنحسرين هم العرب المسلمون الذين تراجعوا عن مبدأ الوحدة العربية الإسلامية بعد حرب الخليج الثانية، وسجل هذا التراجع درجة أصبحت بسببها فكرة «الوحدة العربية الإسلامية» مجرد تاريخ مضى وانقضى[1].

ولذلك فإن الغرب – بعد انتهاء حرب الخليج الثانية – يعمل بنشاط منقطع النظير من أجل بناء آليات النظام الشرق أوسطى الذى يمثل – فى تقدير الغرب- بناء الدولة فوق القومية التى تقوم على الكوكبية.. أو ما يسمونه اعتباطا بوحدة المجتمعات الإنسانية تحت مظلة الغرب.

وإذا رجعنا إلى تاريخ الغرب نجد أن الدولة العالمية تجد أساس قيامها فى «الإمبراطورية الرومانية» التى كانت – بالنسبة للغرب – تمثل أيام العز أو النقطة الأولى لانطلاق أوربا إلى الكوكبية أو الكونية.

بمعنى أن الغرب يسعى – من خلال قيام النظام الشرق أوسطى- إلى العودة إلى أزهى أيام المجد الأوربى الغابر يوم أن كانت الإمبراطورية الرومانية تفرش فى العالم وتتولى مسئولية قيادة المجتمعات الإنسانية من المحيط المتجمد حتى المحيط المتجمد. ولكن الغرب كما يقول أرنولد توينبى يخطئ حينما يقيم نظريته على ثلاثة فروض «وهمية»، هى:

- وَهْمُ الذات الغربية.
- وَهْمُ الركود وقبول فرض الذات الغربية.
- وَهْمُ الفرضية التى تقول أن التطور يسير فى خط مستقيم بدون تعرج أو اعوجاجات.

ويجب أن لا يتخوف العرب المسلمون من الحملات الإعلامية الغربية التى ترافق مشروع النظام الشرق أوسطى، فالعرب المسلمون لديهم إمكانات ومهارات يستطيعون توظيفها

---

١ – السيد ياسين، التقرير الإستراتيجى العربى، ١٩٩٣، القاهرة، مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية.

لتشمير هذا النظام باتجاه مصالحهم العربية والإسلامية.. فمثلا يستطيع العرب- من خلال النظام الشرق أوسطي- إيقاف العدوان الغربي المسلح الذى ظل يدمر القدرات العربية لقرون طويلة، ثم ازدادت شراسته ضد العروبة والإسلام بزرع دولة إسرائيل فى وسطه.

وإذا جاز للفرنسيين أن يقولوا أن الوحدة الأوربية هى التى تضبط جموح ألمانيا وتحد من ميولها العسكرية مستقبلا، فالشئ نفسه يمكن أن نقوله عن الرابطة الشرق أوسطية التى يجب أن نوظفها لتحد من استمرار عدوانية الغرب وإسرائيل على العروبة والإسلام.

إن ذاكرة الشعوب فى منطقة الشرق الأوسط لم تقتصر على الحروب وحدها، فالمرحلتان المديدتان للخلافة العباسية والسلطنة العثمانية كانتا، إلى هذا الحد أو ذاك، مرحلتين شرق أوسطيتين، إذا ما صح لنا وصف الماضى بتعابير الحاضر. ولئن عملت الحقبة القومية على محو هذا كله، والتركيز على العداوة التى وسمت بعض تواريخ الشعوب، فلن تصعب البرهنة على أن بعضا آخر من هذه التواريخ إنما اتسم بالتعارف والتعاون.

ونقول صراحة إننا إذا توغلنا فى مشاريعنا العربية الإسلامية فى القرنين الأخيرين، نجد أنها مشاريع غربية، وربما استطيع أن أقول أنها غربية شرق أوسطية. أكثر من هذا، إذا تصفحنا دساتير الأغلبية الساحقة من الدول العربية الإسلامية لوجدناها تعب من المشروع الغربى، كما أننا إذا تصفحنا العلوم التى ندرسها فى مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، لألفيناها علوماً تقوم على مبادئ المشروع الغربى..

إنه لا داعى إذن من تكريس الحساسيات والعواطف للحكم على مشروع الشرق الأوسط لمجرد أنه مشروع غربى.

وإذا كانت الإنجازات الباهرة التى يحققها النمور الآسيوية تبهرنا فى الوقت الراهن، فإن مشروع النمور الآسيوية يقوم – دون أدنى شك – على المشاريع الغربية.

بمعنى أن تخلفنا عن ركب النظام الشرق أوسطى، سوف يمنينا بخسائر أكبر من الخسائر الذى يتوقع البعض – ممن يعارضون المشروع- أن العرب بدخولهم فى النظام الشرق أوسطى، يدفعون ثمنا باهظاً.

أن أهم ورقة نلعب فيها أمام الغرب فى هذه الأيام.. هى ورقة النفط، ولكن يجب أن نفطن إلى أن حاجة الغرب إلى النفظ – على المدى البعيد – سوف تتقلص نسبتها مقارنة بحاجاتنا المتعاظمة لكل ما هو غربى.

ولذلك يجب أن نستبعد أن تشكل الدعوة الشرق الأوسطية أى سبب لمخاوف الشعوب والجماعات الصغرى، فهى ليست من صنف الدعوات القومية الآيلة إلى إلغاء الوطنيات أو

دمجها فى كل واحد. وهى فضلا عن احترامها الدول القائمة وحدودها وسيادتها على رعاياها، لا تتعارض مع هيئات وتنظيمات تعمل فى الإطارات الأصغر كجامعة الدول العربية ومجلس التعاون الخليجى مثلا، أو كأية رابطة إقليمية أو جهوية أخرى تجمع بين الشعوب الناطقة بالفارسية، أو الناطقة بالتركية، فى آسيا الوسطى والبلقان.

السوق الشرق أوسطية

تعتبر السوق الشرق أوسطية هى أهم المعطيات التى تقوم عليها فكرة النظام الشرق أوسطى. ولاشك أن هناك مجموعة من المفكرين العرب مازالوا يحذرون من هذا النظام. ونحن نؤكد بأن الحذر واجب، ولكن نقر أن العرب مازالوا يعيشون تحت وهم التخوف من الاقتصاد الإسرائيلى، ويتساوى فى ذلك المؤيد والمعارض، فالمعارض يتخوف من أن إسرائيل ستتحكم فى الاقتصاديات العربية بمهارتها أو قوة اقتصادها، أما المؤيد فيتخوف من المهارة والقوة الاقتصادية الإسرائيلية التى لابد من الاعتراف بها، ثم محاولة احتوائها فى المجموعة الضخمة من اقتصاديات العالم العربى.

ولكن المخرج المهم للعرب من دائرة الخوف هو ضرورة إرساء قواعد التكامل الاقتصادى العربى، ذلك أن السلام مع إستراتيجية تعاون عربية سيضمن للعرب التفوق الاقتصادى على إسرائيل، وأن التخوف من الاقتصاد الإسرائيلى لا مبرر له، ولعل بعض المؤشرات الاقتصادية تعطى بعض المصداقية للافتراض السابق، فعادة يذكر المراقبون العسكريون أن إسرائيل تعد من كبار قوى العالم العسكرية الخمس، وتدعى إسرائيل أنها ثالث قوة عسكرية فى العالم، وليكن ذلك كما يكون إلا أنه من الناحية الاقتصادية فإن قسم المعلومات بالإيكونوميست الإنجليزية يضع حجم الاقتصاد الإسرائيلى فى المرتبة ٣٧ بين دول العالم عام ١٩٩٠. وترتيب الإيكونوميست مماثل – وإن لم يطابق– لغيره من المصادر، واستخدمت هذه المصادر حجم الناتج المحلى الإجمالى مع عدة مؤشرات اقتصادية أخرى لتقييم الاقتصاد الإسرائيلى. مثلا فإن الولايات المتحدة فى المرتبة الأولى وحجم ناتجها المحلى الإجمالى هو ٥٤٤٦ مليار دولار مقابل ٥١ مليار دولار لإسرائيل، وأرجو أن يلاحظ القارئ الفرق المطلق للحجم بالإضافة إلى الترتيب. وكان ترتيب إسرائيل من حيث معدل النمو الاقتصادى فى الحقبة ١٩٨٠ إلى ١٩٩٠ هو ٣٩،٠٠ بين دول العالم. وكانت كوريا الجنوبية فى المرتبة الأولى بمعدل ١٠,١ ٪ سنويا مقابل ٣,٢ ٪ لإسرائيل، وتحتل إسرائيل المرتبة ٢٨ من حيث دخل الفرد السنوى بين دول العالم. وكانت

سويسرا فى المرتبة الأولى بدخل ٣٢٦٩٠ دولارا للفرد سنويا مقابل ١٠٩٧٠ للفرد الإسرائيلى، مقابل ٢١٠٤٩ دولارا للفرد فى دولة عربية واحدة هى المملكة العربية السعودية[١].

وهذه المؤشرات تعنى أن الاقتصاد الإسرائيلى لا يرقى إلى مقدمة اقتصاديات العالم. وبمقارنته باقتصاديات دول الشرق الأوسط أو البلدان العربية سنجد أن الاقتصاد الإسرائيلى لا يحتل المقدمة فى الإقليم أيضا، ومازلنا نستخدم أرقام عام ١٩٩٠. وترتيب الناتج المحلى الإجمالى لبلاد الشرق الأوسط كالآتى: ١- إيران ١٣٩ مليار دولار، ٢- تركيا ٩٢ مليار دولار، ٣- العراق ٥٥ مليار دولار، ٤- الجزائر ٥٢ مليار دولار، ٥- إسرائيل ٥١ مليار دولار، ٦- السودان ٣٩ مليار دولار، ٧- الإمارات العربية ٣٢ مليار دولار، ٨- مصر ٣١ مليار دولار، ٩- ليبيا ٢٩ مليار دولار، ١٠- الكويت ٢٤ مليار دولار، ١١- المغرب ٢٤ مليار دولار، ١٢- سوريا ١٢ مليار دولار، ١٢ مكرر- تونس ١٢ مليار دولار، ١٣- اليمن ٩ مليارات دولار، ١٤- عمان ٨ مليارات دولار، ١٥- قطر ٧ مليارات دولار، ١٥ مكرر- البحرين ٧ مليارات دولار، ١٦- الأردن ٤ مليارات دولار، ١٧- غزة والضفة الغربية ٢,٩ مليار دولار، ١٨- لبنان ٢ مليار دولار، (يلاحظ أن هذه الأرقام قبل حرب الخليج وفى غضون الحرب الأهلية بلبنان).

بمعنى أن مجموع الناتج المحلى الإجمالى لدول الجامعة العربية، يزيد أربعة أضعاف عن الناتج المحلى الإسرائيلى، فلقد كان الناتج المحلى العربى أكثر من ٤٢٠ مليار دولار عام ١٩٩٠ فى وقت كان الناتج المحلى الإسرائيلى لذات الفترة ٥١ مليار دولار. أما من حيث دخل الفرد السنوى فإنه فى الإمارات العربية وصل إلى ١٩٨٥٠ دولارا للفرد، وقطر ١٥٨٠٠ دولار للفرد، والكويت ١١٢٤٠ دولارا للفرد، وكلها تسبق إسرائيل.

أما معدل النمو الاقتصادى فى الحقبة ١٩٨٠ إلى ١٩٩٠ فكان ٨,٨٪ بعمان، ٥,٥٪ بتركيا، ٤,٧٪ بمصر، ٤,٣٪ بالمغرب، ٣,٢٪ بتونس، وكلها معدلات أعلى من إسرائيل.

وحتى الناتج الصناعى المحلى الإجمالى فكان ٣٦ مليار دولار بالسعودية و ٢٥ مليار دولار لتركيا، وكلتاهما تسبق إسرائيل التى تساوت مع إيران بمبلغ ٢٣ مليار دولار (بلغ المبلغ فى أمريكا لذات الفترة ١٤٩٥ مليار دولار).

وحتى بالقياس إلى مبيعات الشركات العالمية فإن هناك أكثر من ٢٠ شركة تزيد مبيعاتها على الدخل القومى الإسرائيلى، وكبرى شركات العالم وهى جنرال موتورز الأمريكية بلغ حجم مبيعاتها ١٢٥ مليار دولار فى نفس العام[٢].

١- د. محمود وهبة، الأهرام، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٣.
٢- المرجع السابق.

ومن حق القارئ المتخصص أن يقول أن قوة الاقتصاد لا تقاس بالكم فقط بل بالكيف أيضا. ومن ذلك هيكل الاقتصاد وحيويته واتجاهاته المستقبلية. ولكن هذا المعيار أيضا ليس لصالح إسرائيل فى المستقبل وفى ظل السلام؛ لأن السلام أكثر خطورة على الاقتصاد الإسرائيلى من الحرب، فالاقتصاد الإسرائيلى وليد الحروب ونما بنموها والعكس صحيح بالنسبة إلى العالم العربى. وسيواجه مستقبل الاقتصاد الإسرائيلى فى ظل السلام عدة عقبات ستؤدى إلى إضعافه، وأمثلة ذلك:

١ - انخفاض قدرة الاقتصاد الإسرائيلى على الاعتماد على العالم وخاصة أمريكا وأوروبا، ومن ذلك المعاملة «الخاصة» التى تتمتع بها إسرائيل والمعونات والمنح والتعويضات. فمثلا بلغت المعونة الأمريكية لإسرائيل بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٩٠ ما يزيد على ٧٧ مليار دولار. ولقد استغلت إسرائيل تهديد العرب - ظلما- للحفاظ على هذه المعاملة الخاصة، فمثلا فى حرب الخليج أودع أصدقاء إسرائيل من الخارج بالبنوك الإسرائيلية ما يزيد على ٩,١ مليار دولار، وازداد هذا المبلغ كلما ازداد خطر الحرب على إسرائيل بعكس المتوقع من حروب رأس المال فى حالة الخطر.

٢ - تقوم الصناعة الإسرائيلية على صناعات الأسلحة والذخيرة، وتقدر إحدى الإحصائيات بأن أكثر من ٤٠٪ من القوى العاملة الإسرائيلية تعمل فى مجال الصناعات الحربية، وإذا حل السلام بالمنطقة فإن هذه الصناعات ستنتكس بما يعنيه ذلك من آثار عكسية على الاقتصاد الإسرائيلى وخاصة قطاع التكنولوجيا العليا الذى تعول عليه إسرائيل آمالا كبارا.

٣- إن إستراتيجية التنمية الاقتصادية الإسرائيلية تعتمد على تشجيع الصادرات بدلا من إحلال الواردات، ولذلك فهى دائمة البحث عن أسواق لصادراتها، وستحرص على اختراق السوق العربية لكى تنجح هذه الإستراتيجة، ولكن من أهم صادرات إسرائيل هى الأسلحة والذخائر، وهذه تواجهها منافسة عالمية حامية لانخفاض الطلب، فمثلاً قامت إسرائيل ببيع معدات عسكرية أمريكية الصنع أو معدلة الصنع فى إسرائيل إلى الصين بعشرات المليارات من الدولارات، وغالبا فإن الاحتكارات العالمية هى التى ستفوز بنصيب الأسد من هذه التجارة على حساب دول مثل إسرائيل.

٤- فى ظل السلام ستصبح إسرائيل مثل بقية دول المنطقة وتعتمد على التعاون الإقليمى ومواردها الذاتية. ويعوق ذلك أن الموارد الطبيعية الإسرائيلية محدودة، فرقعة أرضها لا تزيد على ١ إلى ٤٨ من حجم الأرض المصرية، وحجم سوقها محدود بصغر عدد سكانها، والمياه فيها نادرة والأمطار شحيحة لدرجة الخطورة، ومصادر طاقاتها شبه معدومة، ومنافذها البرية

مغلقة، ومنافذها البحرية مستخدمة، والصحراء تكاد تبتلعها، وميزتها النسبية هى التكنولوجيا المتطورة التى تواجه منافسة دولية حادة.

ولكن معادلة السلام يمكن أن تفرز السؤال التالى:

لقد نجحت إسرائيل فى مرحلة ما قبل السلام فى تقسيم العالم العربى جغرافيا وقوميا، والآن هل تنجح إسرائيل فى توحيد العالم العربى اقتصاديا؟

الإجابه عن هذا السؤال تتمثل فى إقرار وتنفيذ صيغة محددة للتكامل الاقتصادى العربى، ويجب أن نعترف أن السلام سيغير الخريطة الجغرافية والاقتصادية، ولحسن الحظ بدأت معظم الدول العربية التحول إلى نظام السوق الحرة بما يفصل بين السياسة والاقتصاد نسبيا، والمفروض أن يكون لدراسة التعاون العربى الأولوية قبل أن ننظر إلى التعاون الإقليمى المشترك.

وما يجب أن نشير إليه هو أن تجارة العالم الآن ليست سلعا وخدمات فقط، بل إن السوق المالية العالمية هى أكبر فى حجمها من التجارة البينية عشرات المرات، وحركة رأس المال، أو بالأدق رصد المال محاسبيا دون نقلها ماديا تتم الآن فى ثوان وعلى مدار أربع وعشرين ساعة فى اليوم.

وكذلك فإن حركة المعاملات العالمية لا تشمل السلع والأموال فقط، ولكن تشمل كذلك السياحة، وهناك اقتراح قيد الدراسة بانشاء «كارتل» أو منظمة للسياحة الإقليمية تشترك فيها الدول التى تجذب السياح لرسم إستراتيجية لجذب السياح والتنافس مع المناطق السياحية العالمية الأخرى، والاستثمار فى البنية الأساسية والثانوية والتنسيق بين أعضاء الإقليم لتنشيط هذا المجال والدفاع عن مصالحهم كأى كارتل أو محتكر اقتصادى.

ويمكن أن ندرج الزيارة إلى الديار المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس (فى المستقبل) فى دائرة السياحة، حيث إن المشاريع التى تنفذها الحكومة السعودية فى الحرمين الشريفين بخاصة وفى المشاعر المقدسة بعامة.. باتت حديث كل الزوار الذين تأثروا بجلال المكان وأذهلهم مستوى الإنجاز، ولقد بلغ معدل الزيادة فى الزيارة إلى مكة والمدينة – وبالذات فى المناسبات الدينية التى امتدت إلى معظم شهور السنة – أرقاما خيالية.

ومن المشروعات المطروحة فى ظل النظام الشرق أوسطى مشروع مارشال للشرق الأوسط وهو مشروع مماثل للمشروع الأوربى بعد الحرب العالمية الثانية، والذى كان نواة السوق الأوربية المشتركة، ويتضمن المشروع إنشاء صندوق استثمار شرق أوسطى Eegionalfund ثم يليه بنك للإنشاء والتعمير والتطور شرق أوسطى Regional Development Bank علما بأن

الاستثمارا فيما يسمى بالأسواق النامية Emerging Market هو أول وأهم أشكال الاستثمار الأمريكى والغربى حاليا لما حققه من نجاح، حتى أن صحيفة «الوول ستريت جورنال» وهى إحدى الصحف المتخصصة فى الاقتصاد الدولى ذكرت أن الاستثمار بالأسواق النامية هو أفضل الاستثمارات عائدا، وأن الأموال المخصصة له من شركات المال العالمية أكبرها حجما بالقياس إلى أى من منافذ الاستثمار بما فيها الاستثمار داخل أمريكا وأوربا.

وقد يتخوف البعض من أن هدف صندوق الاستثمار أو بنك التنمية هو تمكين إسرائيل من التحكم فى الأموال العربية، وهذا احتمال قائم، ويلزم الحذر منه والعمل على تجنبه، ولكن لابد أيضا من أن نعترف بالحقائق، فإن الأموال العربية وخاصة النفطية يستثمر معظمها خارج المنطقة وفى أمريكا وأوروبا بالذات، ويقدر حجم هذه الاستثمارات ما بين ٦٥٠ مليار دولار و ٨٠٠ مليار دولار. ولم تستخدم بنجاح، فنسبة خسارتها عالية تصل إلى ما بين ٢٥٪ و ٣٥٪ من أصل الاستثمارات، ويقوم باستخدامها نفس بيوت المال العالمية التى أنشأت صناديق الاستثمار للدول النامية مثل أمريكا اللاتينية وغيرها، وبدون تحكم من العرب أصحاب هذه الأموال، فهذه هى طبيعة سوق المال إذ يقوم بيت المال نفسه باختيار الاستثمارات المناسبة فنيا بدون تدخل من صاحب المال نفسه إلا فى حدود ضيقة، وقد آن الأوان لأن تعود بعض الأموال العربية للاستثمار بالمنطقة ولو بطريق غير مباشر، بواسطة بيوت المال العالمية[1].

ورغم أن السوق الشرق أوسطية قد أثار ضجة واسعة فى العالم العربى، إلاّ أن موقف جامعة الدول العربية من السوق مازال موقفا متحفظاً، فقد أشارت دراسة أصدرتها الإدارة العامة للشئون الاقتصادية عبرت فيها عن تحفظات واسعة على السوق وتعريفها ومستقبلها وانعكاساتها على مستقبل الاقتصاد العربى. وقد طرحت هذه الدراسة للمناقشة أمام وزراء المال والاقتصاد العرب فى الدورة الأخيرة للمجلس الاقتصادى العربى التى عقدت بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى ٩ فبراير ١٩٩٤.

ولقد أشارت الدراسة إلى أن هناك خلافاً حول موقع هذه السوق فى النظرية الاقتصادية للتكامل الاقتصادى.

---

١ – د. محمود وهبه، الأهرام، ١٧ اكتوبر ١٩٩٣.

أما عن التأييد الذى وجده مشروع السوق الشرق أوسطية من بعض الفعاليات السياسية والاقتصادية فى العالم العربى، فقد أشارت الدراسة إلى أنها مجرد رغبات من هؤلاء وأولئك، وليس بالضرورة عما يمكن تحقيقه على أرض الواقع، فهناك تصريحات تحدثت عن ولايات متحدة شرق أوسطية وأخرى عن سوق شرقية أوسطية على غرار السوق الأوروبية المشتركة وأخرى عن «اتحاد جمركى شرق أوسطى» على غرار مجموعة «البينولوكس». إذن ليس هناك شكلا محددا ومشتركا لمفهوم «السوق الشرق أوسطية» لدى المسؤولين السياسيين، بحيث يمكننا الانطلاق منه لمعالجة «السوق الشرق أوسطية» معالجة مستقصية، كما لا يوجد بعد جغرافى لتحديد الدول الأعضاء فى «إقليم الشرق الأوسط»، إذ تتباين الإجتهادات والمقترحات وفقا للنظرة المصلحية الإستراتيجية أو الاقتصادية أو السياسية التى تراها الجهات الدولية أو الإقليمية أو العربية. فالإستراتيجية الأمريكية ترى أن جميع الدول العربية وتركيا وإيران وإسرائيل تدخل ضمن «إقليم الشرق الأوسط» بل هى أضافت تعديلا على ذلك باعتبار دول آسيا الوسطى الإسلامية التى انفصلت حديثا عن الاتحاد السوفييتى بعد تفككه ضمن إهتماماتها الإستراتيجية «الشرق أوسطية»، كما تنظر هذه الإستراتيجية إلى الدول الأوروبية على البحر الأبيض المتوسط ضمن نفس الإطار. هناك دول أخرى تضيف إلى «إقليم الشرق الأوسط» منطقة القرن الأفريقى أريتريا وأثيوبيا. كما أن المؤسسات المالية الدولية (البنك الدولى وصندوق النقد الدولى) تضع تقسيمات أخرى مغايرة لمفهوم «الشرق الأوسط» فهى لا تضم جميع الدول العربية بل تستثنى دول المغرب العربى، وتضيف أو تطرح دولة أو أخرى[١].

إن الفكرة الرئيسية التى تخيف العرب المسلمين من النظام الشرق أوسطى – كما ذكرنا – هى أن هذا النظام ربما يكون فرصة مواتية لإسرائيل كى تحقق عن طريق الاقتصاد مالم تستطع أن تحققه بالحرب، وبالتالى تسيطر اقتصاديا وسياسياً على مقدرات العالم العربى تماما كما عملت وتعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية وقبل ذلك فى بريطانيا. .

حقيقة ، طالما أن هذه الفكرة مطروحة بقوة فى الأوساط السياسية والاقتصادية العربية فإنه يلزم مناقشتها بموضوعية وفهم .

فى ضوء ذلك، فإنه لكى نستكمل الحديث عن النظام الشرق أوسطى، يجب أن نواصل حديثنا عن عنوان كبير وضخم فى هذا النظام.وهو السوق الشرق أوسطية، ونتساءل : ما هى الشروط الاقتصادية اللازمة لتحقيق السوق الشرق أوسطية؟!

١- مستقبل العمل الاقتصادى العربى المشترك فى ضوء التطورات الدولية والعربية، الإدارة العامة للشئون الاقتصادية، جامعة الدول العربية، ص ٤٤ - ٤٥.

يمكن وضع هذه الشروط فى شكل تدريجى يبدأ من الأبسط إلى الأعقد . ويبدأ التدرج من التعامل التجارى والاقتصادى الإقليمى إلى التعاون إلى التكامل وقد تتشابك هذه المراحل إلا أنه يمكن عرضها كالآتى :

المرحلة الأولى : وهى التعامل التجارى والاقتصادى بين إسرائيل والدول العربية. ومن الواضح أنه لا يوجد تعامل تجارى أو اقتصادى مباشر بين إسرائيل والدول العربية سوى مصر والأراضى الفلسطينية المحتلة، وتحاول إسرائيل جاهدة أن تبدأ علاقات تجارية مع العالم العربى بإلغاء المقاطعة العربية، والسبب ببساطة أن إسرائيل تحتاج إلى تعاون إقليمى وإلا فإن مصادرها لن تكفى لنموها الاقتصادى بدون معونات أجنبية، ولأنها تبحث عن سوق لصادراتها التى تصل إلى ٣٧٫٥٪ من الناتج المحلى الإسرائيلى.

وقبل أن يتم التعامل الطبيعى بين إسرائيل والبلاد العربية فإن محاولات التعاون ستكون ضيقة ومحدودة الفعالية.

المرحلة الثانية: وهى التعاون الاقتصادى الإقليمى بمعنى تسهيل القيود الجمركية وغير الجمركية بين الأعضاء المشتركين، وتأخذ بعض الأشكال التالية [١]:

(١) اتفاقيات التفضيل الجمركى، وتعطى هذه تفضيلا جمركيا للتجارة البينية بين أعضاء الاتفاقية فتشمل السلع المادية ولا تشمل الشق المالى ، وتعتمد إسرائيل على ٨٥٪ من تجارتها على اتفاقيات التفضيل الجمركى وتفرض قيودا صارمة جمركية على النسبة الباقية وخاصة من بلاد شرق آسيا.

ورغم دخول إسرائيل فى اتفاقيات تفضيلية مع أمريكا ودول السوق المشتركة والافتا، إلا أن تطبيق إسرائيل لهذه الاتفاقيات هو محل خلاف دائم مع هذه الأطراف .

فرغم عدم فرض جمارك إلا أن إسرائيل تفرض رسوما تقدرها وزارة التجارة الأمريكية بحوالى ٢٠٠٪ لبعض السلع و١٠٠٪ لسلع أخرى تحت مسميات رسوم ميناء أو رسوم تخليص، غرامات، ضريبة مشتريات، ضريبة القيمة المضافة، وهكذا.

وتمنع إسرائيل دخول بعض السلع باستخدام تطبيق صرفى للمقاييس والمواصفات والإعلانات والتوصيات المكتوبة على السلع مثل السجاد والأجهزة الكهربائية والإلكترونية

١ – د. محمود وهبة، جريدة الأهرام (١٧ أكتوبر ١٩٩٣).

والمواد الغذائية والأطعمة، وكذلك تصاريح مسبقة لسلع مثل الأدوية، وتحتكر الدولة استيراد اللحوم ، وتعطى الحكومة والأجهزة شبه الحكومية أفضلية السلع المحلية علما بأن قطاع الحكومة يساهم بحوالى ٢٠ ٪ من الناتج المحلى، ونقابات الهستدروت بحوالى ٢٠ ٪ أخرى أى أن مكونات ٤٠ ٪ من الناتج المحلى الإسرائيلى تعطى أفضلية للسلع الإسرائيلية المحلية، وتتطلب بعض الصفقات ذات القيمة العالية المقايضة ، بمعنى أن المصدر لإسرائيل لابد أن يستورد نسبة معينة من السلع الإسرائيلية.

وهناك قائمة خاصة للدول غير الصديقة التى يتطلب الاستيراد منها تصريحا خاصا مسبقا.

(٢) منطقة أو سوق التجارة الحرة ، وهذا ما يشار إليه بخلق منطقة تجارة حرة مثل سنغافورة، وتخصص هذه المناطق للتصنيع بهدف التصدير بدون قيود جمركية أو غير جمركية، وتشمل السلع وليست الأموال ، ولكل عضو مشترك أحقية تحديد سياسته الجمركية أمام العالم كما يشاء. والواقع أن سنغافورة لديها ميناء حر، وليست مناطق حرة إذ تجلب السلع أو تقوم بالتصنيع حول الميناء ثم تقوم بالتصدير للعالم الخارجى ، وهذا بالضبط ما تبغيه إسرائيل، فلديها ميناء حر فى إيلات وحيفا وإشدود ويمكن أن يزداد دوره بالتعاون مع ميناء بغزة أو الأردن أو مصر مجتمعة أو منفردة، وهذا مثال آخر لإمكانية جذب مصادر جديدة للدخل إلى المنطقة دون تنافس بين بلادها ودون التأثير على سياستها القومية أو استخدام مواردها المحدودة.. والموقع الجغرافى لمصر وغزة والأردن وفلسطين قد يعيد تنشيط حركة التجارة العالمية فى هذه المنطقة بما يفيد الجميع .

ومن اللازم أن نذكر أن إسرائيل – برمتها – هى فى الواقع منطقة حرة للسلع التى تستوردها من أمريكا ودول السوق الأوربية المشتركة والافتا – وبالمثل فإذا تم تبادل تجارى طبيعى بين إسرائيل والدول العربية فإنها يمكنها أن تلغى الرسوم والقيود التى ذكرتها مسبقا، ثم تعيد تصدير هذه السلع للدول العربية وسيشجعها على ذلك الشركات الأمريكية والأوربية التى تريد اختراق هذه الأسواق، ولن تحتاج إسرائيل عندئذ إلى اتفاقيات للتعاون لتحقيق ذلك وكل ما تحتاجه هو تطبيع العلاقات التجارية مع العرب، ونظرا للموقع الجغرافى للمنطقة فإن فرص تشجيع التجارة العالمية وإعادتها إلى المنطقة. وبالتالى يفترض فى هذه الحاله أن يستفيد

الجميع ، وهذا مثال آخر لأن تستفيد المنطقة من مصادر دخل جديدة خارجية بدلا من الاعتماد على مصادرها المحدودة، والتنافس مع بعضها البعض، ويمكن حماية السوق العربية باتخاذ بعض الإجراءات الإدارية .

(٣) الاتحاد الجمركى الإقليمى وهو يساوى المنطقة الحرة فضلا عن اتخاذ سياسة موحدة جمركية وغير جمركية تجاه العالم.

المرحلة الثالثة: وهى التكامل الاقتصادى الإقليمى سواء فى شكل سوق مشتركة أو وحدة اقتصادية تتطلب إزالة كل العوائق جمركية وغير جمركية، وتوحيد السياسات النقدية والمالية والاقتصادية والاستثمارية، بل وحتى السياسية بين الدول الأعضاء ، ويحسن أن نترك هذا الموضوع للأجيال القادمة لدراسته فى ضوء الشرق الأوسط الجديد [١] .

وواضح مما سبق أن الافتراض باستكمال قيام النظام الشرق أوسطى منذ الآن ، هو افتراض سطحى وتنقصه الرؤية العلمية المقننة.

ونحن مع هذا، لاننكر أن النظام الشرق أوسطى يحمل فى طياته تحديا اقتصاديا من إسرائيل على كل البلاد العربية.

ولكن الإمكانات العربية تستطيع أن تحجم هذا التحدى كما ذكرنا، وتستفيد من عمليات ومشاريع السوق الشرق أوسطية المطروحة فى المنطقة، وبالذات المطروحة على العرب وإسرائيل . ولا شك أن التعرف على أهم ملامح الاقتصاد الإسرائيلى بالمقارنة مع ملامح اقتصاديات العالم العربى، ضرورة مهمة لتحجيم دور الاقتصاد الإسرائيلى وتحقيق التكافؤ فى الاستفادة من المعطيات الاقتصادية الجديدة.

وحتى ننهج نهجاً اكثر موضوعية، فإننا نحتاج إلى تحليل مزيد من الأرقام بين الاقتصاد العربى والاقتصاد الإسرائيلى.

لنأخذ - على سبيل المثال - التجارة الخارجية وهيكل الصادرات والواردات فى إسرائيل وفى بعض دول العالم العربى لنرى كيف يمكن أن نحقق فوائد اقتصادية متوازنة مع الاقتصاد الإسرائيلى (المهيب!)

---

١ - د. محمود وهبه، مرجع سابق.

أولا : التجارة الخارجية لإسرائيل : لكى نحدد درجة التكامل أو التنافس بين الاقتصاد المصرى والإسرائيلى يلزم أن ندرس أولا الإستراتيجية الإسرائيلية للتجارة الخارجية لأن هذه الإستراتيجية فريدة فى نوعها فى العالم، ثم سندرس مكونات الواردات والصادرات الإسرائيلية وتعتمد الإستراتيجية على عدة ركائز وهى كالآتى:

١ - الاعتماد على اتفاقيات التجارة الحرة الثنائية، والتى تعتمد على إلغاء كافة القيود الإدارية على الصادرات والواردات مع الدول المعنية، وتستخدم أسلوب تخفيض الجمارك تدريجيا على عدة سنوات، وإذا لم يكن هناك اتفاق ثنائى مع دول ما فإن إسرائيل تفرض عديدا من القيود الإدارية مثل الحظر والتراخيص المسبقة والحصص، فضلا عن الجمارك ومجموعة متنوعة من الرسوم والضرائب على واردات هذه الدولة.

ولقد استطاعت إسرائيل توقيع اتفاقية تجارية مع السوق الأوربية المشتركة فى عام ١٩٧٥ على أساس إحداث تخفيضات هائلة فى الرسوم الجمركية.

كما أن إسرائيل استطاعت أن توقع مع الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٨٥ اتفاقية لخفض الرسوم الجمركية بين إسرائيل وأمريكا بحيث تتلاشى تماما فى عام ١٩٩٥.

وبذلك أصبحت إسرائيل أول دولة فى العالم تجمع بين اتفاقيتين مع السوق الأوربية المشتركة وأمريكا.

٢ - حماية الصناعة الوطنية الإسرائيلية لأن الاتفاقات الثنائية تعتمد على تخفيض الجمارك على مراحل معروفة مسبقا حتى تسمح للصناعات الوطنية بالتأقلم وكذلك فإن بعض هذه الاتفاقيات يستثنى الصناعات التى ترى إسرائيل خطورة عليها، أو تحتاج إلى الحماية فضلا عن أن إسرائيل تفرض - كما أشرنا - ألوانا من الرسوم تحت مسميات أخرى مثل ضريبة المشتريات على الواردات، ورسوم دمغة ، ورسوم توقيع ورسوم خاصة - عالية- على ما يسمى بالسلع الترفيهية، وذلك رغم أن الاتفاقات الثنائية تنص على الإعفاء الجمركى.

ثانيا: لننتقل الآن إلى مكونات الصادرات والواردات الإسرائيلية وسيتضح أن هيكل وتكوين هذه الصادرات والواردات يماثل تماما ذلك الهيكل فى الدول الصناعية المتقدمة بعكس هيكل وتكوين الصادرات والواردات فى الدول العربية، ولنأخذ مصر على سبيل المثال،

فإن هيكل وتكوين الصادرات والورادات فى مصر يعكس هيكل اقتصاد الدول النامية أو دول العالم الثالث، وهو كذلك يخلق تناقضا شديدا بين التجارة الخارجية فى مصر وإسرائيل ليس فى صالح مصر؛ فإن مصر تحتاج إلى الصادرات الإسرائيلية لأنها تستورد مثيلاتها من الدول الصناعية المتقدمة. ولكن إسرائيل لا تحتاج من الصادرات المصرية سوى البترول لأنها لا تحتاج إلى استيرادها. ولكن يمكن علاج هذا التناقض باتفاق ثنائى حتى تحمى مصر صناعتها المحلية، وحتى لا يختل الميزان التجارى لصالح إسرائيل وضد مصر وتصبح مجرد سوق للسلع الإسرائيلية.

أما شركاء إسرائيل فى التجارة الخارجية فإنهم - كما يتوقع - يمثلون معظم بلدان الاتفاقيات الثنائية، وعلى رأسهم الولايات المتحدة إذ أنها الشريكة الأولى لإسرائيل من حيث الصادرات والورادات وتوزيع نسب الصادرات الإسرائيلية على شركائها كالآتى : عام ١٩٩١ ٣٠٪ أمريكا ٦٫٧٪ ألمانيا الغربية ٦٫٧٪ إنجلترا ٦٫١٪ اليابان ، ٥٫٨٪ بلجيكا ولوكسمبورج ٤٫٨٪ فرنسا .. أما نسب الواردات الإسرائيلية فتوزع كالآتى : ١٩٫٣٪ أمريكا ١١٫٩٪ ألمانيا الغربية ١١٫١٪ بلجيكا ولكسمبورج ٨٫٥٪ سويسرا ، ٨٫٢٪ إنجلترا ٦٫٥٪ من إيطاليا ٤٫٢٪ فرنسا، ويلاحظ أن تجارة إسرائيل الخارجية ضئيلة القيمة فيما يتعلق ببلاد العالم الثالث سوى البترول الخام إذ يتم استيراده من مصر أو المكسيك .

وبالمقابل فإن الصادرات المصرية بلغت ٣٫٨مليار دولار عام ١٩٩١ .

أما الورادات المصرية فبلغت عام ١٩٩١ حوالى ١١٫٩ مليار دولار .

أما شركاء مصر فى التجارة فإن أمريكا هى الشريكة الأو‌لى للواردات المصرية ونسبتها ١٦٪ ويليها ألمانيا ١٠٪ ثم فرنسا ٦٫٩٪ وإيطاليا ٦٫٨٪اليابان ٤٫١٪ هولندا٣٫٤٪ البرازيل ٢٫٢٪ والاتحاد السوفيتى سابقا ١٫٨٪ .. أما نسبة الشركاء للصادرات المصرية فهى إيطاليا ١٤٫٨٪ أمريكا ٧٫٦٪ الاتحاد السوفيتى سابقا ٦٫٣٪ فرنسا ٥٫٩٪ هولندا ٣٫٨٪ ألمانيا ٣٫٧٪ رومانيا ٣٫٤٪ ليبيا ٣٫٣٪ .. ويلاحظ أن ورادات مصر تأتى معظمها من الدول الصناعية المتقدمة، وكذلك صادراتها .. وقليل منها يتم استيراده أو تصديره إلى الدول النامية.. ويلاحظ أيضا ضعف التجارة الخارجية مع الدول العربية رغم اتفاق السوق العربية المشتركة وغيرها من الاتفاقيات الثنائية [١].

١- د. محمود وهبة، الإهرام، ٣ أكتوبر ١٩٩٣.

ومن النقاط التى تسجل لصالح قيام نظام شرق أوسطى بالنسبة للدول العربية، هو أن الدراسات أكدت أن أسرع مصادر الرساميل نموا فى الدول النامية .. هى حقائب الاستثمارات الأجنبية فى السندات والأسهم العائدة إلى شركات القطاع الخاص، وفى القطاع المختلط وفى الوكالات أو المصالح العامة. وليس من الصعب اكتشاف أسباب هذا التبدل اللافت فى أنماط التدفق العالمى فى الرساميل، فعلى مدى فترة طويلة جداً من الزمن ، كان عائد الاستثمار فى الدول النامية أفضل من عائد الاستثمار فى الدول الصناعية، ولابد من أن يؤدى تعزيز الفعالية وزيادتها التى تبلغ مداها فى الدول النامية إلى توسع اقتصادى أسرع، وبالتالى إلى النمو المتأتى من الأسهم أكثر مما يحصل فى الدول الصناعية .

وسيتعزز هذا الوضع مع تقدم الإصلاحات الاقتصادية فى الدول النامية، ومع زيادة التوسع السريع فى حركة التبادل التجارى الدولية، أضف إلى هذا أن عدد المسنين يزداد بسرعة فى أوروبا واليابان والولايات المتحدة مما يزيد العبء المتأتى من وجود تخصيص أموال كافية لتغطية رواتب التقاعد، وما يعنى بدوره وجوب زيادة المساهمات فى صناديق التقاعد، ولهذا سيكبر دور المؤسسات الاستثمارية فى تدفق الرساميل فى العالم علما بأن الأموال التى تسيطر عليها هذه المؤسسات كبيرة جداً، فلدى انتهاء عام ١٩٩١ بلغت الأموال الإجمالية لدى صناديق التقاعد وشركات التأمين فى خمس دول صناعية رئيسية كبيرة هى: الولايات المتحدة وكندا واليابان وألمانيا وبريطانيا أكثر من ثمانية تريليونات دولار.

وإذا ما أضيف ما لدى مؤسسات مالية أخرى مثل صناديق الاستثمار الجماعية والصناديق الائتمانية لبلغ المجموع أربعة عشر تريليون دولار. ويقال أن خمسة فى المائة فقط من هذا المال الوفير مستثمر فى الأسهم الأجنبية وأن ٠٫٢٥ فى المائة فقط من هذا المال مستثمر فى حوالى ٢٠ سوق أسهم رئيسية ناشئة، ولهذا يمكن القول أنه بوسع المؤسسات الاستثمارية زيادة استثماراتها على نحو كبير فى أسهم الأسواق الناشئة بما فيها أسهم دول الشرق الأوسط، ونأمل أن يحصل هذا فى القريب العاجل والمنظور. كما زادت فى عام ١٩٩٢ قيمة الاستثمارات الأجنبية المباشرة ، أى الاستثمارات الرأسمالية الطويلة المدى، خارج حدود الأموال القومية، فى الموجودات المادية مثل المصانع والمعدات الجديدة ومختبرات البحوث على ١٫٩ تريليون دولار[1] .

١- حكمت شريف النشاشيبى، جريدة الحياة، ١٦ شعبان ١٤١٤هـ = ٢٧ يناير ١٩٩٤.

وتشير الاتجاهات السائدة فى المدى الطويل إلى أن هذه الاستثمارات ستواصل نموها، فبين عامى ١٩٨٠,١٩٧٥ ازداد تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة ضعفين وبلغت قيمة هذه الاستثمارات أكثر من ٢٠٠ بليون دولار عام ١٩٩٠، أى عشرة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩٧٥. وستشهد الأعوام الثلاثون المقبلة زيادة الاستثمارات الأجنبية المباشرة أربعة أضعاف بالقيمة الحقيقية إذ ستقرب قيمة هذه الاستثمارات فى العالم كله من ٨٠٠ بليون بحلول عام ٢٠٢٠.

والمجال واسع جداً أمام توسع الاستثمار ات الدولية المباشرة فى الدول الشرق أوسطية فى المستقبل وربما شهد العام ١٩٩٤ بدء توسع دولى كبير آخر فى الاستثمارت الأجنبية المباشرة، وبحلول عام ١٩٩٥سيكون هذا التوسع فى أوجه، وللمرة الأولى منذ العقود الأولى من القرن الحالى.

وتظهر الأهمية الجديدة لأسواق الأسهم فى الاقتصاديات النامية إذا تمعن المرء فى ما حصل فى الثمانينيات عندما ازدادت قيمة الأسهم الإجمالية المتداولة فى أكبر من عشرين سوقاً فى العالم سبعة أضعاف، وازداد عدد الشركات المدرجة فى هذه الأسواق ضعفين، والأهم من هذا أن قيمة التعامل الإجمالية فى هذا الأسواق زادت بحلول عام ١٩٩٢ أكثر من أربعين ضعفاً على ما كانت عليه عام ١٩٨٠، وزادت قيمة الأسهم الإجمالية المتداولة بالنسبة إلى الناتج المحلى الإجمالى فى دول هذه الأسواق من ستة إلى ٣٢ فى المائة بانتهاء عقد الثمانينيات(١).

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأخذ بنظام السوق والتوسع فى تطبيق الخصخصة على العديد من المؤسسات فى دول الشرق الأوسط، سيزيد حجم عدد كبير من الأسواق الناشئة كما سيزيد السيولة فيها . وبالإمكان أن يشكل التخصيص السوق المساهمة الأساسية التى بدأت تنشط أخيراً أو التى لم تنشأ بعد. كذلك فإن من شأن انفتاح الاقتصاد أمام قوى السوق أن يؤدى إلى توسيع ملكية الشركات التى يملكها أفراد معدودون أو تملكها أسر، كما أن انفتاح الأسواق يؤدى إلى التنافس مما يؤدى بدوره إلى الاستثمار فى شركات أو نشاطات اقتصادية جديدة . وإلى عمليات دمج واستملاك فى الداخل والخارج. وسيؤدى ذلك إلى زيادة المبادرات الآيلة إلى تحسين مناخ الاستثمار بالنسبة إلى الحقائب الاستثمارية الأجنبية فى العالم كله وليس فى منطقة الشرق الأوسط فقط، بل سيشهد تعزيز الارتباط

١- المرجع السابق.

العالمى بين الأسواق العريقة والأسواق الناشئة، وتسعى الشركات الناشئة فى الدول النامية إلى تجميع المال لا فى أسواقها المحلية وحسب، بل فى الأسواق الأجنبية ومنها أيضاً .

ولقد أدى إعلان عدد من الحكومات أخيراً عن عزمهم على التخلى عن الدور المركزى فى بعض النشاطات الإنتاجية والخدماتية إلى زيادة الاعتماد على قوى السوق كمحرك للنمو الاقتصادى .

وسيساهم هذا التحرك القوى فى اتجاه تحرير الأسواق الشرق أوسطية والتخصيص فى خفض العجز فى الموازنات الحكومية فى دول الشرق الأوسط مما يشجع تحرك المدخرات الخاصة ويكمل الإصلاحات التى تتوجه نحو السوق وقواها، والتى تم تطبيقها ونتيجة التبدلات البنوية والتبديلات فى السياسة العامة ستتوزع المسئولية عن النمو الاقتصادى فى منطقة الشرق الأوسط مع مرور الوقت على القطاعيين الخاص والعام على نحو أكثر تساوياً أو مساواة .

ومن هذا المنظور تصبح التنمية المالية فى مكان القلب من الجهود الآيلة إلى زيادة المقدرة الإنتاجية وتعزيز النمو الاقتصادى، وأود أن أشير إلى أن هذه العملية العامة تعتبر بمثابة تحويل لاقتصاد الشرق الأوسط إلى اقتصاديات تعتمد على حسن التدبير المالى وعلى مدى رقى هذا التدبير وتقدمه وفعاليته .

ويتضمن حسن التدبير هذا تحرير السياسات الخاصة بأسعار الفائدة والتخفيف البالغ من القيود المفروضة على الملكية الأجنبية وتغيير عادات الاستثمار وتحسين الثقافة والحس الماليين وتحديث الأسواق الرأسمالية وتوسيع نطاق الخدمات المالية وتسعير هذه الخدمات على نحو فعال كفء. وأذهب إلى القول بأن تحسين فعالية أسواق الأوراق المالية فى الشرق الأوسط وفعالية المؤسسات المالية فيه وتحديث التشريعات والأدوات الخاصة بالنشاطات الأولية وبالتعامل الثانوى هو من الاستجابات الصحيحة المطلوبة لقيام سوق شرق أوسطى تعم فوائده كل دول هذه المنطقة [1].

---

١ - حكمت شريف النشاشيبى جريدة الحياة ، ١٦ شعبان ١٤١٤= ٢٧يناير ١٩٩٤م ،ص ١١

وهكذا يمكن القول أن النظام الشرق أوسطى سوف يوفر للعالم العربى مجالات اقتصادية أرحب، تماما كما يوفر لإسرائيل مجالات مثلها، ولكن المهم هو أن يسعى العرب إلى استغلال واستثمار المميزات النسبية التى تتوفر لهم أكثر مما تتوفر لإسرائيل.

كما أن النظام الشرق أوسطى لا يلغى الهوية العربية أو الهوية الخليجية، ولا يلغى جامعة الدول العربية ومجلس التعاون الخليجى، ولكن على الجامعة والمجلس أن يسعيا إلى إقرار صيغة تتناسب مع المتغيرات الدولية الراهنة وتحمى المكتسبات العربية وتطورها لصالح التنمية فى العالم العربى، أمّا إذا ظل العالم العربى يتخوف من النظام الشرق أوسطى ومن سوقه العريضة، فإن أضرار النفور من هذا النظام سوف تلاحق العرب فى القرن الواحد والعشرين الذى يتميز بتحديات تختلف عن تحديات القرن العشرين.

ولعل أفضل الأمثلة فى شرح احتمال أن يعود السوق الشرق أوسطية بفوائد جمة على الاقتصاد العربى.. هو حجم الفوائد التى عادت على اقتصاد دول شمال أفريقيا العربية، حينما انتسبت إلى السوق الأوربية. وعلى عكس ذلك حينما تحفظت دول السوق على تونس والمغرب تعرض اقتصاد هتين الدولتيين إلى متاعب كثيرة.

وإذا كان بعض المفكرين الغربيين قد وضع النظام الشرق الأوسطى فى إطار ما يسمى بـ «صدام الحضارات»، فإننا فى الفصل التالى سوف نناقش مطارح «حوار الحضارات» من خلال ما يسمى بـ «صدام الحضارات».

الفصل الثانى

الحضارات

حوار ، وصدام

مقدمـــــة

ليس فى تاريخ الحضارات الإنسانية كلها ، أن الحضارات تتميز بصدام دائم. وليس فى تاريخ الحضارات كلها، أن الحضارات كان يحكمها حوار فقط .

ولكن من الثابت أن الاسلام قدّم الحوار على الصدام.

ومن الثابت أن الغرب المسيحى قدّم الصدام على الحوار .

فالرسول ﷺ حينما بدأ ينشر دعوته عالمياً .. بدأ – كما أوضحنا – بدبلوماسية الرسائل التى كانت تمثل قمة الحوار . وفى المقابل فإن الغرب حينما بدأ يدعو إلى إحلال الحضارة الغربية بدأ بسلسلة حروب صليبية مدمرة مازالت تتواصل على عالمنا العربى الإسلامى حتى يومنا هذا.

ولذلك حينما يعود الإسلام من جديد، يعود بنفس الرؤية وعلى ذات المبادئ ويطرح الحوار أولاً ، مقابل ورقة الصدام التى يلعب بها الغرب ضد الإسلام ومسلميه فى كل مكان من العالم.

ويرتكز التحليل الحضارى فى فهمه لهذه العلاقة على كونها تفاعلا ما بين دائرتين حضاريتين متميزتين لكل منهما خصوصيتها التاريخية التى تشكل قسماتها الرئيسية وعناصر استمرارها. وفى ظل هذا التفاعل استطاع الغرب عبر صعوده إلى مواقع الهيمنة وخصوصا بدءا من القرن الخامس عشر أن يراكم ما تسميه هذه المنهاجية « فائض القيمة التاريخى » الذى شمل كافة الموارد المادية والجغرافية والثقافية، والذى أتاح للغرب أن يسيطر فى علاقاته بالدوائر الحضارية الأخرى – ومنها الدائرة العربية الإسلامية – على موقع الهيمنة شبه المطلقة . ولم يكن ذلك الصعود وتحقيق التراكم – فى منطق الغرب – متحققا بغير قيام الغرب بموجات متلاحقة من الغزو والاحتلال والتدمير للدوائر الحضارية والمناطق الثقافية الأخرى ومن أهمها الدائرة العربية الإسلامية[1] .

---

١ – مازال الفلاسفة المعاصرون يجمعون على أن أى حضارة من الحضارات الإنسانية، إنما تقع بين حدين اثنين الميلاد والأفول. ولقد أشار إلى هذه النظرية القرآن الكريم فى قوله تعالى «قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ولقد وضع ابن خلدون المفكر الإسلامى هذه النظرية فى قالب عصرى وجعلها محوراً أساسيا فى بحثه الذائع الصيت الذى أسماه علم العمران، كما أن هذه النظرية مازالت تلقى من المفكرين المسلمين المعاصرين كمالك بن نبى وجمال حمدان وعماد الدين خليل وزكى محمود.. اهتماما كبيرا، إذ يعول المفكرون المعاصرون عليها كثيرا عند مناقشة إمكانية عودة الحضارة الإسلامية وبالتالى عودة الدولة الإسلامية القوية التى تشارك بفعالية فى إدارة النظام الدولى.

وإذا كان بعض المفكرين العرب مثل د. فؤاد زكريا فى كتابه «الإنسان والحضارة» يحاول أن يتحدث عن الصعود والسقوط الحضارى من خلال ثلاث نظريات، وهى ما أسماها بـ: تدهور الحضارة، الدورات الحضارية، تقدم الحضارة.. فان هذه النظريات جميعها لاتخرج عن «الميلاد والأفول» .

وإذا كان المنهج الحضارى التاريخى هو الأقدر على تقديم تحليل أدق لعلاقة العرب بالغرب، فإن العلاقة بين العرب والغرب إنما تمت ولاتزال - ضمن إطار أكثر اتساعا وتحديدا هو الحضارتان العربية الإسلامية والغربية المسيحية، وإذا كانت الحضارة الغربية الحالية قد ورثت عديدا من مقومات الحضارتين الرومانية واليونانية فإن الفترة السائدة منذ اعتناق روما للمسيحية حتى عصر التنوير فى نهاية القرن السادس عشر قد عرفت هيمنة طابع المسيحية الغربية على تلك الحضارة، بما يصح معه تسميتها بالحضارة المسيحية - الغربية. ولقد ضعفت تلك الهيمنة إلى حد ما مع عصر التنوير ثم الثورة الصناعية حيث بدأت المؤثرات اليهودية فى النفاذ إليها مع الانشقاقات التى شهدتها الكنيسة الكاثوليكية فضلا عن قوة هذه المؤثرات فى المجالات الفلسفية والسياسية التى شكلت العقل والوجود الغربى.

صدام الحضارات

إن التغيرات التى يشهدها العالم منذ التسعينيات أى فى مدة لم تتجاوز الثلاث سنوات.. توازى - فى معدلات حركة التاريخ - تغييرات تحتاج إلى زمن يتجاوز القرن . بمعنى أن التغير الذى طرأ على النظام العالمى فى هذه الأعوام الثلاثة يتسم بالسرعة المخيفة التى يخشى منها أن تدخل العالم فى أنفاق خطيرة.

إن التغيرات والتحويلات التى شهدها العالم عبر حقب التاريخ الماضية... هى تغيرات طبيعية تتسم بالتدرج، فمثلا حينما تغير النظام العالمى من الإقطاع إلى اقتصاد السوق لم يستغرق أقل من مائتى سنة، وكذلك حينما تحول النظام العالمى من اللاهوتية إلى المادية الغربية استغرق نحو مائتى عام أخرى . أما التغيير الذى يحدث فى النظام العالمى فى هذه الأيام فإنه لم يستغرق إلا ثلاث سنوات .

ومن المؤلم أن أهم مايميز التغييرات التى تحدث فى النظام العالمى اليوم.. هو أنها تتسم بالصراعات والنزاعات فى عدد من المناطق الساخنة. ورغم أن هذه الصراعات بدأت تقلق المفكرين والمتخصصين .. إلا أنه لايوجد تفسير علمى غربى - حتى الآن - لكل ما يجرى من تغيير وتبديل فى الأنظمة والمفاهيم سوى القول بأن العالم بدأ يدخل مرحلة جديدة من مراحل صراع الحضارات وهو صراع سبق أن عانت منه الأمة العربية فى حقب مختلفة ومتفاوتة من حقب التاريخ العربى القديم والحديث.

إن الوطن العربى باعتباره موطنا للحضارات والرسالات السماوية .. سيظل عرضة للتفجر حالما يتعرض أى جزء من أجزائه لاحتكاك الحضارات.

ولعل أهم أسباب هذا الثمن الباهظ الذى يدفعه الوطن العربى هو أنه كان حاضن الحضارات القديمة وشاهد مولد الأديان السماوية الرئيسية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام. ولو نظرنا إلى خريطة الصراعات السياسية والطائفية والاثنية والثقافية من حولنا ، لوجدنا أننا محاطون بالفعل بمحاور عدة لهذه الصراعات تتقاطع وتتداخل بالطول والعرض فى الوطن العربى.

ويأتى الصراع العربى والغربى الإسرائيلى - بالطبع - فى مقدمة ما هو ماثل أمامنا من صراع حضارى ثقافى دينى، ويظل هذا الصراع قائما حتى إذا تصورنا بأن العرب وإسرائيل سيصلان إلى اتفاق سلام شامل.

وإذا كان مايجرى من صراع عرقى دينى هائل فى بقايا يوغسلافيا بين الصرب والبوسنة والهرسك والكروات .. هو أكثر هذه الصراعات اشتعالاً ولفتاً للأنظار، فإن قاعدته الحقيقية تنطلق فى دولة الخلافة الإسلامية العثمانية التى كانت قد اخترقت قلب أوربا وتربعت فوق صدرها لأكثر من مائتى عام، وما البوسنة والهرسك إلاَّ خلفاء على أراضى الإمبراطورية العثمانية التى كانت ترفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولو ألقينا نظرة أعمق على الخريطة التى تحيط عالمنا العربى فلن نجد حدا من حدودنا إلا وعلى أبوابه حرب حضارية، ففى الحدود الجنوبية يدور صراع عرقى وطائفى شرس فى جنوب السودان وفى القرن الأفريقى والصومال . ثم بعد ذلك يتجسد صراع الحضارات فيما يدور الآن من حروب أهلية وحدودية بين جمهوريات آسيا الصغرى الإسلامية وبين روسيا وجورجيا وأرمينيا. وإذا عرجنا إلى إيران فإننا نجدها لاتنفك تعبر عن حربها الحضارية الفارسية ضد العرب لابسة عباءة الفرس القديمة وهى حروب بان فيها العرب على الفرس فى كثير من مواقعها ، ويبدو أنه حان الآن موعد الثأر .

وإذا انتقلنا إلى الهند وباكستان وأفغانستان فإننا نلاحظ تعبيرا واضحا عن الصراع الحضارى المتجدد.

مجمل الصراع الحضارى الذى يجرى فوق الأرض بسرعة فى هذه الأيام .. يحمل معه كأى صراع حضارى سابق - تغيرات جذرية فى المفاهيم والسياسات والتحالفات.

ولعل أهم ما يلاحظه المراقب هو أن محصلة الصراعات الحضارية الدائرة اليوم فوق كوكب الأرض تتجه نحو تكريس الصراع بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية الحديثة.

فبعد أن كان الصراع - فى ظل ما يسمى بحقبة الحرب الباردة - يدور حول الصراع الإيديولوجى السياسى أصبح - منذ ثلاثة أعوام فقط - صراعا حضاريا عربيا إسلاميا من ناحية ، وصراعا حضاريا غربيا مسيحيا من ناحية أخرى.

الخلفية التاريخية
لصدام الحضارتين الإسلامية والغربية

فى ضوء ما سبق نستطيع أن نقول أن رسالة الحضارة الغربية كانت فى طورها المسيحى الأول خارج قاعدتها الأساسية (القارة الأوربية) خليطاً من نشر العقيدة المسيحية واستكمال المهام التى قصرت عنها الحضارة الرومانية الآفلة من سيطرة على الموانىء الهامة والأراضى الخصبة ومناطق السلع الهامة والنادرة.

ولقد بلورت الثورة الصناعية المهام الأخيرة وأعطتها أبعادا أكثر تعقيدا وأضحت رسالة الحضارة الغربية فيما بعد عصر التنوير هى إعادة تشكيل الشعوب والحضارات الأخرى على غرار الغرب أو - بحسب تعبيراتهم المجحفة - نقلهم من حالة « البربرية » التى يعيشونها وتحديثهم وهدم البنى التقليدية « المتخلفة »التى تتكون منها مجتمعاتهم.

أما الحضارة العربية الإسلامية فقد ظلت تتصور رسالتها طيلة قرون وجودها فى السعى نحو إدخال الشعوب والحضارات الأخرى إلى هداية الإسلام أو بحد أدنى توصيل جوهر رسالته إليها ، وإيصال الامتداد الإسلامى إلى مناطق جديدة مع تلك الرسالة الأساسية.

ولعل هذا الجوهر الرسالى لكلتا الحضارتين هو الذى جعل من صدامهما الممتد والمتواصل، قدرا لا مفر منه. إلا أن القدر الجغرافى قد لعب دورا آخر لا يقل أهمية فى تحديد ملامح هذا الصدام وأطرافه.

إن القول بوجود هذا الصراع الحضارى ليس اكتشافا جديدا مفاجئا ولا هو صدى لموضة فكرية فجرتها بعض المقالات والدراسات الغربية الأخيرة مثل مقالة صمويل هانتينغتون «صدام الحضارات» التى سوف نقوم بتحليلها فيما بعد.

تداعيات سقوط الدول العظمى

استكمالاً لما سبق أن أشرنا إليه عن قرب سقوط الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نطرح هنا سلسلة من التداعيات التى أدت إلى سقوط مجموعة كبيرة من الدول العظمى عبر التاريخ القديم والحديث.

ونتصور أن طرح هذه السلسلة من السقوط لمجموعة كبيرة من الإمبراطوريات السابقة تساعد المتابع على استجلاء الصورة التى ستكون عليها الولايات المتحدة بخاصة والغرب بعامة فى العقود القليلة القادمة[1].

إن سقوط الإمبراطوريات العربية الإسلامية منذ نهاية الخلافة العباسية وظهور عناصر المماليك إلى ظهور العنصر التركى حتى تصفية الدولة العثمانية بإعلان من أتاتورك فى سنة ١٩٢٤ .. وكان العالم العربى - إبان هذه التطورات - فى قلب المعركة، يعانى من هزات السقوط فى هذا المركز أو ذاك، حتى سقوط الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، كانت نتائجها السلبية تنعكس على العالم العربى

ومع أن هناك أسبابا كثيرة لسقوط الإمبراطوريات، إلا أن هناك سببا مشتركا دائما فى كل ظواهر السقوط، وهو وصول الدولة إلى أقصى ما يستطيعه جهدها فى التمدد والانتشار. عندئذ يبدأ الانحسار وقد يأخذ هذا وقتا طويلا.. كان فى الأزمنة القديمة يستغرق عدة قرون، أما فى الأزمنة الحديثة فقد لا يحتاج لأكثر من قرن، وربما إلى أقل من ذلك.

لقد بدأ انحسار الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى، على الرغم من اقتسامهما الممتلكات العثمانية. وكان العملاق الأمريكى قد بدأ يلقى بظله على السياسة الدولية بما سمح للرئيس الأمريكى ويلسن أن يظهر كقائد دولى يقترح على العالم شروطا للسلام، وهى الشروط التى اشتهرت فى التاريخ الحديث بشروط ويلسن. وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح واضحا للجميع أن الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس صارت عاجزة حتى عن توفير التنمية الاقتصادية المحلية، وكان على أمريكا أن تقدم لها المعونة الاقتصادية. أما

---

١ - د. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامى للتاريخ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨)، ص٢٥٥-٢٦٢.

بالنسبة لممتلكاتها وقواعدها العسكرية القديمة فقد أصبحت عبئا لا تستطيع أن تحتمله الموارد البريطانية، وهكذا بدأ الانحسار الكامل، وراحت المستعمرات تستقل واحدة إثر أخرى، واستطاعت حركات التحرير أن تضرب فى الهيكل العجوز المتداعى، وأن تجد موالاة ومساعدة من الإمبراطوريات الصاعدة الجديدة، وبخاصة الولايات المتحدة(١).

وشاهد العالم حركات استقلال فى كل القارات.. فى العالم العربى.. وفى القارة الإفريقية وفى القارة الآسيوية.

وبالمثل، فإن من أكبر مشكلات الإدارة الأمريكية الدين الهائل الذى يثقل كاهل الحكومة الأمريكية حالياً. وقد اقتضى هذا الدين تخفيض النفقات الحكومية، وفى مقدمة ذلك النفقات العسكرية وخاصة الانسحاب من القواعد الأمريكية ووقف سباق التسلح وتقليص ميزانية الدفاع.

وهذا هو الانحسار الإمبراطورى المعروف فى التاريخ.

وكان سقوط الإمبراطورية السوفياتية أيضا نتيجة لوصولها إلى أقصى ما يستطيعه جهدها وطاقتها. وعندما تطلبت المواجهة مع المعسكر الآخر مزيدا من التوسع، عجزت الدولة وانفجر الوضع، وتوالى الانهيار حتى أصبح الاتحاد السوفييتى فى خبر كان.

وعندما يحدث الانحسار تظهر قوى جديدة، أى تتاح الفرصة لتحرك القوى التى كانت محصورة تحت ضغط القوى الكبرى القديمة. وما أكثر القوى المرشحة لذلك.

والقوى التدميرية التى تسببت عن سقوط الإمبراطورية السوفياتية، وضعف الإمبراطورية الأمريكية كثيرة. والحماقات التى رأيناها على الساحة العربية، والناجمة عن حالة السقوط هذه، مثل الحرب العراقية- الإيرانية، والحروب الإسرائيلية العربية، والغزو العراقى للكويت، والمآسى فى البوسنة والهرسك، والاضطرابات العنصرية والطائفية فى الهند، والمواجهات العنيفة فى الصومال، وقوى التخريب والإرهاب على الساحة الجزائرية والساحة المصرية.. كل هذا تداعيات دوامات الانهيار التى شملت واحدا من قطبى الحركة فى العالم وهو الاتحاد السوفياتى، وإرهاصات التراجع الأمريكى اقتصاديا وسياسيا.

١- جاك ريسلر، الحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٣٩ - ٢٤٣.

وإذا كان التمدد سبباً من أسباب سقوط الإمبراطوريات، فإن الإمبراطوريات تسقط لأسباب كثيرة، أخرى، وغالبا ما تكون هذه الأسباب موضوعية، لا تتعلق بإرادات البشر، ولا تستطيع هذه الإرادات أن تفعل شيئا لوقف سقوطها. وقد كان معاصرو الإمبراطورية الرومانية يعرفون أنها تهوى ساقطة بشكل نهائى، ولكن أحدا لم يكن يملك أى وسيلة لوقف السقوط، وكانت تنبؤات الكتاب الرومان واضحة ومؤلمة، وبعضهم كان يشعر أن الإمبراطورية تندفع إلى السقوط على منحدر بالغ الانحدار وأن أحدا لا يملك وقفها.

وكما أن إيقاع التغيير فى عصرنا أصبح سريعا في الاكتشافات العلمية وفى التحولات الثقافية والفكرية، كذلك صارت سرعة الإيقاع فى سقوط الإمبراطوريات حتى أن قرنا واحدا شهد سقوط عدة إمبراطوريات لا تقل فى ضخامتها عن الإمبراطورية الرومانية.

فى الربع الأول من القرن العشرين تمت تصفية الإمبراطورية العثمانية بعد حرب عالمية كبرى، وفى الربع الثانى تمت تصفية أكبر إمبراطورية معاصرة وهى الإمبراطورية البريطانية ومنافستها الفرنسية. وفى الربع الأخير من هذا القرن تمت تصفية الإمبراطورية السوفياتية[(١)].

هل تنتظر أمريكا.. مصيرا مجهولا؟

بدأت قضية انحلال الولايات المتحدة الأمريكية وتفككها تتفاعل وتأخذ بعدا هاما فى أوساط الإكاديميين الأمريكيين.

والسبب أن الأكاديميين وأساتذة الجامعات الأمريكية لا يتعاملون إلا مع الأرقام والمعلومات الموثوقة التى تشكل الأسباب الضرورية للتوصل إلى نتائج موضوعية.

ولقد أفرزت دور النشر– وبالذات فى العلوم الأنثربولوجية– بدءا من عام ١٩٩١ الكثير من الكتب التى تناولت هذه القضية، ولم تخف هذه الكتب توجساتها السوداوية التى أشارت إلى أن الكثير من الأسباب تتدافع – فى هذه الأيام – لتصل بأمريكا إلى ما وصل إليه الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٩٠.

وبدءا من عام ١٩٩٢ انتقلت قضية الانحلال الذى بدأ يصيب مستويات هامة فى مؤسسات المجتمع الأمريكى إلى منطقة الخيارات الصعبة التى تحذر منها مراكز البحث السياسى والإستراتيجى.

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، أحمد عباس صالح، ٥ يناير ١٩٩٤.

ولقد أنتجت هذه المراكز مجموعة من الكتب العلمية التى تتفق مع ما توصل إليه الأكاديميون الأمريكيون والتى تقول بأن المجتمع الأمريكى دخل بالفعل إلى دوائر تنبئ بقرب انفراط أمريكا. وأشارت هذه الدراسات إلى أن أمريكا كادت تسقط بعد الحرب العالمية الأولى حينما تعرضت للكساد الكبير. ولكن سقوطها تأجل إلى الوقت الراهن حيث تتداعى فى هذه الأيام الكثير من الأسباب وتتدافع فى دوائر تشبه الدوائر التى أدت إلى انهيار الاتحاد السوفييتى.

ولعل آخر الكتب التى صدرت فى أمريكا والتى حددت عام ١٩٩٥ بأنه عام بداية كارثة السقوط هو الكتاب الذى أصدره مؤخرا هارى فيجى Harry Figgie وجيرالد سوانسون Garald Swanson بعنوان «سقوط أمريكا»[١].

ويتناول المؤلفان من منظور اقتصادى بحت- بداية المشكلة بقولهما: لقد بدأت عملية استنزاف اقتصادنا فى عام ١٩٧٤، وبذلت الجهود لإخفاء الحقائق عن المواطنين العاديين، أى أن مسئولينا اختطوا نفس الخط الذى انتهجه هتلر وهيروهيتو وخروشوف من قبل. وهم بهذا أيضا يتجاوزون أسس الحرية والعدالة التى قامت عليها بلادنا منذ حوالى مائتى عام.

ولا شك أننا (نحن الأمريكيين) نلعب دورا غير مباشر فى زيادة الأمور سوءا، فنحن الذين ننتخب المسئولين، وبهذا فإننا نصدق كل الأكاذيب التى يسمعوننا إياها قبيل وأثناء حملاتهم الانتخابية، وفى عام ١٩٩٥م ستصل ديوننا إلى (٦,٥٦) تريليون دولار، أى تسعة أضعاف واردات ضرائب الأفراد والشركات، وستصل فوائد الديون إلى (٦١٩) مليار دولار فى حالة بقاء نسبة الفائدة ثابتة، وستعجز حكومتنا عن سداد الفوائد، فما بالك بالديون نفسها؟ والأهم من ذلك هو أننا سندفع (٨٥٪) من إجمالى واردات الضرائب لتسديد الفوائد، وهكذا يتضح لنا حجم المأزق الذى ننزلق إليه، ويتضح أيضا أننا لن ننجو إلا إذا عملنا على تفادى الكارثة بسرعة وبكل جد وإخلاص.

ثم يحذر المؤلفان الإدارة الأمريكية من مغبة ما سيئول إليه الوضع إذا لم تقم الإدارة الأمريكية بأى إجراء عاجل وفعال، فقالا إن معدلات العجز ستصل حوالى (٦٤٠) مليار دولار فى عام ١٩٩٣، وستضطر الحكومة إلى اقتطاع (٨٤٪) من الواردات لسداد الديون فى عام ١٩٩٣، وستزيد هذه النسبة لتصل إلى (٩٢٪) عام ١٩٩٤ و (١٠٣٪) عام ١٩٩٥، وهو العام الذى ستحل فيه الطامة الكبرى.

١- هارى فيجى وجيرالد سوانسون، سقوط أمريكا (بوسطن: براون آند كمبنى، ١٩٩٣)، ص ٢٦ - ٢٧.

وفى ضوء ذلك ينتهى الكتاب إلى الصورة القاتمة للولايات المتحدة فى عام ١٩٩٥، حيث ستواجه الولايات المتحدة الأمريكية مع نهاية هذا العام المعضلات التالية:

* سيفقد الدولار قيمته النقدية والتعاملية.

* ستشهد البلاد ارتفاعا جنونيا فى أسعار المنتجات.

* سيؤدى العاملان الأول والثانى إلى ظهور حالة من التضخم الحاد جدا فى البلاد.

* سيعمل التضخم على التهام مدخرات الأفراد.

* ستخرج الولايات المتحدة من نطاق التجارة والمنافسة العالميتين.

* سيحجم المستثمرون ورجال الأعمال عن إقامة مشاريعهم واستثمار أموالهم فى الولايات المتحدة.

* ستعجز كثير من العائلات عن إيجاد الطعام، وحتى إن نجحت، فلن تجد سوى الأطعمة ذات الجودة المتدنية.

* سيرى (٢٠ ٪) من الموظفين الأمريكيين أنفسهم وقد أصبحوا عاطلين عن العمل بعد أن يفقدوا وظائفهم السابقة.

* ستقل المخصصات المالية الخاصة بمنتفعى الضمان الاجتماعى، ولا أستبعد أن تختفى هذه الأموال نهائيا[١].

* * *

ومع أننا نفترض أن فى هذه الأرقام مساحة من المبالغة، إلا أنها تعطى مؤشرا كى نحدد ملامح مستقبل الولايات المتحدة وهو مستقبل لا يقل يأسا عن المستقبل الذى لاح فى أفق الاتحاد السوفييتى اعتبارا من منتصف السبعينيات والذى بسببه أسلم الروح فى نهاية الثمانينيات.

صدام الحضارات.. وجهة نظر غربية

أخذت فى الشهور القليلة الماضية أرفف المكتبات فى الغرب- وبالذات فى أمريكا- تكتظ بالكتب والدراسات التى تتناول دراسة المتغيرات السريعة التى تجتاح نهاية القرن العشرين، ليبنون عليها توقعاتهم للقرن الواحد والعشرين.

١- هارى فيجى وجيرالد سوانسون، المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٨.

ولقد نشرت مجلة النيوزويك الأمريكية خبرا عن صدور أهم ثلاثة كتب تتناول أهم القضايا التى بدأت تعانى منها المجتمعات الإنسانية منذ سقوط الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٩٠، مرورا بأنشطة التطرف التى اندلعت فى أماكن مختلفة من العالم، حتى اندلاع تفجيرات ما يسمى بحروب الحضارات القديمة التى نامت على روحها قرونا طويلة ثم أفاقت على أصوات المدافع والتفجيرات التى تجتاح الكرة الأرضية من أقصاها إلى اقصاها(١).

الكتاب الأول هو كتاب بول كندى الذى صدر بعنوان «الاستعداد للقرن الحادى والعشرين» Preparing for the Twenty- First Century . والكتاب يلمح إلى مظاهر من التفاؤل تارة، ومظاهر من التشاؤم سوف يعانى منها القرن القادم.

ولكنه يرى أن العنف الذى تشهده أواخر القرن العشرين ما هو إلا تصفيات نهائية لأدران هذا القرن، وأن القرن الواحد والعشرين مقبل على حياة أفضل وسلام أشمل(٢).

وبول كندى هو صاحب الكتاب المشهور «سقوط وصعود الدول العظمى» الذى لقى صدى واسعا فى جميع الأوساط السياسية والفكرية في العالم. وكتابه هذا «الإعداد للقرن الحادى والعشرين» وجد هو الآخر احتفاء كبيرا فى أوساط الأندية الثقافية والسياسية فى العواصم العالمية الكبرى.

والكتاب الثانى الذى صدر فى الأيام القليلة الماضية واحتفت به دور النشر العالمية احتفاء كبيرا هو كتاب «نهاية القرن العشرين ونهاية العصر الحديث». The End of the Twentieth Century and the End of the modern Age لمؤلفه جون لوكاكس.

ويجنح لوكاكس فى كتابه إلى التشاؤم ويثير الكثير من القضايا التى بدأت تطفو على سطح الكرة الأرضية، ومن أهمها قضايا الفقر والتصحر وتلوث البيئة التى ضربت دولا متعددة فى العالم الثالث.

ويقول لوكاكس أن العالم سوف ينقسم إلى عالمين، عالم الفقراء وعالم الأغنياء. ثم يتوقع أن عالم الفقراء سوف يزحف إلى عالم الأغنياء فى موجات غازية باحثة عن الطعام والمسكن، هذه الموجات يصعب صدها حاملة معها إلى العالم المتقدم كل أوزار التخلف والمرض والفقر.

---

(١) Newsweek, march29,1993

(٢) بول كنيدى، الاستعداد للقرن الواحد والعشرين، ترجمة مجدى نصيف (القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩٤)، ص ١٥ - ٣٩.

ويؤكد لوكاكس على أن معالجة الفقر فى دول العالم الثالث.. هى مسئولية عالمية لا يمكن أن تتنصل منها الدول المتقدمة. وإذا سكتت عنها فسوف تلدغها بأنيابها التى لن تجد إلا الدول الغنية كى تزحف إليها..

أما الكتاب الثالث الذى مازالت المنتديات الثقافية فى الغرب تتناوله بالبحث والدراسة والتحليل فهو كتاب اوين بايبكى الذى صدر تحت عنوان تطورات التقدم The Evolution of Progress.

ويذهب هذا الكتاب اتجاها عكسيا لما ذهب إليه كتاب نهاية القرن العشرين ونهاية العصر الحديث، إذ أنه يقدر بأن التطور التكنولوجى المتقدم الذى شهده العالم فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين، كفيل بعلاج الكثير من المشاكل التى يعانى منها الجنس البشرى، وأن العالم فى القرن الواحد والعشرين سوف ينعم فى السلام والأمن وأن رحى الحروب الضارية المنتشرة فى أماكن مختلفة من العالم سوف تتوارى وسوف يحل محلها سلام عادل ودائم وشامل.

والواقع أننا إذا جمعنا الأفكار الرئيسية فى الكتابين الأخيرين، نجدهما يمثلان «الحقيقة» المبهرة التى تعيشها المجتمعات البشرية فى الوقت الراهن.

فالعالم كله مبهور أمام التغيرات الدراماتيكية السريعة التى تحيط به والتى تتقدمها الحروب الأهلية وترويج معطيات صدام الحضارات على كل صعيد.

ولكن الدراسة التى لفتت نظر مراكز البحوث فى العالم كله هى الدراسة التى نشرها صامويل هنتنغتون Samuel P. Huntington[1] رئيس مؤسسة جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد فى مجلة الشئون الخارجية Foreign Affairs، بعنوان صدام الحضارات The Clash of Civilizations وحذر الغرب فيها من أن الإسلام – فى مرحلة النظام الدولى الجديد – سوف يقود صداماً حضارياً عميقاً ضد الحضارة الغربية. ونبه الغرب إلى ضرورة التحسب للإسلام الصاحى الواعد القادم[2].

١– ورد اسم «صامويل» فى العهد القديم بأنه اسم لنبى من الأنبياء. مما يفتح الباب للقول أن صامويل هنتنغتون وقع بحثه هذا تحت تأثير بيئة دينية عنصرية تحمل على الإسلام.

٢– Foreign Affairs, Summer, 1993, pp. 22-43.

يقول هنتنغتون بأن ظاهرة الصراع والحرب فى الماضى كانت تقوم بين دول مستقلة، أما الصراعات والحروب المستقبلية فإنها ستكون بين حضارات مختلفة، وعلى حدود فاصلة ملتهبة بين تلك الحضارات. ويذكر كذلك أن الحروب فى الماضى كانت تقوم على أساس أيديولوجى أو اقتصادى، بينما الحروب والصراعات المستقبلية ستقوم على أساس ثقافى وحضارى.

ويقول كذلك بأن حروب الماضى كانت حروبا «أهلية غربية» أى بين دول غربية، أما الحروب المستقبلية فستكون حروبا بين دول تنتمى إلى حضارات مختلفة وثقافات متباينة.

ثم إن الحضارة الناشئة فى نظرتها الذاتية إلى الإنسان تتابع مسارها فى خط تصاعدى مستفيدة من كل عامل يدفعها إلى زيادة النمو والاندفاع نحو تحقيق ذاتيتها. وقد تتداخل فى مسارها عناصر مستفادة من حضارة مجاورة تنتقل إليها بأشكال مختلفة، إلا أنها تأتى استجابة لحاجات تشعر بها الأمة فى مرحلة معينة من تاريخها، لذا، فالحضارات كلها تكون خاضعة لمبدأ «التفاعل» الذى يبدو من خلال التاريخ الإنسانى العام حتمية قائمة يستحيل معها عزل أية حضارة عن جوارها. وما حاولت حضارة ما الانغلاق والتقوقع على ذاتها والهروب من تأثير سواها، إلا حكمت على نفسها بالموت البطئ. ولئن خيل للبعض أن المحافظة على الخصوصية الذاتية تستوجب الشرنقة، فإن هذا الظن مردود من وجوه عدة: فالذاتية تبقى مصانة عند كل أمة حين تمتلك القدرة على استيعاب ما عند الآخرين من مكتسبات حضارية من أجل تحويلها إلى ذاتيتها. ثم إن الانغلاق إذا كان مقبولا فى فترة التكوين، فإنه فى الفترات اللاحقة، يصبح دليل ضعف الثقة بالذات وبالقدرة على النمو والاستمرار.

ويمضى هنتنغتون فى مقاله إلى تحديد الإطار الجغرافى لكل حضارة وقلبها وتخومها. ويرى أن هناك احتكاكا عنيفا يحدث الآن وسيزداد فى المستقبل على طول تلك الحدود، مما يجعلها أشبه بحزام زلازل ينفجر كل فترة على شكل حروب أهلية، أو حروب بين حضارات.

ويرى بأن هناك خطا فاصلا بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية. وتمثل منطقة البوسنة بؤرة صراع حدودى بين ثلاث حضارات فى رأيه هى الحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية الغربية، والحضارة الأرثوذكسية.

وهكذا يرى هنتنغتون أن معظم هذه الخطوط هى خطوط فاصلة غير مستقرة. وحين يتحدث عن حدود بلاد الإسلام يذكر أن «بلاد الإسلام لها حدود دموية».

The Clash of Civilizations?

Samuel P. Huntington

THE NEXT PATTERN OF CONFLICT

WORLD POLITICS IS entering a new phase, and intellectuals have not hesitated to proliferate visions of what it will be—the end of history, the return of traditional rivalries between nation states, and the decline of the nation state from the conflicting pulls of tribalism and globalism, among others. Each of these visions catches aspects of the emerging reality Yet they all miss a crucial, indeed a central, aspect of what global politics is likely to be in the coming years

It is my hypothesis that the fundamental source of conflict in this new world will not be primarily ideological or primarily economic. The great divisions among humankind and the dominating source of conflict will be cultural. Nation states will remain the most powerful actors in world affairs, but the principal conflicts of global politics will occur between nations and groups of different civilizations. The clash of civilizations will dominate global politics. The fault lines between civilizations will be the battle lines of the future.

Conflict between civilizations will be the latest phase in the evolution of conflict in the modern world For a century,and a half after the emergence of the modern international system with the Peace of Westphalia, the conflicts of the Western world were largely among

---

SAMUEL P HUNTINGTON is the Eaton Professor of the Science of Government and Director of the John M Olin Institute for Strategic Studies at Harvard University This article is the product of the Olin Institute's project on "The Changing Security Environment and American National Interests."

princes—emperors, absolute monarchs and constitutional monarchs attempting to expand their bureaucracies, their armies, their mercantilist economic strength and, most important, the territory they ruled. In the process they created nation states, and beginning with the French Revolution the principal lines of conflict were between nations rather than princes In 1793, as R R. Palmer put it, "The wars of kings were over; the wars of peoples had begun." This nineteenth-century pattern lasted until the end of World War I. Then, as a result of the Russian Revolution and the reaction against it, the conflict of nations yielded to the conflict of ideologies, first among communism, fascism-Nazism and liberal democracy, and then between communism and liberal democracy. During the Cold War, this latter conflict became embodied in the struggle between the two superpowers, neither of which was a nation state in the classical European sense and each of which defined its identity in terms of its ideology.

These conflicts between princes, nation states and ideologies were primarily conflicts within Western civilization, "Western civil wars," as William Lind has labeled them. This was as true of the Cold War as it was of the world wars and the earlier wars of the seventeenth, eighteenth and nineteenth centuries. With the end of the Cold War, international politics moves out of its Western phase, and its centerpiece becomes the interaction between the West and non-Western civilizations and among non-Western civilizations. In the politics of civilizations, the peoples and governments of non-Western civilizations no longer remain the objects of history as targets of Western colonialism but join the West as movers and shapers of history.

THE NATURE OF CIVILIZATIONS

DURING THE COLD WAR the world was divided into the First, Second and Third Worlds. Those divisions are no longer relevant. It is far more meaningful now to group countries not in terms of their political or economic systems or in terms of their level of economic development but rather in terms of their culture and civilization.

What do we mean when we talk of a civilization? A civilization is a cultural entity. Villages, regions, ethnic groups, nationalities, reli-

صفحتان من مقال صامويل هنتنغتــون فــي صــدام الحضــارات
والذى فجر من خلاله قضية من اسخن قضايا الفكر السياسى المعاصر.

ثم يذكر كذلك أن الأساس الذى كانت تبنى عليه العلاقات الدولية فى الماضى والقائل بالمساواة بين الدول فى المسئوليات والواجبات، هو أساس قد تغير وحل محله مقولة «البلد الشقيق» وهذه المقولة ترى أن يتغاضى الغرب عن الأعمال غير الأخلاقية التى تطبقها بعض الدول، مادامت هذه الدول دولا شقيقة، ويجوز له حينئذ أن يطبق القانون الدولى بشكل متباين وغير متجانس طبقا لمبدأ «انصر أخاك ظالما أو مظلوما».

ويمضى الكاتب إلى القول بأن الغرب قد أصبح الآن بعد انهيار الاتحاد السوفيتى هو القوة الوحيدة فى العالم، ولذلك فإنه يستخدم مجلس الأمن والأمم المتحدة كغطاء قانونى لممارسة نفوذه وهيمنته على العالم، ويذكر هنتنغتون أن هناك هيمنة اقتصادية على العالم تمارسها الولايات المتحدة بالتحالف مع ألمانيا واليابان، وهيمنة سياسية تمارسها بالمشاركة مع بريطانيا وفرنسا.

ويذكر أن هناك بعض البلدان التى تعيش حالة انفصام سياسى وحضارى. فجزء من شعبها يميل إلى حضارة معينة والجزء الآخر يميل إلى الحضارة الغربية، وكذلك الحال مع مثقفيها.

ويضرب كمثال على ذلك المكسيك التى تعيش حالة انفصام حضارى بين الحضارة اللاتينية الأسبانية والحضارة الأمريكية، وكذلك تركيا التى تعيش وضعا مشابها منذ العشرينيات بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية. كما يضرب مثلا أيضا على روسيا التى تعانى الآن من حالة انفصام مماثل بين جزء من شعبها ومثقفيها ممن يطالبون بتبنى قيم حضارية وثقافية روسية، مثل فلاديمير جيرونفسكى وآخرين مثل بوريس يلتسين ممن يريد أن يتبنى الحضارة الأوروبية الغربية.

وبعد أن ناقشنا النقاط الأساسية التى تحدث عنها البروفيسور هنتنغتون، نود أن نتوقف بعض الشئ عند بعض النقاط الأساسية فى بحثه، وأولها أنه يقترف نفس الخطأ الذى اقترفه بعض المحللين الغربيين من قبله، فمعظمهم كان يفترض تساوى الدول وتأثيرها فى الأحداث العالمية[1].

ولكن تبدو هذه الأطروحة أكثر تعقيدا من أطروحة فوكوياما، التى أخذ عليها ناقدوها أنها نوع من الأيديولوجيا التبسيطية، ومع ذلك تنطوى أطروحة هنتنغتون كذلك على قدر من

١- د. صالح المانع، جريدة عكاظ، أكتوبر ١٩٩٣.

التبسيط بسبب غلبة النزعة الثقافوية عليها، والاستغراق فى التحليل الثقافى إلى الحد الذى يختزل تفاعلات دولية شديدة التعقيد فى صورة أحادية الجانب، وعلى نحو يتجاهل الجوانب الإستراتيجية فى هذه التفاعلات، وتعانى الأطروحة أيضا من كل ما يعيب الأعمال التى تسعى لتأكيد افتراض معين، وليس لاختباره، فيميل صاحبها إلى حشد كل ما يعينه على ذلك من حجج وشواهد، مع استبعاد ما يتعارض مع مسعاه ضمن سياق يتسم بالانتقائية(١).

وينبغى أولا تلخيص الفكرة الجوهرية لهذه الأطروحة قبل المضى فى مناقشتها، وتتمثل فى أن المصدر الرئيسى للصراع العالمى، بعد أفول عصر الحرب الباردة، سيكون حضاريا وليس إيديولوجيا أو اقتصاديا. فالصراعات الكبرى فى العالم الجديد ستدور بين أمم وجماعات تنتمى لحضارات مختلفة، وستكون الخطوط الفاصلة بين الحضارات هى نفسها خطوط القتال فى المستقبل.

وتجدر ملاحظة مشكلتين فى معالجة هنتنغتون لهذا الموضوع، الأولى: تتعلق بعدم دقة المعلومات التى توفرت له من مواقف القوى السياسية. فهو يجزم مثلا أن الحركات الأصولية الإسلامية كلها أيدت صدام، وهذا تعميم لا ينسجم مع ما حدث من خلافات بين تلك الحركات، بل وداخل بعضها، والثانية تتصل بتقويم مواقف بعض الدول التى انطوت سياساتها تجاه أزمة الخليج على قدر من الالتباس، فنراه مثلا يركز على دعوة أحد قادة إيران إلى الجهاد المقدس ضد الغرب، ويغفل الموقف الإيرانى الرسمى الذى التزم الحياد، لكنه أيد فى الوقت نفسه هدف التحالف الدولى فى تحرير الكويت.

كما يبدو أن هنتنغتون شعر فى معالجته لهذا الموضوع بأنه لا يقف على أرض صلبة تمكنه من اختبار افتراضه أن «الاصطفاف الحضارى» يتزايد حتى بعد استبعادها لإمكان قراءة أزمة- حرب الخليج. من منظور آخر يراها كتعبير عن «اصطفاف» دولى واسع فى مواجهة مجموعات صغيرة تنتمى إلى أكثر من حضارة وليست الحضارة الإسلامية فقط، أفلم يقف متشددون روس مثلا فى صف صدام حسين بدرجة أو بأخرى؛ لذلك يلجأ إلى حجة تبدو وضعية أيضا، وهى أن التحالف الدولى ضد العراق تفكك بسرعة. والمؤكد أن أى تحالف ينفض

١- صدرت عدة ترجمات بالعربية لكتاب فرانسيس فوكوياما، وآخر الترجمات هى الترجمة التى صدرت فى عام ١٩٩٣ للدكتور حسين الشيخ عن دار العلوم العربية ببيروت.

عند تحقيق هدفه الجوهرى، وقد تم إنجاز هذا الهدف بتحرير الكويت، بل وأكثر منه بتحجيم القوة العراقية، وهذا كاف جدا كى ينفض التحالف، دون الحاجة إلى القفز لاستنتاج مبالغ فيه مثل أن «اصطفاف» أقسام كبيرة من النخب والجماهير العربية وراء صدام ومع الحكومات العربية التى شاركت التحالف إلى السعى لتلطيف المشاعر العامة فى بلادها» فهل يمكن القبول بهذا التفسير لفهم قرار إيقاف الحرب فى نهاية شباط (فبراير) ١٩٩١، وتجاهل العوامل الإستراتيجية؟ ألم يتأثر هذا القرار أساسا بتوازن القوى فى المنطقة والتخوف من التداعيات السلبية لاستمرار الحرب على وحدة العراق، التى يمثل الحفاظ عليها مصلحة لدول رئيسية فى المنطقة، بل وللغرب نفسه[(١)].

ويرى هنتنغتون أن السياسة العالمية تدخل مرحلة جديدة، هى مرحلة الصراع بين الحضارات وهى آخر مرحلة فى تطور الصراع فى التاريخ الحديث حيث سيكون الإنقسام الأساسى بين البشرية على أسس ثقافية وحضارية. فوفقا له بدأ التاريخ الحديث بالصراع بين الملكيات المطلقة والملكيات الدستورية لتوسيع نفوذهم عسكريا واقتصاديا وللصراع حول الأرض. ثم بدءا من الثورة الفرنسية أصبح الصراع بين الدول القومية، ثم بنهاية الحرب العالمية الأولى ونتيجة للثورة الروسية ورد فعلها تحول الصراع ليكون إيديولوجى الطابع بين الشيوعية والفاشية وبين النازية والديمقراطية الليبرالية ثم بين الشيوعية والديمقراطية الليبرالية متجسدا - خلال سنوات الحرب الباردة - فى صراع القوتين العظميين.

وقد كانت كل هذه الصراعات - كما ذكرنا - تدور داخل نطاق الحضارة الغربية أو كما وصفها بعض الباحثين بأنها «حرب أهلية غربية» ولكن فى المرحلة القادمة وهى صراع الحضارات سوف تتجاوز السياسة الدولية مرحلتها الغربية ليصبح جزءا مركزيا منها التداخل والتفاعل بين الحضارات الغربية وغير الغربية. وفى هذه المرحلة سينقسم العالم ليس على أساس النظم السياسية والاقتصادية ودرجة تطورها وإنما على أساس الثقافة والحضارة.

ومع تزايد التجمعات الإقليمية الاقتصادية يلاحظ أنها لا تنجح إلا عندما تتجذر فى حضارة عامة وشائعة. والدليل على ذلك - وفقا لمقولة هنتنغتون - نجاح الجماعة الأوربية والصين وفشل اليابان فى خلق تكتلات اقتصادية.

---

(١) د. وحيد عبد المجيد، الشرق الأوسط، ١٧ أغسطس ١٩٩٣.

وسيكون تصادم الحضارات – حسب رأى هنتنغتون – على مستويين: المستوى الصغير (الميكرو) ويظهر فى الصراع الذى يتم غالبا بالعنف بين المجموعات المتاخمة على خطوط التمييز بين الحضارات، والمستوى الكبير (الماكرو) حيث تتنافس دول الحضارات المختلفة من أجل القوة الاقتصادية والعسكرية، والسيطرة على المؤسسات الدولية، ودعم قيمها الدينية والسياسية.

ومع اختفاء الستار الخديدى والانقسام الإيديولوجي بأوروبا يعود إلى الظهور الانقسام الثقافى الأوروبى بين المسيحية الغربية من جانب والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام من جانب آخر، ويترافق هذا الخط مع الحدود التاريخية بين إمبراطورية الهابسبورج والإمبراطورية العثمانية (المسيحيون البروتستانت والكاثوليك فى الشمال والغرب بينما المسلمون والأرثوذكس فى الجنوب والشرق) ومن المنتظر أن يصبح هذا التفاعل العسكرى أكثر حدة. وذلك بالإضافة إلى أثر العوامل الديموجرافية كزيادة الهجرة العربية إلى أوروبا وزيادة العنصرية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا. وفى كلا الجانبين فقد نظر للتفاعل بين الإسلام والغرب على أنه تصادم حضارات. ومن ناحية أخرى هناك تفاعلات الخصومة المتزايدة للحضارة الإسلامية مع الشعوب السوداء المسيحية إلى الجنوب، وعلى الحدود الشمالية يتزايد الصراع بين الشعوب الإسلامية والأرثوذكسية بما فيها مجازر البوسنة، والصراع بين المسلمين والهندوس فى شبه القارة الهندية. ومن ناحية أخرى يتناوب الصراع الحضارى فى درجات العنف وتسيطر عليه أحيانا المنافسة الاقتصادية كما يحدث بين كل من الصين واليابان والولايات المتحدة حيث يتفاقم الصراع الاقتصادى نتيجة للاختلاف الحضارى. وتحاول كل دولة فى صراعها مع دول الحضارات الأخرى حشد تأييد الأعضاء الآخرين فى حضارتها. وبالتالى تصبح الحضارة أساسا للتعاون وللتحالفات[١].

ويرى هنتنغتون أن الهوية (الحضارة) سوف تكتسب أهمية متزايدة فى المستقبل، وأن العالم سوف يشكله التفاعل بين سبع أو ثمانى حضارات كبرى هى الحضارات الغربية والكونفوشية واليابانية والإسلامية والهندوكية والسلافية والأمريكية اللاتينية والإفريقية، وسوف تتركز صراعات العالم المستقبلة عند مناطق التداخل بين تلك الحضارات. ويقدم هنتنغتون عددا من الأسباب أبرزها:

(١) د. على الدين هلال، جريدة عكاظ، ٣٠ سبتمبر ١٩٩٣.

أولا: أن الفوارق بين الحضارات حقيقة لا مهرب منها، فالحضارات تختلف فى التاريخ واللغة والدين والثقافة والتقاليد، وهى فوارق تؤدى إلى اختلافات جوهرية حول مفاهيم علاقة الإنسان بالخالق، الفرد والمجموع، المواطن والدولة، الأبناء والآباء، الأزواج والزوجات، ثم مفاهيم الحقوق والواجبات والحرية والسلطة والمساواة، وهى اختلافات لن تختفى بسرعة، ثم إنها اختلافات تقسم البشر أكثر مما تقسمهم الأيديولوجيات السياسية وأنظمة الحكم. صحيح أنها اختلافات تؤدى إلى صراعات ليست دموية بالضرورة والحتمية، ولكن دروس التاريخ حتى الآن تؤكد أنها أدت إلى أكثر الصراعات دموية.

ثانيا: أن التقارب الذى تحدثه ثورة التكنولوجيا أخيراً يوقع العالم فى تناقض واضح، ففى الوقت الذى يبشر هذا التقارب بذوبان الفوارق الحضارية فإنه يؤدى أيضا وبصورة أقوى إلى زيادة الوعى بالحضارة الخاصة لكل شعب وعمق الفوارق بين الحضارات المختلفة. ومن ثم تؤدى زيادة الهجرة العربية إلى فرنسا مثلا إلى أحداث عنف وتعصب واضحين، بينما ترفع من درجة الترحيب بهجرة البولنديين لأسباب حضارية واضحة، ونفس الشئ فى الولايات المتحدة حيث يشعر الأمريكيون بحساسية مفرطة تجاه الاستثمارات اليابانية ويرحبون بالاستثمارات الكندية والأوربية.

ثالثا: لقد أدى تحديث وسائل الإنتاج والأنظمة الاقتصادية والتغيرات الاجتماعية التى طرأت على العالم إلى انفصال الإنسان عن هويته الإقليمية التقليدية، وقد حدث أن تحرك الدين لملء الفراغ الناشئ، وهو تطور موجود فى كل أنحاء العالم، فالأصولية ليست مقصورة الآن على هونج كونج وتايوان وسنغافورة أفضل منها بين اليابان وجيرانها، وذلك بسبب العناصر الثقافية المشتركة التى تربط بين الصين وتلك الدول، وهو ما لا نستطيع قوله عن النموذج اليابانى، ولهذا أيضا يتوقع الخبراء أن تكون الصين هى الكتلة الاقتصادية الكبرى القادمة. أى أنه كلما حددت الشعوب هوياتها على أسس عرقية ودينية زاد لديهم الإحساس بالتناقض بين «الأنا» و «الآخر» أو «نحن» و «هم» فالاختلافات الثقافية والدينية تؤدى إلى اختلافات حول الأمور السياسية، والأهم من هذا وذاك أن محاولات الغرب نشر أفكاره عن الديمقراطية والليبرالية والإبقاء على تفوقه العسكرى والحفاظ على مصالحه الاقتصادية يؤدى وسوف يؤدى إلى ردود فعل مقابلة من الحضارات الأخرى. وهكذا يتحقق تصادم الحضارات على مستويين، على المستوى الأصغر والمحدود عند مناطق التداخل بين الحضارات المختلفة، وخاصة الصدام

حول السيطرة على المناطق والأراضى، وعلى المستوى الأكبر ونعنى به التصادم بين دول تنتمى إلى حضارات مختلفة فى محاولة لتحقيق التفوق العسكرى والاقتصادى والسيطرة على المؤسسات القومية والأطراف الثالثة ثم نشر قيمها الدينية والسياسية الخاصة[1].

بعد ذلك الحديث عن ضرورة الصراع الحضارى القادم ينتقل «صامويل هنتنغتون» إلى مناقشة نماذج من أبرز الصراعات القادمة والتى يمكن القول بأنها بدأت بالفعل. أبرز تلك الصراعات القادمة بالطبع هو الصراع بين الحضارتين المسيحية والإسلامية.

ربما تعكس أطروحة هنتنغتون خيبة أمل قطاع من الغربيين نتيجة تزايد النزعة الأصولية فى كثير من الثقافات، والمقصود ذلك القطاع الذى ينظر للحضارة الغربية باعتبارها الحضارة العالمية التى تسمو على غيرها. لكن هذه النظرة نفسها مسؤولة بقدر أو بآخر مع عوامل أخرى، عن تنامى الأصوليات التى هى فى جوهرها تعبير عن إبراز التمايز تجاه الغرب المهيمن. فهذه الهيمنة تولد مشاعر غضب لا تعكس بالضرورة فى كل الأحوال كراهية أصيلة للغرب بقدر ما تمثل ردة فعل على سياسات محددة له، ولا تعطى الأطروحة التى نناقشها هذا الجانب قدرا كافيا من الاهتمام، على رغم تطرقها إليه بصورة هامشية لا تؤثر على جوهرها الذى يظل معبرا عن منهج حدى قوامه إما التطور نحو حضارة عالمية (الغربية) أو صدام بين الحضارات، ولا مجال لخيار ثالث بينهما[2].

وهكذا، بعد أن شرحنا وحللنا نظرية «صدام الحضارات» لصامويل هنتنغتون، ننتقل الآن إلى دراسة أطروحة حوار الحضارات.

حوار الحضارات.. وجهة نظر إسلامية.

بعيدا عن الدخول فى متاهات وتعقيدات تعريف الحضارات وتعريف التصادم الحضارى، فإننا نستطيع أن نقول أن مصطلح صدام الحضارات يعنى وفقا للمفهوم الدارج فى الفكر الغربى المعاصر.. هو الاحتكام إلى « التناقضات » عند تحليل عناصر الحضارات المختلفة. ولاشك أن التناقضات تؤدى بالضرورة إلى تأجيج الاحتكاك الذى يبلغ فيما بعد مرحلة التصادم.

---

١ – د. عبد العزيز حمودة، مجلة الهلال، أغسطس ١٩٩٣.

٢ – د. وحيد عبد المجيد، الشرق الأوسط، ١٨ أغسطس ١٩٩٣.

ولقد عالج القرآن الكريم مسألة التعددية الحضارية، باعتبارها ظاهرة تاريخية قائمة، بروح ايجابية تشجع على الانفتاح على الحضارات الأخرى والتحاور معها، بصورة بناءة تستهدف الوصول بالبناء الحضارى الإنسانى إلى ذروة تكامله واتساقه من أجل توظيف كل قدراته الفعلية والممكنة فى تحقيق المصلحة الإنسانية العليا.

ولم يقر القرآن الكريم مبدأ التعددية الحضارية، حينما كان الإسلام ضعيفا فى مكة فقط وإنما اقره والإسلام هو القوة السياسية والعسكرية الضاربة يقول الله تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما أتاكم، فاستبقوا الخيرات﴾[1].

وكان هذا الموقف تكريسا لطبيعة الرسالة الإسلامية من حيث كونها رسالة إنسانية عالمية. إنسانية بمعنى كونها تحقق الإنسجام والاستجابة لطبيعة الإنسان وفعله الحضارى على مر التاريخ. وعالمية من حيث كونها رسالة تتجاوز الفواصل العرقية والجغرافية وصولا إلى تجسيد الخطاب الحضارى الذى يستهدف الإنسان على المستوى العالمى. وبذلك يؤسس القرآن وعيا علميا للحضارة فى كونها انجازاً إنسانياً يبتغى دفع البشرية نحو العطاء والبناء وعمار الأرض.

وهذا هو الذى يفسر الموقف الذى اختاره القرآن للمجتمع الإسلامى ذلك الموقف الذى يتمشى مع سنن التاريخ.

غاية ما فى الأمر أن القرآن يضع ضوابط للحوار الحضارى، ذلك الذى نجد قانونه العام فى قوله: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق* مصدقا لما بين يديه من الكتب* ومهيمناً عليه* فاحكم بينهم بما أنزل الله* ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق﴾.

ان الهيمنة الحضارية لا تعنى الانتقائية، إنما تعنى هضم وتمثيل المنتوج الحضارى القادم من بيئة حضارية أخرى، مادام لا يخالف مرجعية القرآن الحضارية العليا. وهذا ما فهمه المسلمون الأوائل، وعملوا به، حينما خرجوا من الجزيرة العربية ليتحاوروا مع حضارات أخرى، واستطاعوا، من دون عقد، أن ينفتحوا على حضارات المجتمعات الأخرى، ويدخلوا منتجاتها فى مشروعهم الحضارى القرآنى، ويستفيدوا منها فى بناء صرحهم الحضارى الإسلامى، مع الحفاظ على خصوصيتهم وتميزهم.

---

١ - سورة المائدة (٤٨).

ولذلك فإن ما يجب أن نشير إليه – وفقا لما نطرحه فى هذا الكتاب –أن عناصر الحضارات ليست كلها متناقضة ، بل هناك الكثير من القواسم الحضارية الإيجابية التى تشكل عاملاً مشتركاً بين مختلف الحضارات. والتحليل الموضوعى البنّاء هو الذى يميل إلى التركيز على هذه العوامل المشتركة للوصول إلى نتائج تقودنا إلى الحوار البناء الذى لابد منه فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الحضارات العربية الإسلامية والحضارة الغربية.

وهذه القواسم الحضارية الإيجابية هى التى تشكل السلاح الذى يجب أن يستثمر للحيلولة دون بلوغ الحضارات درجة التصادم(١).

المشكل إذن ، العلاقة بين «الأنا الحضارية» بـ «الآخر الحضارى ». وعلى وجه التحديد بـ« الآخر الحضارى » المهيمن عالميا ، وهو الحضارة الغربية .

وفى اعتقادى أن الرؤية الإسلامية لهذه القضية يمكن أن نوجزها فى هذه النقاط:

---

١ – يعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع أن الحضارة مرحلة من مراحل الحياة الطبيعية التى تمر بها المجتمعات كلها، ويجعلها– من حيث الترتيب – تلى مباشرة مرحلة البداوة. فقد ورد فى «مقدمته» الشهيرة (ص ١٢٢) قوله: «الحضارة غاية البداوة» وإن حالة البداوة قائمة على أساس الحصول على ما هو ضرورى لاستمرار الحياة. فإذا ما تحسنت أحوال أهل البادية وتوافرت لهم الإمكانات، مالوا إلى حياة الاستقرار والدعة، وقاموا ببناء المدن، وسعوا إلى تطوير مظاهرهم الاجتماعية من حيث تنويع الملابس والمآكل والتأنق فيها.

ويستخدم علماء الاجتماع فى الغرب مصطلحين للتعبير عن الحضارة وهما: Civilization, Culture وتطورت اللفظة الثانية مع الزمن، فأصبحت تستعمل للدلالة على حالة الرقى فى الأفراد والجماعات. وهناك اختلاف بين علماء أوروبا حول الربط بين مدلولى اللفظتين، إذ استخدم بعضهم لفظة Culture للدلالة على المظاهر التقنية للتقدم، فى حين أطلقوا لفظة Civilization على المظاهر العقلية والفكرية. أما عند البعض الآخر، فقد جاءت اللفظتان باستعمال مرادف للدلالة على التحول فى وسائل الحياة.

وبعض الفلاسفة العرب يستخدمون مصطلح Culture مقابل مصطلح الحضارة كالدكتور فؤاد زكريا، وبعضهم – وهم الكثُر – يستخدمون مصطلح Civilization كالدكتور زكى نجيب محمود وغيره كثير، وبعضهم يستخدم المصطلحين للتعبير عن الحضارة بشقيها، كمالك بن نبى.

** إن الإسلام ينظر إلى البشر أجمعين باعتبارهم: « وحدة واحدة متساوية فى الخلق لله الخالق الواحد »... وباعتبارهم، فى ذات الوقت: « متعددين فى الروابط والجامعات ».

وهذه « الوحدة فى الخلق » مع « التعددية فى الجامعات »، هما موطن الإثارة فى الآية الكريمة: ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[1] فالاشتراك والوحدة فى الخلق، وفى الإنسانية، يزامله التعدد والتمايز إلى شعوب وقبائل وأقوام.. بل إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه التعددية باعتبارها آية من آيات الله سبحانه، وسنة من سننه فى خلقه ، فيقول: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾[2].

** يؤكد الإسلام على وحدة البشرية فى دين الله الواحد أزلا وأبدا.. مع تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات الدينية أزلا وأبدا كذلك، فالقرآن الكريم قد نزل ﴿ بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾[3]. و﴿ هو الحق مصدقا لما معهم﴾[4]، والرسول،ﷺ كذلك ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَماَ ءاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾[5].. والله سبحانه وتعالى ، يتحدث إلى رسوله فيقول له: ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[6].

ومع هذه « الوحدة فى الدين »، كانت « التعددية فى الشرائع » لدى أمم الرسالات .. فالبعثة المحمدية قد تميزت بالشريعة الخاتمة ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾[7] وكذلك كان حال الأمم السابقة ، فاليهود ﴿ عندهم التوراة فيها حكم الله ﴾[8] ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا..[9] ﴾ وكذلك حال النصارى مع الإنجيل ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [10] ثم كانت الشريعة الخاتمة ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم

(١) سورة الحجرات (١٣).
(٢) سورة الروم (٢٢).
(٣) سورة البقرة (٩٧)
(٤) سورة البقرة (٩١).
(٥) سورة آل عمران (٨١).
(٦) سورة آل عمران (٨٤).
(٧) سورة الجاثية (١٨)
(٨) سورة المائدة (٤٣).
(٩) سورة المائدة (٤٤).
(١٠) سورة المائدة (٤٧).

بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ ثم تمضى الآية لتقرر أزلية وأبدية هذه السنة الإلهية فى تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات، فتقول: ﴿ .. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[1].

ففى الدين، وحدة الرسل والرسالات، ووحدة أمم هذه الرسالات. وفى الشريعة، تعددية تتمايز فيها وبها أمم الرسالات.. للابتلاء والاختبار والتنافس واستباق الخيرات .. ولقد وقف مفسرو القرآن الكريم أمام هذه الآيات فقالوا :« إن الشريعة هى الطريقة الظاهرية التى يتوصل بها إلى النجاة.. والمعنى أن الله جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا فى الشرائع والعبادات ، والأصل فى التوحيد لاخلاف فيه.. « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة» : أى لجعل شريعتكم واحدة.. « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ».. أى ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم .

وعن هذه الحقيقة، التى أفاض القرآن فى تقديرها وفى الإفصاح عنها حقيقة: الوحدة فى الدين مع التعددية فى الشرائع، وقد عبر الحديث النبوى عنها هذا التعبير الجميل، عندما يقول صلوات الله وسلامه عليه: الأنبياء: إخوة من علاَّت (أى من أب واحد) وأمهاتهم شتَّى . ودينهم واحد[2].

فكما توحد الناس ويتوحدون فى الخلق والإنسانية ، مع التعددية فى الأقوام والشعوب والقبائل والألوان واللغات ، كذلك ، قد اتحدوا فى الدين ، وتعددت أمم الرسالات فى الشرائع التى شرعها الله بمعنى أن الوحدة مع التعددية هى سنة الله ، التى تلتزمها الرؤية الإسلامية فى هذا الميدان[3]..

** وكذلك الحال فى ميدان الحضارات، فعلى مر التاريخ عرفت البشرية التعددية فى الحضارات، مع الالتقاء والتبادل والتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام بين هذه الحضارات. فمع الخصوصيات الحضارية، التى تتميز بها كل حضارة عن غيرها، هناك ماهو مشترك

---

(١) سورة المائدة (٤٨).

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٣) د. محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامى المعاصر (القاهرة: دار الشرق الأوسط، ١٩٩٠)، ص٣٩ - ٤١.

إنسانى عام بينها جميعا ، وخاصة فى المعارف والعلوم التى تشترك فى ثبات الموضوع ووحدة المناهج والحقائق والقوانين.. وفى ضوء هذه الرؤية التى يتميز بها الإسلام نستطيع أن نقول أن العلاقة بين « الأنا الحضارية » وبين « الآخر الحضارى »، يجب أن يحكمها هذا القانون .. التفاعل والتبادل الحضارى ، لا التبعية - بزعم الوحدة الحضارية - ولا الانغلاق والعزلة - بزعم الاختلاف الكامل والكلى-.. فكما أن التعددية فى الأمم هى سنة من سنن الله فى الخلق ، كذلك التعددية فى الحضارات ، لأن هذا التمايز الحضارى هو واحد من أهم أسباب هذه التعددية بين الأمم.. وكما أن « التعارف »- الذى أمرنا الله به ليكون طابع العلاقات بين الأمم والشعوب - يقتضى العدول عن القطيعة ، ورفض « الصراع ».. فكذلك « الاختلاف »- الذى جعله الله سنة ومظهرا للتعددية، يقتضى رفض « التبعية »أو «الهيمنة »، بزعم وحدة الحضارة للبشر أجمعين ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ﴾[1].

* إن رفض الإسلام أن يكون « الصدام والصراع » هو طابع العلاقة مع الغير مبنى على الإيمان بالتعددية التى تقتضى الإيمان بحق الغير فى الوجود المتميز، حتى تكون هناك تعددية حقيقية، ولهذه الحكمة كان « التوازن » بين الفرقاء المتميزين هو مذهب الإسلام فى العلاقة بين الطبقات والجماعات داخل الأمة الواحدة ، وبين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى. وهذا « التوازن » يفترض ، بل ويشترط كى يقوم وجود « فرقاء » متمايزين ومختلفين.. أما « الصراع » فإنه يعنى ابتغاء « نفى » الآخر والانفراد والواحدية دون شريك. ولأن هذه هى فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر، كان استخدام القرآن الكريم لمصطلح «الدفع» عندما تدعو الحاجة ، بسبب اختلال توازن العلاقات مع الأغيار ، وحلول «الخلل» محل « التوازن » وسيادة « الظلم » بدلا من « العدل » ، وقيام « الجور » بدلا من «الوسطية».. هنا يكون « الدفع »، أى الحركة الاجتماعية التى تبتغى إعادة العلاقات إلى مستوى ولحظة ومقام « التوازن » ثانية، مع الاحتفاظ بالتعددية والتمايز للفرقاء المختلفين.. هنا يكون « الدفع »، ولا يكون « الصراع »، لأن الصراع يقتضى نفى الآخر ، بالتصادم معه وإنهاء وجوده ، والانفراد والواحدية .. فهو ضد فلسفة التعددية ، وضد شرعية ومشروعية تمايز الفرقاء المختلفين. فى « الصراع ».. ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم

(١) سورة هود (١١٨ ، ١١٩).

أعجاز نخل خاوية ﴾[1].. أما فى « الدفع » فإن الغاية مختلفة : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[2]..

إذا سلمنا بهذا الطرح الإسلامى الواعى، فلماذا ترهن الحضارة الغربية تعاملها مع الحضارة الإسلامية عبر سلسلة من الصدامات ؟!

لقد شد انتباهى فى كثير مما قرأت أن الغرب ينظر إلى المسلمين على أنهم منتصرون يخرجون من بين الانقاض ولاعبون متجددون فى الساحة الغربية[3].

إن الحضارة الغربية تبنت – للأسف– واعتمدت فلسفة « الصراع » ، فرأته فى قانون العلاقة فى الأحياء أو صراع البقاء فى الداروينية، وفى الاجتماع من خلال الصراع الطبقى، وفى الماركسية، الذى يتمثل فى المسخ والنسخ والتشويه لمواريث الأمم وأديانها ومعتقداتها.

إذا كان هذا هو طابع العلاقة ، كما فرضتها الحضارة الغربية علينا .. فهو كالقتال الذى فرض علينا– وهو كُرهٌ ! – والأمل أن تكون الثمرة ، ثمرة هذا الصراع الذى فرض علينا ، شحذ الهمة فى معركة التجديد للفكر الإسلامى ، إخراجا له من أزمته المعاصرة ، وتجديدا لواقع الأمة به، لالننفى « الآخر الحضارى »، وإنما لنقسره غدا، كما قسره أسلافنا بالأمس ، على التخلى عن طموح الهيمنة الحضارية، وعلى القبول بالتعددية ، ليصبح الكوكب الذى نعيش عليه « منتدى حضارات »، تتفاعل وتتبادل العلم النافع ، وتحتفظ كل منها بما لها من خصوصيات مثلها كمثل الإنسان المستقل ، يصافح الجميع ، دون أن يفقد بصمته وهويته التى تميزه عن الجميع!..

إننا نرى الآن قضية علاقة « الأنا الحضارية » بـ « الآخر الحضارى »، واحدة من قضايا « أزمة الفكر » الإسلامى المعاصر.. بينما هذه القضية لم تكن بالأمس – عندما قامت علاقة أسلافنا العظام بالحضارات الأخرى ، هندية وفارسية وإغريقية.. لم تكن من قضايا « الأزمة ».. بل كانت من سمات « الصحة » ومظاهر « النهضة ». وما كان هذا الفارق بين حال ذات القضية اليوم عنها بالأمس إلا من الفارق بين حالنا اليوم وحال

---

(١) سورة الحاقة (٧).

(٢) سورة فصلت (٣٤).

(٣) منى ياسين، الغرب والإسلام (القاهرة: دار جهاد للنشر والتوزيع، ١٩٩٤)، ص٩.

أسلافنا بالأمس .. لقد تفاعلوا مع « الآخر الحضارى » من موقع القوى الراشد المستقبل، فكانت « لمعدتهم الحضارية »– إن جاز التعبير– القدرة على التمييز بين الصالح والفاسد، بين النافع والضار، بين الملائم وغير الملائم فى مواريث الآخرين .. فلم تكن فى العلاقة «قضيّة » مشكلة على الإطلاق. أما نحن، فإننا نتعامل من موقع الضعيف المهزوم، الذى تحالفت عليه تحديات التخلف الموروث وتحديات الاستلاب الحضارى الوافد[1].

حروب الحضارات .. فى المنظور العربى الإسلامى

واضح مما سبق أن الفكر السياسى الإسلامى يتعرض لامتحان صعب من قبل المفكرين الغربيين الذين يبشرون فى هذه الأيام بأن حربا حضارية دخلت مراحلها الأولى بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية.

ويأتى على رأس هؤلاء المفكرين الغربيين – كما ذكرنا – المفكر الأمريكى صمويل هنتنغتون رئيس مؤسسة جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد الذى أكد بأن الظاهرة الإسلامية التى تتواعى فى هذه الأيام فى أماكن مختلفة من العالم وبالذات داخل المجتمعات الغربية.. سوف تكون هدفا حتميا للحضارة الغربية التى استراحت لتوها من وفاة الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتى وتحلل الاشتراكية فى الشق الشرقى من أوروبا.

ويؤكد هنتنغتون بأنه مع بداية دخول المجتمع الدولى إلى القرن الواحد والعشرين سوف يشهد تصاعد الصدام الحضارى بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

ولقد اتسعت رقعة نشر المقالات عن حرب الحضارات، وبلغ الأمر أن هانتنغتون الذى يقود الجوقة الغربية واصل نشر العديد من المقالات فى صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية العالمية مما يؤكد أن القضية لم تعد بحثا أكاديميا وإنما أصبحت دعوة عامة للمواجهة بين الغرب المسيحى والعالم الإسلامى فى كل أجزاء المعمورة.

إن البروفسير هانتنغتون كان يجب أن يدعو إلى حوار الحضارات لا أن يخيف الغرب من الحضارة الإسلامية التى بدأت ترسل ومضات من صحوتها القادمة ، ولاشك أن الشواهد فى تاريخ الاسلام عبر القرون كانت وما زالت تقول بأن الحضارة الاسلامية كانت دائما تمد يدها لكل الحضارات ،وبالذات الحضارة الغربية التى قامت أساسا على معطيات الحضارة الإسلامية.

---

(١) د. محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامى المعاصر، المرجع السابق، ص ٤٣ – ٤٦.

ولذلك إذا أردنا ان نقرن الحرب بالأسباب ، فإن الحضارة ليست هى السبب الذى نعلق على مشجبها هذه «الحروب»، فبينما من أهم أسباب الحروب هو نزعة التملك للشئ والتبعية للعرق أو المذهب ،فإن الحضارة لا تتصف بالتملك أو بالتبعية بل تنساب عبر قوانين حركة التاريخ أو قوانين التناوب بين المجتمعات، مجتمع ينمو ثم ينحدر ولكن حضارته لا تموت بل تنساب إلى مجتمع آخر صاعد واعد يتناول هذه الحضارة بالتقدم والتطوير حتى تصبح حضارة جديدة تنتشر وتتمدد إلى أن يشاء الله أن يوقف تمددها وتعطى المسيرة لغيرها من الحضارات الصاعدة الواعدة الأخرى وهكذا..

والواقع أن بعض المفكرين الإسلاميين فى أماكن مختلفة من العالم الإسلامى.. بدءوا يعون أبعاد ما يرمى إليه صمويل هنتنغتون ورفاقه المتعاطفون مع المسيحية الدولية والصهيونية العالمية.

لذلك بدأ بعض هؤلاء المفكرين وعلى رأسهم المفكر الإسلامى السعودى محمد بن صالح العثيمين والمصرى د. عبد الحليم عويس والهندى «م. إكبار» وغيرهم كثير... إلى الرد على هنتنغتون وشجب طروحاته العنصرية والتذكير بأنها مجرد تجييش للأمة الغربية ضد المسلمين المسالمين سواء داخل البلاد الإسلامية أو داخل البلاد الغربية.

ولخص هؤلاء المفكرون رؤيتهم المستقبلية فى أن العصر المقبل سوف يزيل الحواجز بين الدول وبالتالى بين الحضارات، وأنه لن يكون هناك حرب ضارية كالحرب التى يتصورها هنتنغتون أو كالحروب التقليدية التى شهدتها الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية منذ ألف وأربعمائة سنة.

إن المشاركة فى دفع الفكر العالمى إلى التسليم بحتمية «حوار الحضارات» لا «صدام الحضارات».. هو الفكر الذى يجب أن يدخل به المفكرون الإسلاميون حلبة الصراع الفكرى الدائر فى هذه الأيام فى الأندية والمنتديات فى الشرق والغرب[1].

إن المتغيرات الدولية التى تهيمن على العلاقات الدولية لم تترك مجالا للحديث عن الحروب والتصادم، بل هيأت الأماكن المناسبة والأرضيات الملائمة للحوار على مبادئ التعايش

١- مشاركة الحضارة الإسلامية فى إقامة نظام عالمى إنسانى، الأهرام، ٤ رمضان ١٤١٤هـ = ١٤ فبراير ١٩٩٤م.

والتعاون وترسيخ أسس الاستقرار والأمن والسلام فى القرية الكبيرة، التى مازال صمويل هنتنغتون وأحزابه يسمونها «العالم الغربى ومنافسوه».

إن مساهمة الفكر الإسلامى- وبالذات الفكر السعودى- فيما يجرى فى الغرب فى هذه الأيام ضرورة يستوجبها بلوغ هذا الفكر مرحلة النضج ومرحلة القدرة على سبر أغوار المجتمعات الغربية ومنتدياتها وأنديتها المتواربة.

ولا شك أن وقع هذه المساهمة سوف يكون كبيرا لأن العالم اليوم- فى ظل المناخ الديمقراطى العالمى- يريد أن يسمع الرأى والرأى الآخر.

لأن الإسلام الحنيف يمثل القضية المحورية فيما يسمى بـ «صدام الحضارات»، وهى القضية التى تطرح نفسها بقوة فى هذه الأيام فى المنتديات والصحف الغربية، فإننى أطالب المفكرين السياسيين السعوديين بالاشتراك، جنباً إلى جنب مع المفكرين فى كل أنحاء العالم الإسلامى، فى هذه الحوارات ورفع راية الذب عن إسلامنا الحنيف، إذ أنه من العار أن يصبح المفكرون السعوديون آخر من يدلون برأيهم وهم أصحاب القضية لأنهم من الأرض الذى شع منها نور الإسلام.

ومن المؤسف أن بعض المفكرين الغربيين وعلى رأسهم البروفيسور صمويل هانتنغتون، أطلقوا على هذه الحروب «حروب الحضارات» أو الحروب التى نامت طويلا ثم قامت من مدافن تلك الحضارات لتصفى الحسابات القديمة، ولقد راجت هذه الأفكار على نطاق واسع فى المحافل والأندية السياسية والفكرية وأصبحت هذه القضية موضوعا مطروقا بقوة فى دور الإعلام والنشر الغربية.

ومن المؤسف أن هؤلاء المفكرين وصلوا إلى قناعة نهائية مفادها أن ما يسمى بحروب الحضارات إنما هى حروب عربية إسلامية - مسيحية غربية.

ولقد شد انتباهى فى كل ما قرأت فى هذا الصدد أن الغرب ما فتئ ينظر إلى الإسلاميين على أنهم يملكون امكانيات كافية لغزو بلادهم الغربية[١]

وفى هذا الصدد فإننى أذهب مع ما ذهب إليه مكسيم رودنسون أحد أقطاب الاستشراق الفرنسى الذى قال إن الموقف من الإسلام محكوم بسوء فهم غربى لآلية العلاقة

١- منى ياسين، الغرب والإسلام، مرجع سابق، ص ٩.

بين سلوك المسلم وعقيدته الدينية، بل أذهب أبعد من هذا فأقول أن مشكلة الحضارة الإسلامية عند الغرب هى الجهل بها حتى العنصرية[١].

وإذا جاز لنا الاعتراض على استخدام مصطلح «الحرب» مع مصطلح «الحضارة»، فإننى أعترض بشدة على تسمية ما نشاهده اليوم من الحروب فى المناطق الساخنة من العالم باسم «حروب الحضارات».

إن «الحروب» لا يمكن أن تقرن بـ «الحضارة»، بل بالعكس الحرب هى توجه بربرى وحشى يستهدف تدمير الحضارة وتقويض المنجزات الإنسانية التى استغرقت كل طاقات الإنسانية، وصرف من أجلها الإنسان حياته وعمره وماله وولده، حتى استطاع أن يزين بها الكون ويسهل بها سبل الحياة والعيش الكريم.

نحن نعرف – فى الحياة العامة – أن الإنسان كلما تحضر.. زادت معطياته الثقافية وبعد عن استخدام معاول الهدم والتدمير وترفع عن ممارسة الخطايا والأغلاظ.

وإذا كان هذا هو الفيصل بين «الحضارة» و «الحروب» فإننا يجب أن لا نضع مصطلح «الحرب» إلى جانب مصطلح «الحضارة»، لسبب بسيط وهو أن الشعوب لم تعد –كما فى الماضى– تعيش وراء أسوار تعزلها عن بعضها البعض، بل أصبح العالم يحتاج إلى تنوع ثقافى وحضارى شامل، يأخذ من هنا ومن هناك حتى تتكامل الحضارة التى يعيشها الجنس البشرى فى الوقت الراهن.

لذلك إذا شهد العالم حروبا سميت باسم «حروب الحضارات»، فإنها ليست حروبا بين الحضارات، وإنما هى تسمية أطلقها تجار الحروب على تلك الحروب، إما من أجل تحصيل الأموال وسرقتها أو من أجل تجميع الأنصار والأعوان والمتشيعين حول مذهبيات عنصرية مدمرة.

إن البروفسور هانتنغتون كان يجب أن يدعو إلى حوار الحضارات لا أن يخيف الغرب من الحضارة الإسلامية التى بدأت ترسل ومضات من صحوتها القادمة، ولا شك أن الشواهد فى تاريخ الإسلام عبر القرون كانت ومازالت تقول بأن الحضارة الإسلامية كانت دائما تمد

١– د. موريس بوكاى، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (القاهرة: الفتح للإعلام العربى، بدون تاريخ)، ص ٦ – ٧.

يدها لكل الحضارات، وبالذات إلى الحضارة الغربية التى قامت أساسا على معطيات الحضارة الإسلامية.

والحرب هى نزعة طبيعية فى الإنسان وجدت معه منذ أن فطر الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها، ويجب ألا نحشرها فى الحضارة، بل يجب أن نستخدم الحضارة لعلاج أسبابها ومسبباتها، ولا شك أن غريزة التملك والتسلط هى الغريزة التى صنعت أول حادثة قتل فى الوجود حينما اعتدى قابيل على أخيه هابيل حبا فى السيطرة والتملك.

ثم بعد ذلك شهدت الإنسانية– فى كل مواقع الدنيا– آلاف الحروب الصغيرة الدامية والكبيرة المدمرة.

وحينما أراد الإنسان أن يعالج هذه النزعة العدوانية فى الإنسان، كانت «الحضارة» هى العلاج.. بمعنى أن الحضارة ليست هى السبب فى اندلاع الحروب، بل بالعكس كان التحضر هو الوصفة السحرية للعلاج من الحروب.

والتحضر هنا هو إحلال نزعة البناء والتعمير محل نزعة الفناء والتدمير، بمعنى أن «الحضارة» فى كل عصور التاريخ كانت علاجا «للحرب» وليست إشعالا لها.

ولقد كانت فكرة بناء المؤسسات الدولية وفروعها الكثيرة كمنظمة الأمم المتحدة والإقليمية كجامعة الدول العربية وفروعها الكثيرة والجهوية كمجلس التعاون الخليجى.. جزءا هاما من أجزاء الحضارة الإنسانية التى ودت أن تنشئ المؤسسات الشرعية المسئولة عن نبذ الحروب وترسيخ مبادئ الأمن والسلم الدوليين والعمل على وضع القواعد اللازمة لترويج خطاب السلام الشامل والدائم والعادل ورفض أى فكر مبتور يدعو إلى إثارة الغارات والحروب وتقويض الحضارة الإنسانية اليانعة.

هكذا يجب على الفكر الحضارى المعاصر فى أى مكان كان موقعه أن يفسخ عقد القران (الباطل) بين «الحروب» و «الحضارات».

ولذلك فإن نظرية هانتنغتون تعانى من التكلف فى تجميع الشواهد المؤدية للافتراض الذى تقوم عليه النظرية، بينما يحرص هانتنغتون على استبعاد الكثير من الحقائق الكبرى التى لو عالجها فإنها سوف تبطل فروضه وسوف تمنى نظريته بالفشل الذريع.

يصنف هانتنغتون - على سبيل المثال - الحرب بين الإسلام والمسيحية كأولى الخيارات التى ستفترس البشرية فى القرن الواحد والعشرين. أى أن تصادم الحضارات سوف يبدأ بصدام داو للحضارة الغربية السائدة والحضارات الإسلامية السابقة.

والواقع أن نظرية هانتنغتون تقوم على قدر كبير من الافتراضات الضعيفة بسبب الاستغراق فى التحليل النظرى إلى الحد الذى يختزل تفاعلات دولية حقيقية وعلى درجة مؤثرة فى مجريات الأحداث التى يشهدها العالم فى هذه الأيام.

ولو قرأ هانتنغتون جيدا ما قاله أوزال شبنجلر فى مجلده ذائع الصيت المسمى سقوط الحضارة الغربية The Fall of the West ولو قرأ هانتنغتون جيدا ما بحثه أرنولد توينبى فى مجلداته دراسة التاريخ The Study of the History ولو قرأ هانتنغتون جيدا ما كتبه مؤخرا بول كندى فى كتابه المبهر صعود وسقوط الدول العظمى The Rise and the Fall of the Super Pewer.

لو قرأ صامويل هانتنغتون كل هذا وغير هذا مما كتب عن المصير والتلاشى المحتمل للحضارة الغربية، لما بقى من نظرته العقيمة، ما يستحق أن يكتب أو يقرأ.

إن نظرية « صدام الحضارات » هى آخر النظريات التى تريد أن تقول للغرب بأنكم إذا لم تضربوا الإسلام والمسلمين فإن جزاءكم أن يقوم المسلمون بضربكم فى عقر داركم واحتلالكم كما احتلوكم فى الأندلس وفى البوسنة وفى القرم وفى آسيا الوسطى وفى جنوب فرنسا ...

الفصل الثالث

الحكومة الإسلامية
فى
الدولة الإسلامية
المعاصرة

تاريخ التنافس
بين
الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية

يبدو أننا ونحن بصدد طرح مشروع الدولة الإسلامية المعاصرة.. ضرورة أن نستعرض – ولو بصورة موجزة – تاريخ التنافس بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية. فعلى رغم انهيار الدولة العربية الإسلامية فى الأندلس وسقوط دويلتها الأخيرة وبالتالى انسحاب الحضارة الإسلامية من آخر مواقعها فى أوروبا إلا أن « الثأر » الأوربى ضد الإسلام تأجج سياسيا وإن كان قد تخفى بعباءة دينية وتستر بالمسيحية عبر الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، تلك الحروب التى حفرت فى الخلفية الإسلامية والمسيحية الغربية والأوربية آثاراً غائرة من العداوة والكراهية.

ثم جاءت موجة المواجهة التالية حين بدأ عصر الكشوف الجغرافية الكبرى مشفوعا بالسيطرة الاستعمارية من جانب الإمبراطوريات الأوربية العظمى أنذاك.. وخصوصاً البرتغالية والأسبانية والهولندية والبريطانية والفرنسية ،فأحكمت سيطرتها على معظم أرجاء العالم العربى الإسلامى، تلك السيطرة التى استنفدت الموارد وامتهنت الكرامة الوطنية مثلما أهدرت عن قصد مصادر الاعتزاز الدينى والقومى لشعوب ظلت تحمل فى أعماقها كل مخزون الكراهية لمغتصبيها وقاهريها.

أما الجولة الأخرى من المواجهة فقد تمثلت عمليا فى ذلك الصراع الذى نشب بين السلطنة العثمانية وبين الإمبراطوريات الحديثة، وبقدر ما كان ذلك الصراع سياسيا عسكريا اقتصاديا بقدر ما اكتسب بعدا دينيا ، فقد اكتسبت الدولة العثمانية قوة دينية هائلة برفع شعار الخلافة الإسلامية ، وبسحر تلك الخلافة الروحى نجحت السلطنة العثمانية أولا فى فرض سيطرتها على معظم الدول العربية وثانيا فى تجنيد كل القوى الإسلامية لمجابهة أوروبا «المسيحية » وغزو بعض أقطارها الشرقية باسم الإسلام .

وحين بلغت السلطنة قمة اتساعها بدأ أفولها ومن ثم بدأت الدول الأوربية رد الدين فحاصرتها وأجبرتها على التراجع والانكماش مرحلة بعد مرحلة حتى وصلت خط النهاية إثر

انتهاء الحرب العالمية الأولى، التى كان من نتائجها توزيع تركة الرجل المريض (السلطنة العثمانية) ونزع الغطاء الدينى عن وجهه بتصفية وإلغاء الخلافة الاسلامية.

* * *

وبقدر ما فهم الأكاديميون والسياسيون العرب والمسلمون هذه الخطوة بأنها نتاج صراع سياسى عسكرى اقتصادى بين قوى دولية وإقليمية محكومة بموازين وعلاقات وتحالفات مختلفة، بقدر ما استقر فى الوجدان الشعبى والرأى العام العربى والإسلامى أن أوروبا المسيحية بحضارتها الغربية الحديثة ، قد حاصرت وقهرت السلطنة العثمانية رمز الخلافة الإسلامية. وتأجج من جديد نتيجة لذلك الشعور بأن ما جرى هو سبب ونتيجة من أسباب ونتائج المجابهة الدينية بين الإسلام وحضارته الشرقية وبين المسيحية وحضارتها الغربية ، تلك التى جاءت فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لتقهر الحضارة الإسلامية ولتنجح فى ما فشلت فى تحقيقه من قبل عبر الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

وفى العصر الحديث تمثلت المواجهة فى سقوط معظم الدول العربية والإسلامية تحت السيطرة الاستعمارية للدول الأوربية المنتصرة أولا منذ الحروب والكشوف الاستعمارية ، والمنتصرة ثانيا فى الحرب العالمية الأولى التى أثمرت تقسيما للمنطقة بين بريطانيا وفرنسا – بحكم اتفاق (سايكس بيكو) الشهير – ومن ثم نشوء الأزمة الفلسطينية وصراعها الحاد مع الصهيونية – ربيبة الحضارة الغربية – وسقوط القدس بكل ما تحمله من تقديس لدى المسلمين باعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين فى يد إسرائيل الدولة الدينية المغتصبة والمدعومة دائما من الغرب الأوروبى الأمريكى، وهو ما يفسره العرب والمسلمون بأنه صراع دينى بين الإسلام من ناحية والمسيحية واليهودية من ناحية أخرى.

لذلك تحول رمز سقوط القدس فى يد اليهود بدعم غربى مسيحى إلى «حائط مبكى إسلامى فى العصر الحديث» وإلى رمز متجدد للمجابهة الدينية التاريخية التى تجرى فصولها فى تتابع مستمر، يغرس جذوره فى القلوب المؤمنة ومن ثم يؤجج المشاعر ويستثير العواطف على الدوام، ويزرع بالتالى الشك والهواجس والريبة على الجانبين المتواجهين. وبقدر ما نرى أن القدس هى رمز التعصب الصهيونى لأرض « الميعاد » بقدر ما نرى القدس

ذاتها رمزا للتعصب الإسلامى لأولى القبلتين وهى فوق ذلك تظل رمزا للمسيحيين تعصبا وتسامحا قديما وحديثا ، وفى كل الأحوال أصبحت تجسيدا لحدة المجابهة الدينية الإسلامية من ناحية واليهودية المتحالفة مع المسيحيين من ناحية أخرى.

هذه هى إذن الخلفية التاريخية والأرضية التى نشأت فوقها مشاعر المجابهة الدينية الحديثة بين الإسلام وشعوبه ودوله وحضارته وثقافته، وبين المسيحية واليهودية الممثلين لحضارة غربية مغايرة، لها هى الأخرى دولها وشعوبها وثقافتها وسياستها ومصالحها .

ولاشك فإن هذه المساحة التاريخية الطويلة من الصراع تؤكد بأنه صراع معقد ومركب، صراع مبادئ وأفكار وسياسات، صراع ثقافات وعقائد يستعيد دائما إلى الذاكرة أحداث الماضى ومجابهاته التاريخية الملهبة للمشاعر المثيرة للعواطف المحركة للتطرف الدافعة للتعصب هنا وهناك .

ولقد ورثت « الإمبراطورية » الأمريكية التى تمثل الحضارة الغربية الحديثة سابقتها من الإمبراطوريات الأوروبية التى غربت فى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وورثت من الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية كثيراً من تقاليد قيادة العالم والهيمنة على مقدراته، مثلما ورثت إلى حد كبير أساليب التعامل مع الحضارات والديانات والثقافات القديمة — بكل صراعاتها وتناقضاتها – تلك الأساليب التى برعت فيها كل من بريطانيا وفرنسا اللتين كانت لهما تجارب طويلة ومركبة مع مثل تلك الحضارات والديانات وخصوصا فى منطقة الشرقين الأدنى والأوسط بحكم استعمارها لمعظم دول هذه المنطقة وشعوبها.وكان الهدف الأمريكى غاية فى الوضوح، فإسرائيل – على رغم صهيونيتها – جزء من الحضارة الغربية ، مزروع فى قلب الحضارة العربية الإسلامية ، ومن ثم فإن تحالف أمريكا معها تحالف إستراتيجى[(١)] .

الحل الإسلامى

فيما قدمنا من موضوعات ودراسات فى الفصول السابقة، يكفى لتوضيح الصورة العدائية التى تواجهها الحضارة العربية الإسلامية من الحضارة الغربية المسيحية. ولذلك فإننا

---

(١) صلاح الدين حافظ، الحياة، ٢ أكتوبر ١٩٩٣.

في الصفحات القادمة سوف نسعى إلى طرح مشروع الدولة الإسلامية المعاصرة التي تستطيع أن تعيد العرب والمسلمين إلى ما كانوا عليه من قوة ومنعة وتمكنهم من المساهمة في قيادة العالم تماما كما تولت الدولة الإسلامية المحمدية بناء نظام دولي جديد وقامت بمهمة قيادة ذلك النظام العالمي الرائد.

وبداية فإننا نسلم أن الإسلاميين لا يختلفون - وهم الملتزمون بالإسلام فكرا وحركة- في اعتبار الإسلام هو المرجع « الضمني والمعلن » في المشروع الحضاري ، الذي يعملون بإخلاص في صياغة معالمه كي يكون دليل النهضة الإسلامية المنشودة.. لكن هذا الذي لا يختلف عليه « الإسلاميون » هو موضع خلاف مع قطاعات مؤثرة من «المسلمين» الذين وإن تدينوا بالإسلام ، عقيدة وشعائر ، إلا أنهم لا يلتزمون به مرجعا للدولة وسياسة المجتمع وتنظيم شئون العمران. أقصد أن مرجعية الإسلام للمشروع الحضاري موضع خلاف ونزاع بين « الإسلاميين » وبين بعض «المسلمين »!

ولذلك فإن واحدة من قضايا أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، هي قضية كيفية تعامل « الإسلاميين » مع هذا النفر من المسلمين - العلمانيين - الذين يتدينون بالإسلام لكنهم يريدونه كالمسيحية، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟..

ولذلك ونحن نناقش مشروع الدولة الإسلامية المعاصرة لابد أن ننهي خلافاتنا أولاً. ونعترف أن نشأة هذا الانقسام في العقل المسلم إلى « إسلاميين » و« علمانيين » هو أمر طارئ على المسيرة التطورية للفكر الإسلامي ، لأنه ثمرة من الثمار المرة لهيمنة الفكر الغربي العلماني على القطاعات النشطة والمؤثرة في حركتنا الإسلامية الخالدة.[1]

من هذا المنطلق فان أول الحلول المطروحة هي العمل على بناء نسق فكري إسلامي حضاري معمر .. يتسق مع الثوابت في الدين الأقوم ، ويتمشى مع المتغيرات المعاصرة .

كيف نستحضر إعادة مقومات بناء الدولة المحمدية

من خلال الظواهر العدائية في الفكر الغربي المعاصر يتجدد التحدي بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كتراث وفكر ونمط بناء وتنمية. وقبل أن نتعمق في مزيد من

---

(١) د. محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٤٧ .

التحليل نطرح على بساط البحث والمقارنة رؤية الحضارة الإسلامية مع رؤية الحضارة الغربية لنستنبط من هاتين الرؤيتين مطارح الالتقاء والاختلاف .

وما يهمنا فى البداية من هاتين الرؤيتين .. هو التركيز على مطارح الالتقاء لتكون مدخلا للدراسة وطرح مشروع الحوار الحضارى.

الحضارة العربية الإسلامية بمضمونها التراثى ليست مجرد إنجازات عادية عارضة، وإنما هى فى صميمها روح ونمط تفكير وفعل وعمل وحياة. أما رؤية الحضارة الغربية فإنها تفرض قطيعة مع الماضى وتراثه، وتنظر إلى التراث على أنه تراث تاريخى أدى وظيفته ورحل. وفى أكثر التقديرات جحودا يذهب إلى القول أن طاقات الإنسان الخلاقة قد عطلت فى التراث السالف وفى (التقليد)، وأن الإنسان لم ينته أمره عند الحدود التى انتهى إليها فى العصور التى مضت والحقب التى بادت، وأن من الضرورى ومن الممكن تفجير هذه الطاقات بعملية تجاوز كامل للماضى وبناء جديد للإنسان بتحريره من قيود القديم والتقاليد وإطلاق طاقاته المبدعة كى يتسنى له تحقيق ما ينتظر منه فى المستقبل. وفى ضوء هذه الإطلالة يكاد أن يقول الغرب بأنه هو الذى حقق هذا المثال الحضارى الرائع، للنظر وللفعل، وهو الذى تجاوز، بمبدعاته العظمى وعبقريته التى لم يشهد التاريخ لها مثيلا، كل الحضارات الأخرى وأنه هو الأحق بأن يحتذى ويتبع، وبأن يوضع فى المكان الذى وضع هو نفسه فيه، أى فى «المركز»، أما الحضارات أو الثقافات الأخرى فهى «أطراف» تابعة ليس عليها إلا أن تظل دائرة حوله تابعة على الدوام.

والذى نخلص إليه فى هذا كله هو أن البعد التراثى للذات الإسلامية لا يمكن أن يؤدى دوره فى أى مشروع جديد للنهضة إلا إذا استند إلى القطاع الحى من هذا التراث، وإن السمة البشرية لهذا الأصل تجعل كتلته متحركة مرنة تتشكل ويعاد تشكلها فى المكان والزمان.

ومن المؤكد أن قيام حضارة إسلامية جديدة مرهون بالامتثال لعنصرى الإبداع والإقدام والإيمان الراسخ بالتراث الذى يزلزل قوى الضد[1] .

(١) د. فهمى جدعان، الشرق الأوسط، ١٦ نوفمبر ١٩٩٣.

وإذا كان الإنسان المسلم قد اقتحم المجال الحضارى العالمى بأقصى ما أعطته مرحلة التحول القرآنى فى ربع قرن من مزايا سلوكية جديدة، فقد حدث ذلك عبر تجنب الفردية والاستعلاء على الآخرين، وإن ربع قرن من التحول بالقرآن قد حمل العربى من أقصى مطلقه الفردى إلى جماعية تأليفية فى ظل الإسلام، ولم يكن الله يطلب منهم الوعى بكامل المنهج والتدريب عليه فى فترة وجيزة لتحول ضخم، بل لخص مهمتهم فى الخروج إلى الناس لوضع حد بين أمرين واضحين، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى إطار تؤمنون بالله[١].

لذلك فإن على الإنسان المسلم أن يطرح بعث الحضارة بمنطق البقاء، حتى يستطيع أن يتقدم إلى الأمام وحتى يستطيع أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة، ويجب على الإنسان العربى المسلم أيضاً أن يضطلع برسالته أن يفكر فى إعجازه - أى فى إسلامه - وإعجازه لا يتأتى إلا بتحقيق شرط جوهرى وهو تغيير ما بنفسه وتغيير ما فى محيطه. ولا يمكنه أن يغير شيئا فى الخارج إن لم يغير شيئاً فى نفسه. وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها علما، ولا نقوله فقط تبركاً بآية، نقولها «علما» ونعلم مقدارها من الصحة، حيث لا يستطيع المسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير أولاً ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية، يجب أن نتصورها كقانون إنسانى وضعه الله عز وجل فى القرآن .. كسنة من سنن الله التى تسير عليها حياة البشر، وإذن لكى يتحقق التغيير فى محيطنا، يجب أن يتحقق أولاً فى أنفسنا، وإلا فإن المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين[٢].

من وحى دبلوماسية الرسائل النبوية
تطبيع العلاقات .. بين الإسلام والغرب

إذا كنا نسلم أن الغرب يقود النظام الدولى الكونى الراهن، فإنه من باب الموضوعية أن نبحث فى وسائل تطبيع العلاقات مع هذا الغرب، ولا يشك المحللون أن دبلوماسية الرسائل

١- مالك بن نبى، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوى (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩)، ص ٨٨ - ٩٠.

٢- مالك بن نبى، دور المسلم ورسالته فى الثلث الأخير من القرن العشرين (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٨)، ص ٥٧ - ٥٨.

النبوية التى وضع أسسها الرسولﷺ تعتبر مدخلا مستنيراً لمسألة تطبيع العلاقات الإسلامية الغربية. لأننا نتصور أن تطبيع العلاقات يجب أن يبدأ من خلال صيغة للحوار المشترك ، بحيث يكون هذا الحوار وعاء تطرح فيه النقاط التى يتفق فيها الإسلام والغرب ، ثم بعد ذلك يمتد الحوار المشترك إلى مناقشة العديد من القضايا التى تواجه المجتمعات الإنسانية ويتبارى المتحاورون بموضوعية فى استخراج الحلول المناسبة التى تصلح لعلاج مشاكل الإنسان.

والرسول حينما بدأ يضع خطابه الإسلامى بين أيدى زعماء الغرب بدأ – كما سبق أن وضحنا – بدبلوماسية الرسائل والرسل الذين جابوا كبريات الممالك فى الغرب والشرق.

وإذا كان المسلمون سبق أن مدوا أيديهم إلى الغرب فى مراحل مختلفة من التاريخ المشترك ، وأن الغرب قد صد عروضهم ، فإنه يبدو لنا أن هناك تغيراً جذريا يتحقق اليوم على أعلى مستوى فى العالم المسيحى. فالوثيقة التى طبعتها سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين إثر مجمع الفاتيكان الثانى، بعنوان «توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين والتى طبعت للمرة الثالثة فى عام ١٩٧٠م، تشهد بعمق التحول فى المواقف الرسمية. فقد دعت وثيقة الفاتيكان إلى استبعاد الصورة التى يصور المسيحيون المسلمين عليها، «تلك الصورة البالية التى ورثنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة». ثم اهتمت الوثيقة «بالاعتراف بمظالم الماضى التى ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية فى حق المسلمين». والوثيقة تنتقد أيضاً مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن الحتمية الإسلامية وحرفية الإسلام وتعصبه، وغير ذلك. وتؤكد الوثيقة على وحدة الإيمان بالله عند الجماعتين وتذكر كيف أثار الكاردينال كونيج Koenig إعجاب مستمعيه بالجامع الأكبر حين أعلن ذلك فى محاضرته الرسمية التى ألقاها بجامعة الأزهر الإسلامية فى القاهرة عام ١٩٦٩. كما أن الوثيقة تذكر أيضاً بأن سكرتارية الفاتيكان قد دعت المسيحيين منذ عام ١٩٦٧ إلى تقديم تهانيهم إلى المسلمين بمناسبة عيد الفطر لأنه يمثل «قيمة دينية أصيلة»[(١)].

ولقد كانت المناظرة المثيرة Great Debate التى عقدت فى إحدى مدن ولاية لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية بين العلامة أحمد ديدات والقس جيمى سواجارت فى عام ١٩٨٦ محاولة جديدة على طريق الحوار الإسلامى المسيحى.

١– موريس بوكاى، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، مرجع سابق، ص٧.

ولقد حققت هذه المناظرة نجاحاً منقطع النظير حينما سجلت مبيعات أشرطه الفيديو أعلى معدل توزيع على مستوى العالمين الإسلامى والمسيحى.

ولكن هذه المناظرة كانت وبالاً على الفكر المسيحى حينما قامت بعض الحسناوات الشقراوات الأمريكيات بتفجير مجموعة من الفضائح الجنسية التى تعرضن لها من قبل القس سواجارت، ويومها تسابقت محطات التلفزيون الأمريكية على ترتيب لقاءات مع بعض هؤلاء الحسناوات اللائى شرحن كيف «تفنن» سواجارت فى ممارسة الجنس البهلوانى معهن بعد أن أقنعهن بأن ممارسة الجنس معه تنزل البركة عليهن وهى الطريق الوحيد لتحقيق أحلامهن وأمنياتهن. ولقد شاهدت شخصيا عددا من هذه المقابلات الفاضحة.

ونتيجة لهذا العمل الخسيس الذى قام به القس سجلت هذه الفضائح أرقاما إيجابية كثيرة لصالح العلامة ديدات الذى كان قبل ذلك موضوعيا ومتفوقا فى مناظرته أكثر بكثير من جيمى سواجارت.

وبسبب هذه الفضائح الجنسية أسقط الجانب المسيحى أهم عناصر نجاح مثل هذا الحوار، مما حمل مجلس الكنائس إلى إتخاذ مجموعة من العقوبات ضد سواجارت، من بينها إقالته من المجلس وإيقاف برامجه التلفزيونية التى كان يبثها فى أيام الآحاد، ثم إيقاف المناظرات مع العلامة ديدات. وهكذا كانت هذه العقوبات وكأنها عقوبات أصدرها المسلمون ضد شخص اشتهر بنقده المتعسف للقرآن ورسول الإسلام ﷺ. ورغم أن القس سواجارت عاد وظهر على شاشات التلفزيون الأمريكية وهو ينتحب ويبكى ويطلب التوبة إلا أن إيقاف سواجارت عن ممارسة نشاطه ظل سارى المفعول فى ذلك الوقت.

ومن ناحية أخرى فإن المبادرة التى طرحها الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا حاليا وملكها مستقبلاً بجامعة أكسفورد فى شهر جمادى الأول ١٤١٤هـ= نوفمبر ١٩٩٣م تؤكد أن الغرب راجع حساباته ووصل إلى قناعة مفادها حتمية الحوار بين الإسلام والغرب من أجل إيجاد صيغة مناسبة للعيش بسلام وأمان فوق هذا الكوكب الذى بات قرية كبيرة تحوم حولها المخاطر من كل جانب، وأضحت الأضرار تطال القريب والبعيد ولاينجو منها الغرب.. إلا حينما لا تصل هذه الأضرار إلى الشرق الإسلامى. يقول الأمير تشارلز فى مبادرته: وتسليما بكل التحفظات عندى حول المغامرة فى موضوع شائك ومعقد، فقد تتساءلون: لماذا أنا هنا فى مبنى « رين البديع » أتحدث إليكم حول موضوع الإسلام

والغرب؟ السبب، سيداتي وسادتي، هو أنني أعتقد بصدق أن العلاقة بين هذين العالمين أصبحت لها أهمية الآن تفوق كل ما كان سابقا، لأن درجة سوء الفهم بين العالمين الإسلامي والغربي مرتفعة بشكل خطير، وفي نفس الوقت فإنني أعي تماما حقل الألغام الممتد أمام الرحالة غير الخبير والذي قد صمم على اكتشاف هذا الطريق الوعر. وبعض ما سأقوله سيثير بلا شك الاختلاف ، النقد ، عدم الفهم ، ربما ما هو أفظع . ولكن ربما بعد أن يكون كل شئ قد قيل وأنجز ، فإن من المناسب تذكر مثل عربي يقول: « ما يأتي من اللسان يقف عند الآذان وما يأتي من القلب يصل إلى القلب »[1].

الحقيقة المحزنة، هي أنه، وبالرغم من التقدم في التكنولوجيا والإعلام، في النصف الثاني من القرن العشرين، وبالرغم من الرحلات الكثيرة. وتداخل الأقوام والميل المتنامي نحو تقليل – هكذا يعتقد – أسرار العالم الغامضة ، فإن سوء الفهم بين الإسلام والغرب لا يزال مستمرا . وفي الحقيقة ، فإنه قد يكون متزايدا. وبقدر ما يتعلق الأمر بالغرب ، فإن هذا الأمر لا يعلل بالجهل. هناك مليار مسلم في العالم . وعدة ملايين منهم يعيشون في أقطار الكومنولث ، عشرة ملايين في الغرب ، ومليون منهم في بريطانيا، وجاليتنا الإسلامية في ازدياد وازدهار لعقود من الزمن. هناك حوالي خمسمائة مسجد في بريطانيا. الاهتمام الشعبي بالثقافة الإسلامية في بريطانيا يتنامى بسرعة.

إن الوقت ليس متأخرا لأن يقوم الإسلام والغرب بتوحيد قواهما من أجل الصالح الإنساني المشترك. لقد لفت الانتباه إلى هذا المثال المخصوص لأنه كثيرا ما يهمل . وفي أماكن أخرى ، فإن العنف والحقد العنيد ذو جذور بعيدة، مثلما نشاهد– مروعين– بشكل مستمر كل يوم معاناة الشعوب في أنحاء العالم في يوغسلافيا السابقة، في الصومال، أنغولا، السودان، عدد كبير من أقطار الاتحاد السوفيتي سابقا. ومعاناة مسلمي البوسنة في يوغسلافيا، إلى جوار معاناة الجاليات الأخرى في تلك الحرب القاسية، تساعد على الخوف والتصورات المسبقة التي يختزنها عالم كل منا بالحياة. الصراع طبعا ، ينبع من الاستعمال الخاطئ للسلطة واختلاف الأفكار ، ومن دون ذكر النشاطات القابلة للاشتعال لبعض القادة عديمي الضمير وشديدي التعصب . ولكنها أيضا تأتي، بشكل مأساوي، من العجز عن الفهم ، ومن المشاعر العارمة التي تقود إلى عدم الثقة والخوف بتأثير عدم الفهم.

١– د. محمود حمدي زقزوق، الإسلام في مرآة الفكر الغربي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م)، ص ١٨٦.

سيداتى وساداتى، يجب ألا ننحدر إلى فترة جديدة يسودها الخطر والانقسام ، لأن حكومات وشعوبا جاليات وأديانا لا تستطيع أن تعيش سويا فى سلام فى عالم يتقلص باستمرار. ثم يضيف ملك بريطانيا القادم قائلاً:

إن من الغريب ، من جهات كثيرة ، أن يستمر عدم الفهم بين الإسلام والغرب، لأن ما يربط بين العالمين هو أقوى بكثير مما يفرق بيننا المسلمون ، والمسيحيون ، واليهود، كلهم « أهل كتاب ». ويشترك الإسلام والمسيحية فى رؤية أن الحياة على الأرض هى فترة انتقالية، وفى الجزاء على أعمالنا، وفى الثقة فى الحياة الأخروية نحن نشترك فى العديد من القيم الأساسية: احترام للعلم ، للعدالة ، التعاطف مع الفقراء والمعوزين، أهمية الحياة العائلية، واحترام الأبوين « وبالوالدين إحسانا » تصور قرآنى أيضا. وتاريخنا مرتبط أيضا بشكل متداخل. ولكن ذلك يشكل على أية حال، سببا للمشكلة ، لأن معظم هذا التاريخ كان تاريخ صراع.

ومن ناحية أخرى يضيف الأمير تشارلز فى وضع رؤيته عما يجب أن تكون العلاقة بين الاسلام والغرب: إذا كان هناك الكثير من سوء الفهم فى الغرب عن طبيعة الاسلام فإن هناك أيضا جهلا كبيرا بما تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامى. إنه فشل ينبع فى اعتقادى ، من القوالب الجاهزة التى ورثناها حول التاريخ. كان العالم الإسلامى فى القرون الوسطى ، من أواسط آسيا حتى سواحل الأطلنطى ، عالما مزدهرا بالمفكرين والعلماء ، ولكن بسبب نظرتنا نحو الإسلام إلى اعتباره عدوا للغرب، وأنه دخيل علينا فى ثقافته ومجتمعه ونظامه الاعتقادى ، فقد ملنا نحو تجاهل أو محو صلته الكبرى بتاريخنا. وعلى سبيل المثال ، فإننا قللنا من أهمية ثمانمائة عام من المجتمع والثقافة الإسلامية فى أسبانيا فيما بين القرنين الثامن والخامس عشر. إن مساهمة أسبانيا الإسلامية فى حفظ المعرفة الكلاسكية خلال العصور المظلمة إلى بداية ازدهار عصر النهضة، قد اعترف بهما زمن طويل . ولكن أسبانيا الإسلامية كانت أكثر من مجرد مخزون حفظت فيه الثقافة الهيلينية لحين استهلاكها فيما بعد من قبل العالم الغربى حديث الولادة. ولم تكتف أسبانيا المسلمة بجمع وحفظ المحتوى الثقافى لليونان القديمة والحضارة الرومانية فحسب. وإنما فسرت وطورت تلك الحضارة ،

وأضافت مساهمتها الحيوية الخاصة فى عدد من حقول المغامرة الإنسانية- فى العلوم ، والفلك، الرياضيات، الجبر (والكلمة نفسها عربية) ، القانون التاريخ الطب، الصيدلة، الضوء، الزراعة، المعمار، الإلهيات، والموسيقى. وابن رشد، وابن زهر مثل نظيريهما ابن سينا والرازى فى المشرق، أضافوا إلى دراسة وممارسة الطب بشكل استفادت منه فى قرون لاحقة.

وقد غذى الإسلام وحث على الرغبة فى طلب العلوم وفى الحديث إن « حبر العلماء خير من دماء الشهداء»وقرطبة فى القرن العاشر كانت أكثر المدن الأوروبية حضارة. ونحن نعرف عن وجود مكتبة فى أسبانيا فى زمن كان فيه الملك ألفريد يتخبط بفظاعة فى فن طبخ الكعك. يقال أن ٤٠٠ر٠٠٠ مجلد كانت فى مكتبة حاكمها، أى ما يعادل أكثر من مجموع الكتب فى كافة مكتبات باقى أوروبا. وكان ذلك ممكنا لأن العالم الإسلامى حصل على المهارات اللازمة لصنع الورق من الصين قبل أكثر من أربعة قرون من معرفة باقى أوروبا غير الاسلامية له. وإن عددا من الخصائص التى تفتخر أوروبا بها جاءت إليها من أسبانيا الإسلامية. الدبلوماسية، التجارة الحرة، الحدود المفتوحة ، تقنية البحث الأكاديمى الأنثروبولوجى، الإتيكيت، الموضة، طب الأعشاب، المستشفيات، كلها جاءت من هذه المدينة أم المدن، وإسلام القرون الوسطى كان دينا متميزا بتسامحه قياسا على ذلك الوقت ، منح لليهود والمسيحيين حق ممارسة معتقداتهم الموروثة، ووضع مثلا للأسف ، لم يحتذ لقرون فى الغرب ، والعجيب ، أيها السيدات والسادة هو المدى الذى كان فيه الإسلام جزءا من أوروبا لمدة طويلة، أولا فى أسبانيا، وبعدها فى البلقان، والمدى الذى ساهم به فى الحضارة التى نعتقد جميعا فى غالب الأحيان، وبشكل خاطئ. بأنها غربية بالكامل. الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا، فى جميع حقول السعى الإنسانى، وهو الذى ساعد على خلق أوروبا الحديثة. إنه جزء من تراثنا، وليس أمرا معزولا.

ويضيف الأمير تشارلز أن بإمكان الإسلام اليوم أن يعلمنا الطريقة التى نفهم بها ونعيش فى عالم افتقرت فيه المسيحية بفعل ما فقدته. وفى صميم الإسلام هناك محافظة على تصور متكامل للكون. الإسلام يرفض فصل الإنسان عن الطبيعة، الدين عن العلم، الفكر عن المادة، وحفظ رؤية ميتافيزيقية ومنظور توحيدى لأنفسنا وللعالم من حولنا. وفى قلب المسيحية، يكمن منظور عن قدسية العالم، وإحساس واضح بالأمانة والمسئولية المعطاة لنا عن الطبيعة المحيطة بنا. وفى كلمات شاعر القرن السابع عشر المبدع، جورج هيربرت: «الرجل الذى يحدق فى

الزجاج، ربما ستثبت نظراته عليه، أو أنه إذا أراد سوف يتطلع من خلاله إلى السماء». ولكن الغرب، وبصورة تدريجية، فقد رؤيته للعالم مع كوبرنيكوس وديكارت ومجئ الثورة العلمية. ولم تعد الفسلفة الشاملة للطبيعة جزءا من معتقداتنا اليومية. ولا أستطيع منع نفسى عن الإحساس بأن منظورا شاملا- لو استطعنا اكتشافه قبلا- عن العالم المحيط بنا، لأن نرى ونفهم معناه الأعمق. كان باستطاعتنا البدء فى الخروج من الميل المتزايد فى الغرب نحو العيش على سطح البيئة المحيطة بنا، حيث همنا دراسة عالمنا للتحكم فيه والسيطرة عليه، محولين الانسجام والجمال والتوازن إلى انعدام التوازن والفوضى. إنها حقيقة محزنة، كما أعتقد، أن يكون العالم الخارجى الذى كوناه فى القرون الأخيرة. ومن عدة جوانب، أصبح يعكس عالمنا الروحى المنقسم والمضطرب. وأصبحت الحضارة الغربية وبشكل متزايد تملكية واستغلالية متحدية مسئولياتنا البيئية. وهذا الاعتقاد الحاسم بالوحدة والأمانة فى المبدأ الدينى والروحى الحيوى للعالم من حولنا هو بلا شك أمر مهم باستطاعتنا أن نتعلمه من جديد من الإسلام، وأنا على ثقة أكيدة بأن البعض سوف يتهمنى مباشرة، كما هى عادتهم، بأننى أعيش فى الماضى، وأننى أرفض التكيف مع الواقع والحياة الجديدة. وعلى العكس سيداتى وسادتى، فإن ما أدعو إليه هو شئ أوسع وأعمق وأكثر دقة فى الفهم لعالمنا، إلى جانب ميتافيزيقى بالإضافة إلى الجانب المادى فى حياتنا، من أجل استعادة التوازن الذى تركناه، والذى سيكون غيابه، كما أعتقد، كارثة محققة فى المدى الزمنى الطويل. وإذا كان بإمكان الأفكار الموجودة فى الإسلام والديانات الأخرى مساعدتنا فى هذا، فإن هناك أشياء علينا تعلمها من نظام الاعتقاد هذا، والذى يمكننى القول أننا تغافلنا عنه وتكلفنا مخاطره.

واختتم الأمير تشارلز حديثه بقوله: لا أستطيع أن أضع أمامكم بشكل أقوى أهمية القضايا التى حاولت التعريج عليها بشكل بعيد عن الكمال. هذان العالمان الإسلامى والغربى، هما فى شئ مثل تقاطع الطرق فى علاقاتهما. وينبغى علينا ألا نجعلهما يقفان متباعدين. وأنا لا أقبل الرأى الذى يقول أنهما فى طريقهما إلى التصادم فى فترة جديدة من العداء. وأنا مقتنع تماما بأن عالمينا يملكان الكثير ليقدماه لبعضهما البعض . أمامنا الكثير لننجزه معا. وأنا سعيد بأن الحوار قد بدأ، هنا فى بريطانيا وفى أماكن أخرى ، ولكن علينا أن نعمل بجهد أكبر لأن نفهم بعضنا البعض، وأن نصفى السموم التى تقف بيننا ، وأن ندفن شبح الشك والخوف . وكلما استطعنا أن نمعن فى مسيرنا . على هذا الطريق ، كان العالم الذى نبنيه لأبنائنا وأجيالنا المقبلة عالما أفضل [١] .

١- د. محمود حمدى زقزوق، المرجع السابق، ص ١٨٧ .

وفى إطار الانتقال بفكرة الحوار (بين الإسلام والغرب) من مجرد مشروع مطروح على الجانبين، بدأت بعض الفعاليات تضع هذا المشروع موضع التنفيذ.

ولقد استأنفت كوكبة من علماء الإسلام والغرب فى نادى الصحافة الدولى بواشنطن مؤتمرا فى ١١ جمادى الأولى ١٤١٤هـ = ٢٦ أكتوبر ١٩٩٣م تحت شعار «الإسلام والغرب.. تعاون لامواجهة». واشترك فى هذا المؤتمر عدد من الوجوه الإسلامية والغربية القادرة على حمل رسالة التنوير والتذكير بأهمية حوار الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

وطرح المؤتمر فى عاصمة الحضارة الغربية مجموعة من الموضوعات السياسية الساخنة التى تناولت دراسة نظم الإسلام ومؤسساته السياسية والتعريف بإنجازات الحضارة الإسلامية وأثرها على الحضارة الغربية والإسهامات التى يمكن أن يقدمها الإسلام لصالح البشرية، وتأكيد قيم الحوار والتفاهم المتبادل وقيام العلاقات بناء على الاحترام والتقدير المتبادل وليس السيطرة والاستغلال، وبيان أن التنمية مفهوم شامل اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا، قيميا، وإنه لا يوجد نموذج واحد يجب أن يفرض على البشرية، والتأكيد على أن الأولى للغرب والأفضل لصالح البشرية التحاور والتصالح مع الإسلام، وأنه دين قادم بإذن الله خيراً ورحمة للبشرية، وتوضيح كثير من الصور المشوهة التى ربطت بالإسلام كالإرهاب والتخلف والأصولية.

ولقد اشترك فى المؤتمر مجموعة من الرموز فى العالم الإسلامى وفى عاصمة الحضارة الغربية منهم الرئيس السابق چيمى كارتر، ولى هاملتون رئيس دائرة العلاقات الخارجية بالكونغرس، و د. عبد الله نصيف نائب رئيس مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية، و د. كمال أبو المجد وزير الإعلام المصرى السابق، و د. محمد سليم العوا أستاذ القانون والفكر الإسلامى المعروف، و د. إعجاز جيلانى سياسى وأستاذ جامعى ورئيس مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بإسلام آباد، و د. خورشيد أحمد نائب أمير الجماعة الإسلامية بباكستان، و د. جون إسبوزينو مدير جامعة جورج تاون بأمريكا، و د. سليمان يناناغ الأستاذ بجامعة هارفارد، والمحامى عابدين جبارة المدير السابق للمنظمة العربية الأمريكية لمناهضة التمييز، و الأستاذ كامل الشريف رئيس المجلس الإسلامى للدعوة والإغاثة بالقاهرة.

إن نقطة الانطلاق الصحيحة فى الحوار الحضارى بين الجانبين على كافة الأصعدة ينبغى أن تبدأ – كما ذكرنا– من الأمور المشتركة، وترتكز على المصالح الحقيقية لكلا

الجانبين، وتقوم على قاعدة صلبة من الاحترام المتبادل والثقة المتبادلة. فليس هناك معنى لأن تظل النظرة الغربية للإسلام والمسلمين مغلفة بضباب حروب الماضى السحيق وصراعاته فى العصور الوسطى.

وما من شك فى أن ما يساور العالم الإسلامى من شكوك بالنسبة للغرب وما يرتبط بذلك من شعور بعدم الثقة، إنما ينطلق من تجاربه المريرة مع القوى الغربية الاستعمارية فى الماضى القريب والبعيد. ولكن ليس هناك أيضا معنى لأن نظل أسرى تلك الصورة المظلمة للغرب، فلا مفر أمام العالمين الإسلامى والغربى من التعايش معا[1].

ولابد من بناء جسور الثقة بينهما، وليس هناك فى هذا الصدد بديل عن الحوار الحضارى الجاد بين الجانبين، ولعل خطاب الأمير تشارلز المشار إليه يكون بمثابة مؤشر جديد من الجانب الغربى. لبدء صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب. وبذلك يستطيع المسلمون أن يوقفوا ولو نسبيا- العدوان الغربى المستمر على العرب والمسلمين، وهو العدوان الذى استمر منذ العصور الصليبية حتى العصر الحديث، ويحلون محله حوارا من أجل البناء ونبذ الخلاف والحروب، وهو ما يتمشى مع المتغيرات العالمية الذى سوف يتميز بها القرن الواحد والعشرون.

التضامن الإسلامى.. هو وحدة عمل وليس وحدة كيان

فى هذه الدراسة نحاول أن نكون قريبين من الواقع بعيدين عن الشعارات التى كثيرا ما نقرؤها - فى هذه الأيام- لعدد من المفكرين الإسلاميين المعاصرين الذين يبسطون الواقع ويقفزون فوق حوائله وغوائله.

وحتى نكون موضوعيين وواقعيين، فإن الرهان الذى نطرحه للعمل الإسلامى المشترك لا ينبثق - على الأقل فى المراحل الأولى- من الوحدة الإسلامية بمعناها الجغرافى، وإنما ينبثق من التضامن الإسلامى المشروع الواقعى الذى طرحه فى الستينيات المرحوم الزعيم العربى الإسلامى الكبير الملك فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية آنذاك.

١- روجيه غارودى، وعود الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٥ - ٢٧.

ومضمون هذا المشروع الإسلامى الواقعى هو التضامن بين الدول الإسلامية فى مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية لمجابهة كافة أشكال الأخطار الخارجية والتحرر من التبعية[1].

ويمكن تفريغ المشروع فى مصطلح واحد هو أن مضمون التضامن الإسلامى هو «وحدة عمل» لا «وحدة كيان»، بمعنى آخر هو وحدة فكر قبل أن يكون وحدة جغرافيا. فإذا كانت الدائرة العربية هى وحدة مصير والآسيوية أو الأفريقية هى وحدة جوار، فالإسلامية هى وحدة عقيدة.

ووحدة العقيدة هى البداية الطبيعية للوصول إلى وحدة الجغرافيا فى حدود الممكن.

ويعنى هذا أن العمل السياسى والنشاطات الدولية الإسلامية التى تخضع حالياً لتوجيهات منفصلة ومشتتة وربما متعارضة، ينبغى أن تتحول من نمط الطرد المركزى إلى نقطة الجذب المركزى، وصولاً إلى التنسيق الكامل فى إستراتيجية عظمى واحدة، الإسلام بوصلتها التى نسترشد بها فى عالم القوى الذى يهدد الكل بصراعاته وتوازناته، بضغوطه وتكتلاته، وأيضا باستقطاباته وتفككاته.

هذا التعريف الوظيفى لوحدة العالم الإسلامى السياسية قد يراه البعض حدا أدنى، ونراه، فى المراحل الأولى، حدا أمثل. بل إننا لنخشى أن جهود الدول الإسلامية واستعداداتها الفعلية تقصر كثيراً دون برنامج العمل الإيجابى الذى ينتظمه حتى ليكاد يبدو على بداهته برنامجاً طموحاً أكثر مما ينبغى. إن هذا البرنامج هو المحك والمقياس الحقيقى لنظرية وحدة العالم الإسلامى مثلما هو محيطها ومجالها[2].

ومهما يكن من أمر، فإنه يستدعى من الدول الإسلامية الحد الأقصى من التعبئة الشاملة المكثفة لكل طاقاتها ومواردها وإمكانياتها، حتى يحتفظ العالم الإسلامى بمكانته العالمية وهيبته فى السياسة الدولية، بل نكاد نقول حق الحياة والبقاء والمشاركة فى مقدرات العالم المعاصر[3].

١- عباس محمود العقاد، الإسلام فى القرن العشرين (القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣)، ص ٢٢ - ٣٣.

٢- يحيى السيد الصباحى، النظام الرئاسى الأمريكى والخلافة الإسلامية (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م)، ص ٥٦١ - ٥٦٦.

٣- د. جمال حمدان، العالم الإسلامى المعاصر (القاهرة: دار الهلال، أغسطس ١٩٩٣)، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

كيف يصبح العرب المسلمون... دولة عظمى؟

يتفق علماء السياسة والحضارة أن هناك مقومات مشتركة لدى الدول العظمى، إذا توافرت هذه المقومات المشتركة فى دولة ما، وفى أى عصر، فإن هذه الدولة تصبح فى عداد الدول العظمى أو الكبرى.

ومن أهم المقومات التى يجب أن تتوافر فى الدولة العظمى:

- الموقع الإستراتيجى للدولة والقدرات العسكرية رفيعة المستوى.

- الموروث الحضارى والتجارب الثقافية السابقة.

- الزعامات الرائدة التى تفرزها هذه الدول فى شتى حقول العلوم والمعارف والتى تضطلع بمسئوليات الريادة فى المجتمعات الإنسانية.

- المعاصرة والانتماء الفاعل إلى الحضارة العصرية.

- السلوك الحضارى العام فى الشارع الوطنى ودرجة الانتماء إلى المجتمعات الإنسانية الراقية.

- حجم الموارد الطبيعية والثروات القومية ومستوى استغلالها، والتوازن بين عدد السكان والإنتاج الوطنى.

- مستوى إنتاج واستخدام التكنولوجيا الحديثة وتطبيق سياسة تعليمية ذات دلالات ثقافية واسعة.

- مستوى المشاركة فى تنمية الاقتصاد الدولى والإسهام فى عمار كوكب الأرض وإحداث التطور لخير البشرية والإنسانية.

- درجة ممارسة العملية الشورية أو الديمقراطية بدءا من النظام السياسى.. وحتى القنوات الأسرية.

- الانتماء إلى المنظمات الإقليمية والدولية والمساهمة فى تعزيز مبادئ حقوق الإنسان والمساواة والعدل بين الكافة وعلى صعيد دعم الأمن والسلم الدوليين.

وفى ضوء ذلك تعتبر الدولة فى عداد الدول العظمى بحجم ما يتوافر فيها من هذه المقومات.

فإذا أخذنا مثلا بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية، فإننا نجدها تتصف بمعظم هذه المزايا، وكانت تسمى بريطانيا العظمى، ولذلك كانت بريطانيا- حتى ذلك التاريخ- تمسك بالكثير من مفاتيح القضايا السياسية فى العالم.

ولكن بريطانيا العظمى لم تعد اليوم بريطانيا العظمى، لأنها تعانى من خلل كبير فى القدرات الاقتصادية والعسكرية والانتماء الفاعل إلى الحضارة العصرية. كما أن مستوى إنتاج واستخدام التكنولوجيا فيها يتجه إلى التواضع، وبالتالى فإن مستوى مشاركتها فى تنمية الاقتصاد الدولى فى تراجع.

وبقدر ما تسجل بريطانيا من تراجع فى تمتعها بهذه المقومات، فإنها تفقد مكانها فى عداد الدول العظمى.

ولكن على عكس ذلك، فإن الولايات المتحدة الأمريكية التى بدأت منذ الحرب العالمية الثانية تملك كافة المفاتيح وتعتلى سدة الدول العظمى استطاعت بالفعل أن توفر أسباب بقائها فى عداد الدول العظمى عن طريق المعاصرة والانتماء الفاعل إلى الحضارة العصرية والاستغلال الأمثل للموارد والاستخدام الواسع للتكنولوجيا، واتباع سياسة تعليمية ذات دلالات ثقافية واسعة، والمساهمة بشكل فعال فى إحداث التطور للبشرية، ودعم الاقتصاد الدولى وتعزيز التنمية الاقتصادية فى العالم وبناء أكبر قوة عسكرية واقتصادية وسياسية فى الكون.

ولكن المؤشرات التى تسجلها مراكز البحوث على الولايات المتحدة فى الوقت الراهن – كما سبق أن أشرنا – تشير إلى قرب تخلى الولايات المتحدة عن بعض المقومات اللازمة لبقائها فى مراتب الدول العظمى، وعلى عكس ذلك فاليابان والصين والنمور الآسيوية وأوروبا تتقدم نحو بلوغ مرتبة الدولة العظمى مع بداية القرن الواحد والعشرين.

* * *

أما بالنسبة للعرب المسلمين فإن الإمكانات التى تتوافر فى البلاد العربية تؤكد على أن العرب لديهم – أكثر من الأوروبيين – كل الإمكانات اللازمة لاعتلاء مرتبة الدولة العظمى.

ولكن من المؤسف جدا أن هذه الإمكانات لم تستغل ولم تستثمر فى اتجاه توفير مقومات اعتلاء مراتب الدول العظمى.

إن الوطن العربى - على سبيل المثال - يقع فى أهم المواقع الإستراتيجية فى العالم، كما أن الموروث الحضارى والثقافى والدينى يعد الأعلى فى العالم حيث إن البلاد العربية شهدت ميلاد الأديان الثلاثة اليهودية، النصرانية، الإسلام، كما أن العالم العربى قدم للإنسانية والبشرية- عبر التاريخ الطويل - الكثير من الزعامات والقيادات فى مختلف العلوم والفنون والسياسة، يضاف إلى ذلك أن الثروات التى تتوافر فى العالم العربى قلما نجد نظيرا لها فى أى بقعة فى العالم ابتداء من البترول حتى كافة الموارد والمحاصيل وغيرها..

ولكن حالة عدم التوازن المستمر بين الموارد الطبيعية والإنسانية المتاحة وبين الإنتاج وكذلك حالة التطويق الغربى لمقدرات الأمم الإسلامية.. هما اللذان يعوقان تقدم العرب نحو الإستغلال الأمثل للإمكانيات القومية المتاحة.

ولقد أفرزت هذه الحالة التى يحركها ويصنعها التدخل الأجنبى والخارجى.. تقهقر العرب عن ممارسة الدور الأنسب فى المعاصرة والانتماء الفاعل إلى الحضارة العصرية، والتخلف فى إنتاج واستخدام التكنولوجيا الحديثة...

ولذلك إذا كان الغرب حريصا على شئ فى التاريخ المعاصر، فإنه حريص جدا أن يظل العرب مشغولين بمشاكلهم الصغيرة، وقبل ذلك مشغولين بإسرائيل وتهديداتها المستمرة.

ولقد ظل زعماء الغرب منذ الحروب الصليبية عند تعهدهم لشعوبهم بأن عيونهم على العرب وأنهم لن يمكنوا العرب من استغلال الإمكانات الهائلة التى تتمتع بها بلادهم وأنهم حريصون دائما على خلق الظروف فى المنطقة العربية الكفيلة بإعاقة العرب والحيلولة دون تمكينهم من استثمار الإمكانات الزاخرة التى تتوافر لهم حتى يظلوا دائما دون مستوى الدول العظمى.. بل دون مستوى الدول النامية.

ولكن مع ذلك فإن الإمكانات التى وفرها الله سبحانه وتعالى فى بلاد الإسلام، لن تظل أسيرة الاستلاب الغربى مدى الحياة. فلقد بشر الرسول ﷺ المسلمين بقدومهم مرة أخرى حتى يظهر - فى النهاية - هذا الدين الأقوم على الأديان والملل كلها(1). أخرج البخارى عن عدى ابن حاتم قال: بينما أنا عند النبى ﷺ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة وأتاه آخر فشكا إليه قطع

1- د. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامى للتاريخ، مرجع سابق، ص٢٥٥-٢٥٦.

السبيل. فقال: ياعدى بن حاتم.. إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله (قلت فيما بينى وبين نفسى فأين ذعار طيئ الذين سعروا البلاد) ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز؟

قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد.

قال عدى: قد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة.

قال البيهقى: قد وقعت الثالثة فى زمن عمر بن عبد العزيز، ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول:

اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله نتذكر من يضعه فيهم فلا نجده فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[1].

ويقول الرسول ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها[2].

وصدق الرسول ﷺ الذى يقول: ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يبقى بيت من مدر أو حجر إلا ويدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز به الإسلام وذلاً يذل به الكفر[3].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس، ثم يقول جل وعلا: ﴿ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾. ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾.

---

(١) سعيد حوى، الرسول ﷺ (القاهرة: مكتبة وهبة، بدون تاريخ)، ص ٣٤٨.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه مسلم.

ويعد سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بأنها الأمة التى سوف تسود الكون وتقود العالم فيقول عز وجل: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[1].

كما روى البزار بسند حسن صحيح عن الرسول ﷺ قوله: إن أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم يكون ملكا عاضا فيكون فيكم ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعه الله جل جلاله ثم يكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل فى الناس بسنة النبى، ويلقى الإسلام بجرانه فى الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض لا تدع السماء من قطر إلا صبته مدرارا، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئا إلا أخرجته.

وواضح أن الدور الأول والثانى انتهى بزوال الخلافة الراشدة، وأن الدور الثالث استمر حتى زوال الدولة العثمانية، وأن الدور الرابع هو الذى نحن فيه وأن الدور الخامس قادم باذن الله[2].

وما أود أن ألفت النظر إليه فى ختام هذا البحث هو أننى استخدمت بعض المفاهيم والمصطلحات التى قد تختلف نسبياً مع مصطلحات ومفاهيم الفكر الإسلامى التقليدى، والسبب هو أننى فى هذا الكتاب أخاطب عقل القارئ غير المسلم أكثر مما أخاطب عقل القارئ المسلم.

ولذلك حتى أكون مفهوما عند هؤلاء وأولئك، فإنه تعين على التعامل مع مصطلحات الفكر السياسى المعاصر، ولكن بما لا يتعارض مع مبادئ الفكر الإسلامى المستنير.

انتهى بحمد الله وتوفيقه

(١) سورة الصف.

(٢) سعيد حوى، المرجع السابق، ص ٣٥٠.

المراجع والأسانيد

القرآن الكريم

ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير.

ابن نبى، مالك. شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوى، دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩.

ابن نبى، مالك. تأملات، دمشق: دار الفكر، ١٩٧٧.

ابن نبى، مالك. دور المسلم ورسالته فى الثلث الأخير من القرن العشرين، دمشق: دار الفكر ١٩٧٨.

أبو فارس، د. محمد عبد القادر. النظام السياسى فى الإسلام، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٨٠.

أبو زهرة، الأمام محمد. خاتم النبيين ﷺ، المجلد الأول. القاهرة: دار الفكر العربى، بدون تاريخ.

إسماعيل، د. يحيى. منهج السنة فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم، المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

الأزرقى، أخبار مكة، جزء ١.

أحمد، صفاء الدين محمد. مجلة المنهل ٥١١.

الأفغانى، سعيد. أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام، دمشق: دار الفكر، ١٩٦٠.

الأنصارى، عبد القدوس. جدة، جدة : دار المنهل، ١٣٨٠هـ.

الألوسى، أبو الثناء. روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى، جزء ٢٥، القاهرة: المطبعة المنيرية، ١٣٤٥هـ.

بوكاى، د. موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، القاهرة: الفتح للإعلام العربى، بدون تاريخ.

ديدات، أحمد. محمد ﷺ المثال الأسمى، ترجمة محمد مختار، القاهرة: المختار الإسلامى، بدون تاريخ.

ديدات، أحمد. محمد ﷺ الخليفة الطبيعى للمسيح، ترجمة رمضان الصفناوى، القاهرة: المختار الإسلامى، ١٩٩١.

ديدات، أحمد. ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ، القاهرة: المختارة الإسلامى، بدون تاريخ

زقزوق، د. محمود حمدى. الإسلام فى مرآة الفكر الغربى، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤.

جاد، د. ممدوح. المسيح فى الانجيل بشر، القاهرة: بدون ناشر، ١٩٩٣.

جدعان، د. فهمى. الشرق الأوسط، ١٦ نوفمبر ١٩٩٣.

جيورجيو، كونستانس. نظرة جديدة فى سيرة رسول الله ﷺ، تعريب دكتور محمد التونجى، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٣.

حموى، ياقوت، معجم البلدان، جزء ٨.

حمودة، د. عبد العزيز، مجلة الهلال، أغسطس ١٩٩٣.

حمدان، د. جمال. العالم الإسلامى المعاصر، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣.

حوى، سعيد. الرسول ﷺ، القاهرة: مكتبة وهبة، بدون تاريخ.

الخطيب، د. زكريا. نظام الشورى فى الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

خليل، د. عماد الدين. التفسير الإسلامى للتاريخ، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨.

خياط، عبد الله عمر. جريدة عكاظ، ٢٥ رجب ١٤١٤هـ = يناير ١٩٩٤.

الدجانى، أحمد صدقى. عروبة وإسلام ومعاصرة، بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٢.

ريسلر، جاك. الحضارة العربية، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت: منشورات عديدات، ١٩٩٣.

ساعاتى، د. أمين. العلاقات التاريخية المستمرة بين مصر ودول الخليج منذ العصور الفرعونية حتى العصر الحديث، م. الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٣.

ساعاتى، د. أمين. الأمن القومى العربى، صيغة مناسبة للدخول فى القرن الواحد والعشرين، م. الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٣.

ساعاتى، د. أمين. الشورى فى المملكة العربية السعودية، مصر الجديدة: المركز السعودى للدراسات الإستراتيجية، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

السباعى، أحمد. تاريخ مكة المكرمة، مكة: دار الندوة، ١٣٧٨هـ.

سرور، د. محمد جمال الدين. قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد ﷺ، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٣٧١هـ.

سعيد، ادوارد. الاستشراق، المعرفة، السلطة، الانشاء، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩١.

سيرة ابن هشام.

شبنغلر، اسوالد. سقوط الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيبانى، بيروت: مكتبة دار الحياة، ١٩٨٢.

شرف، لواء أركان حرب عبد الحميد على. الصراع الكبير بين الشرق والغرب ومراحل تطوره عبر ١٣ قرناً. القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢.

صالح، أحمد عباس. جريدة الشرق الأوسط، ٥ يناير ١٩٩٤.

الصباحى، يحيى السيد. النظام الرئاسى الأمريكى والخلافة الإسلامية، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

صحيح البخارى

صحيح مسلم

صلاح الدين حافظ، الحياة، ٢ أكتوبر ١٩٩٣.

الشرقاوى، عبد الرحمن. محمد رسول الحرية، القاهرة: دار الشروق، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

Sherwani, Haroon. Studies in Muslim Political Thought and Administration, Philadelphia, Porcupine Press,1977.

شلبى، د. أحمد. موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، القاهرة: مكتبة النهضة الإسلامية، ١٩٨٨.

تاريخ الطبرى.

طنطاوى، د. محمد سيد. بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، القاهرة: الزهراء للإعلام العربى.

الطماوى، د. سليمان. السلطات الثلاث فى الدساتير العربية المعاصرة وفى الفكر السياسى الإسلامى، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٩.

عبد المجيد، د. وحيد. الشرق الأوسط، ١٧ أغسطس ١٩٩٣.

العربى، أبو بكر بن. أحكام القرآن، جزء ١، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧.

عبد عثمان، عثمان. السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والإستراتيجية العليا فى إدارة الصراع الدولى كما حدد مبادئها الرسول ﷺ - بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٤.

عشماوى، المستشار محمد سعيد. جوهر الإسلام، القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٢.

غربال، محمد شريف. الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة: دار الشعب، ١٩٥٩.

عقاد، عباس محمود. الإسلام فى القرن العشرين، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣.

عمارة، د. محمد. ازمة الفكر الإسلامى المعاصر، القاهرة: دار الشرق الأوسط، ١٩٩٠.

عمارة، د. محمد. الإسلام واليقظة العربية، بيروت: دار الوحدة، ١٩٨١.

غارودى، روجيه. وعود الإسلام، ترجمة، د. ذوقان قرقوط، القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

الغزالى، محمد. تأملات فى الدين والحياة، الاسكندرية: دار الدعوة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

Foreign Affairs, Sammer,1993.

الفار، د. عبد الواحد محمد يوسف. أسرى الحرب (دراسة فقهية وتطبيقية فى نطاق القانون الدولى العام والشريعة الإسلامية، القاهرة: دار الكتب، ١٩٧٥.

فيجى، هارى، سوانش، جيرالد. سقوط أمريكا، بوسطن: براون آند كمبنى، ١٩٩٣.

القرناوى، قتينة. سيرة الرسول والخلفاء الراشدين الأربعة. القاهرة: مكتبة الآداب، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣.

فوكوياما، فرانسيس. نهاية التاريخ. ترجمة الدكتور حسين الشيخ، بيروت: دار العلوم العربية، ١٩٩٣.

المقريزى، إمتاع الأسماع.

Kennedy, Paul. The Rise and the Fall of the Great Powers, N.Y.:1987.

Galbraith, John Kenmeth, The New Industrial State. N.Y.: Dophin Book,1967.

كندى، بول. الاستعداد للقرن الواحد والعشرين، ترجمة مجدى نصيف، القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩٤.

ماوردى، أبو الحسن، الأحكام السلطانية.

متولى، د. عبد الحميد. مبادئ نظام الحكم فى الإسلام، الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٥.

مؤنس، حسين. الأطلس الإسلامى. القاهرة: دار الزهراء، ١٩٩٠.

محمود، د. مصطفى. الإسلام السياسى والمعركة القادمة، القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٢.

محمود، د. مصطفى. المؤامرة الكبرى، القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٣.

مستقبل العمل الاقتصادى العربى المشترك فى ضوء التطورات الدولية والعربية، الإدارة العامة للشئون الاقتصادية، جامعة الدول العربية، القاهرة.

المودودى، أبو الأعلى. الحكومة الإسلامية، جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤.

محرم، د. محمد رضا. تحديث العقل السياسى الإسلامى، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر، ١٩٨٦.

معجم الفاظ القرآن الكريم، جزء ٢، القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٠.

المانع، د. صالح. جريدة عكاظ، أكتوبر ١٩٩٣.

المودودى، أبو الأعلى. الحكومة الإسلامية، ترجمة أحمد ادريس، جدة: الدار السعودية للنشر، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

المناوى، الجامع الصغير.

موسى، د. محمد يوسف. نظام الحكم فى الإسلام، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٣هـ = ١٩٦٣م.

النبهانى، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية.

النشاشيبى، حكمت شريف. جريدة الحياة، ١٦ شعبان ١٤١٤هـ = ٢٧ يناير ١٩٩٤م.

Newsweek, March29,1993.

Wiener, Jhon. Church and Politics, Boston: Little Brown and Co.,1972.

وهبة، د. محمود، الأهرام، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٣.

ياسين، السيد. التقرير الإستراتيجى العربى، ١٩٩٣، القاهرة: مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية.

هارون، عبد السلام محمد. تهذيب سيرة ابن هشام، القاهرة: مكتبة السنة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

هلال، د. على. جريدة عكاظ، ٣٠ سبتمبر ١٩٩٣.

هيكل، محمد حسين. حياة محمد، دار المعارف: ١٩٨٩.

وجدى، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الرابع، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.

ياسين، منى. الغرب والإسلام، القاهرة: دار جهاد للنشر والتوزيع، ١٩٩٤.

اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
خطبة الكتاب	٧
المقدمات	١٣
الحضارة الإسلامية تجسدت فى الدولة الإسلامية المحمدية	١٣
الإنفراط الراهن فى النظام الدولى يتيح فرصة مناسبة للنموذج الإسلامى المحمدى	١٥
دور العالم الإسلامى.. لا يتأتى خارج دائرة السياسى	١٦
لماذا أحمد ﷺ؟	١٧
المحتوى	١٨
إنه بأمره (ﷺ)	٢٠

الباب الأول
أحمد النبى والرسول ﷺ
الفصل الأول
المحيط الدينى والسياسى

الحياة السياسية العامة فى بلاد العرب	٢٥
المثلث الجغرافى: مكة، يثرب، الطائف	٢٥
بيت النبوة. الرضاعة والنشأة والتربية الأولى	٣٤
القبيلة العربية.. من النظام العشائرى.. إلى النظام السياسى	٣٧
بناء الأسرة المحمدية	٤٠
المعنى السياسى فى أسواق العرب	٤٣
حلف الفضول.. حلفا سياسيا	٤٤
رسالة السماء.. فى غار حراء	٤٥
التبشير بـ محمد (ﷺ) فى الكتب السماوية السابقة	٥٠

الفصل الثانى
النظام الدولى قبل بزوغ فجر الإسلام

الدول العظمى السائدة فى العالم قبل بزوغ فجر الإسلام	٥٧
أوربا قبيل البعثة المحمدية	٥٧

الموضوع	الصفحة

بلاد فارس قبل البعثة المحمدية ٦١
الأنظمة السياسية فى بلاد العرب قبل البعثة المحمدية ٦١

الباب الثانى
شخصية الرسول (ﷺ)
الفصل الأول
المعمار الدينى
للدولة الإسلامية المحمدية

مقدمة ٦٩
النظام الإسلامى الدولى ٦٩
أسس بناء العلاقات الدولية الإسلامية ٧٢
الإسلام السياسى ٧٣
ما هو القرآن، والفرق بينه.. وبين الدستور ٧٥
السلطات الثلاث فى الفكر السياسى الإسلامى ٧٨
الشورى ٨١
أعضاء مجلس الشورى أو أهل الحل والعقد ٨٢
الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية ٨٥
البيعة ٨٩
الإسلام والعروبة.. طريق للإلتقاء فقط ٩٠
التوفيق.. بين العروبة والإسلام ٩٣
العلمانية أو فصل الدين.. عن الدولة ٩٤
الأصولية الإسلامية ٩٧
المغزى السياسى فى الإسراء والمعراج ٩٨

الفصل الثانى
المعمار السياسى
للدولة الإسلامية المحمدية

محمد (ﷺ) يبشر بميلاد نظام عالمى جديد ١٠٥
تشكيل القيادات الإسلامية الأولى ١٠٩

الموضوع	الصفحة
إنشاء الدولة الإسلامية الأولى.. فى المنفى	١١٦
التمهيد لتشكيل حكومة المدينة الإسلامية	١١٩
الإسلاميون الأحرار	١٢٢
البرنامج السياسى للرسول (ﷺ)	١٢٩
الرسول (ﷺ) يضع أول نظام أساس للحكم	١٣٢
المجابهة الاقتصادية.. مقدمة للحرب العسكرية	١٣٨
أسرى الحرب فى القانون النبوى	١٤٥
«أحد» هل كانت معركة فى الحرب أم إستراتيجية فى السلام	١٥١
الوجود اليهودى.. فى الجزيرة العربية قبل الإسلام	١٦١
وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين	١٦٥
كيف كان المسلمون يعاملون اليهود، وكيف أصبح اليهود يعاملون المسلمين؟	١٦٦
القاضى يدين اليهود بالخيانة العظمى، والمسلمون ينفذون الحكم	١٦٨
الدبلوماسية الإسلامية، فى مفاوضات السلام بالحديبية	١٧٠
المسلمون واليهود.. فى التجارب التاريخية السابقة، لتعلون علوا كبيرا.. ثم لتردون ثم تذهب ريحكم.	١٧٩
نهاية إسرائيل	١٨٢
سيف الله، فى الطريق إلى منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية	١٨٦
حينما تجوع القيادات.. من أجل أن يشبع الشعب	١٨٩
الطريق إلى بناء الدولة الإسلامية العالمية	١٩٠
مكة عاصمة الإسلام، والمدينة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى	١٩١
حروب الفجار.. حروب القبائل	١٩٦
عام الوفود.	١٩٩
الخطاب النبوى، حدد معالم مستقبل الخطاب السياسى الإسلامى	٢٠٠
الرسول (ﷺ) فى النزع الأخير	٢٠٢
آخر الغزوات تبوك.. وأولها بدر	٢٠٣
فطناء العرب.. يحلون أزمتين سياسيتين قبل الدفن	٢٠٤

الموضوع الصفحة

الباب الثالث
مشروع
الدولة الإسلامية المعاصرة
الفصل الأول
النموذج المحمدى
فى الدولة الإسلامية المعاصرة

مقدمة ٢١٣
النموذج الإسلامى السياسى فى قبالة النموذج الغربى السياسى ٢١٥
وحدة الأمة.. مقابل التعددية القبلية ٢١٧
مبادئ النظام السياسى الإسلامى ٢١٩
الرسول (ﷺ) حقق أول وحدة عربية فى التاريخ، لأن الوحدة العربية.. مقدمة هامة للوحدة الإسلامية ٢٢٢
هل أنشأ الرسول (ﷺ) نظاماً إسلامياً شرق أوسطى؟ ٢٢٥
النظام الشرق أوسطى المعاصر ٢٢٧

الفصل الثانى
الحضارات
حوار ، وصدام

مقدمة ٢٤٩
صدام الحضارات ٢٥٠
الخلفية التاريخية، لصدام الحضارتين الإسلامية والغربية ٢٥٢
تداعيات سقوط الدول العظمى ٢٥٣
أمريكا هل تنتظر.. مصيرا مجهولا؟ ٢٥٥
صدام الحضارات.. وجهة نظر غربية ٢٥٧
حوار الحضارات.. وجهة نظر إسلامية ٢٦٧
حروب الحضارات.. فى المنظور العربى الإسلامى ٢٧٣

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث
الحكومة الإسلامية
فى الدولة الإسلامية المعاصرة

تاريخ التنافس بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية	٢٨١
الحل الإسلامى.. حوار الحضارات	٢٨٣
من وحى دبلوماسية الرسائل النبوية، تطبيع العلاقات.. بين الإسلام والغرب	٢٨٦
التضامن الإسلامى.. هو وحدة عمل وليس وحدة كيان	٢٩٤
كيف يصبح العرب المسلمون.. دولة عظمى؟	٢٩٦
جدول الرسومات والخرائط	
فهرس المحتويات	٣٠٣

المؤلفات العلمية
للدكتور أمين ساعاتي



-١-

الحرب الحضارية بين العرب وإسرائيل

الطبعة الأولى، القاهرة: نهضة مصر، ١٤٠٣هـ.



-٢-

علم السياسة وعلم الرياضيات

الطبعة الأول، جدة: دار العلم ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.



-٣-

تبسيط كتابة البحث العلمي من البكالوريوس والماجستير.. حتى الدكتوراه

جدة: الشركة السعودية للتوزيع،١٤١١هـ= ١٩٩٠م.



-٤-

رؤية سياسية من المملكة العربية السعودية

جدة: الشركة السعودية للتوزيع، ١٤١١هـ=١٩٩١م.



-٥-

الحدود الدولية للمملكة العربية السعودية

التسويات العادلة،

جدة: المركز السعودى للدراسات الاستراتيجية، ١٤١٢هـ=١٩٩١م.



-٦-

السياسة الإعلامية في المملكة العربية السعودية

دراسة علمية في النظرية والتطبيق

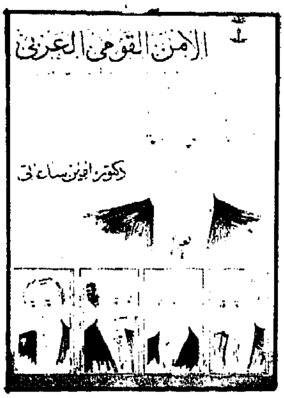
جدة المركز السعودى للدراسات الاستراتيجية،١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.



-٧-

الشورى في المملكة العربية السعودية
من الملك عبد العزيز.. إلى خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد ابن عبد العزيز

مصر الجديدة: المركز السعودى للدراسات الاستراتيجية، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.



-٨-

الأمن القومي العربي

صيغة عربية مناسبة للدخول فى القرن الواحد والعشرين

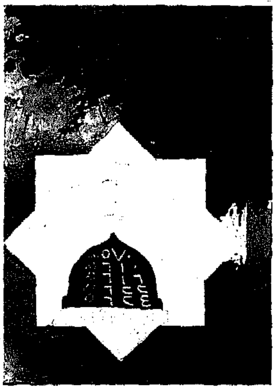
القاهرة: المركز السعودى للدراسات الاستراتيجية ودار الفكر العربى، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.



-٩-

العلاقات التاريخية المستمرة بين مصر ودول الخليج

القاهرة: المركز السعودى للدراسات الاستراتيجية ودار الفكر العربى، ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.



-١٠-

احمد ﷺ، رؤية سياسية معاصرة
القاهرة: المركز السعودى للدراسات الاستراتيجية ودار الفكر العربى، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤.

-١١-

الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية
الطبعة الأولى القاهرة، نهضة مصر، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية،جدة: دار الشروق ١٤٠٦هـ.

-١٢-

التطورات السياسية في المملكة العربية السعودية
دراسة تحليلية من خلال النظرية السياسية الحديثة جدة: دار العمير ١٤٠٧هـ.

-١٣-

الأطماع العراقية في الكويت منذ بدايتها، حتى الغزو العسكري
مع تحليل سياسى شامل عن دور المملكة العربية السعودية فى الدفاع عن استقلال الكويت منذ الثلاثينات حتى اليوم، جدة: مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر ١٤١١هـ-١٩٩١.

-١٤-

الشرعية في الفكر السياسي المعاصر
جدة: الشركة السعودية للتوزيع، ١٤١١هـ=١٩٩١م.

Ahmad

Peace Be Upon Him

Contemporary Political Vision

Dr. Amin Saaty

أحمد صلى الله عليه وسلم

رؤية سياسية معاصرة من مكة المكرمة

Ahmad Peace Be Upon him

Contemporary Political Vision

لا يستطيع أي سياسي محايد أن ينكر أن هناك على الساحة الراهنة وميضا إسلاميا حقيقيا ينبئ بوجود فرصة تاريخية أمام العالم الإسلامي كي يؤكد وجوده على طريق العودة إلى ساحة القوى المؤثرة في النظام الدولي.

وإذا أردنا أن نضع هذا الوميض على محك البحث، لراعنا أن الغرب يحشد كل قواه لإطفاء جذوة هذه الصحوة تماما كما انبرى- عبر التاريخ القديم والحديث - للصحوات الإسلامية السابقة حتى أطفأها وأجهز على رموزها وأرجأ- إلى حين- قيام الإسلام بريادة النظام الدولي الجديد.

والغرب ذاته لا ينكر أن نظامه يتداعى وأنه رغم اهتمامه الكبير بممارسة ما يوحى بأنه ممسك بزمام القوة التى تحرك النظام الدولي.. إلا أن هذه المكابرة لم تستطع أن تخفى التصدع الذى بدأ يضرب جسور الحضارة الغربية بدأ بانهيار الاتحاد السوفييتي.. حتى بروز علائم تداعى القوة الأمريكية، وقرب تحللها.

ورغم أن مراكز البحوث الغربية تعترف بوجود هذه التصدعات العميقة فى جسد الحضارة الغربية، إلا أننا نستغرب بشدة قيام بعض مراكز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى العالم العربى بالترويج للمشاريع الغربية التى تستهدف حماية الحضارة الغربية من التصدع على حساب المد العربى الإسلامي المتعاظم.

وهكذا تدخل الإنسانية- ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين- فى دوامة البحث عن صيغ جديدة لنظام دولي جديد.

ولكن يبدو أن حكماء العالم الذين أعطوا للغرب مسئولية إدارة شئون الكون على مدى ثلاثة قرون وأكثر، فاض بهم الصبر وهم اليوم يحذرون الغرب بخاصة وينذرون المجتمع الدولي بعامة من مغبة أن يدفع العالم إلى «لا نظام» يدخله فى متاهات الإنفراط والتصادم المدمر.

والسؤال الهام الذى يسعى هذا الكتاب للإجابة عليه هو: هل يستطيع الإسلام- كنظام حضارى شامل - أن يقدم للعالم المعاصر بديلا حضاريا يحل المشكلات التى عجزت الحضارة الغربية عن تصميم الحلول المناسبة لها؟!

إن هذا الكتاب يسعى للإجابة على هذا السؤال ويضع نماذج النظام الإسلامى السياسى - من خلال السيرة المحمدية العطرة - موضوعا للبحث والدراسة والتحليل.

وذلك إنطلاقا من أن النظام الإسلامى هو الذى استطاع - قبل - أن يظهر فى ظروف سياسية واقتصادية وثقافية مماثلة، وأن يضع المناسبة لما كان يعانيه الجنس البشرى من تخلف واحباط، وأن يقيم جديدا يوازن بين الإيمانية الرحيمة والحتمية المادية، ويحقق - لمجتمعات العالم قاطبة حياة رغيدة متوجة بالاستقرار والسلام.



** ولد المفكر السعودى الدكتور أمين ساعاتى فى عام ١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م بمدينة جدة (المملكة العربية السعودية).

** حصل على درجة البكالوريوس من جامعة الملك عبد العزيز بجدة، ثم حصل على درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة كليمونت بالولايات المتحدة الأمريكية.

** عضو فى العديد من المنظمات والجمعيات الصحفية والعلمية منها: عضو فى مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، عضو فى اتحاد المؤرخين العرب، عضو فى مركز الدراسات العربى الأوربى، عضو فى جمعية السياسة بالولايات المتحدة، عضو فى جمعية الإدارة العامة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

** تنشر بحوثه ودراساته فى العديد من الدوريات والصحف السعودية والخليجية والعربية، ويشارك فى العديد من الندوات العربية والدولية.

** له أربعة عشر مؤلفاً فى الفكر السياسى المعاصر، يوجد قائمة بها داخل هذا الكتاب.

** يعمل حاليا رئيسا للمركز السعودى للدراسات الإستراتيجية وخبيرا للعلاقات الدولية فى جامعة الدول العربية.